
نفحات القرآن
أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم
المعاد (٢)


نفحات القرآن
أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم
المعاد في القرآن (٢)
الجزء السادس
سماحة آية الله العظمى الشيخ
ناصر مكارم الشيرازي
بمساعدة مجموعة من الفضلاء

مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -
نفحات القرآن / مکارم الشیرازی؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء ـ قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب عليه السلام، ۱۴۲۶ ق. = ۱۳۸۴.
۱۰ ج.
ISBN:964-8139-75-X (دوره)
کتابنامه
ISBN:964-533-000-9 (ج. ۶)
۱. تفاسیر شیعه ـ ـ قرن ۱۴. الف. مدرسه الامام علی بن ابی طالب عليه السلام.
ب. عنوان
BP ۹۸ / م ۲ ن ۷ ۱۳۸۴
۲۹۷ / ۱۷۹



نفحات القرآن / الجزء السادس
المؤلّف: سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مدّ ظلّه) بمساعدة مجموعة من الفضلاء
الكميّة: ۲۰۰۰ نسخة
الطبعة: الاولى (التصحيح الثاني)
تاريخ النّشر: ۱۳۸۴ ش ـ ۱۴۲۶ هـ
عدد الصّفحات: ۴۲۸ صفحة
حجم الغلاف: كبير
المطبعة: سليمانزاده
النّاشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
ردمك: ۹-۰۰۰-۵۳۳-۹۶۴
ردمك الدورة: X -۷۵-۸۱۳۹-۹۶۴



ايران ـ قم ـ شارع شهدا ـ فرع ۲۲
تلفكس: ۷۷۳۲۴۷۸-۲۵۱-۰۰۹۸
www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ۳۵۰۰۰ تومان


بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء:

إلىٰ الذين أحبّوا القرآن

إلىٰ الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين الحياة الصافي

إلىٰ الذين يتوقون إلىٰ معرفة القرآن وفهمه أكثر فأكثر.



بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمّد رضا الآشتياني

محمّد جعفر الإمامي

عبدالرسول الحسني

المرحوم محمّد الأسدي

حسين الطوسي

سيّد شمس الدين الروحاني

محمّد محمّدي الاشتهاردي




منازل الآخرة

١ ـ علامات القيامة

٢ ـ النفخ في الصور

٣ ـ صحيفة الأعمال

٤ ـ حضور الأعمال

٥ ـ محكمة العدل الإلهي

٦ ـ الصراط والمرصاد






منازل الآخرة

المقدّمة:

إنّ مسألة المعاد مسألة واسعة النطاق والابعاد، لأنّ الحديث عنها هو حديث عن عالم واسع، وبما أنّ عالم المعاد عالم مجهول ويختلف من جهات عديدة عن عالمنا هذا، لذلك سيكون البحث في هذا المجال بحثاً معقداً، ومع كونه معقداً فهو ممتع وجذّاب في نفس الوقت ويعود ذلك لسببين:

الأول: لكونه موضوعاً مثيراً، وهذا ما يبعث عند كل إنسان حبّ الاطلاع وكشف المجهول.

الثاني: إنّ التوجّه إلى هذه المسألة ومعرفة جزئياتها له أثر نفسي وروحي وتربوي كبير في بناء النفس الإنسانية، إذ إنّها تشتمل على جميع مراحل حياة الإنسان، وربّما هذا هو السبب الذي جعل القرآن الكريم يتناول الكثير من الموارد والمسائل التي تتعلق بالمعاد، وهذا ما لا نجده في غيرها من المسائل.

إنّنا في بادئ الأمر كنّا قد ارتأينا أن نجمع جميع البحوث المتعلّقة بـ(المعاد) وفق المنظور *(القرآني)* في مجموعة واحدة (كتاب واحد) ونضعها بين يدي القارىء الكريم تحت عنوان *(تفسير نفحات القرآن)*.

ولهذا نحن بذلنا جهدنا في تلخيص هذه البحوث بالقدر الذي لا يؤثر على المحتوى العام، مع الحرص على تلافي أي خلل أو نقص في المسائل المطروحة فيه، ولكن وبعد أن خضنا في أعماق الآيات القرآنية ـ بهذا الفكر القاصر ـ عثرنا على كنوز من الجواهر النفيسة بحيث لايمكن جمعها في كتاب واحد، حيث أصبح عدد صفحاته يزيد على الالف ممّا

اضطرنا إلى أن نعيد النظر في هذا الكتاب وندوّنه في مجلّدين.

واتفق أن البحوث المتناولة في المجلد الأول مغايرة تماماً لبحوث المجلد الثاني، ففي المجلد السابق كان الحديث يدور حول المسائل المرتبطة بالمعاد، أمّا هذا المجلد فيتناول جزئيات وخصوصيات المعاد وفق المنظور القرآني، وبتعبير آخر لو أننا شبّهنا مسألة المعاد ببناء عظيم شامخ لكان المجلد الأول يمثل أساس هذا البناء، وأمّا المجلد (الثاني) فيتناول جزئيات وتفاصيل البناء وما يتعلق به.

ولهذا كان من المناسب أنْ نسمّي هذا الكتاب باسم (منازل الآخرة) أو منازل القيامة.

ولابدّ لنا من الإشارة إلى أنّ البحث حول المعاد عموماً، وما يرتبط بجزئياته خصوصاً، يثير الكثير من الأسئلة، لهذا فقد سعينا واستطعنا أن نجيب عن جميع الأسئلة من القرآن نفسه أو من الأحاديث الشريفة أو الأدلّة المنطقية العقلية.

كذلك بذلنا جهدنا لتقريب هذه المفاهيم المهمّة والمعقّدة إلى الأذهان بضرب الأمثلة الحية، ولقد استفدنا في هذا المجال من التجارب التي حصلنا عليها من خلال البحوث العقائدية والتفسيرية، آملين التوفيق في هذا الطريق، والرأيُ لكم.

ولا شكّ في أنّ هذا العمل سيمهّد الأرضية لبذل جهود أكبر في المستقبل، وهو عامل مساعد في استمرارية هذه الجهود في هذا المجال، ولا يمكن أنْ يدّعي أحد بأنّه قال في هذا المجال كل شيء، ولم يبق ما يقال.

نسأله تعالى أنْ يعصمنا من الزلل سواء كان في العلم أو في العمل، في القلم أو في الكلام، كما نطلب منه تعالى أنْ يسلّمنا ويدخلنا في المنازل الرفيعة منازل الرحمة، رحمته (جنات عدن)، (جنّة الخلد) ولا يمكن لأحد أنْ يدخلها بسلام إلّا أنْ تشمله ألطاف وعناية الباري عزّ وجلّ.

قم المقدّسة ـ ناصر مكارم الشيرازي

١ ـ علامات القيامة

الفصل الأول: أشراط الساعة

تمهيد:

يبدأ المنزل الأول من منازل الآخرة بظهور علامات القيامة، وهذه الحقيقة الملموسة نجدها بكثرة في القرآن الكريم حيث إنّ الكثير من الآيات القرآنية تتحدث عن علامات قرب الساعة، وقد عُرفت هذه العلامات بـ*(أشراط الساعة)* وقد أُخذ هذا العنوان ـ كما سنرىٰ ذلك ـ من القرآن الكريم نفسه:

«أشراط» جمع شَرَط علىٰ وزن هَدَف بمعنىٰ (العلامة)

و«الساعة» هنا تعني القيامة، وهذه العلامات عبارة عن حوادث مهمّة ورهيبة تحدث قبل يوم القيامة تنذر كل منها بنهاية هذا العالم أو هي البداية لقيام الساعة ولابدّ أن نشير هنا إلىٰ أنّ هذه الحوادث ليست متشابهة بل هناك فوارق واختلافات بينها، وبنظرة عامّة يمكن تقسيم هذه الحوادث إلىٰ ثلاثة أقسام وهي:

١ ـ الحوادث المهمّة التي تتحقق *«قبل نهاية هذا العالم»*.

٢ ـ الحوادث المرعبة التي تحدث علىٰ *«أعتاب نهاية هذا العالم»*.

٣ ـ الحوادث الرهيبة التي تحصل أيضاً عند *«بداية البعث»* والعودة إلىٰ حياة جديدة، ولابدّ من التأمل في كل واحدة منها. وبعد هذه الإشارة نعود إلىٰ القرآن الكريم ونبدأ *«بالقسم الأول»* منها ونستعرض الآيات التي تدور حول هذا الموضوع وهي:

١ ـ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾. (محمد / ١٨)

٢ ـ ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. (القمر / ١)

٣ ـ ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. (الدخان / ١٠)

جمع الآيات وتفسيرها

ظهور علامات القيامة:

إنّ الآية الأولى من آيات هذا البحث تشير إشارة عابرة إلى *(أشراط الساعة)* من دون بيان مصداقها، فتقول: هل ينتظر هؤلاء (الكفّار والمستهزئون) أن تقوم الساعة بغتة حتى يؤمنوا في حين أتتهم علاماتها: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ عندئذٍ لا ينفعُ إيمانُهم ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ وكما أشرنا سابقاً فإنّ *(أشراط)* جمع *(شَرَط)* بمعنى العلامة ـ وبناءً على هذا فإنّ معنى *(أشراط الساعة)* علامات القيامة.

أمّا ما المراد من تحقيق هذه العلامات التي أخبرت عنها الآيات السابقة الذكر؟ فنبيّنه كالآتي:

للمفسرين آراء مختلفة في ذلك، فيرى أغلبهم أنّ المقصود من *(أشراط)* هنا هو مبعث النبي الأكرم ﷺ وقيامه بالدعوة ونزول القرآن الكريم الذي هو آخر كتاب سماوي، والدليل على هذا الرأي هو الأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ بهذا الخصوص، كالحديث المشهور الذي رُوي عنه ﷺ: *«بعثت أنا والساعة كهاتين، وضمّ السبابة والوسطى»*[1].

ولقد عدّ البعض الآخر من المفسّرين انشقاق القمر من *(أشراط الساعة)* هذا فيما لو كانت جميع الآيات التي تحدثت حول *(أشراط الساعة)* تشير إلى قرب الساعة وليس إلى إمكانية المعاد إلّا أنّ البعض اختار المعنى الثاني وقال إنّ أصل خلق الإنسان هو من تراب، وإن خلق السموات والأرض كلها علامات على قدرة الله تبارك وتعالى على إعادة الحياة من جديد بعد الممات، وعليه ستكون جميع دلائل إمكانية المعاد جزءاً من علامات القيامة و*(أشراط الساعة)*.

ولكنّ المعنى الأول هو الأصح خصوصاً أنّ بعض الروايات الإسلامية عدّت بعض

---

١. نقل هذا الحديث الكثير من مفسري الشيعة وأهل السنّة بقليل من الاختلاف مثل تفسير مجمع البيان؛ تفسير القرطبي؛ تفسير في ظلال القرآن؛ وتفسير روح البيان؛ وفي تفاسير اُخرى

الأمور من علامات قرب القيامة و(أشراط الساعة) مثل الحديث المنقول عن الرسول ﷺ: «من أشراط الساعة أن يرفع العِلم، ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر، ويفشو الزنا»[١].

حتىٰ أنّ بعض الروايات عدّت قيام المهدي (عج) لمقارعة الظلم والفساد جزءاً من أشراط الساعة.

﮸

إقتربت الساعة:

تتحدث الآية الثانية عن قرب القيامة وانشقاق القمر، قال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾. (القمر / ١)

وهذا جواب عن سؤال طالما تكرر طرحه على الرسول الأكرم ﷺ وهو متى تقوم الساعة؟ فحسب ﷺ: إنه قريب ومن علاماتها شق القمر. وكما أنّها دليل على قدرة الله عزّ وجلّ على كل شيء (بضمنها قدرته على إحياء الموتى) كذلك فهي تتحدث عن صدق دعوى الرسول الأكرم ﷺ الذي هو آخر السفراء الإلهيين، وتُخبر كذلك عن قرب وقوع القيامة، كما ذكرنا في شرح الآية السابقة أنّ الرسول ﷺ نفسه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ولكن بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين يرون أنّ الآية تشير إلىٰ حوادث ستقع في نهاية هذا العالم قبيل القيامة.

ومن جملة هذه الحوادث تكوير الشمس، أي ذهاب ضوئها ونورها وانشقاق القمر، أمّا لماذا عبرت الآية عن هذه الحادثة (انشق) بصيغة الماضي؟ فجوابه: إنّ اللغة العربية تعبر عن المسائل المستقبلية الحتمية الوقوع بصيغة الماضي.

ولكن هذا الرأي (أي إنّ الآية ناظرة إلى حوادث آخر الزمان لم يأخذ به أكثر المفسرين، لأنّ ظاهر الآية بصيغة الماضي ومرتبط به. وليس من الصحيح أن تفسر الآية بكونها تدلّ

---

١. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٧، ح ٤١

على المستقبل من دون أيّة قرينة واضحة).

ويقول صاحب تفسير (في ظلال القرآن): «فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث وتحديد مكانه في مكة»[1].

وينقل العلّامة المرحوم الطباطبائي في الميزان: «وقد روي انشقاق القمر بدعاء النبي ﷺ بطرق مختلفة كثيرة»[2]، باستثناء بعض المفسرين القدماء غير المعروفين.

ويقول أبو الفتوح الرازي: «إنّ من يقول إنّ الآية أعلاه تشير إلى الحوادث المستقبلية هو خلاف لإجماع واتفاق العلماء»[3].

وهناك بحوث كثيرة تتعلق بمسألة كيفية شق القمر وشرح هذا الاعجاز النبوي والروايات المتعلقة به، وإمكانية وقوعه من الناحية العلمية، وبما أنّها خارجة عن هدفنا الرئيس وهو شرح *(أشراط الساعة)* لذا فقد صرفنا النظر عنها، وللمزيد من المعلومات في هذا المجال راجع تفسير (الأمثل) الجزء ٢٣، ص ١٢ ـ ١٩.

يوم تأتي السماء بدخان مبين:

تشير الآية الثالثة إلى علامة اُخرى من علامات قرب الساعة وهي *(الدخان)* حيث يغطي دخان كثيف صفحة السماء في ذلك اليوم ويأتي على شكل عذاب: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الدّخان / ١٠ ـ ١١)

ولقد ذكر المفسرون آراء عديدة في تفسير هذه الآية نذكر ثلاثة منها:

الأول: يرى بعض المفسّرين أنّ الدخان إشارة إلى عذاب يوم القيامة وهو دخان مرعب شرّه مستطير يظلل رؤوس المجرمين، ولكننا نرى هذا الاحتمال بعيداً لأننا نجد في ذيل الآية أنّ المجرمين يطلبون رفع هذا العذاب الإلهي ويظهرون الإيمان ويأتيهم الخطاب: ﴿إِنَّا

---

[1] تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٦٤٤.

[2] تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٦٠ ـ ٦١.

[3] تفسير روح الجنان، ج ١٠، ص ٣٦٤.

كاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾. (الدخان / ١٥)

فلا يمكن تصوّر وقوع هذا المعنى في يوم القيامة خاصة وأنّ الآية التي بعدها تشير إلى القيامة وعقوباتها بشكل مستقل، وهذا يدل على أنّ ما ذكر قبلها يتعلق بغير يوم القيامة:

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾. (الدخان /١٦)

الثاني: ويرى بعض آخر أنّ الآية تشير إلى أنّ الكفّار بعد أن حلّت بهم المجاعة والجدب جاءوا إلى النبي يطلبون منه الدعاء برفع هذا العذاب فدعا النبي الأكرمﷺ فرفع العذاب عنهم ولكنّهم عادوا إلى عتوّهم وجحودهم.

وبناءً على ذلك فإنّ الدخان هنا يراد به المعنى المجازي، لأنّ الأدب العربي يستخدم كلمة دخان كناية عن الشر والبلاء الغالب، كما ذكر ذلك الفخر الرازي في تفسيره[1].

أو قد يراد بالدخان، الأتربة والغبار الذي يغطي صفحة السماء أثناء سنوات القحط حيث لا وجود للأمطار التي تزيل هذا الغبار وهذه الأتربة[2]. من هنا يطلق على سنة القحط بـ*(السنة الغبراء)* أو *(عام الرماد)*.

والمأخذ الذي يؤاخذ عليه هذا التفسير هو أنّ الدخان الوارد في الآية الكريمة لم يستعمل بمعناه الحقيقي وقد حمل على معناه المجازي بدون أية قرينة.

الثالث: ويرى الآخرون أنّ الآية تشير إلى إحدى علامات قرب القيامة حيث تغطى السماء بدخان مبين فيلجأ الناس إلى لطف الله تعالى ليكشف عنهم العذاب فيرفع بكرمه ولطفه عنهم قليلاً منه ورغم كل هذا لا يؤمن المنكرون.

إنّ هذا التفسير إضافة إلى كونه مطابقاً لظاهر الآية فإنّه يتفق مع الأخبار المتعددة التي وردت في مصادر تفسير الشيعة والسنّة. ونقرأ هنا حديثاً عن الرسول الأكرمﷺ عن حذيفة قال: قال رسول اللهﷺ: ***«أول الآيات خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم إذا***

---

١. التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٤٢

٢. تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ١٠٧؛ وتفسير روح البيان، ج ٨، ص ٤٠٦

قالوا، وتصبح معهم إذا أصبحوا وتمسي معهم إذا أمسوا، قلت: يانبي‌الله وما الدخان؟ قال هذه الآية: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث اربعين يوماً وليلة أمّا المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأمّا الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره» [1]

ولقد ورد هذا المعنىٰ في مصادر الشيعة بشيء من الاختلاف فقد نقل الإمام علي ﷺ عن الرسول الأكرم ﷺ قوله: *«عشرة قبل الساعة لابدّ منها: السفياني، والدجال، والدخان، والدابة، وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ﷺ، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»* [2].

وقد وردت روايات أُخرىٰ تؤيد هذا المعنىٰ.

وبناءً علىٰ ذلك يكون التفسير الثالث للآية الشريفة هو التفسير الأفضل.

هذه هي أهم *(أشراط الساعة)* التي ذكرها القرآن الكريم.

---

١. تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ١٢١.

٢. بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٠٩؛ وفي تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٥ وغيرها من الأحاديث تنقل بعض هذا المضمون.

الفصل الثاني: العلامات التي تنذر بنهاية هذا العالم

يستفاد من طائفة أُخرىٰ من آيات القرآن الكريم حدوث اضطراب عظيم في نظام الكائنات والأرض والسماء عند نهاية هذا العالم وبتعبير آخر إنّ انتهاء العالم لا يكون تدريجياً وإنّما يكون مباغتاً ومقترناً بمشاهد وحوادث مرعبة

ومن جملة هذه الحوادث التي تعد قسماً من علامات الساعة ما يأتي:

١ ـ تلاشي الجبال

لقد ورد هذا الموضوع في آيات متعددة من القرآن الكريم وذكرت له مراحل عديدة ومختلفة ويمكن تقسيمها وتلخيصها في سبعة مراحل هي:

١ ـ *المرحلة الأولى*: اهتزاز الجبال. ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ (المزمل / ١٤)

٢ ـ *المرحلة الثانية*: قلعها ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ (الحاقة / ١٤)

٣ ـ *المرحلة الثالثة*. تسييرها ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ (الطور / ١٠)

٤ ـ *المرحلة الرابعة*- الدك والهدم ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾. (الحاقة / ١٤)

وفي هذه المرحلة تصبح الجبال كالكثبان المتراكمة: ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾. (المزمل / ١٤)

٥ ـ *المرحلة الخامسة* تصبح فيها الجبال كالغبار المتفرق. ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثّاً ﴾ (الواقعة / ٥ و ٦)

٦ ـ *المرحلة السادسة*: تكون الجبال فيها كالعهن المنفوش أي كالصوف المندوف المتطاير في الريح الشديدة ولا يرىٰ منه في السماء إلّا لونها، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾. (القارعة / ٥)

٧ ـ *المرحلة السابعة*: تلاشي الجبال ولا يبقى منها إلّا شبح كشبح سراب في صحراء قفر ـ ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (النبأ / ٢٠)

وهكذا سوف تزول الجبال تماماً ولا يبقى منها أي أثر وتبدل إلى أرض مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾[١] (طه / ١٠٦)

والسؤال الذي يطرح هنا هو: هل أنّ هذه الحوادث العجيبة والمرعبة تقع للجبال على أثر انفجارات داخلية فيها واندثار نظامها الجاري وتحرر الطاقة الكامنة في داخلها؟ أم أنّها على أثر ضربة خارجية توجه إليها من اصطدام الأجرام السماوية بسرعة وجاذبية عالية بعضها مع البعض الآخر..؟ أم هناك علل أُخرى لم يكتشفها العلم اليوم؟

لا يمكن لأي شخص إعطاء جواب صحيح عن هذه الأسئلة. فالعلوم اليوم عاجزة عن تفسير هذه الظواهر.

إنّ هناك انفجارات عظيمة حدثت وتحدث في الأجرام السماوية. ولكن العلم يعجز عن تفسير علل تلك الانفجارات فنحن لا نعرف إلّا ما أخبرنا عنه القرآن الكريم بأنّ هذه الحوادث تقع في نهاية هذا العالم.

***

٢ ـ انفجار البحار

من العلامات الأُخرى لنهاية هذا العالم وقرب قيام الساعة، انفجار البحار، ونقرأ في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾. (الانفطار / ٣)

وقال في موضع آخر: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (التكوير / ٦)

وقال في الآية السادسة من سورة الطور بعد أن أقسم بأيمان متعددة ومتتابعة ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾

---

١ «القاع» الأرض الملساء المستوية و(صفصف) الأرض الخالية من أي نبات أو الأرض الملساء المستوية، وفي هذه الحالة يكون المعنيان مترادفين ـ لغرض التأكيد.

بلا شك أنّ الآية الأولى والثانية أشارتا إلى *(أشراط الساعة)* وذلك لأنّ الآيات التي وردت بعدها دلّت على هذا المعنى بشكل واضح، أمّا فيما يتعلق بالآية الثالثة فقيل في تفسيرها إنّها كانت ناظرة إلى علامات القيامة

ولقد وردت في إحدى هذه الايات عبارة *(فجّرت)* وهذه الكلمة مشتقة من *(فجر)* واستعملت بمعنى الانفجار ومن الممكن أن تكون هذه إشارة إلى انفجار البحار.

لقد أصبحت هذه الحالة اليوم مفهومة نظراً لأنّ الماء يتكون من عنصرين، الأول هو الاوكسجين والثاني هو الهيدروجين وهذان عنصران قابلان للاحتراق فلو كان هناك عامل يتسبب في تجزئة الماء لتبدلت البحار إلى كتلة عظيمة من نيران محرقة، وتكفي قدحة صغيرة لإحراق العالم بأسره.

ويحتمل أن تكون الزلزلة الشديدة التي تقع قبيل القيامة هي السبب في تشقق الأرض واتصال البحار مع بعضها البعض وعلى أثر ذلك سوف تتصل جميع البحار البحيرات الموجودة على الأرض وهذا أيضاً أحد الأقوال التي ذكرت في تفسير هذه الايه

وهناك تفسير ثالث يقول: عندما تتلاشى الجبال يسقط غبارها في البحار فتمتلئ ويطغى الماء على اليابسة فتصير كلها بحراً واحداً.

وبهذه المعاني الثلاثة فسّرت الكلمة الثانية *(سجّرت)* المشتقة من مادة *(تسجير)* وذلك لأنّ التسجير في الأصل يعني الإيقاد ويأتي أحياناً بمعنى الملء ولذا يقال للتنور المملوء بالنار *(مسجر)*.

وقد يكون اشتعال البحار بسبب تجزئتها إلى عنصرين قابلين للاحتراق (الاوكسجين والهيدروجين) أو لعلل أخرى نجهلها، أمّا امتلاء البحار فهو إمّا بسبب تلاشي الجبال وسقوطها في البحار أو بسبب سقوط الأحجار السماوية الكبيرة فيها أو لعلل أخرى غير معروفة.

৪০৫

٣ ـ الزلزال العظيم المدمر

من العلامات الأُخرى لنهاية هذا العالم وقرب قيام الساعة حدوث زلزلة عظيمة ليس لها نظير بحيث تهزّ جميع أنحاء الكرة الأرضيه فتدمّر كل شيء ويدفن جميع الناس في لحظات.

يقول القرآن ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. (الحج / ١)

ثم يقول: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾. (الحج / ٢)

وسنشير في الفصل الثالث تحت عنوان *(أشراط الساعة)* إلى أنّ هناك زلزلة أُخرى تقع قبيل إحياء الأموات أشارت إليها بعض الآيات الكريمة. ويحتمل أن تكون الآية الكريمة التي نحن بصددها قد أشارت إلى هذا المعنى بقرينة ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾، وبهذا يجب أن تفسّر المراد بالمرضعات والحوامل تفسيراً مجازياً. فشدّة الهلع والخوف الناشئ من أثر الزلزلة العظيمة تجعل كل امرأة حامل تسقط حملها تفسيرٌ على خلاف ظاهر الآية، وعلى أيّة حال إنّ هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾.[١] (المزمل / ١٤)

وجاء نظير هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾. (الواقعة / ٤)

☙❧

٤ ـ ذهاب ضوء الشمس والقمر والكواكب

من العلامات الأُخرى لقرب الساعة انطفاء قرص الشمس واختفاء ضوء الكواكب كما ذكرت الآية. ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾. (التكوير / ١ ـ ٢)

---

١ «ترجف» مشتقة من مادة «رجف» على وزن كشف وهي بمعنى الاضطراب والهزّة العنيفة ومن هنا يطلق على الأخبار الكاذبة التي تتسبّب في اضطراب المجتمع بـ (أراجيف).

«كورت»: مشتقة من مادة (تكوير)، وهي بمعنى الطي أو اللف أو جمع الشيء مثل لف العمامة على الرأس وكذلك جاءت هذه الكلمة بمعنى الانطفاء أو الاسقاط. والظاهر من هذين المعنيين فيما يتعلق بالشمس أنّهما من باب اللازم والملزوم. فيذهب ضوء الشمس بالتدريج وتعمّ الظلمة. أمّا (انكدرت) فهي مشتقة من مادة (انكدار) وهي الظلمة أو السقوط والتناثر. والظاهر أنّ كلا المعنيين بخصوص الكواكب من باب اللازم والملزوم. نعم وحسب شهادة القرآن ينطوي ويجمع في نهاية هذا العالم أعظم مصدر للنور في منظومتنا الشمسية وهو الأساس لإضاءة جميع السيارات وبهذا سيكون مصير الكواكب الأخرى نفس مصير الشمس. ويقول الفخر الرازي: «إنّ البعض يرى أنّ كلمة «كورت» مأخوذة من مادّة (كور) بمعنى الأعمى وهذا يعني أيضاً ذهاب ضوء الشمس ونورها»[1].

ويعتقد علماء اليوم أنّ مصدر الطاقة الشمسية هو الانفجارات الذرّية (التي يكون وقودها الهيدروجين ورمادها الهليوم)[2].

وبناءً على ذلك سوف ينقص من بدن هذا الكوكب ٣٥٠/٠٠٠ مليون طن في كل ٢٤ ساعة وهذا الأمر يكون سبباً في ضعف وقلة ضوء الشمس تدريجياً وهذا هو مفهوم جمع نور الشمس وانطفائها وهما المعنيان الكامنان في مادة (تكوير) حسب مايذكر أرباب اللغة بالرغم من أن نقص هذا المقدار وبحكم الظروف الحالية ليس له تأثير فوري عليها وذلك بسبب كبر حجمها.

فاذا حسبنا سرعة النقصان بمقاييسنا الحالية فمن الممكن أن يطول تحقق ذلك ملايين أو مليارات السنين.

ولا أحد يعلم ماذا يحدث غداً في هذا العالم. فمن الممكن أن تحدث أمور تعجّل في نقصان هذه الأشعة الكونية وتساعد في انطفاء هذا المصدر العظيم للنور وللحرارة بصورة كلية وفي فترة قصيرة.

---

١. التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٦٦

٢. زندكي ومرك ستاركان، ص ٩٢ (الكتاب باللغة الفارسية)

ويصدق هذا المعنى على سائر الأجرام السماوية فيختل النظام الذي يجمع الكواكب، ويختل كذلك توازن القوة الجاذبة والدافعة التي لها ارتباط بالأجرام وسرعة حركتها.

ولعل هذا هو نفس الشيء الذي يذكره القرآن في موضع آخر: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾. (الانفطار / ٢)

وسوف نتعرض إلى تفسير هذه الآية في بحث لاحق إن شاء الله.

ونقرأ في سورة القيامة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾. (القيامة / ٧ـ١٠)

يتضح من خلال هذه الآيات أنّ جميع هذه الحوادث تقع بصورة مباغتة وليست تدريجية وإلّا سوف لا يكون هناك إنسان في ذلك الزمن يقول: ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾.(فتأمل).

ومن الممكن أن يكون جمع الشمس والقمر بفعل فقدان تعادل القوى الجاذبة والطاردة وسوف ينجذب القمر إلى مركزه الأصلي وهو الشمس.

وننهي هذا الحديث بالإشارة إلى آية أخرى من آيات القرآن في هذا المجال، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾. (المرسلات / ٨)

هذا التعبير يتوافق مع الآيات السالفة الذكر ومن لوازمها أيضاً ونذكر في نهاية هذا المطاف أنّ هذه الأمور موجودة في عالمنا وتسير بشكل تدريجي ولكن تزداد شدّتها في نهاية الكون حيث تحدث سلسلة حوادث متصلة سريعة ومباغتة تزيل هذا النظام وتنهي عمره بأمر من الله تعالى.

٭٭٭

٥ ـ انشقاق الأجرام السماوية

من العلامات الأخرى لنهاية العالم اختلال نظام الكواكب وانشقاق الأجرام السماوية، ولقد أشار القرآن الكريم في آيات عديدة وبتعابير مختلفة إلى ذلك، فأحياناً عبر عنه بـ(الانشقاق). ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾. (الانشقاق / ١)

وجاء نظير هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾. (الحاقة/١٦)

كما ورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾. (الفرقان / ٢٥)

والمراد من السماء في هذه الآيات هي الأجرام السماوية حيث تشقق هذه الأجرام في نهاية العالم على أثر الانفجارات المتتابعة . أمّا المقصود من تشقق السماء بالغمام فيحتمل أن يرافق انشقاق السماء حصول غمام كثيف بفعل الأتربة والغبار المتولد عنها. والباء في قوله (.بالغمام) كما يحتمل ذلك صاحب الميزان، للملابسة أي تنفتح السماء متلبسة بالغمام (أي متغيمة) [1].

ولكن المرحوم العلاّمة الطباطبائي لم يستبعد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضي (فالباء في هذه الآية تكون بمعنى (عن) أي تذهب الغيوم جانباً ويظهر غيب العالم).

ولكن لما لم يكن هناك دليل على هذا التفسير الكنائي فيكون من الصعب قبوله.

ومن المناسب أن نذكر حديثاً للإمام علي عليه السلام في هذا الصدد حيث يقول: «*إنها تنشق من المجرة*» [2].

إنّ هذا التعبير الرائع ينطبق مع آخر الاكتشافات التي توصل إليها العلماء في مجال المجرّات، حيث يقولون: إنّ المنظومة الشمسية والكواكب التي نشاهدها هي جزء من مجرّات عظيمة «*درب التبانة*» ويمكن رؤيتها بالعين المجرّدة ويكون انشقاق الشمس والقمر والكواكب مصاحباً لانشقاق هذه المجرّات الكبيرة (تأمل..).

وأحياناً يعبر القرآن بالانفطار: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (الانفطار / ١)

---

١. تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢٠٢

٢. تفسير الكبير، ج ٣١، ص ١٠٣

ولقد ورد نظير هذا المعنى في قوله تعالى ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾. (المزمل / ١٨)

وكما ذكرنا سابقاً فإنّ كلمة انفطار مشتقة من مادة (فطر) وهي بمعنى الانشقاق.

وأحياناً يقول تعالى ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ (التكوير / ١١)

فيمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى ازالة الحجب المانعة عن رؤية ملكوت السموات والملائكة والجنّة والنّار في ذلك اليوم فتزال الحجب وتنكشف للإنسان حقائق عالم الوجود وفي هذه الحالة سوف لايكون للآية علاقة بتلاشي السموات.

ولقد فسّر بعض المفسرين أمثال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان، هذه الآية بقوله: «أزيلت عن موضعها كالجلد عندما يزال عن الحيوان ثم يطويها الله، وقيل معناها قُلعت كما يُقلع السقف»[1]. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾. (المرسلات / ٩)

إنّ كلمتي *(فطر) و(فرج)* تدلّان على نفس المعنى بشيء من الاختلاف، فيطلق على حل عقدة المشاكل والمحن، بالفرج وهو ما يقابل الشدّة والعسر

وعبر أحياناً أخرى بـ*(فتح)* كما نقرأ: ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾. (النبأ / ١٩)

ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى انشقاق السماء، كما ذكر ذلك بعض المفسرين، وفي هذه الحالة تكون هذه الآية منسجمة مع الآيات السالفة الذكر، أي تحدث شقوق عديدة في السماء كأنّها أبواب ونوافذ عديدة

ولكن بعض المفسرين حملوا ذلك على المعنى الكنائي وقالوا إنّ المراد من فتح السماء هو انفتاح أبواب عالم الغيب وإزالة الحجب وارتباط عالم الملائكة بعالم الناس[2]

وأحياناً أخرى يقول: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً ﴾. (الطور / ٩)

«مَور» على وزن *(قَوْل)* وتأتي أحياناً بمعنى الحركة العنيفة وأحياناً أخرى بمعنى

---

١ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٤

٢. لقد اختار التفسير الأول ـ الطبرسي والفخر الرازي ومفسرون آخرون، أمّا التفسير الثاني فقد اختاره صاحب الميزان

الحركة الدائرية وأخرى بمعنى الذهاب والمجيء المضطرب، ويطلق على الغبار والأتربة التي تحملها الريح إلى كل جانب بـ(مَوْر).

على كل حال فإنّ هذا التعبير يعني اضطراب الأجرام السماوية واختلال نظمها وزوالها.

وأحياناً أخرى يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ (المعارج / ٨)

ولقد فسّر المفسّرون كلمة *(المُهل)* برديء الزيت أو الفضة إذا ذابت[١]، والمعنى الأخير يناسب الآية أعلاه.

على أيّة حال إنّ حصول مثل هذه الحالة في الأجرام السماوية إنّما هو نتيجة لزوالها وفي النهاية عبر القرآن بتعبير آخر فقال: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (الأنبياء / ١٠٤)

هذا التعبير يوضح ابعاد تغير السموات والكواكب في نهاية هذا العالم ويدل أيضاً على أنّ جميع المنظومات والكواكب السيارة والثابتة تطوى كطي السجل للكتاب ويعاد الخلق كما خلقه أول مرّة ويضع الله سبحانه وتعالى نظاما جديداً لعالم الوجود وتقوم القيامة على هذا العالم الجديد.

فنستنتج من مجموع الآيات السالفة الذكر أنّ القيامة هي ليست استمراراً للحياة الدنيا بل إنّ هذا النظام يتغير تغيراً كاملاً وذلك لوقوع انفجارات عظيمة وزلازل مرعبة تدمّر كل شيء ثم يقوم نظام جديد بعد ذلك وتقوم القيامة فيه

---

١ تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٦٠٩



الفصل الثالث: علامات بدء القيامة

عند قيام الساعة تقع حوادث عظيمة، فكما أنّ الدنيا تنتهي بوقوع حوادث عظيمة، كذلك تقترن بداية القيامة بحوادث عظيمة أيضاً، وقد ورد هذا المعنى في آيات مختلفة من القرآن الكريم.

١ـ قال تعالى: في سورة إبراهيم ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمواتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. (إبراهيم / ٤٨)

هذا التبديل هو إشارة واضحة إلى المرحلة الثالثة وذلك لأنّه تعالى يقول في ذيل الآية ﴿وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام، فليس المراد من تبديل الأرض بأرض أخرى هو تبديل لذات الأرض كما يتصور البعض بل إنّ المقصود هو تبدل صفاتها مثل إزالة الجبال أو استوائها وصيرورتها قاعاً صفصفاً كما يذكر القرآن الكريم أو زيادة مساحتها وغير ذلك من دون تبديل ذاتها.

ودليل هذا الكلام آيات عديدة عن نشور الأموات من قبورهم وبالخصوص منها. ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه / ٥٥)

على كل حال ذكر المفسرون آراء عديدة حول هذه الآية ولا يوجد لديهم أي دليل إلّا بعض الروايات المرسلة، أو الاستناد إلى بعض أقوال الآخرين، فاحياناً يقولون إنّ الأرض تبدل بالفضة والسماء بالذهب وأحياناً أخرى يقولون إنّ الأرض تبدل بالنار والسماء بالجنان أو كل قطعة من الأرض تبدل إمّا إلى فضة أو إلى نار حسب ما يناسب وضعها مع المؤمنين والكفّار.

وكل ما نستفيده من هذه الآية بشكل عام إنّ هناك تغيرات عظيمة لم تتضح تفاصيلها لنا.

٢ ـ قال تعالى في موضع آخر ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾. (الزلزال / ١ ـ ٢)

وهنا يطرح هذا السؤال هل أنّ هذه الزلزلة هي نفس الزلزلة التي تعمّ جميع أنحاء الكرة الأرضية عند نهاية الكون وتؤدّي إلى تدمير العالم بأسره؟ أم أنّها هي التي تقع أثناء يوم القيامة؟ هناك اختلاف بين المفسرين بصدد هذه الآية ولقد نقل الفخر الرازي في تفسيره كلا التفسيرين[١] ولكن إذا تأملنا الآية الثانية من هذه السورة ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ لكان المعنى الثاني هو الأنسب مع سياق الآية، وذلك لأنّ *(الأثقال)* جمع *(ثقل)* أي يخرج كل ما دفن في الأرض، وهناك احتمال قوي أنّ المراد بالأثقال الموتى حيث يخرجون من قبورهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾. (الانشقاق / ٤)

وبهذا المعنى تحدث الزلزلة الثانية قبل إحياء الأموات وشروع القيامة، وهذه الزلزلة تعمّ كل الكون على خلاف سائر الزلازل التي تتحدد بمنطقة صغيرة، فإنّ تعبير ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ يفيد الاطلاق وتعبير زلزالها يؤكد هذا المعنى.

ولقد ورد ما يشابه هذا التعبير بل وبصورة أوضح في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[٢] (ق / ٤٤)

ويتضح من الآيات أعلاه أنّ انشقاق الأرض بأسرها وخروج الناس دفعة واحدة من قبورهم يكون مترامناً مع وقوع زلزلة عنيفة تشمل كل أرجاء العالم.

إنّ هذه الزلزلة تقع قبيل إحياء الأموات وليس في نهاية العالم خاصة، وقد ورد في الآية تعبير (حشر) بدلاً من إحياء الأموات، والحشر يعني (اجتماع الناس بعد إحيائهم أو جمع أجزاء الأبدان المتفرقة أو جمع الأرواح والأجساد)

إنّ هذه الزلزلة وعلى خلاف سائر أنواع الزلازل زلزلة بناء وإعمار، فهي ليست مدمرة أو مميتة بل إنّها تاتي لإخراج الناس من قبورهم ليستأنفوا حياة جديدة

---

١ التفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٥٨

٢ «تَشَقَّق» كانت في الأصل تتشقق فحذفت إحدى التائين

وقد ورد نظير هذا المعنىٰ في الآية: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾.
(النازعات / ٦ ـ ٧)

ويرىٰ الكثير من المفسرين أنّ الآية الأولى هي إشارة إلى نفخة الصور الأولىٰ (وهي الصيحة العظمىٰ التي تنهي العالم) أمّا الآية الثانية فهي إشارة إلىٰ النفخة الثانية (صيحة الاحياء) وهي الصيحة التي تبدأ بها القيامة، وهذا المعنى على خلاف ظاهر الآية وذلك لأنّ الراجفة مشتقة من رجف وهي علىٰ ما ذكره صاحب مقاييس اللغة، تعني الاضطراب.

وقد ذكر الراغب في مفرداته *(الرجفة)* بمعنى الاضطراب الشديد، ويقال للبحر الهائج (بحر رجاف)، و(أراجيف) هي الأخبار التي تزلزل الأفكار العامة للمجتمع، صحيح أنّ الصيحات العظيمة تقرن عادة مع الزلازل ولكن لا توجد هناك ضرورة لترك المعنى الحقيقي للزلزلة الأولى والثانية واختيار الكناية أو المعنى اللازم.

٣ـ إنّ تبدل سطح الكرة الأرضية من إحدىٰ علامات شروع القيامة فتصبح الأرض مسطحة ملساء تماماً ويبرز جميع الناس بوضوح علىٰ سطح الكرة الأرضية. ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾. (الكهف / ٤٧)

إنّ حركة الجبال هي مقدّمة لتدمير الأرض، وعلىٰ أثر هذا التدمير الذي ذكرته الآية التي نحن بصددها والآيات الأخرى أيضاً تصبح الأرض قاعاً صفصفاً، أي مسطحة ومستوية لا يعلوها شيء ويظهر جميع الناس عليها بشكل واضح.

ولو تأملنا في هذه الآيات: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾. (طه / ١٠٥ـ١٠٨)

لاتضح لنا أنّ هذه الآيات تعرض لنا مشاهد من حوادث نهاية العالم ومشاهد أخرى من حوادث قيام الساعة.

هذه خلاصة للبحوث المتعلقة بـ *(أشراط الساعة)* وإمارات القيامة ولقد عرضناها في ثلاثة فصول وذلك بالاستفادة من الآيات القرآنية وكذلك عرضنا مشاهد من التغيرات العظيمة التي تقع في نهاية العالم وبداية القيامة.



٢ـ النفخ في الصور

نفخة الموت ونفخة الحياة:

تمهيد:

لقد أشارت الكثير من الآيات القرآنية إلى النفخ في الصور، ويستفاد ممّا ورد فيها أنّ هناك نفختين بالصور:

الأولى: وتقع في نهاية العالم وهي التي تسبب موت جميع الخلائق .. وتسمى بنفخة الموت.

أمّا النفخة *الثانية*: فتقع قبيل يوم القيامة وتعمل على إحياء جميع الأموات وتسمى نفخة الحياة.

وفي الحقيقة أنّ توقف هذا العالم وبدء حركة عالم آخر يشبه توقف وحركة القطعة العسكرية حيث يتوقف أفرادها عند سماعهم لصوت بوق خاص ويتحركون مرّة أُخرىٰ عند سماعهم لصوت بوق آخر.

وهنا يُطرح هذا السؤال: مامعنى الصور؟ وما المقصود بالنفخة..؟

لقد خصصنا لهذا الموضوع بحثاً مفصلاً سنتطرق إليه فيما بعد ـ إن شاء الله ـ والجدير بالذكر أنّ القرآن ذكر ستة تعابير مختلفة حول هذا الموضوع.

فأحياناً عبر عنه بـ(نفخة الصور).

وأحياناً أُخرىٰ بـ(الصيحة).

وثالثة بـ(النقر في الناقور).

ورابعة بـ(الصاخة).

وخامسة بـ(القارعة).

وسادسة (الزجرة)

وسوف نشرح هذه العناوين من خلال الآيات الآتية ولنتأمل فيها بخشوع:

١ـ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (الزمر / ٦٨)

٢ـ ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾. (النمل / ٨٧)

٣ـ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾. (يس / ٥١)

٤ـ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ● وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾

(الحاقة / ١٣ـ١٤)

٥ـ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾. (المؤمنون/١٠١)

٦ـ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ (الكهف / ٩٩)

٧ـ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾. (طه / ١٠٢)

٨ـ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ (النبأ / ١٨)

٩ـ ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ (الأنعام / ٧٣)

١٠ـ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾. (ق / ٢٠)

١١ـ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾. (يس / ٥٣)

١٢ـ ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾. (يس / ٤٩)

١٣ـ ﴿ وَمَا يَنظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾. (ص / ١٥)

١٤ـ ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾. (ق / ٤٢)

١٥ـ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ● فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾. (المدثر / ٨ـ٩)

١٦ـ ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ● يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾. (عبس / ٣٣ـ٣٤)

١٧ـ ﴿ الْقَارِعَةُ ● مَا الْقَارِعَةُ ● وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ● يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

الْمَبْثُوثِ﴾. (القارعة / ١ـ٤)

١٨ـ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ (الصافات / ١٩)

جمع الآيات و تفسيرها

نفخة الموت ونفخة الحياة؟

لقد عبّرت الثماني عشرة آية السالفة الذكر ـ كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ـ عن نفخة الصور تحت ستة عناوين مختلفة، وقد جمعنا هذه الآيات مع بعضها كي نسلط الأضواء على تفسيرها حتى يتضح المفهوم الحقيقي لنفخة الصور من خلال المقارنة بينها.

لقد أشارت الآية الأولى إلى نفخة الصور الأولى وكذلك إلى نفخته الثانية وهذه هي الآية الوحيدة التي جمعت كلا النفختين ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ ويرى صاحب كتاب (مقاييس اللغة) أنّ مادة (صعق) على وزن (صَعْق) يعني الصوت الشديد، ويرى أنّ الصاعقة مشتقة من نفس المعنى، وهي سبب الموت والدمار، وجاءت هذه المادة أيضاً بمعنى الموت، وذكر صاحب كتاب لسان العرب أنّ المعنى الأول للصعق هو الإغماء، وشلل العقل على أثر سماع الصوت الشديد وذكر بأنّ (الموت) من المعاني الأخرى لهذه الكلمة، حتى أنّه ذكر قول بعضهم إنّ الموت هو أحد معاني الصاعقة.

على أيّة حال فإنّ مفهوم الصعق في الآية يعني الموت المباغت الذي يعمّ جميع أهل السموات والأرض، وذكرت الآية الكريمة ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ فما المقصود من هذه العبارة؟ هناك كلام للمفسرين في هذا الصدد، قال بعضهم: إنّ هذه العبارة هي إشارة إلى جمع من ملائكة الله الصالحين وهم (جبرائيل، وميكائيل، واسرافيل، وعزرائيل)، وقال بعض آخر: إنّهم الشهداء، وقيل: إنّ الآية تشمل أيضاً بالإضافة إلى الملائكة الأربعة الذين سبق ذكرهم حملة العرش الإلهي، ومع ذلك فالنتيجة أنّ جميع هؤلاء يذوقون الموت بحكم قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. (آل عمران/١٨٥)

ولم يبق إلّا وجه الله الذي هو حي لا يموت. ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾. (الرحمن / ٢٧)

ولقد أشار ذيل الآية إلى النفخة الثانية ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾.

الصور في الأصل بمعنى البوق الذي يستخدم عادة لايقاف أو لتحريك الجند وأحياناً القوافل.. ولقد استخدم في هذه الآية بمعنى توقف الحياة بأسرها في عالم الوجود ومن ثم حركتها مرّة أُخرى.

وهناك شرح مفصل لهذا الموضوع سنتعرض إليه -إن شاء الله- في فقرة (التوضيحات).

وقد أشارت الآية الثانية إلى النفخة الثانية فقط: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

ولم يستبعد البعض ومنهم العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان أنّ المراد من هذه الآية كلا النفختين.

ولكن ذيل الآية بذكر ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ وهذا يدل على أنّ المقصود هو النفخة الثانية. وفي هذه الآية أيضاً نواجه الجملة الاستثنائية ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ حيث أشرنا إلى تفسيرها في ذيل الآية الأولى.

أمّا الآية الثالثة فتشير إلى النفخة الثانية (نفخة الإحياء): ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾[1].

ولقد ذكر المفسرون أنّ هذه الآية تختص بالنفخة الثانية ويشهد على هذا المعنى ذيل الآية. وما بعدها من آيات

وربّما يطرح البعض هذا السؤال: إذا كان الناس يهلعون في ذلك اليوم من الحساب الإلهي فكيف يفزعون إليه؟

---

١ «أجداث» جمع «جَدَث» على وزن «حدث» وهو بمعنى القبر، و«ينسلون» من مادة «نسل» على وزن «فَصْل» وهو بمعنى السير السريع، ويقول الراغب إنّ المعنى الأصلي لها أُخذ من الفصل ويرى أنّه من هذه الجهة يطلق «نسل» على بني آدم

فقيل في جواب ذلك: إنّ هذه الحالة حالة لا إراديّة. وبهذه الوسيلة يدعوهم الله تعالىٰ إلىٰ محكمة عدله.

والآية الرابعة ناظرة إلىٰ النفخة الأُولى وهي نفخة إماتة جميع المخلوقات وفناء العالم بأسره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾

إنّ تعبير *(واحدة)* الذي تكرر مرّتين في هذه الآية يدل علىٰ أنّ هذه الحوادث تتحقق بصورة مباغتة علىٰ شكل ضربة مميتة. ومن جهة أُخرى فإنّ هذه الآيات تبيِّن القدرة اللامتناهية لله سبحانه وتعالى حيث تفنى جميع المخلوقات بنفخة صور واحدة، بالضبط مثل نفخة البوق التي تحرك جيشاً عظيماً أو توقفه في مكانه

بلا شك أنّ الآيات السابقة أشارت إلى النفخة الأُولى. أمّا الآيات اللاحقة فقد ورد فيها إضافة إلى ذلك كلام عن حوادث المحشر وصحيفة الأعمال وأوصاف الجنّة. وبحكم كون الحوادث المذكورة تقع في نهاية العالم وبداية القيامة ولا توجد فاصلة كبيرة بينهما، لهذا السبب نرىٰ في كثير من الآيات القرآنية أنّ حوادث نهاية العالم وقيام القيامة جاءت مرادفة لبعضها البعض.

ويرى بعض المفسرين الكبار، ومنهم صاحب الميزان أنّها النفخة الثانية، قال «والذي يسبق إلىٰ الفهم من سياق الآيات أنّها النفخة الثانية التي تحيي الموتىٰ»[١] ونحن نستبعد أن تكون هذه الآية قد أشارت إلىٰ النفخة الثانية، حيث إنّها لا تتوافق مع سياق الآية التي تليها والتي تخبر عن دك الأرض والجبال. ولعل الآيات التي وردت (بفاصلة) عن هذه الآية هي التي ساقته إلىٰ هذا المعنىٰ، في حين أنّ التأمل في الآيات المختلفة التي تتحدث عن القيامة يدلل علىٰ أنّ هذه الآيات تذكر أحياناً حوادث ما بين النفختين معاً وتميز بينهما بالقرائن.

أمّا الآية الخامسة فقد أشارت بوضوح إلى (النفخة الثانية) وذلك لأنّها تخبر عن عدم

---

١ تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٣٩٧

تأثير روابط الأنساب بين الناس أثناء (نفخة الصور). ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فمن الواضح أنّ السؤال سواء كان بمعنى التساؤل عن أحوال بعضهم البعض أو بمعنى طلب العون والمساعدة فإنّ كل هذا يحدث في نفخة القيامة (نفخة الحياة).

ومن الغريب أن نرى بعض المفسرين يحتملون أنّ المراد في هذه الآية النفخة الأولى.

على أيّة حال، فإنّ عدم سؤال بعضهم للبعض الآخر محمول على كلا الاحتمالين بحكم انشغال كل واحد بنفسه وبالأهوال التي يتعرض إليها فلا يفكر بالآخرين.

من هنا يطرح هذا السؤال وهو كيف تتوافق هذه الآية مع غيرها من الآيات التي تذكر ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾. (الصافات / ٥٠)

وكذلك قوله تعالى ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (إبراهيم / ٢١)

فيتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال ملاحظة الآيات الكريمة بالنسبة إلى غيرها فيستفاد من الآيات أنّ هناك مراحل ومواقف متعددة يوم القيامة ولكل مرحلة من هذه المراحل خصائصها. والشاهد على هذا الكلام حديث الرسول الأكرم ﷺ في جوابه عن هذا السؤال نفسه حيث قال ﷺ: *«ثلاثة مواطن تذهل فيها كل نفس، حين يرمى إلى كل إنسان كتابه، وعند الموازين، وعلى جسر جهنّم»*[1].

أمّا الآية السادسة والسابعة فقد أشارتا أيضاً إلى النفخة الثانية، قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ (الكهف / ٩٩)

فهل أنّ هذا المشهد العظيم يكون بسبب كثرة الناس أم بسبب حالة الخوف والهلع أم لسيادة الفوضى في نهاية العالم؟

يرى البعض أنّ هذه الآية هي إشارة إلى (قوم يأجوج ومأجوج)[2] بعد بناء سد ذي

---

١. تفسير روح البيان، ج ٦، ص ١٠٧

٢. راجع قصّة يأجوج ومأجوج، تفسير الأمثل ذيل الآية ٩٨، من سورة الكهف

القرنين (حسب سياق ما قبلها من الآيات) ولكننا نستبعد هذا المعنى بقرينة الآيات التالية لها. (تأمل).

على كل حال فإنّ الله تعالى يصف في نهاية الآية ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ وقال في الآية التي تليها. ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾.

«زرقاً»: جمع «أزرق» وهي الأصل بمعنى زرقاء اللون، ومن الممكن أن يكون هذا اللون إشارة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى يحشر المجرمين زرق الأبدان أو عمياً أو عطاشاً لشدّة العطش الذي تتعرض له أبدانهم

إننا نرى أنّ المعنى الأول هو الأنسب وذلك لأنّه معنى حقيقي، أمّا الثاني والثالث فله بعد كنائي (مجازي).

أمّا الآيتان التاسعة والعاشرة - فقد أشارتا أيضاً إلى النفخة الثانية أي نفخة الحياة والقيامة فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ وقال: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾

إنّ الإتيان أفواجاً في ذلك اليوم قد يكون بورود كل أمة مع إمامها إلى المحشر (الأنبياء وغيرهم) أو أنّ كل زمرة من المجرمين الذين اقترفوا ذنباً معيناً يحشرون معاً

على أيّة حال فهذه الآية لا تتنافى مع قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾

(مريم / ٩٥)

وذلك ـ كما أشرنا سابقاً ـ أنّ هناك مواطن ومواقف مختلفة في يوم القيامة فمن الممكن أن يحشر الناس في البداية على شكل مجموعات ثم يحضرون في محكمة العدل الإلهي فرادى، (فتأمل).

«الوعيد»: تستعمل هذه المفردة على قول الراغب الإصفهاني ومجموعة من المفسرين وأهل اللغة، في الشرّ، في حين كلمة «وعد» تستعمل في الخير والشر، واستخدمت الآية الكريمة هذا اللفظ (الوعيد) لإنذار المجرمين من ذلك اليوم بالرغم من أنّ القيامة تشتمل على الوعد بالخير والوعيد بالشر.

الآيتان الحادية عشرة والثانية عشرة اللتان وردتا في سورة يس تنذران بوقوع صيحة

شاملة تحدث في نهاية هذا العالم هي *(صيحة الموت)* أو *(صيحة الحياة)* التي تقع في بداية القيامة.

ففي موردٍ واحد أشارت الآية إلى صيحة نهاية العالم.

فقد كانوا يسألون دائماً متى يتحقق الوعد الإلهي؟ وكانوا يظنون أنّ هذا الأمر عسير على الله سبحانه وتعالى، فيقول الله تبارك وتعالى: ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء: **﴿ما يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾**.

وأشار في المورد الثاني إلى الصيحة الثانية (صيحة الإحياء): **﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾**

والصيحة كما يقول الراغب في مفرداته، في الأصل تعني تشقق الخشب أو اللباس المصحوب بالصوت، ويطلق هذا الاصطلاح أيضاً على كل الأصوات والصرخات المرتفعة. وتأتي أحياناً بمعنى طول القامة، وذلك لأنّ الشجرة المرتفعة كأنّما تصرخ وتدعو الناس إليها.

ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة ذكر أنّ المعنى الأصلي للصيحة هو الصوت العالي و*(تصيح)* بمعنى تشقيق الخشب وهي كلمة أصلها واوي، ويقول إنّها كانت في الأصل (تصوح) (فتأمّل).

على أيّة حال، فإنّ المفسرين يرون أنّ الصيحة الأولى هي نفخة الصور الأولى والصيحة الثانية هي نفخته الثانية في حين أنّ الآية ٥١ من نفس السورة والتي تقع بين هاتين الآيتين قد أشارت صراحة إلى نفخة الصور ونشور الأموات من قبورهم، وقيل لا منافاة بين الآيتين حيث إنّ الآية الثانية جاءت موضحة ومفسرة للآية الأولى ويكون مفهومها أنّ نفخة الصور الثانية ما هي إلّا صيحة عظيمة **﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾**

إنّ جميع هذه التعابير تدلل على حقيقة واحدة وهي أنّ نهاية الدنيا وبداية قيام الساعة أمر سهل يسير على الله القادر سبحانه وتعالى ولا مبرر لتعجب المخالفين من وقوع هذا الأمر، فالكل يموت بصيحة واحدة عظيمة ثم يصبحون رميماً وتراباً وبصيحة عظيمة أُخرى يرجعون مرّة أُخرى إلى الحياة، ويحضرون جميعاً أمام الله تبارك وتعالى.

الآيتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة، أشارتا مرّة أخرىٰ إلىٰ الصيحتين (صيحة الموت وصيحة الحياة)

تقول الآية الأولى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ وهناك عدّة أقوال في تفسير هذه الآية، فقيل إنّها تشير إلى عذاب الاستئصال (وهو العذاب الدنيوي الذي يستأصل جذور الكافرين والظالمين مثل عذاب قوم نوح ولوط وغيرهما).

وقيل: إنّ الآية أشارت إلى نفخة الصور و معنىٰ الأول يتفق مع سياق الآيات السابقة للآية التي تتحدث عن مجازاة قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، ولكن مع أخذ ذلك بنظر الاعتبار فإنّ هذه الآية جاءت تهديداً لكفّار مكة مع أنّ هؤلاء مستثنون من عذاب الاستئصال بحكم قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الانفال / ٣٣)

وعلىٰ هذا الأساس لا يمكن تفسير العذاب في الآية بعذاب الاستئصال فيكون الرأي الثاني هو الأنسب.

وبناء علىٰ ذلك فهل أنّ الآية أشارت إلىٰ نفخة الصور الأُولىٰ أم الثانية؟ هناك اختلاف بين المفسرين ولكن وبلا شك أنّ لحن الآية يتوافق مع النفخة الأُولىٰ، ذلك لأنّ ذيل الآية يقول: ﴿ مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ وهذا التعبير يقال عادة لنفخة الموت ولقد استشهد بحديث نقل عن الرسول الأكرم ﷺ حول هذه الآية لبيان النفخة الأُولىٰ [1].

«فواق» حسب قول الكثير من المفسرين وأهل اللغة، هو مابين حلبتي الناقة وأصله من الرجوع يقال، أفاق من مرضه أي رجع إلىٰ الصحة.

وعلىٰ أيّة حال فإنّ صيحة فناء العالم لا تعطي فرصة لأحد، وينتهي كل شيء في وقت قصير ويصبح هشيماً تذروه الرياح ويقوم سد محكم يحول بين الإنسان وماضيه.

ولقد أشارت الآية اللاحقة إلى صيحة يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾.

ويعتقد المفسرون بأنّ هذه «الصيحة» هي نفس صيحة القيامة حيث إنّ ذيل الآية دليل

---

١. تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٦٠١؛ تفسير الكبير، ج ٢، ص ١٨٣

واضح على ذلك، والمراد من (الحق) كما يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير والآلوسي في روح المعاني، هو نفس البعث والنشور.

ولكن ظاهر الآية أنّ المراد بالحق الوارد في الآية الكريمة هو نفس معناه الأصلي، وبتعبير (الميزان) يعني القضاء الحتمي، والنشور هو مصداقه، أمّا تعبير (يوم الخروج) فالمقصود منه يوم خروج الناس من قبورهم.

وهنا يطرح هذا السؤال: ومن الذي يسمع هذه الصيحة؟ هل تسمعها الأرواح قبل ورودها الأجساد؟ أم أنّ الأبدان تحيى وترجع إليها الأرواح عند الصيحة؟ وبهذا يستمر الناس في سماعهم للصيحة، ومثل ذلك كمثل ساعة الجرس التي تدق قرب شخص نائم فتوقظه، وهناك أقوال أخرى، والمعنى الثاني هو الأنسب لسياق الآية.

في الآية الخامسة عشرة نجد تعبيراً جديداً وهو (نقر) قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ و(نقر) كما يقول أرباب اللغة، في الأصل يعني طرق شيء، والمنقار هو (وسيلة الطرق)، ومن هنا يكون الطرق ملازماً للصوت وتأتي هذه الكلمة أحياناً بمعنى إيجاد الصوت أو سببه وهو هنا النفخ في الصور، ولذا نجد أنّ مجموعة من المفسرين فسروا الآية بشكل مباشر بالنفخ في الصور، فالنقر بمعنى النفخ والناقور بمعنى الصور[١].

وهناك احتمال آخر وهو أنّ تعبير (النقر) جاء لأنّ الصوت الذي يبعث من البوق من العظمة والشدة وكأنّه ينقر الأذن نقراً ويغوص في المخ.

على أيّة حال، فإنّ هذا التعبير هو إشارة إلى النفخة الثانية بشهادة الآيات التي بعد هذه الآية والتي تخبر عن الوضع العسير الذي يعيشه الكافرون في ذلك اليوم، ويقول الفخر الرازي: «إذا كان المقصود هو النفخة الأولى (كما يحتمل المفسرون) فسوف لا يكون ذلك اليوم عسيراً على الكافرين لأنّهم يموتون في تلك الساعة، إنّما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الإحياء ولذلك يقولون: ياليتها كانت القاضية»[٢].

---

١ راجع تفاسير مجمع البيان؛ وروح البيان؛ والكبير في ذيل الآية مورد البحث.

٢ راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح المعاني؛ روح البيان؛ الفخر الكبير.

وفي الآية السادسة عشرة نلاحظ تعبيراً جديداً هو الصاخة. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾

«الصاخة»: مشتقة من مادة *(صخ)* ويقول الراغب هو الصوت الشديد الذي ينبعث من أصحاب النطق.

وقال صاحب مقاييس اللغة: هي الصيحة التي تصم الآذان، وفسّرها البعض بمعنى طرق رأس الإنسان بالحجر [١]. وقيل: الاستماع والانصات. الصاخة هي التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمّها [٢] وتسمى بالصاكة لشدّة صوتها.

وفي كل الأحوال فهذا التعبير إشارة إلى *«نفخ الصور»* النفخة الثانية. تلك الصيحة العظيمة التي هي صيحة الصحوة والحياة. حيث يساق الجميع إلى عرصات المحشر، وكل واحد مشغول بنفسه إلى الحد الذي يفرّ من أخيه وأبيه وأمه وأصدقائه

ونواجه في الآية السابعة عشرة تعبيراً آخر حول مسألة نفخ الصور، يقول تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾.

«القارعة»: من مادة *(قرع)* على وزن *(فرع)* وهي في الأصل بمعنى الطرق الشديد الذي ينبعث منه صوت عالٍ، ومنها (المقرعة).

فما المقصود من القارعة في هذه الآيات.

قال بعض المفسرين: إنّ هذا التعبير هو أحد أسماء القيامة وذلك لأنّ الحوادث التي تقع فيها حوادث شديدة وتقرع القلوب بشدّتها وهولها ولقد صرّح البعض من المفسرين بأنّ هذا التعبير يطلق على مجموعة حوادث القيامة التي تبدأ من نفخة الصور الأولى وتنتهي بخاتمة المحكمة الإلهيّة [٣].

---

١ راجع تفاسير روح المعاني، روح البيان، الكبير.

٢ راجع تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٠، التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٤٣؛ تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ٤٨؛ وتفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٠١٥.

٣ تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٩؛ وتفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٢٢٠.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: واختلفوا في لمّية هذه التسمية على وجوه:

أحدها: إنّ سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق.

وثانيها: إنّ الأجرام العلوية والسفلية تصطدم مع بعضها بشدّة عند تخريب العالم، فيحدث على أثر هذا الاصطدام تلك القرعة فسميت القيامة بالقارعة.

وثالثها: إنّ القارعة هي التي تقرع قلوب الناس بالأهوال والخوف.

ورابعها: إنّها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال.[1]

ولكن الآيات التي تأتي بعد هذه الآيات تدلل على أنّ هذا التعبير ناظر إلى النفخة الأولى، وهي النفخة التي ترعب جميع الناس ثم تهلكهم وتخرب الجبال، ولقد ذكرت في تعقيب هذا الموضوع حوادث القيامة كتسلسل طبيعي.

على أيّة حال، فإنّ التعبير أعلاه إمّا أنّه يشير إلى نفخة الصور الأولى أو أنّ النفخة الأولى جزء منها، وإمّا أن يكون قد أشار إلى النفخة الثانية، وهذا ما لا يتوافق مع سياق الآيات، فمن المستبعد جدّاً أن تكون الآية: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ قد أشارت إلى النفخة الثانية والآية التي بعدها ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ أشارت إلى النفخة الأولى.

أمّا الآية الثامنة عشرة فنلاحظ فيها تعبيراً جديداً آخر ألا وهو *(الزجرة)* أو (الصيحة العظيمة)، في جواب من يعجب من رجوع الحياة بعد الموت، إذ تقول الآية لا تعجبوا فذلك ليس بالعسير: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾

«زجرة» في الأصل بمعنى الطرد وبصوت مرتفع، مثل طرد الإبل، وتأتي بمعنى الصيحة من قولك زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فريعت لصوته.[2]

وفي كشاف الزمخشري، زجره يزجره، إذ صاح بوجهه ثم استعملت بمعنى الطراد، وترد أحياناً بمعنى الصوت.

و جملة *(ينظرون)* ربّما تعني النظر بحيرة من شدّة الخوف أو نظر أحدهم إلى الآخر أو انتظار الحكم النهائي.

---

١ تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٧٠

٢ راجع مقاييس اللغة والمفردات للراغب مادة (زجر).

على أيّة حال فظاهر الآية الكريمة يشير بوضوح إلى نفخة الحياة ونشور الناس من قبورهم وتهيئتهم للحساب، وإنّ أغلب المفسرين قد أشاروا إلى هذا المعنى.

يستفاد من مجموع الآيات أنّ نهاية وبداية العالم الآخر إنّما تحدثان بصورة مباغتة وتتزامنان عند وقوع صيحة عظيمة. ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك تعابير مختلفة، فأحياناً استخدم الصيحة وأحياناً (زجرة) و(صاخة) والتي هي بمعنى الصيحة وأخرى النقر، كما عبّر عنها في كثير من الموارد بنفخة الصور.

وفي الظاهر لم يلاحظ في هذه الآيات شرحاً أو توضيحاً لكيفية النفخ، وحكم هذه الحادثة في الواقع كحكم سائر الحوادث المتعلقة بمشاهد يوم القيامة التي لم ترسم لنا صورة تفصيلية عنها. إلّا أنّ الأحاديث التي سنوردها بهذا الصدد قد تعرضت إلى هذه الحوادث وفصلتها إلى حدّ ما، ولكنّها لم ترفع الابهامات بشكل كلي وبعبارة أخرى لم تستطع أن ترفع هذه الإشكالات وذلك لأنّ هذه الأمور من أسرار العالم الآخر من جهة، ومن جهة أخرى أنّ عقولنا المحدودة بحدود هذه الدنيا وعاجزة عن إدراك هذه الحوادث على حقيقتها.

๏๏

توضيحات

١ ـ ما المراد بـ (نفخة الصور) أو صرخة الموت والحياة

علماً أنّ الصور وحسب قول الكثير من أرباب اللغة يعني البوق أو القرن العظيم (كانوا يصنعون البوق من قرن الحيوان)

فكانوا ينفخون فيه من جهة فيخرج الصوت عالياً من الجهة الأخرى.

فهل أنّ هذا التعبير تعبيرٌ مجازيٌّ كناية عن الأمر الصادر من قبل الله تبارك وتعالى ينذر بنهاية العالم المباغتة وبداية القيامة؟ هو تشبيه لما اعتاد عليه الناس في ايقاف القطعات العسكرية أو إيقافها أو لدعوتها للتجمع، فهي وسيلة تستعمل لإعلام الجميع بالوقوف أو

الحركة أو التجمع؟ (حيث إنّ لحن بوق الوقوف يختلف عن لحن بوق الحركة) ولا زال هذا الأسلوب معمولاً به في بعض الثكنات والقطعات العسكرية، فهناك بوق النوم وبوق النهوض وبوق التجمع [١]؟ أم أنّ هذا التعبير ليس له بعد كنائي وإنّما هي نفخة حقيقية؟ ولكن من الواضح أنّ هذا البوق ليس بوقاً عادياً وإنّما هو صاعقة وصيحة عظيمة تعمّ أرجاء السموات والأرض وتسبب موت جميع الموجودات الحية أو إحيائها وبعث الحياة والحركة فيها.

إنّ هذا الاحتمال هو الأرجح، ويتناسب مع ظاهر الآيات. ونقرأ في هذا الصدد حديثاً ورد عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: *«وإنّ الصُورَ قَرنٌ عَظيمٌ لَهُ رَأسٌ واحدٌ وطَرفانِ، وبَينَ الطَّرفِ الأَسفَلِ الّذي يلي الأرضَ إلى الطَّرفِ الأعلى الّذي يَلي السَّماءَ مِثلُ ما بَينَ تُخُومِ الأرضينَ السَّبعِ إلى فَوقِ السَّماءِ السّابعةِ، فيهِ أثقابٌ بِعَدَدِ أرواحِ الخَلائِقِ، وَسِعَ فَمُهُ ما بَينَ السَّماءِ والأرضِ»* [٢].

ولقد ورد في حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله: *«والصُّورُ قَرنٌ مِن نورٍ فيهِ أثقابٌ على عَدَدِ أرواحِ العِبادِ»* [٣].

وهذان الحديثان يؤكدان أنّ هذا التفسير هو كناية عن موضوع هام بيّن في هذا المجال.

ولكن نلاحظ في أقوال بعض المفسرين أنّ *(الصور)* مأخوذ من جمع (صورة) وقالوا: إنّ المراد النفخ في صُوَر وأبدان الناس فتدب الحياة فيهم.

إنّ هذا التفسير يتناسب مع النفخة الثانية أي نفخة الاحياء وليس النفخة الأُولى، ولقد رُفض هذا التفسير من قبل بعض أرباب اللغة حيث ورد هذا المعنى في (لسان العرب) عن بعض علماء اللغة قال: هذا خطأ فاحش ونوع من التحريف في كلام الله تعالى وذلك لأنّه ورد جمع *(الصورة)* في آيات قرآنية أُخرى على (صُوَر) على وزن فُعَل وليس (صُوْر) وإذا

---

١. ورد هذا الكلام في تفسير روح الجنان، ج ٩، ص ٤٢٦.

٢. لئالي الأخبار، ج ٥، ص ٥٣.

٣. علم اليقين، ص ٨٩٢.

قرأ أحد جملة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّوَرِ﴾ «الصُّوَرِ» بفتح الواو فقد إفترى على الله وحرّف كتابه، فكما أنّ هذا التفسير لا يتوافق مع الروايات السالفة الذكر كذلك لا يتوافق مع الآيات التي وردت فيها تعابير (صيحة) (وزجرة) و(ناقور) وغيرها.

ولا يستبعد أنْ يكون هذا ناتجاً عن عدم فهم معنى (نفخ في الصور)، في حين أنّ الصور ليس بوقاً عادياً وليست النفخة شبيهة بنفخاته.

وعلى أيّة حال فإن التفسير الثاني هو الأنسب من بين التفاسير الثلاثة التي قيلت بهذا الصدد، حيث إنّه ينسجم وسياق ظاهر الآيات ولابدّ لنا من الاعتراف بعجزنا عن اعطاء توضيح كامل عن نفخة الصور.

ജ ❀ ഇ

٢ـ تأثير الأمواج الصوتية على الإنسان وسائر الموجودات

من المعلوم أنّ الصوت نوع من الأمواج التي تنتشر في الهواء وفي السوائل أو الجمادات والأصوات التي تسمعها أذن الإنسان يجب أن لا تقل ذبذباتها عن ٢٠ ولا تزيد عن ٢٠٠٠٠ في الثانية.. وهناك مخلوقات تسمع الأصوات التي تزيد ذبذباتها عن ذلك، ومن بينها طائر الخفاش حيث إنّ لهذا الحيوان القابلية على سماع الأصوات التي يبلغ مقدار ذبذباتها ١٤٥ ألف ذبذبة [١] في الثانية. ومن المعروف أنّ الحيوانات تدرك الهزة الأرضية قبل الإنسان ولعل السبب في ذلك يعود إلى هذا العامل حيث إنّها تسمع الأمواج الصوتية المنبعثة منها والتي لا يتمكن الإنسان من إدراكها، وكما هو معلوم فإنّ الأمواج الصوتية الشديدة تسبب أحياناً تدمير كل شيء، وما تأثير القنابل والمواد المتفجرة على الإنسان والأبنية إلّا بفعل هذه الأمواج الشديدة التي يُعبّر عنها بـ(أمواج الانفجار) فهي قادرة في لحظة واحدة على تحطيم أي مقاومة تواجهها، فتحول الإنسان والأبنية إلى حطام متناثر.

على هذا الأساس ليس من العجب أن تكون صيحة القيامة هي السبب في إماتة الناس

---

١. يراجع كتاب الصوت، ص ٥٧؛ والنجوم للجميع، ص ٩٠

وجميع المخلوقات وإزالة الجبال في مدّة قصيرة. ويُحبذ أن ننقل كلاماً للإمام علي عليه السلام ورد في نهج البلاغة. «*وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً*»[١].

فحَرِيٌّ بنا أن نُدرك أنّ هذه الأشياء تخص (*نفخة الإماتة*) ومن البديهي أنّ (*نفخة الإحياء*) شيء آخر فهي صرخة النهوض والحياة والحركة والنشاط.

وتبقى معرفتنا بهذه النفخة وسائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة محدودة جداً.

٣ـ إبهامات حول نفخة الصور

١ـ هل أنّ نفخة الصور تقع مرتين فقط؟

من المعلوم أنّ الآيات القرآنية تشير إلى وجود نفختين (نفخة الإماتة ونفخة الإحياء) وقد لاحظنا ذلك في الآيات السالفة الذكر.

ولكن يستفاد من بعض الروايات أنّ نفخة الصور تتحقق ثلاث مرات حتى أنّ بعض الروايات تستدل بالقرآن على ذلك ولقد نُقل في كتاب لئالي الأخبار عن المرحوم (الديلمي) في كتاب إرشاد القلوب هذا الحديث: *قوله أي «إسرافيل» ثلاث نفخات «نفخة الفزع» و«نفخة الموت» و«نفخة البعث») فاذا فنيت الدنيا أمر الله اسرافيل أن يهبط إلى الأرض وينفخ نفخة الفزع كما قال تعالى:* ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (النمل / ٨٧)

... وتزلزلت الأرض وتذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ويميد الناس ويقع بعضهم على بعض كأنّهم سكارى وما هم بسكارى. وأمّا نفخة الإحياء فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. (الزمر / ٦٨)

وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾»[٢] (الزمر / ٦٨)

---

١. نهج البلاغة، خطبة ١٩٥

٢. لئالي الأخبار، ج ٥، ص ٥٤ (مع التلخيص)

ولقد أضاف البعض نفخة رابعة إلى هذه النفخات الثلاث وهي نفخة الجمع والحضور، والظاهر أنّ هذه النفخة أخذت من قوله تعالى ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس / ٥٣)

ولكن في الواقع أنّها تمس هاتين النفختين، اتسعتا وتبدلتا إلى أربع نفخات، وذلك لأنّ الفزع الأكبر ماهو إلّا مقدمة لموت الناس الذي يحدث على أثر إدامة واستمرار نفخة الحياة، ويمكن أن نؤكد هذا المعنى بالرجوع إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (تأمل). (النازعات / ٦ـ٧)

٢ـ من الملك المأمور بنفخة الصور

ورد في الأحاديث الشريفة أنّ هذا الملك هو اسرافيل، ويعتقد البعض أنّ هذه الكلمة تعني في اللغة السريانية (عبدالله). وقد ورد في حديث عن الإمام السجاد عليه السلام: «أنّ الله يأمر اسرافيل فيهبط إلى الدنيا ومعه صور...»[1].

ويستفاد من بعض الروايات أنّ اسرافيل هو أقرب الملائكة لله[2] وهو أول من سجد لآدم من الملائكة[3].

وما كون نفخة الموت والحياة بيده إلّا دليلاً على عظمة منزلة هذا الملك، ويستفاد من الرواية الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام: «أنّ نفخة الموت تكون من قبل اسرافيل، وبعدها يقول الله لاسرافيل: مت فيموت اسرافيل وتنفخ نفخة الحياة من قبل الخالق نفسه تبارك وتعالى»[4].

١. بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣٢٤، ح ٢
٢. لغتنامه دهخدا، مادة (اسرافيل).
٣. سفينة البحار، ج ١، ص ٤١٤ مادة (سرف).
٤. تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٠٢، ح ١١٦

٣ـ ما هي الفترة الزمنية بين النفختين

يستفاد من آيات القرآن الكريم بشكل عام أنّ هناك فترة زمنية بين نفختي الإماتة والإحياء وأنّ تعبير *(ثم)* الذي ورد في الآية ٦٨ من سورة الزمر يؤكد هذا المعنى ولكن ورد في بعض الروايات أنّ أمد هذه الفترة أي (أنّ ما بين النفختين أربعون سنة) ولا أحد يعلم هل أنّ هذه السنين من سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة التي يعادل كل يوم منها خمسين الف سنة.

وعلى أيّة حال فإنّ هناك حوادث عظيمة تقع مابين النفختين يتشكل خلالها عالم جديد وحياة جديدة للناس، فلا يبقى في هذه الفترة أيُّ مخلوق حيّ في العالم بأسره إلّا وجهُ الله الحيّ القيوم، وأمّا ما جاء في الآيتين ٦٨ من سورة الزمر و ٨٧ من سورة النمل اللتين ذكرتا جملة ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ لا يعني أنّ هؤلاء لا يشملهم الموت بل إنّ موتهم موكول إلى زمان لاحق، أي أنّ أجلهم يتأخر، والشاهد على ذلك هذه الآية التي وردت في ثلاث آيات من القرآن الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.[1] (آل عمران / ١٨٥)

والجدير بالذكر هنا أنّ *(النفس)* لها مفهوم واسع يشمل جميع الموجودات الحية، أمّا من هم الذين استثنتهم الآية؟ فقد ذكر المفسرون احتمالات عديدة في ذلك، فقال البعض إنّهم مجموعة من ملائكة الله المقربين أمثال (اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل)، ولقد أضاف بعضهم حملة العرش، وقيل أرواح الشهداء (في الأبدان المثالية) وقيل: خزنة الجنّة ومالكو النّار.

ويستفاد من رواية الإمام السجاد عليه السلام أنّ جميع الكائنات تموت عند الصيحة الأولى ماعدا اسرافيل الذي ينفخ في الصور ثم يموت بعد ذلك بأمر الله تعالى.

***

٤ـ فلسفة نفخة الصور؟

إذا كانت حقيقة نفخة الصور غير واضحة لنا بشكل تام، فلم تكن فلسفته التربوية خافية

---

١. راجع الأنبياء، ٣٥؛ العنكبوت، ٥٧.

علينا.. والمهم لنا هو الآثار التربوية لهذه الحادثة الحقّة

فنفخة الصور تبيّن لنا:

١ ـ إماتة وإحياء جميع المخلوقات ليست حالة عسيرة على الله تبارك وتعالى، فهو تعالى قادر على إماتة جميع الخلائق بأسرها بصيحة واحدة تصعقها جميعاً. وكذلك هو قادر على أن يحيي جميع الخلائق بصيحة عظيمة أخرى وكأنّ المخلوقات كانت في سبات فتبعث هذه الصيحة على إيقاظهم من نومهم العميق، وهذا جواب لمن يشك في المعاد أو لمن يعتقد بأنّ المعاد من الأمور المستحيلة الوقوع كما كانوا يسألون رسول الله ﷺ مراراً.

٢ ـ نفخة الصور إنذار لجميع الناس بعدم الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها لكي لا يقعوا في الغرور والغفلة، وأن يؤمنوا بأنّ صيحة القيامة ونفخة الموت ممكنة الوقوع في كل حين وأنّهم سائرون إلى دمار العدم إلى الموت الذي يطوي جميع آمالهم وأمانيهم

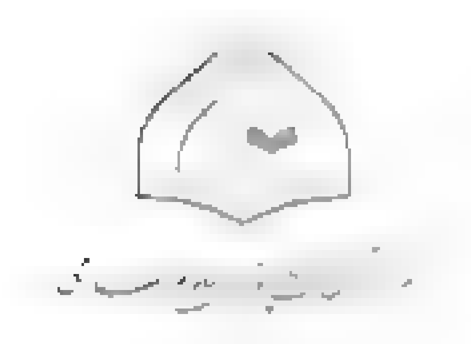
٣ ـ تعتبر نفخة الصور وإنذارها بنهاية هذا العالم وبداية عالم آخر من الدروس التربوية العميقة للناس. فالإيمان بذلك يجعلهم مهيّأون لاستقبال مثل هذه الحادثة العظيمة وإذا آمنوا بذلك فإنّهم لن يتواكلوا بتأخير الأعمال إلى الغد، فليس هناك تاريخ معين لوقوع هذه الحادثة المباغتة التي تقع من غير مقدّمات.

ونذكر حديثاً للإمام السجاد ﷺ في هذا المعنى ينقله الراوي بعد شرح موجز حول نفخة الصور فيقول: عندما يصل الإمام ﷺ إلى هنا (رأيت علي بن الحسين يبكي عند ذلك بكاءً شديداً) فالإمام في غاية الوجل من مسألة النهاية المباغتة للدنيا وحلول الآخرة والحضور أمام الله تبارك وتعالى)[١]

ﮬﮬﮬ

---

١ تفسير علي بن إبراهيم، ذيل الآية ٦٨ من سورة الزمر، بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣٢٤



٣ـ صحيفة الأعمال

ملاحظة. نجد في الكثيرمن الآيات القرآنية بحوثاً واسعة حول صحيفة الأعمال وقد ذكرت بتعابير مختلفة، فقد ورد في أكثر الآيات تعبير (الكتاب) الذي يحمل مفهوماً واسعاً فهو يشمل الصحيفة ويشمل الكتاب أيضاً.

ولقد ورد في البعض الآخر تعبير *(زبر)* جمع *(زبور)* وهذا التعبير له مفهوم قريب من الكتاب

وقد جاء في البعض الآخر منها تعبير *(طائر)* وهو الطير الذي كان العرب يتفاءلون به، وكانوا يعتقدون بأنّ مصيرهم مرتبط به، فيقول القرآن لهم إنّ طائر الخير والشر هو نفس صحيفة أعمالكم.

وقد وردت في بعض الآيات أشارة إلى كلام محرري صحف الأعمال وعبرت عنهم بتعابير مختلفة كالرقيب والعتيد أو رسل الله و*(كراماً)* و*(المتلقيان)* وكل واحد منهم مأمور بعمل خاص، (تأمل).

من هنا نقول. ماهي صحيفة الأعمال؟ وهل أنّ لكل إنسان صحيفة أعمال واحدة ،أم أكثر من ذلك؟ ومن هم كُتاب صحف الأعمال؟ وكيف يتمّ تسجيل هذه الصحف؟ وكيف تعطى باليمين أو بالشمال؟

هناك بحث واسع في هذا الصدد سنتعرض إليه بعد ذكر الآيات التي تدور حول هذا الموضوع، مع عدم الغفلة عن التعرض بالدرجة الأولى للمسائل التربوية والأخلاقية في هذه الآيات:

١ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.
(يس/ ١٢)

٢ـ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ (الكهف / ٤٩)

٣ـ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾.

(الزخرف / ٨٠)

٤ـ ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. (الجاثية / ٢٨ـ٢٩)

٥ـ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء / ١٣ـ١٤)

٦ـ ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ (القمر / ٥٢ـ٥٣)

٧ـ ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ (النبأ / ٢٩)

٨ـ ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾

(المطففين / ٧ـ٩ و ١٨ـ٢١)

٩ـ ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق / ١٧ـ١٨)

١٠ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

(الانفطار / ١٠ـ١٢)

١١ـ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾. (الحاقة / ١٩ و ٢٥ـ٢٦)

١٢ـ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾.

(الانشقاق / ٧ـ١٢)

١٣ـ ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ

ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾. (الواقعة / ٨ـ٩)

١٤ـ ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ۞ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ۞ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ (الواقعة / ٢٧ـ٢٨ و ٤١ـ٤٢)

١٥ـ ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾. (التكوير / ١٠ـ١٤)

جمع الآيات وتفسيرها

تتحدث الآية الأولى عن الحياة بعد الموت وعن كتاب الأعمال، ذلك الكتاب الذي يكتب بيد القدرة الإلهيّة وتثبت فيه أعمال الناس كلها وعبر عنه بـ«الإمام المبين» ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

فما المراد بالآثار؟

قيل: إنّ عبارة *(ما قدموا)* إشارة إلى الأعمال التي يؤدّيها الإنسان، *(وآثارهم)* إشارة إلى السنن التي يخلفها بعد موته أو آثار الخير والصدقات الجارية مثل الأبنية والأوقاف والكتب العلمية والتربوية.

وقيل أيضاً: إنّ المراد بـ*(ما قدموا)* النيات التي تحصل قبل أداء العمل، و(آثار) إشارة إلى الأعمال التي تنجز بعد النيّة وقيل إنّ (ما قدموا) إشارة إلى الأعمال الصالحة والسيئة، و(آثار) إشارة إلى الخطوات التي يخطوها الإنسان لانجاز هذه الأعمال، فيقال للقدم من هذه الجهة (أثر) حيث تترك الأقدام أثرها على الأرض وخاصة الترابية.

ويذكر حديثاً حول نزول هذه الآية، حيث إنّ فريقاً من الأنصار (طائفة من بني سلمة كانوا في ناحية المدينة فشكوا إلى الرسول بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه فأرادوا النقلة فقال ﷺ: *«إنّ الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم»* [١].

«الإمام المبين»: هو اللوح المحفوظ الذي تثبت فيه جميع الحقائق حسب قول الكثير من المفسرين وبناءً على ذلك يستفاد من التعبير أعلاه أنّ الإمام المبين هو غير صحيفة

١. تفسير مجمع البيان، ج ٤، جزء ٢٢، ص ٤١٨؛ تفسير كبير، ج ٦، ص ٤٩؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٤ـ٥٦.

الأعمال التي تختص بكل فرد، بل هو كتاب عمل عام، فهذا اللوح بمنزلة سجل عام تحصى فيه جميع أعمال الناس، وسوف نوضح هذا الكلام في موضوع (تعدد صحف الأعمال).

عبارة *(مبين)* إشارة إلى ذكر اللوح المحفوظ وصحيفة الأعمال لجميع الأعمال نظراً لأنّه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الأعمال الصالحة أو السيئة إلّا أحصاها.

ولقد جاء في روايات متعددة أنّ المراد من *(الإمام المبين)* هو الإمام المعصوم الذي يبيّن جميع الحقائق بأمر الله تعالى وبتعليم من الرسول ﷺ، وفي هذا الصدد ورد حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير علي بن إبراهيم عليه السلام قال: *«أنا والله الإمام المبين، أُبيّن الحق من الباطل، ورثته من رسول الله ﷺ»*[1].

ومن خلال هذه التفاسير يتبيّن أنّ للإمام المبين مفهوماً واسعاً فكما يشير ظاهره إلى كتاب الأعمال الذي يدون جميع أعمال الناس كذلك يشير باطنه إلى الإمام المعصوم الذي يُبيّن الحق من الباطل من خلال العلم الذي يرثه عن الرسول ﷺ.

ولقد أشارت الآية الثانية إلى هذا المعنى بصراحة أكبر: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ فهل أنّ هذا الكتاب هو كتاب أعمال الناس الذي أشارت إليه الآية الأولى؟ أم أنّه كتاب أعمال كل أُمّة أو كتاب أعمال كل إنسان؟ (وذلك ـ وكما سنوضح ذلك في البحوث المقبلة إن شاء الله ـ أنّ هذه الأنواع الثلاثة من كتب الأعمال.. أحدث من آيات القرآن الكريم).

فالاحتمالات الثلاثة ممكنة في تفسير هذه الآية ولو أنّ من الممكن أن يكون ذكر *(الكتاب)* بصورة المفرد إشارة إلى كتاب أعمال جميع الناس، ويستفاد من الآية الكريمة أنّ هذا الكتاب يعرض جميع جزئيات أعمال الإنسان الصالحة والسيئة، الكبيرة والصغيرة، حتى أنّ أصحابها يصيبهم الوجل والخوف من أعمالهم، وسبب وجلهم يعود إلى حضورهم

---

١. تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٢١٢

في محكمة العدل الإلهي من جهة ومن جهة أخرىٰ أنّهم قد نسوا الكثير من الأعمال ولم يعطوها أهميّة، ولكنّها اليوم تجسدت أمام أعينهم، ومن جهة ثالثة، الفضيحة العظمى أمام الخلائق.

ويجب أن ننتبه إلىٰ هذا المعنىٰ وهو أنّ كلمة (يغادر) مشتقة من مادة (غَدْر) بمعنىٰ الترك. و بناء علىٰ ذلك يكون مفهوم هذه الجملة هو أنّ هذا الكتاب لا يترك شيئاً إلّا وسجّله، ويقال لنكث العهد غدر وذلك بسبب عدم الوفاء به.

ﭺﭻ

وتتحدث الآية الثالثة عن كتابة رسل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ومن الواضح أنّه لا يوجد هناك تضارب بين هذه الآية والآية التي تقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نظراً لأنّ عمل الرسل والملائكة إنّما هو في الحقيقة عمل الله تبارك وتعالىٰ لأنّه يجري بأمره، وهناك احتمال بأنّ كتاب أعمال الناس جميعاً *(الإمام المبين)* يكتب بيد القدرة الإلهيّة، أي بصورة مباشرة، أمّا كتاب أعمال كل إنسان الذي عرض في هذه الآية فيكتب بواسطة الملائكة، أمّا تعبير *(الرسل)* وهو جمع رسول فالمراد به هنا الملائكة المأمورون بكتابة الأعمال، وليس المقصود وجود عدد من الملائكة لكل إنسان بل يمكن أن يكون لكل فرد ملك واحد أو ملكان فيكون بصورة الجمع بالنسبة لمجموع الناس.

يقول الزمخشري في الكشاف: (السّرّ) ما حدّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال أمّا النجوىٰ ما تكلّموا به فيما بينهم همساً[1]

ﭺﭻ

١ـ تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٢٦٥

الكتاب الذي يتكلم:

الآية الرابعة تنسب عملية تدوين الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى إضافة إلى ذلك دلّت على أنّ صحف الأعمال تنطق يوم القيامة. ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا... هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فهي تتحدث بوضوح عن كتاب أعمال الأمم والذي هو أحد الأقسام الثلاثة لكتب الأعمال، وتعدد هذه الكتب يؤكد حقيقة تسجيل كل أعمال الإنسان وعدم ترك صغير ولا كبير منها، ويدل تعبير -تُدعى- على أنّهم يدعون ليقرؤوا كتبهم، وبالتالي يكونون هم المحاسبين لأنفسهم، كما جاء صراحة في الآية الشريفة ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الاسراء / ١٤)

«جاثية»: مشتقة من *(الجثو)* على وزن (غُلو) بمعنى الجلوس على الركب والسبب في اتخاذ هذه الجلسة من قبل أهل المحشر يعود إمّا لشدّة الخوف أو هي شبيه للحالة التي كان يتخذها المتهمون في قديم الزمان عند الحضور في المحكمة لإبداء الرأي، حيث يجلسون جلوس القرفصاء، وهو الوضع الذي يتخذه الإنسان عند انتظاره للحوادث المهمّة.

ومن الملفت للنظر هنا نسبة تسجيل الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا يدل على أنّ كاتب الأعمال ليس بالذي تتصور فيه الغفلة أو الخطأ وهو عليم ومحيط بكل شيء، *(واستنسخ)* من مادة *(نسخ)* وحسب قول أهل اللغة أنّ النسخ إزالة شيء بواسطة شيء آخر ويلازمه نفي لشيء وإثبات لشيء آخر، وتستعمل هذه الكلمة بمعنى النفي أحياناً وأخرى بمعنى الإثبات وثالثة بمعنى الإثبات والنفي معاً.

من هنا يتبين أنّ الاستنساخ يعني إثبات موضوع مع صرف النظر عن آخر

ﮁﮂ

ونجد في الآية الخامسة تعبيراً آخر هو *(الطائر)*: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾.

و«الطائر» في الأساس، هو الطير ويراد به العمل أو كتاب الأعمال حسب قول الكثير من المفسرين، ويعود هذا الربط إلى العادات والتقاليد العربية حيث كانوا يتفاءلون للخير والشر بواسطة الطيور، فبعض الطيور يبشر بالسعادة واليمن والبركة، فإذا عرض لهم هذا الطير أثناء خروجهم من منزلهم أو من مدينتهم استبشروا ورأوا ذلك دليلاً على الانتصار والنجاح، وعلى عكس بعض الطيور التي يعتقدون بأنّها نذير شؤم، فالطائر يستخدم للتفاؤل والتشاؤم معاً، لذا فقد قال بعض المفسرين إنّ ما يقابل كلمة طائر في اللغة الفارسية هو (البخت) ومن هنا يعتبر القرآن الكريم أنّ العامل الرئيس للسعادة والشقاء هو أعمال الإنسان، وقد استعملت هذه الكلمة للتعبير عن كتاب هذه الأعمال، وبهذا المعنى فقد صنع القرآن الكريم من مفهوم خرافي لا أساس له حقيقة واقعية ودعا الناس إليها، مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ حيث يمكن القول أنّ تفسير الطائر بالعمل أنسب من تفسيره بكتاب الأعمال وذلك لأنّه ذكر كتاب الأعمال بشكل مستقل فلكون الأعمال متعلقة بعنق الإنسان فهي لا تنفك عنه أبداً، فإن كان العمل صالحاً فيسعد ويأنس به صاحبه وإن كان سيئاً فيؤذي صاحبه كالغل أو السلسلة.

وهناك مسألتان أخريان في هذه الآية.

الأولى: عرض كتاب الأعمال يوم القيامة واطلاع الآخرين عليه، فيكون عاملاً في فضيحة صاحبه لدى جميع الخلائق.

الثانية: إنّ كتابة صحيفة الأعمال واضحة بحيث لا حاجة إلى الحسيب بل يكفي أن يطلع الإنسان على أعماله ويحاسب نفسَهُ بنفسه.

فكما يدلّ اصفرار اللون والكآبة على وجود حالة مرضية كذلك تدلّ الطراوة وامتلاء الوجنات والنشاط على الصحة والسلامة، وبهذا يستطيع المريض أن يحكم على نفسه بالمرض أو السلامة ولا حاجة لشهادة الآخرين.

ꕥꕥ

في الآية السادسة نلاحظ تعبيراً جديداً بخصوص الأعمال وهو كلمة (زبر)، والزبر جمع زبور وهو بمعنى الكتاب.

قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ● وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ ومع أنّ هذه الآية أشارت إلى وضع الأقوام السابقة التي كانت لديها أعمال كأعمال الكفّار الذين عاصروا الرسول الأكرم ﷺ لكن من البديهي أنّه تعالى عندما يصرّح بأنّ جميع أعمالهم مثبتة ومسجلة في كتاب، فهذا المفهوم يعني أنّ أعمال جميع الناس تكون على هذا النحو..

«زُبُر»: مشتق من (زُبْرَة) على وزن (شُعرة) بمعنى قطعة الحديد الكبيرة ثم اطلقت هذه الكلمة على الخطوط العريضة التي تكتب على الصفحات الكبيرة، لذا يقول الراغب الإصفهاني في مفرداته: كل كتاب غليظ الكتابة يقال له (زَبُور) ويستفاد من هذا التعبير أنّ الزبور لا يطلق على كل كتاب بل يشترط فيه عظمة الخط وغلظه، وأنّ اختيار هذا التعبير لكتاب الأعمال يعبر عن عمق المعنى فهو يبيّن ثبوت ووضوح هذا الكتاب.

إنّ تعبير (الصغير) و(الكبير) وتقديم الصغير على الكبير الذي لم يرد في هذا الموضع من القرآن فقط بل في مواضع متعددة، إشارة إلى عدم وجود أي استثناء في تسجيل أي عمل وأي شخص.

أمّا «مستطر» فمأخوذة من مادة (سطر) وتعني الكتابة، وهذا تأكيد آخر على أنّ تسجيل الأعمال وجميع الأقوال وحتى النيات قد جمع في مفهوم الآية. (تأمل).

❊❊❊

وقد صرحت الآية السابعة بأنّ الكافرين يظنون أنّهم لن ينالوا جزاء أعمالهم يوم القيامة . فهم يكذبون الآيات الإلهيّة في حين: ﴿ وكلَّ شيءٍ أحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾

و«أحصيناه»: مأخوذة من مادة (إحصاء) ومشتقةٌ في الأصل من الحصى حيث كانوا في الماضي يستعملون الحصى لعد الأشياء بدلاً من أصابع اليد، وكلمة إحصاء بمعنى العد وجاءت لحفظ الحساب.

يقول بعض المفسرين: إنّ مفهومها هنا يتطابق مع مفهوم الكتابة ولهذا السبب أعربوا كتاباً، مفعولاً مطلقاً لأحصيناه، في حين يجب أن يكون المفعول المطلق من مادة نفس الفعل الذي قبله، وبما أنّ معنى الكلمتين واحدٌ فيمكن أن يحل أحدهما محل الآخر[1].

೫೦೪

كتب في عليين وأخرى في سجين:

الآية الثامنة التي وردت في موضعين من سورة المطففين تشير إلى كتاب أعمال الأبرار والفجار، وقد كشفت عن جزئيات أكثر، فقد ذكرت أولاً كتاب أعمال الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.

وبعد عدّة آيات من نفس السورة جاء كتب أعمال الأبرار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

وقد ورد في هذه الآيات كلام عن (سجين) و(عليين) التي تحفظ فيها كتب أعمال الفجار والأبرار، لذا يجب توضيح معنى هاتين الكلمتين بدقّة:

«سجين»: هي صيغة مبالغة مشتقة من مادة (سجن) بمعنى السجن، ولقد ذكر المفسرون معاني مختلفة لهذه الكلمة مثل النّار أو موضع خاص من النّار تحفظ فيه كتب الفجار.

ونحن نقول: إنّ أصح الأقوال هو إنّ سجين كتاب جامع تجمع فيه كتب أعمال جميع الفجار، وبتعبير أوضح أنّ هذا الكتاب كمثل السجل العام الذي يسجل فيه حساب جميع الدائنين والمدينين.

أمّا «عليين» فهي جمع (علي) على وزن (ملي) وهو في الأصل مشتق من العلو، وهو إشارة إلى المكان المرتفع، ولذا يطلق هذا الاسم على الأشخاص الذين يسكنون المناطق المرتفعة من الجبال، وحسب قول بعض المفسرين إنّ المراد (بعليين) أعلى أماكن الجنّة أو أعلى مكان في السماء، ومن خلال المقارنة بين الآراء حول سجين يتضح أنّ عليين كذلك

---

١. وقيل إنّ (كتاباً) حال، ولكن الاحتمال الأول هو الأصح.

يعني السجل الكبير الذي تجمع فيه كتب أعمال الأبرار والصالحين وهو سجل عالي المرتبة والمقام في جوار الله تبارك وتعالى[1].

الملائكة المراقبون:

الآية التاسعة لم تتحدث في الظاهر عن كتب الأعمال لكونها عرضت هذه الحقيقة بتعبير آخر. ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ فمن الواضح أنّ التلقي هنا إشارة إلى التسجيل في صحف الأعمال، ثم قال تعالى للتأكيد أكثر ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

«يتلقى»: مشتق من مادة (لقاء) ولكن تلقي الأعمال هنا كناية عن أخذها وتسجيلها

«المتلقيان»: هُما الملكان المأموران بأخذ وتسجيل أعمال الناس

«قعيد» من مادة قعود وهو الجلوس، ويراد منها الملازم والمراقب كما نقول في كلامنا المتداول أنّ فلان جليس فلان بمعنى الملازم والمراقب له[2]

«يلفظ»: مشتقة من مادة (لفظ) بمعنى قذف الشيء، كما يقال (لفظت الرحى الدقيق) وتطلق هذه الكلمة على ما يخرجه الإنسان من فمه، فكأنّها أشياء تقذف إلى الخارج.

«رقيب»: كما قال الراغب في مفرداته مشتق من مادة (رقبة)، ويطلق على الشخص الذي يحافظ ويراقب شيئاً معيناً أو شخصاً

«عتيد»: مشتق من مادة *(عتاد)* على وزن (جهاد) بمعنى إعداد عدّة وذخيرة شيء قبل الحاجة، لذا يطلق على الشخص المستعد لأداء فعل معين بـ(عتيد).

---

١. يجب الالتفات إلى أنّ عليين جمعت حسب قاعدة جمع المذكر السالم في حين أنّ سجين مفرد ولكن هذا لا يمنع من أن يطلق ذلك على المكان المرتفع والمقام العالي بسبب علو مكانته ومنزلة ساكنيه

٢. المتلقيان مثنى، وعلى هذا فلابدّ أن يكون (قعيد) مثنى أيضاً، ولكن هناك حذف في الآية والتقدير عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، وحذفت الأولى بقرينة الثانية

ولقد قال صاحب كتاب مقاييس اللغة إنّ معنى الأصلي لـ(عتيد) القوة والضرب، وهذا المعنى بالنسبة للمعنى السابق كنسبة اللازم إلى الملزوم. على كل حال فهل أنّ كل واحد من هذين الوصفين مختص بأحد الملكين والآخر بالملك الثاني فيكون الأول مراقباً والثاني معداً للتدوين والتسجيل أم أنّ كليهما يدلان على هذا المعنى أي كلاهما يقومان بمراقبة أعمال الإنسان وتسجيل وتثبيت أعماله أيضاً

يعتقد بعض المفسرين، أنّ الرقيب هو إسم لملك اليمين (الذي هو مأمور بكتابة أعمال الخير) والعتيد اسم لملك الشمال (الذي هو مأمور بكتابة أعمال الشر).

ولكن يظهر من أقوال بعض المفسرين، أنّهم ذكروا كلا الوصفين لكلا الملكين، أي إنّ كل واحد منهما رقيب وفي عين الحال عتيد أيضاً ولقد نقلت حول هذين الملكين روايات عديدة بالغة الأهميّة نذكر من جملتها حديث عن الرسول الأكرم ﷺ: ***«صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فاذا عمل حسنة كتبها له اليمين بعشر أمثالها واذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سبع ساعات فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء وإن لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة»***[١].

وتحمل مثل هذه الروايات للإنسان رسالة تربوية و صحة، ونستنتج من خلال هذه الرواية وبعض الروايات الأخرى أنّ عمل كلٍّ من هذين الملكين منفصل عن الآخر وسوف نفصّل الموضوع أكثر في فقرة (التوصيحات)

❧

كُتّاب صحيفة الأعمال:

لقد ورد في نفس هذه الآية كلام عن *(الكاتبين)* وسعة اطلاعهم ومعلوماتهم. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

---

١ تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٤٤، وكذلك في تفسير روح المعاني، ج ٢٦ ص ١٦٤ وكذلك ورد في تفسير المراغي، ج٢٦، ص ١٦١

فمن الواضح أنّ المراد بـ(حافظين) الملائكة المأمورين بحفظ وتسجيل الأعمال، وليس المراد حفظ الإنسان من الحوادث المختلفة. والله تبارك وتعالى وصف هؤلاء الملائكة بأربعة أوصاف ولكنها لازمة وملزومة لبعضها في نفس الوقت، وهذه الأوصاف هي:

١ـ حفظ ومراقبة الأعمال.

٢ـ (الكرام) و(كرام) جمع (كريم) وهي إشارة إلى عظمتهم وعلو شأنهم وإن كانوا مأمورين بإحصاء أعمال الإنسان، لكنهم لا يشوبون هذا العمل بالغلظة والقوة بل يغلفونه باللطف والكرامة.

وقيل إنّهم كرام لأنّهم يكتبون الأعمال الصالحة مباشرة بعشرة أمثالها، أمّا الأعمال السيئة وكما ذكر في الرواية السالفة فإنّهم يمهلون صاحبها سبع ساعات لعله يتوب.

وقيل: إنّهم كرام لأنّهم يطيرون بالأعمال الصالحة إلى السموات ويعرضونها على الملائكة، أمّا الأعمال السيئة وبحكم كونه تعالى (ستار العيوب) فإنّهم يستترون عليها، وكونهم كراماً يجعل الإنسان يراقب أعماله أكثر وذلك لأنّه يستحي من أن يرتكب عملاً قبيحاً في محضر شخص كريم.

٣ـ (كاتبين)، وهذا الوصف يعني كيفية حفظهم الأعمال بصريح قوله تعالى، فهم يكتبون كل الأعمال ولا يعزب عنهم شيء، ومن المعلوم أنّ الحفظ والكتابة بحاجة إلى اطلاع واسع من جميع الجوانب.

٤ـ (يعلمون ما تفعلون)، وهذا التعبير يشمل قول الإنسان وأعمال جوارحه وكذلك الأعمال القلبية.

وذكر كلمة (حافظين) بصورة الجمع، إمّا أن يكون هناك ملكان في النهار وملكان آخران في الليل يراقبون أعمال الإنسان (كما جاء في بعض الروايات)[1]، أو لكون المخاطب جميع الناس وبهذا فسيكون الملائكة الذين يراقبون الجميع جمعاً.

---

١. وسائل الشيعة، ج ٣، ص ١٥٤ و ١٥٥، باب ٢٨ من أبواب المواقيت

كتاب الأعمال في اليمين أو في الشمال:

تشير الآية الحادية عشرة إلى موضوع جديد وهو إتيان كتاب الأعمال، فيؤتى الأشرار والأشقياء كتابهم بشمائلهم أمّا الصالحون والأخيار فيؤتون كتابهم بأيمانهم، وهذه علامة فارقة لتمييز الأخيار من الفجار في محكمة العدل الإلهي. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ... ﴾، وعلى العكس. ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾، فهل أنّ اليد اليمنى واليسرى إشارة إلى هذا العضو الخاص من البدن أم هو كناية عن الخير والشر، ولماذا اليد اليمنى كناية عن الخير، واليسرى كناية عن الشر؟

لقد ورد هذا المعنى (كاحتمال) في تفسير (في ظلال القرآن) ولكن نقول لا توجد ضرورة لهذا التأويل لأنّ إتيان كتاب أعمال الصالحين باليد اليمنى، والأشرار باليد اليسرى وسيلة لتمييزهم والتعرف عليهم.

أمّا كلمة *(هاؤم)* فهي على رأي الكثيرين من المفسرين وأرباب اللغة مركبة من (هاء) وهي اسم فعل (أمر) بمعنى خذ و(ميم) وهو ضمير جمع مذكر مخاطب، وهذه الكلمة تعامل معاملة فعل الأمر فيقال (هاءَ، هاءِ، هاءما، هاؤم، هاؤنّ) للمفرد، المذكر والمفرد المؤنث والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث) وأحياناً تبدل الهمزة بالكاف فيقال: (هاكَ، هاكِ، هاكما، هاكن) أمّا الهاء الواردة في آخر كلمتي *(كتابيه وحسابيه)* فيطلق عليها اصطلاحاً بـ (هاء السكون) وهي ليست بضمير وإنّما هي للاستراحة في الكلام وليس لها مفهوم خاص والأصل: (كتابيَ) و(حسابيَ).

ولقد ورد في حديث عن عبدالله بن حنظلة المعروف بغسيل الملائكة وهو من شهداء أُحد، قال: إنّ الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له أنت عملت هذا، فيقول نعم أي ربّ، فيقول له: إنّي لم أفضحك به وإنّي قد غفرت لك، فيقول عند ذلك هاؤم اقرؤا كتابيه إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه، حين نجا من فضيحته يوم القيامة [1]

---

[1] تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٢٦١؛ تفسير في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٢٥٦ ولو أنّ هذا الحديث نقل عن عبدالله بن حنظلة ولكنه قد سمعه بالواسطة عن الرسول الأكرم ﷺ

لقد ورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف (إيتاء كتاب أعمال الأبرار باليمين والفجار بالشمال) في الآية الثانية عشرة من الآيات السالفة الذكر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً﴾

فذكرت الآيات السابقة أنّ كتاب أعمال الفجار يؤتى بالشمال، أمّا هذه الآيات فذكرت أنّ كتاب الفجار يؤتى (وراء الظهر) ويراد بهذا المعنى أنّ المجرمين عندما يعطون كتبهم بشمائلهم فإنّهم ولشدّة حيائهم يجعلون أيديهم وراء ظهورهم حتى تحل رؤية الجمع لهذا السند، سند الجريمة والفضيحة، أو لأنّ أيدي الشمال مغلولة وراء ظهورهم فكما أنّهم جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم في الحياة الدنيا فهنا تجعل كتب أعمالهم وراء ظهورهم، أو لكون وجوههم مقلوبة وراء ظهورهم ولأجل رؤية كتب أعمالهم فهم يأخذون كتبهم من وراء ظهورهم ولا منافاة لأي من هذه المعاني الثلاثة للآية وما ورد في الآيات السابقة.

ما المراد بـ*(الأهل)* الذي ذكرته الآية الكريمة؟

قيل: إنّ المراد بالأهل هم النساء والأولاد والآخرين من أهل الإيمان الذين سيدخلون الجنّة قبلهم، وقيل: إنّ الأهل هنا إشارة إلى الحور العين، وقيل: إنّ المقصود بالأهل هم سائر المؤمنين الذين لهم سبق قدم في الجنّة وذلك لأنّ المؤمنين كلهم أهل لبعضهم البعض، وفي الحقيقة (إنّهم جزء من أسرة واحدة)، ونرى أنّ التفسير الأول هو الأنسب بدليل أنّ نفس هذا التعبير ورد في الآية ١٣ من نفس السورة ويراد به الأسرة والزوجة والأولاد والأقرباء، واتحاد السياق يدلّ على أنّ المعنى واحد.

ولقد قسمت الآية الثالثة عشرة هذا التقسيم (أصحاب اليمين وأصحاب الشمال) بشكل آخر: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾

«الميمنة»: مشتقة من مادة *(اليمن)* بمعنى السعادة والبركة، ولقد فسرها البعض وقال: إنّها مأخوذة من مادة (يمين) أي اليد اليمنى، يقولون: إنّهم الأفراد الذين يعطون كتبهم

بأيمانهم (صحيح أنّ مادة يمن) و(يمين) مشتقة من أصل واحد ولكن يعني أحدهما الخير واليمن والسعادة، ويعني الآخر اليد اليمنى التي يرونها مظهراً من مظاهر البركة.

ويعتقد الراغب ـ كما ورد في مفرداته ـ أنّ أساس الكلمتين يحمل نفس مفهوم اليد اليمنى فيرى أنّ الخير واليمن والبركة تحصل بالأعمال التي تنجز بواسطة اليد اليمنى.

فهذه الكلمة جاءت بمعنى الخير والبركة ويقابلها كلمة المشئمة.

«والمشئمة»: مشتقة من *(شؤم)* وعلى قول صاحب كتاب مقاييس اللغة أنّ المعنى الأصل لهذه الكلمة هو نفس اليد اليسرى وأنّهم يعتقدون بأنّ اليد اليسرى والأعمال التي تنجز بواسطتها إشارة إلى الشر وسوء الحظ ولهذا استعملت كلمة شؤم بهذا المعنى وبهذا السياق، ويكون المراد من (أصحاب الميمنة) و(أصحاب المشئمة) في الأصل نفس معنى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال الذين يؤتون كتبهم إمّا باليمين أو بالشمال. وبهذا فإنّ تعبير الآية مجموعة تكون (سعيدة مسرورة) وأخرى (شقية تعيسة) بعد المعنى الثاني من معاني الآية الكريمة، ولقد فسر الفخر الرازي أصحاب الميمنة بـ(أصحاب الجنّة) إذ يقول[1]:

هم أصحاب الجنّة وتسميتهم بأصحاب الميمنة إمّا لكونهم من حملة كتبهم بأيمانهم وإمّا لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى كما قال تعالى ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾. (الحديد / ١٢)

وإمّا لكون اليمين يراد به الدليل على الخير، والعرب تتفاءل بالسانح وهو الذي يقصد جانب اليمين من الطيور إذ يتفاءلون بها بالخير، والتي تطير من الشمال، بالشر.

جملة (ما أصحاب الميمنة وما أصحاب المشئمة) جاءت على صيغة استفهامية، وهذه إشارة إلى المقام الرفيع جداً للطائفة الأولى والمقام السيء جداً للطائفة الثانية فكان منزلة وبركات الطائفة الأولى من العلو والسمو بحيث تخرج عن مستوى تفكير الإنسان، وهذا التفسير كناية لطيفة عن هذا المعنى، على عكس التعبير الثاني الذي هو كناية عن شدّة

---

١. التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٤٢

الانحطاط والتدني، ومع عدم ورود كلام عن كتاب الأعمال في هذه الآيات إلّا أننا إذا أخذنا سائر الآيات القرآنية التي جاءت فيها هاتان الكلمتان بنظر الاعتبار يكون التفسير أعلاه مناسباً لهذا المعنى.

أمّا الآية الرابعة عشرة من الآيات السالفة الذكر والتي وردت في نفس سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾.

فقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآيات نفس المعاني التي وردت في تفسير الآيات السابقة.

فقيل هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم أو بشمائلهم أو هم أصحاب اليمين والبركة أو تعيسو الحظ أو الذين يتجهون نحو الجنّة من اليمين أو نحو الجحيم من اليسار أو هم الذين يظهر نورهم على يمينهم[1].

صحيفة أعمالنا أمام أنظار الجميع:

نلاحظ في الآية الخامسة عشرة تعبيراً جديداً حول صحف الأعمال وهذا التعبير عميق المحتوى ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

«نشرت»: مشتقة من مادة (نشر) بمعنى الفتح، أمّا سبب ذكر هذا التعبير بخصوص كتاب الأعمال فإمّا لكون الكتاب يطوى أثناء الموت ويعاد فتحه عند الحساب يوم القيامة ومثله كمثل الملف الذي يُغلَق بختم المحقق ثم يفتح أثناء المحكمة، وإمّا أن تكون الصحف كلّها مجموعة عند الله تبارك وتعالى وتنشر وتقسم بين أصحابها يوم القيامة.

لقد انتخب بعض من المفسرين أحد المعنيين السالفين، واحتمل البعض الآخر كليهما، ونحن نقول: إنّ التفسير الأول هو الأنسب لسياق الآية، على أيّة حال فإنّ صحف الأعمال

---

١ تفسير التبيان، ج ٩، ص ٤٩٣؛ وتفسير البيان؛ وتفسير الكبير؛ وتفسير في ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

سوف تنشر في ذلك اليوم بحيث لا يطلع عليها أصحابها وحسب بل يطلع عليها أهل المحشر أيضاً وتستذكر جميع الأعمال المنسية، وهذا هو أحد عوامل الفرح واستبشار الصالحين، وعذاب وثبور وخزي أهل النار، وهذه شهادة على هذا المعنى. ولذا تقول الآية

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ كِتَٰباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً ﴾ (الاسراء / ١٣)

يستفاد ممّا ورد في مجموع الآيات السابقة الذكر أنّه إضافة إلى إحاطة وعلم الله تبارك وتعالى بأعمال الناس وشهادة الجوارح وسائر شهود يوم القيامة فإنّ أعمالنا مسجلة في كتاب، وهذا التسجيل يؤدّى بواسطة رسل وملائكة الله.

وفي يوم القيامة يؤتى الأخيار صحائف أعمالهم بأيمانهم والأشرار بشمائلهم وتنطق هذه الكتب وتخبر عن كل ما فيها، وتنشر الصحف وتعرض على الخلائق ويطلع أهل المحشر على أسرار وأخبار هذه الصحف، فأصحاب اليمين يتلقون كتبهم مسرورين مستبشرين ويدعون الجميع لقراءة كتبهم، أمّا أصحاب الشمال فيعلو صراخهم وعويلهم وثبورهم من شدة خوفهم وهلعهم.

ونحن نجد في هذه التعابير الكثير من الجوانب التربوية، سنتعرض إليها في فقرة التوضيحات.

ജ്ര

توضيحات

١ ـ صحف الأعمال في الروايات الإسلامية

إنّ لموضوع كتب الأعمال أو صحف الأعمال صدىً واسعاً في الروايات الإسلامية، وقد جاءت بعض الروايات كتعبير للآيات السابقة، وهناك روايات مستقلة عن الآيات.

وسنشير إلى بعض من هذه الروايات التي تتضمن كل واحدة منها جوانب تربوية هامة:

١ ـ نقرأ حديثاً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: *«إذا كان يوم القيامة دفع إلى الإنسان كتابه ثم قيل له اقرأ، قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: إنّ الله يذكره فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم*

ولا شيء فعله إلّا ذكره كأنّه فعله تلك الساعة؛ فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيها» [1].

٢ـ نقرأ في إحدى خطب نهج البلاغة أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: *«ونستغفره ممّا أحاط به علمه وأحصاه كتابه، علم غير قاصر وكتاب غير مغادر»* [2].

٣ـ جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام *«وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيؤتى كتابه بيمينه»* [3]

٤ـ ونقرأ حديثاً آخر للإمام الصادق عليه السلام: *«إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يحاسب المؤمن أعطاه كتابه بيمينه وحاسبه فيما بينه وبينه فيقول: عبدي فعلت كذا وكذا وعملت كذا وكذا، فيقول: نعم يارب قد فعلت ذلك. فيقول: غفرتها لك وأبدلتها حسنات. فيقول الناس سبحان الله أما كان لهذا العبد سيئة واحدة؟ وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾»* [4]

٥ـ نقل في سنن الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: *«يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأمّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمّا العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي: فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»* [5].

إنّ هذا التعبير تضمن إشارة إلى *(تطاير الكتب)* الذي جاء في عبارات مختلفة، واتضح من خلال هذا الحديث أنّ صحف الأعمال تتحرك من محلها الأصل (عند العرش أو عليين أو سجين الذي هو مركز جمعها) فتلقى بيد صاحبها فهذا التعبير يدل بوضوح على أنّ كتاب الأعمال هو ليس صفحة الروح الإنسانية بل هو الآثار التي تثبت خارج وجوده (تأمل).

---

١ بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣١٥

٢ نهج البلاغة، خطبة ١١٤

٣. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣١٨، ح ١٤

٤. المصدر السابق، ص ٣٢٤، ح ١٧

٥. سنن الترمذي، ج ٤، ص ٦١٧، ح ٢٤٢٥

٢ ـ ماهية صحف الأعمال

ممّا لا شك فيه أنّ صحف الأعمال التي تعرض يوم القيامة ليست كمثل الأوراق والدفاتر والكتب المتداولة وإنّما هي نقوش معبرة غير قابلة للانكار. فلو أنّ كتاب الأعمال كمثل هذه الأوراق والدفاتر المستعملة اليوم لاستوجب الأمر ملايين الأوراق لكتابة أعمال الإنسان خلال فترة عمره ولما أمكن للجميع مطالعة مثل هذا الكتاب ولما كان موجباً لخزي وفضح الأشرار وفخر الأخيار، في حين يستفاد من الآيات والروايات أنّ أعمال الإنسان مثبتة بحيث يمكن الوقوف عليها بإلقاء نظرة واحدة. إضافة إلى ذلك أنّ الخطوط والنقوش الاعتيادية ليست بالشكل الذي لايمكن انكارها، في حين يتضح من الآيات والروايات أنّ خطوط هذا الكتاب ليست قابلة للانكار وهي سند حي وواضح لكل شخص وحتى لأصحابها.

نتطرق هنا بدقة إلى بعض التفاسير المختلفة التي قيلت بخصوص صحف الأعمال.

١ ـ قيل في تفسيرها: *(هي بعينها نفس الإنسان التي رسخت فيها آثار أعماله بحيث نقشت بها)*

وجاء ما يطابق هذا التعبير في كتاب المرحوم الفيض الكاشاني حيث يقول «إنّ كتاب الأعمال هو كناية عن نفس الإنسان التي رسخت فيها آثار أعماله»[1]، إلّا أنّ هذا المعنى الكنائي لايتوافق مع ظواهر آيات القرآن الكريم وذلك لأنّ القرآن يذكر إتيان كتاب أعمال أصحاب اليمين بأيمانهم وكتاب الفجار بشمائلهم أو من وراء ظهورهم وهذا التعبير لا يتلائم مع التفسير المذكور إلّا إذا حمل تعبير (يمين) و(شمال) وسائر التعابير الأخرى على المعنى الكنائي وهذا خلاف الظاهر وهو غير جائز بدون دليل، إضافة إلى ذلك لا يمكن أن يتوافق هذا التعبير مع تطاير الكتب الذي ذكرناه سابقاً.

٢ ـ للمرحوم العلّامة الطباطبائي تعبير آخر في هذا الصدد فيقول في تفسير الميزان مستفيداً من الآية الشريفة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ...﴾. (آل عمران / ٣٠)

---

١. تفسير الصافي، ذيل الآية ١٣ من سورة الاسراء

«إنّ الكتاب يتضمن نفس الأعمال بحقائقها دون الرسوم المخطوطة على حدّ الكتب المعمول بها فيما بيننا في الدنيا فهي نفس الأعمال يطلع الله الإنسان عليها عياناً ولا حجّة كالعيان، إنّ كتاب الأعمال بحقائقها مستور عن إدراك الإنسان محجوب وراء حجب الغفلة وإنّما يخرجه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فيطلعه على تفاصيله»[1].

كذلك لا ينسجم هذا المعنى بما يتعلق بـ(الملائكة الكاتبين) وسائر الصفات الأخرى التي وردت في الآيات والروايات وذلك لأنّ المراد من حقائق الأعمال على الظاهر هو نفس الآثار التي تترك أثراً في داخل نفس الإنسان، وهنا يرد نفس الإشكال على تفسير المرحوم الفيض الكاشاني.

ولقد ذكر صاحب كتاب (روح المعاني) نفس هذا التفسير بشيء من التفصيل ثم اعترف بأنّ هذا التفسير لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم[2]، ومن الممكن أن يقال كما تترك أعمال الإنسان أثراً في داخل نفسه كذلك تترك أثراً في العالم الخارجي أيضاً، وتترك أثراً في الفضاء والهواء وعلى الأرض التي يعيش عليها وفي كل شيء، وكأنّ أعماله نقشت بها نقشاً طبيعياً غير قابل للانكار.

وهذه النقوش تنقش في أعماق هذه الموجودات بواسطة قوى عالم الوجود والملائكة،ويوم القيامة يكشف عنها الحجب وتظهر للعيان وتعطى بيد كل إنسان وتكفي نظرة واحدة عليها للاطلاع على حال كل شخص

ومن البديهي أنّ هذه الآثار لا يمكن إدراكها والاحساس بها في هذه الدنيا رغم أنّها موجودة ومثبتة، وعندما يأتي ذلك اليوم الذي يكشف فيه هذا الغطاء ويصبح البصر حديداً فسوف نراها عياناً ونقرأها فنصدق.

وقد استطاع علماء اليوم من خلال دراسة علم الآثار ودراسة المتحجرات المتبقية من

---

١ تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٥٨، ذيل الآية ١٣ الاسراء.

٢ تفسير روح المعاني ج ١٥، ص ٣٢

الكائنات الحية منذ ملايين السنين أن يكتشفوا ـ إضافة إلى شكل هياكـلها ـ الكـثير من حقائق حياتها مع أنّ المتحجر ليس حيوناً بعينه بل هو بقايا منه بقيت لحقب طويلة داخل الطبقات الأرضية.

الصخور الأرضيّة هي في الواقع كتاب أعمال وأشكال تلك الحيوانات مدون بخطوط غير قابلة للانكار.

نحن لا نقول إنّ كتاب الأعمال الذي يعرض يوم القيامة هو على هذه الصورة وذلك لأننا ذكرنا أكثر من مرّة أننا لا ندرك من القيامة و مسائل المتعلقة بها إلّا نزراً يسيراً. ولكن في بعض الأحيان يمكن أن يكون الأثر الطبيعي هو نفس الأثر. ومن المناسب هنا أن نـذكر حديثاً للإمام الصادق عليه السلام ورد في تفسير الآية ١٤ من سورة الاسراء: ***«يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه، حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها»***[1]

٣ـ احتمل البعض أنّ كتاب الأعمال هو (الضمير الباطن) للإنسان فقد أثبت علم النفس اليوم أنّ أعمال الإنسان تؤثر في وجدانه أو ملاشعوره. وهذا التعبير لا يختلف عن تعبير الفيض الكاشاني وسائر المفسرين الذين أشرنا إليهم سابقاً. وفي الواقع أنّ هذا التعبير هو تعبير جديد مشتق من المعنى القديم. والتفسير الثالث هو الأنسب من بين التفاسير الأربعة

على أيّة حال يجب أن نقول بما أنّ مسألة كتاب الأعمال وردت فـي القـرآن الكـريم وأكدتها الروايات المختلفة لذا يجب أن نؤمن بها حتى وإن لم ندرك مفهومها ومـحتواهـا بشكل تفصيلي. مثلها كمثل سائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة. أو أنّ كتاب الأعمال هـو مجموعة الآثار التي خطتها أعمالنا خارج وجودنا وتجمع يوم القيامة وتوضع بين أيـدينا حسب الأمر الإلهي، وبتعبير آخر هي مجموعة الآثار التكوينية التي يمكن تشـبيهها مـن بعض الوجوه بالأفلام أو أشرطة التسجيل أو ما شاكلها.

ونحن لا نجزم بأنّ الأمر هكذا بل نقول أنّ هناك أوجه للشبه بينها.

---

١. تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٦٧، ح ١١٥

٣ـ فلسفة كتاب الأعمال

ممّا لا شك فيه أنّ البيان المفصل لكتاب الأعمال في الآيات القرآنية والروايات، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا وأقوالنا ونيّاتنا إلّا أحصاها يهدف بالدرجة الأولى إلى إيجاد آثار تربوية على نفس الإنسان.

ولقد ذكرنا أنّ القرآن اتخذ من بيان جميع المعارف الواقعة وسيلة لتهذيب النفوس وتكامل الأرواح وتنمية مكارم الأخلاق وتقوية عامل التقوى عند الإنسان، كما أنذر الناس كافة ليراقبوا أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم وصرّح بأنّ كل شيء في كتاب وسوف تعرض الأعمال من خلاله يوم القيامة من غير نقصان.

حقّاً إنّ الاحاطة العلمية لله تعالى هي فوق كل شيء، ومن يؤمن إيماناً كاملاً بالاحاطة العلمية لله وحضوره الوجودي في كل شيء وفي كل زمان لا حاجة له بكتاب الأعمال ولكن في الغالب يمكن أن يكون الالتفات لهذه الحقيقة منشأً لكثير من الآثار على أغلب الناس، فمن يعلم بأنّ هناك أشرطة ستسجل صوته أينما كان وهناك جهاز مجهز بأفلام لتصوير كل حركاته وسكناته، سرّها وعلنها، ظاهرها وباطنها، وأنّ هذه الأشرطة والأفلام سوف تعرض على شكل ملف كامل غير قابل للانكار في احدى المحاكم الكبيرة، فيقيناً أنّ مثل هذا الإنسان سوف يراقب كل أعماله وقوله وسلوكه بشكل كامل وتكون التقوى هي الحاكمة على ظاهره وباطنه.

إنّ الإيمان بكتاب الأعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها والإيمان بالملائكة الذين يراقبون الإنسان ليلاً ونهاراً ويحصون عليه كل أعماله، وكذلك الاعتقاد بأنّ هذه الصحف سوف تنشر يوم القيامة في ساحة المحشر ويكشف فيها عن جميع السرائر فتوجب الخزي والفضيحة أمام الأصدقاء والأعداء، كلّها لها أثر عجيب في الكفّ عن الذنوب وارتكاب المآثم.

هذا على عكس كتاب الأبرار الذي يكون موجباً للفخر والكرامة في المحشر وحتى أنّه أفضل وأعلى وأكثر تأثيراً ممّا ذكر في مثال الشريط والفلم، وهذا عامل مهم جداً للتزود من

الأعمال الصالحة، ولولا ضعف الإيمان أحياناً ووجود حجب الغفلة التي تكون العامل في أبعاد الإنسان عن هذه الحقائق المهمة لكان الاعتماد بهذا المبدأ القرآني كافياً لتربية وتزكية كل إنسان.

ونذكر هنا إنّ بعض الأدعية تتضمن دروساً تربوية للإنسان وتركز على ابراز هذا المعنى فنقرأ في الدعاء المعروف بدعاء كميل: *«وكل سيئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم والشاهد على ما خفي عنهم»*.

ونختم هذا البحث بذكر حديث للإمام الصادق عليه السلام. جاء في الاحتجاج للطبرسي أنّه: سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام عن علة وجود الملائكة المأمورين بتثبيت الأعمال الصالحة والسيئة ونحن نعلم بأنّ الله (عالم السر والخفيات وما هو اخفى)

فقال الإمام عليه السلام: *«استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبةً وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبد يهم بمعصيه فذكر مكانهما فارعوى وكفّ، فيقول ربّي يراني، وحفظتي عليّ بذلك تشهد»*[1]

٤ـ أقسام كتب الأعمال

كما أشرنا سابقاً ومن خلال الآيات القرآنية أنّ هناك ثلاثة أنواع من كتب الأعمال:

الأول: هو الكتاب الذي يختص بكل إنسان ويعرض جزئيات الأعمال ويعطى باليمين أو بالشمال.

ولقد ورد هذا المعنى في كثير من الآيات التي سبق ذكرها ومن جملتها ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾. (الاسراء / ١٣)

إنّ تعبير *(كُلَّ إِنْسَانٍ)*، وكذلك تعبير *(كِتَابَكَ)* إشارة واضحة إلى كتاب الأعمال الخاص،

---

١. الاحتجاج، ج ٢، ص ٩٥

وكذلك جملة: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾، وجملة ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ وفي سورة الحاقة الآيات ١٩، ٢٥ إشارات أخرى إلى هذا المعنى.

الثاني: كتاب أعمال الأمم، أي الكتاب الذي تجمع فيه أعمال الأمة كما ورد قوله تعالى:
﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾. (الجاثية / ٢٨)

وقد ورد تعبير كتاب بصيغة المفرد وليس بصيغة الجمع وهذا يدل على أنّ المراد (الأمة الواحدة)

الثالث: الكتاب الذي تثبت فيه أعمال جميع الأمم وكافة الناس من الأولين والآخرين، فهو بمثابة السجل المركزي العام الذي تسجل فيه جميع الحسابات، ولقد أشار إليه تعالى:
﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ (الكهف / ٤٩)

وجاء هذا التعبير بصورة أوضح في قوله تعالى بعد ذكر الأموات وبيان كتابة الأعمال وآثارها من قبل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (يس / ١٢)

فورد الكتاب في هذه الآية بصيغة نكرة (التي تفيد الأفراد) وهذا يدل على إحصاء جميع أعمال الخلائق بل إنّ كل الأشياء جمعت في كتاب واحد.

وقد أشار المرحوم العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان إلى هذه الكتب الثلاثة[١] ولو أنّ هناك اختلاف بين الآيات التي استشهد بها وبعض هذه الأقسام التي ذكرناها.

ويمكن أن نستفيد من الآيتين ٧، ٨ من سورة المطففين أنّ *(الأبرار)* أو *(الفجار)* كل منهم له كتاب خاص وهذا يعدّ النوع الرابع من كتب الأعمال.

على أيّة حال فلا توجد أيّة منافاة بين هذه الكتب، ولا مانع من تسجيل عمل ما في عدّة كتب وسجلات مختلفة لغرض التأكيد والدقّة، وهذا ما نلاحظه في حياتنا اليومية.

إنّ هذه الكتب وعلى اختلاف أنواعها كلّها تؤكد على حقيقة واحدة مفادها أن يكون الإنسان واعياً يقظاً وليعلم بأنّ أعماله لم تسجل في مكان واحد بل إنّها مثبتة في عدّة أماكن وسجلات، ومن غير الممكن أن يصدر من الإنسان عملٌ ما ولا يحاسب عليه يوم القيامة، ويجب أن نعلم بأنّ الله تعالى هو الرقيب على الإنسان من وراء كل هذه الكتب والشهود.

---

١. تفسير الميزان، ج ٣، ص ٣٤٨.

٥ ـ خصائص كتاب الأعمال

من مجموع الآيات والروايات السابقة يمكن تحديد الخصائص الآتية لكتاب الأعمال وهي:

١ ـ كتاب الأعمال هو صحيفة عمل لمجموع عمر الإنسان وهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

٢ ـ كتاب الأعمال حي ناطق ولا مجال فيه لأدنى شك أو ريب وهو غير قابل للانكار، وكل شخص يتمكن من الفصل والحكم بمشاهدته وحتى المجرمون أنفسهم.

٣ ـ إنّ كاتبي صحيفة الأعمال ملكان وقد عبّر عنهما القرآن بـ(رقيب) و(عتيد) ـ وكما ذكرنا ـ يستفاد من بعض الروايات أنّ ملائكة الليل والنهار منفصلون عن بعضهم البعض وكل واحد منهم يعطي مكانه للآخر، ولقد أشارت بعض آيات القرآن الكريم إشارة عابرة إلى هذا المعنى.

٤ ـ يظهر من بعض الروايات أنّه إضافة إلى ذلك يوجد ملائكة آخرون توكل بهم مهمّة تسجيل بعض الأعمال الخاصة كما ورد في حديث عن الرسول الأكرم ﷺ: ***«إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر»***[1].

٥ ـ يستفاد من بعض الروايات أنّ الحسنات تكتب فوراً أمّا السيئات فتكتب بعد حين (لعل صاحبها يتوب عن فعله)

ونختم هذا البحث بذكر بعض الجمل القيمة من أدعية الإمام السجاد عليه السلام والتي وردت في (الصحيفة السجادية) ولنردد معه هذا الدعاء: ***«اللهم يسر على الكرام الكاتبين مؤنتنا، واملأ لنا من حسناتنا صحائفنا ولا تخزنا عندهم بسوء أعمالنا»***[2] وفي مكان آخر قال: ***«فصل على محمد وآله واجعل ختام ما تحصي علينا كتبة أعمالنا توبة مقبولة»***[3].

---

١. صحيح مسلم، ج ٢، ص ٥٨٧، ح ٨٥٠، ولعل مفهوم الحديث هو إذا تأخر المصلي عن الوقت المحدد لصلاة الجمعة فسوف لن يكتب اسمه في تلك الصحف

٢. الصحيفة السجادية، الدعاء ٦

٣. المصدر السابق، الدعاء ١١



٤ ـ حضور الأعمال

تمهيد:

المطّلعون على الآيات القرآنية يعلمون جيداً بأنّ بعضاً منها يتحدث عن حضور الأعمال يوم القيامة.

أي أنّ عمل كل شخص يعرض أمامه في ذلك اليوم خيراً كان أو شراً ويكون موجباً لسروره وسعادته أو عذابه ومعاناته، موجباً بفخر والكرامة أو للفضيحة والعار.

فهل بالإمكان بقاء أعمال الإنسان التي هي عبارة عن مجموعة حركات تمحى وتزول بعد انقضائها؟ وهل من الممكن أن يتحول «العمل» الذي هو جزء من مقومات وجود الإنسان إلى مادة وجسد ويظهر بصورة مستقلة؟

إنّ الكثير من المفسّرين عجزوا عن الإجابة عن هذه الأسئلة، فما كان لهم من حيلة إلّا إلى الحدس والتقدير، فقالوا مثلاً إنّ المراد بـ(حضور الأعمال) أو مشاهدة العمل «حضور وشهادة جزاء العمل، ثوابه أو عقابه»

ولكننا نعتقد اليوم بأنّ لكل من هذه المسائل جواب وعلى هذا الأساس لا نجد أي دليل لانكار ظواهر هذه الآيات التي تدلّ على تجسّد أعمال الإنسان

والجدير بالذكر، أنّ محتوى هذه الآيات ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار معناها الحقيقي لا المجازي ـ ذات معنى عميق ونافذ ومؤثر، ويحلّ لنا الكثير من المشاكل ويجيب عن الكثير من الأسئلة التي تطرح حول عالم القيامة والحساب، كما تترك أثراً كبيراً ومفيداً في حياة الإنسان من الناحية التربوية، وقبل أن نتناول هذا الموضوع نمعن خاشعين في بعض الآيات

القرآنية التي تشير إلى مسألة حضور الأعمال.

١ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزال / ٦ـ٨)

٢ـ ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾. (الكهف / ٤٩)

٣ـ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (آل عمران / ٣٠)

٤ـ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[1] (الزمر / ٤٨)

٥ـ ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾. (آل عمران / ١٨٠)

٦ـ ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾.

(التكوير / ١٢ـ١٤)

٧ـ ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. (الاحقاف / ١٩)

٨ـ ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾. (الزمر / ٧٠)

٩ـ ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.[2] (البقرة / ٢٧٢)

١٠ـ ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ (البقرة / ٢٨١) (آل عمران / ١٦١)

١١ـ ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[3] (التوبة / ٣٥)

١٢ـ ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.[4] (الطور / ١٦) (التحريم / ٧)

٭٭٭

١. وجاء نظير هذا المعنى في الآية ٥١ من سورة الزمر.

٢. هناك آيات أخرى بهذا المضمون، النحل ١١١؛ آل عمران ٢٥؛ هود ١١١.

٣. الزمر، ٢٤ تفيد نفس المعنى.

٤. هناك آيات أخرى بنفس المضمون، وهي الأعراف ١٤٧ و ١٨٠؛ سبأ ٣٣.

جمع الآيات وتفسيرها

يومئذ كلّ يرىٰ عمله:

لقد أشارت الآيات الأُولى الواردة في آخر سورة الزلزال ثلاث مرّات إلىٰ مسألة رؤية الأعمال ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ و ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ ثم ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

«اشتاتاً»: جمع *(شت)* على وزن (شط) بمعنى «التفرق»، وقد يكون سبب تفرق صفوف الناس في ذلك اليوم ورود كل أُمة بإمامها أو أن يتفرق أهل الإيمان عن أهل الكفر والعلماء عن المتعلمين والشهداء عن غيرهم [١].

«مثقال»: بمعنى وزن، والذرة هي الأجزاء الصغيرة جداً، لذا فقد فسّرت الذرة أحياناً بذرات الغبار وأُخرى بالنملة الصغيرة جداً، ويشير ظاهر الآيات بوضوح إلىٰ أنّ الأعمال الصالحة أو السيئة تتجسد أمام صاحبها في المحشر، ولو أنّ بعض المفسّرين ـ وبسبب عدم قبولهم لمسألة تجسم الأعمال للأسباب التي أشرنا إليها في بداية الموضوع ـ قالوا بالتقدير فقدروا كلمة «جزاء»، والمراد حضور ومشاهدة جزاء الأعمال، وقال البعض إنّ الرؤية هنا بمعنى العلم والمعرفة أي المشاهدة بعين القلب، وقال البعض الآخر: المراد مشاهدة كتاب الأعمال.

ومن المسلّم أنّ التفاسير الثلاثة لا تتوافق مع ظاهر الآية وذلك لأنّ تقدير أخذ (الجزاء) أو (صحف الأعمال)، مخالف لظاهر الآية و الرؤية هنا بمعنى المشاهدة بالعين لا بالقلب التي تنصب مفعولين، فمن المعلوم أنّ الرؤية القلبية تتعدى إلى مفعولين والرؤية الظاهرية تتعدىٰ إلىٰ مفعول واحد، وفي هذه الآية لا نرى إلّا مفعولاً واحداً لا أكثر (فتأمل).

والجدير بالذكر أنّ ابن عباس وبالرغم من كونه أقدم المفسّرين قد قبل هنا بمسألة رؤية الأعمال، فيقول في رواية وردت عنه:

«ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شرّاً إلّا أراه الله إيّاه، أمّا المؤمن فيغفر له سيئاته

---

١ تاج العروس في شرح القاموس مادة (شت، ويقول البعض أنّها جمع شتيت والبعض الآخر جمع شتات.

ويشيه بحسناته، وأمّا الكافر فيرة حسناته تحسيراً له» [١]

ونرى في أحاديث المعصومين الواردة في تفسير الآيات تعابير واضحة تدلل على رؤية وحضور الأعمال، منها ماقاله أمير المؤمنين ﷺ في هذا المعنى:

«فمن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده ومن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من شر وجده» [٢]

ﰡ

ونجد في الآية الثانية تعبيراً آخر في هذا المعنى، فبعد الإشارة إلى كتاب الأعمال قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً﴾

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.

لقد استبعد جمع من المفسّرين فكرة حضور الأعمال في هذه الآية فقد فسروها أحياناً بمعنى حضور أخبار الأعمال في كتاب الأعمال وأحياناً أخرى بمعنى حضور جزاء الأعمال ولكن البعض الآخر احتمل حضور نفس العمل [٣]

وعلى حد قول المرحوم العلّامة الطباطبائي فيمكن أن يكون ذيل الآية شاهداً على هذا الموضوع، وذلك لأنّ حضور نفس العمل لإثبات نفي الظلم عنه تعالى أفضل وأوضح» (فتأمل جيداً)

ﰡ

ولقد طرحت الآية الثالثة هذا التعبير بصراحة وتفصيل أكثر، وذلك لأنّ الكلام كان يدور في الآية السابقة حول الكافرين والمجرمين، أمّا في هذه الآية ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾. فهناك قولان في تفسيرها:

---

١ تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٤

٢ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٥٠

٣ تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٦٧، وتفسير روح البيان، ج ٥، ص ٢٥٤

الأول: هو أن يجد كل إنسان ما عمل من أعمال الخير والشرّ محضرة يوم القيامة.

الثاني: هو أن يجد كل إنسان ماعمل من أعمال الخير محضرة ويود أن تكون هناك فاصلة زمانية بينه وبين أعماله السيئة، ويرجع هذا الاختلاف في تفسير الآية إلى مكان الوقوف فيها، فمنهم من قال «إنّ الوقوف بعد *(محضراً)* ومنهم من قال: إنّ الوقوف بعد سوء»[١].

لكن النتيجة في كلا التفسيرين واحدة، وذلك لأنّ المستفاد من المعنى الثاني أيضاً هو حضور أعماله السيئة لديه وإن كان يتمنى وجود فاصلة بينه وبينها

وقد ورد احتمال آخر لبعض المفسرين فيرى أنّ المجرمين يودون لو أنّ بينهم وبين السوء الذي عملوه أمداً بعيداً أو أن بينه وبين هذا اليوم أمداً بعيداً[٢].

ومن المعلوم أنّ الإنسان يتمنى أن يكون بينه وبين الأمور التي ينفر منها فاصلة مكانية بعيدة، في حين أنّ المراد بـ*(أمداً بعيداً)* الذي ورد في الآية الكريمة يقصد بها الفاصلة الزمانية البعيدة.

ومن الممكن أن يكون سبب هذا التعبير هو أنّ احتمال الحضور والتلاقي يكون أكثر في الفواصل المكانية، أمّا احتماله في الفواصل الزمانية فهو معدوم.

فمثلاً أنّ الشخص الذي يعيش خلال سنوات الحرب العالمية يشعر بنوع من القلق والاضطراب، حتى وإن كان بعيداً عن ساحة العمليات العسكرية، أمّا الذين تفصلهم فواصل زمنية *(بعيدة)* عن تلك الحرب فهم لايشعرون بأي قلق أو اضطراب بسببها

ومن المعلوم أنّ *(الأمد)* يأتي دائماً للزمان، ويقول الراغب في مفرداته «إنّ معناه يقترب من معنى (أبد) مع فارق بسيط هو أنّ (أبد) زمان ليس له أي حد محدود، أمّا (أمد) فهو زمان له حد مجهول».

١ـ الحالة الأولى (الواو) وما عملت من سوء استئنافية، أمّا الحالة الثانية فتكون الواو عاطفة فجملة «تود» جملة حالية.

٢ـ ورد هذا الاحتمال في تفسير روح البيان، ج ٢، ص ٢٦؛ وفي تفسير في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٦٩.

فالحديث في الآية السابقة يدور حول حضور الأعمال، وتتحدث هذه الآية عن أحضار الأعمال، أي إنّها تتناول موضوعاً أوسع، ووفقها فإنّ الله تعالى وبقدرته المطلقة يحضر جميع الأعمال الصالحة والسيئة شاء صاحبها أم أبى، ولذا قال بعض المفسّرين: إنّ هذا التعبير هو أكثر اخافة وفزعاً من تعبير الآية السابقة.

ﷻ

ونواجه في الآية الرابعة تعبيراً جديداً أيضاً حول هذا الموضوع، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

«بدا»: مشتقّة من مادة (بدو) بمعنى الظهور التام، ولهذا قالوا للبراري (البادية) لظهورها بعكس المدن التي كانت تحاط بالأسوار والحصون فتختفي وراءها.

«سيئات ما كسبوا»: تعني أعمال السوء، وقد فسّرها البعض بمعنى جزاء هذه الأعمال، أو أنّهم قدروا كلمة جزاء، ولكن ظاهر الآية يفيد أنّ أعمالهم السيئة تظهر واضحة جلية في ذلك اليوم، وذلك لأنّ السيئات جمع سيئة تعني العمل السيء وليس سوء العمل (تأمل جيداً).

ومن الممكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّ الكثير من الأعمال السيئة في هذا العالم تخفي صورتها الحقيقية مثل الرياء الذي يراد به غير الله تعالى، ولكن في ذلك اليوم وهو يوم الكشف عن السرائر ويوم الظهور يكشف عن الوجه الحقيقي لجميع الأعمال، كما نقرأ في الحديث الوارد عن الرسول الأكرم ﷺ في تفسير هذه الآية: «*من الأعمال حسبوها حسنات فوجدوها في كفة السيئات*».

وهذا الحديث بدوره شاهد آخر على عقيدة تجسّم الأعمال[١].

ﷻ

١. تفسير روح البيان، ج ٨، ص ١٢١.

ونواجه في الآية الخامسة تعبيراً جديداً أيضاً، فبعد أن ذمّت الآية البخلاء وأخبرت بأنّ البخل ليس خيراً لهم وإنّما هو ضرر عليهم: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

يستفاد من هذا التعبير أنّ الأموال التي لم تدفع الحقوق المفروضة عليها ولم ينتفع بها أحد ستكون على شكل طوق تطوّق به رقاب البخلاء يوم القيامة، فكما كان وزرها على عواتق أصحابها دون الانتفاع بها فكذلك الأمر في يوم القيامة

ولقد ورد في تفسير العياشي نقلاً عن الإمام الباقر عليه السلام في توضيح معنى هذه الآية قال: *«مامن عبد منع زكاة ماله إلّا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه»*[١]

ولكن ما المقصود بالبخل في الآية الكريمة، ممّا آتاهم الله من فضله؟

يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية ناظرة إلى البخل في العلم والمعرفة وحسب ما جاء في سبب نزولها حيث نقل عن ابن عباس أنّ الآية نزلت في كتمان اليهود لعلامات الرسول صلى الله عليه وآله[٢].

في حين نجد أنّ هناك روايات عديدة ذكرت أنّ الآية تتعلق بمانعي الزكاة ولا يستبعد أن يكون للآية مفهومٌ واسعٌ بحيث تشمل كل الهبات الإلهية التي ذكرناها والتي لم نذكرها

ويلاحظ أنّ جمعاً من المفسرين لم يأخذوا بظاهر الآية وفسّروها بجزاء الأعمال، وقال البعض منهم: إنّ المراد بالآية الكريمة البخلاء فهم مكلّفون يوم القيامة بالإتيان بمثل هذه الأموال ولكنّهم لن يتمكنوا من ذلك (أي إنّ الذي سيطوقون به هو التكليف وليس نفس الأموال)

ولكنّ هذا النوع من التفاسير إضافة إلى كونه يفتقر إلى الدليل كذلك فهو مخالف لظاهر الآية ولا يتوافق مع الروايات الكثيرة المنقولة عن أئمة الهدى عليهم السلام في تفسير هذه الآية.

وتتحدث الآية السادسة عن موضوع جديد وهو (حضور وإحضار العمل) قال تعالى:

---

١. تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٠٧، ح ١٥٨

٢. لقد وردت رواية ابن عباس في كثير من التفاسير من جملتها تفسير القرطبي؛ تفسير روح المعاني؛ تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ● وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ● عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾

قال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: «ما أحضرت يعني ما وجدت حاضراً من عملها، والعجيب أنّه يقول على أثرها إنّ لإحضار الأعمال معنى مجازياً لأنّ العمل ليس بالشيء الذي يبقى إذ إنّه يفنى بعد الأداء، وقال البعض إنّ المقصود هو حضور صحيفة الأعمال»[1].

في حين ـ كما سنوضح ذلك في فقرة (توضيحات) ـ أنّ الأعمال لا تفنى أبداً ولا مانع من تجسمها على شكل صور مناسبة في ذلك اليوم.

إنّ إحضار العمل سواء كان بمعنى (الإحضار) أو (الحضور) (حيث فسّر بكلا المعنيين) يدلّ على ما نصبو إليه من هذا البحث.

ജ്ജ

استيفاء الأعمال يوم القيامة:

يلاحظ في الآيات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة تعبيراً آخراً في مسألة تجسّم وحضور الأعمال، حيث ورد في هذه الآيات أنّ أعمال الإنسان الصالحة والسيئة (الخير والشرّ) ترجع إلى الإنسان يوم القيامة كاملة غير منقوصة. والظاهر من كل هذه الآيات أنّ المراد هو استيفاء العمل نفسه وليس جزاء العمل أو كتاب العمل.

قال تعالى في الآية السابعة: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وقال تعالى في الآية الثامنة بعد الإشارة إلى محكمة القيامة وكتاب الأعمال والشهود ونفي الظلم: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾. فكأنّ هذه الآية تبيّن علّة الحكم بالحق وعدم ظلم الآخرين الذي ورد في الآية التي تسبقها فتقول: كيف يقع الظلم والجور على أحد في حين أنّ نفس أعماله توفى إليه؟! إضافة إلى ذلك أنّ هذه المحكمة

---

1. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٤.

تدار من قبل من هو أعلم بما يعملون.

ولقد جاء نفس هذا المعنى في الآية التاسعة ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

وكذلك ورد في الآية العاشرة نفس هذا المعنى أيضاً ولكن بعبارات أكثر عمومية وشمولية ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

«ووفيت وتوفى ويوفى» كلها مشتقة من مادة (وفى) التي تعني الوصول إلى الكمال و«التوفية» بمعنى دفع الشيء بصورة كاملة و(توفى) بمعنى أخذ الشيء كاملاً.

ويجب أن نذكر أنّ القرآن الكريم يشير في بعض الموارد بقوله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (الزمر / ١٠)

ولكنه يقول في الآيات السابقة وبعض الآيات الأخرى إنّهم يستوفون نفس أعمالهم، ونحن نقول: إنّه لا منافاة بين الاثنين وذلك للاستفادة من مجموع الآيات الكريمة، فبالإضافة إلى تعلّق الأجر والجزاء بالأعمال فإنّ أعمال الإنسان تستوفى في ذلك اليوم.

ويمكن أن نشبّه هذه المسألة بالسائق الذي يخالف مقررات المرور فكما أنّه يتعرض لخسارة الاصطدام كذلك يجب عليه دفع الغرامة.

ولقد فسّر الكثير من المفسّرين هذه الآيات بأنّها كناية عن أخذ جزاء الأعمال، لكننا نقول: هذا كلام لا دليل عليه بل وكما لاحظنا أنّ هناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة (التي سنشير إليها لاحقاً) تدلّ على تجسّم وحضور أعمال الإنسان يوم القيامة، لذا فنحن ندع الآيات ومعناها الظاهري.

وعلى هذا الأساس نتناول بحث تجسّم الأعمال كما فعل ذلك جمع من أهل التحقيق والتفسير والحديث.

وفي الآية الحادية عشرة إشارة إلى الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وكذلك إشارة إلى العذاب الأليم الذي ينتظر هؤلاء. فتذكر هذه الآية بوضوح الدراهم والدنانير التي اكتنزوها ولم ينفقوها في سبيل الله فسوف يؤتى بها يوم القيامة ويحمى عليها

في نار جهنّم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون

من هنا يطرح هذا السؤال: لماذا خصّت الآية هذه الأعضاء الثلاثة دون غيرها؟

قال البعض: لأنّها تشمل معظم البدن (وإنّما خصت هذه الاعضاء لأنّها تمثل معظم البدن)[1].

وقيل: لأنّ صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته وزوى بين عينيه وطوى عنه كشحه وولاه ظهره.

وقيل: إنّ المقصود من كسب الأموال حصول فرح في القلب يظهر أثره في الوجوه، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم، فلما طلبوا تزيين هذه الأعضاء الثلاثة، لا جرم أن حصل الكي على الجباه والجنوب والظهور[2]

صحيح أنّ هذه الآية لم تذكر صراحة تجسّم الأعمال، ولكنّها دلّت على حضور الأموال في عرصات يوم القيامة، ويمكن أن نعتبر نفس هذا التعبير إشارة إلى مسألة تجسّم الأعمال، وبالرغم من الزوال والفناء الظاهري لهذه الأموال ولكنها بحكم المعاد سوف تعود وتتجسّد هناك ويحمى عليها في نار جهنّم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

ثم يطرح هذا السؤال: ما المراد بالكنز هنا؟ هناك آراء عديدة في الإجابة عنه: فمما لا شكّ فيه أنّ للكنز مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأموال النفيسة التي تجمع وتدخر في مكان ما، فهل يدلّ مفهوم الآية على أنّ حرمة ادّخار جميع الأموال الفائضة عن الحاجة والتي يترتب عليها ماورد في هذه الآية من عقوبات؟ أم أنّ الآية تخصّ الذين يمتنعون من أداء الحقوق الشرعية كالزكاة وغيرها؟ أمّا الذين يؤدّون الحقوق الواجبة فلم تشملهم هذه الآية وماورد فيها من عقوبات؟

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦.

٢. لقد ذكر الفخر الرازي ستة أوجه في تفسير هذه الآية. تفسير الكبير ج ١٦ ص ٤٨، وأشار إلى هذا المعنى تفاسير روح البيان؛ وروح المعاني؛ والقرطبي.

المشهور بين الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين هو المعنى الثاني، ولقد وردت بهذا الخصوص أحاديث كثيرة منقولة عن الطرفين (السُّنّة والشيعة) ومن جملتها الحديث المنقول عن الرسول الأعظم ﷺ: *«أي مال أديت زكاته فليس بكنز»*[1].

كما أنّ هناك احتمالاً آخر وهو أنّ المجتمع الإسلامي إذا تعرض نتيجة تجميد رؤوس الأموال إلى أزمة اقتصادية شديدة، فيجب على أصحاب رؤوس الأموال اخراجها، إمّا عن طريق الانفاق أو عن طريق استثمارها في مجالات العمل المختلفة من أجل تأمين المتطلبات الضرورية للمجتمع.

فاذا اكتنزوا أموالهم في مثل هذه الأوضاع ولم يخرجوها للتداول والاستثمار فسوف تشملهم الآية الكريمة. ولعل مايؤكد هذا المعنى ما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ إذ قال: *«مازاد على أربعة آلاف فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدها وما دونها فهي نفقة فبشرهم بعذاب اليم»*[2].

لا تجزون إلّا ما كنتم تعملون:

يلاحظ في الآية الثانية عشرة تعبير جديد في هذا الصدد وخلاصته أنّ جزاءكم يوم القيامة هو نفس أعمالكم ونجد هذا التعبير في كثير من الآيات القرآنية فتارة يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

ولقد ورد عين هذا التعبير في الآية ١٦ من سورة الطور والآية ٧ من سورة التحريم.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. (يس / ٥٤)

وقال أيضاً: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل / ٩٠)

---

١ تفسير المنار، ج ١٠، ص ٤٠٦ وفي صحيح البخاري هناك باب تحت عنوان (ما أدى زكاته فليس بكنز) ج ١، الجزء ٣، ص ١٣٢، وكذلك تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣، ح ١٣٢

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. (يونس / ٥٢)

وهناك تعابير أُخرى من هذا القبيل بشيء من الاختلاف، وبناءً على ما جاء في ظاهر هذه الآيات فإنّ جزاء الإنسان نفس عمله، فأعماله ترجع إليه فتكون سبباً إمّا في شقائه ومعاناته وإمّا في سعادته وسروره، وهذا دليل واضح على مسألة تجسّم الأعمال وعودتها إلى صاحبها وهذا من العدل الإلهي.

وقد اعتبر بعض المفسّرين أنّ (الباء) هي باء السببية فيصبح المعنى ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنّما تجزون بسبب الأعمال التي اقترفتموها[١].

في حين أنّ هذا التعبير على خلاف ظاهر الآية وهو غير جائز من غير دليل ولا علة للتقدير في الآيات السالفة الذكر، فما المانع من أن تحضر هناك نفس أعمال الإنسان لتشكل القسم الأعظم من جزائه.

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان في ذيل الآية ٧ من سورة التحريم «أي إنّ العذاب الذي تعذبون به هو عملكم السيء الذي عملتموه وقد برزت لكم اليوم حقيقته»[٢].

꧁꧂

يتضح من مجموع الآيات التي تعرضنا إلى تفسيرها أننا إذا لم نتلاعب بظواهرها ولم نؤولها أو نحملها على معنىً آخر ولم نقدّر لها أي تقدير كجملة أو كلمة، وبتعبير أوضح إن فسّرنا ظواهر الآيات كما هي عليه اتّضح لنا أنّ أعمالنا تتجسد في يوم القيامة وفي محكمة العدل الإلهي أو المواقف الأُخرى من ذلك اليوم، فتتجسّم وتبرز أمامنا بأشكال تناسب تلك الأعمال فتظهر السيئة على صورة موجودات قبيحة مخيفة ومزعجة، أمّا الصالحة فتتجسد على صورة موجودات لطيفة مؤنسة وتكون قرين الإنسان.

---

١. قدّر البعض كلمة (على) فيصبح المعنى (على ما كنتم تعملون).

٢. تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٣٨٨.

توضيحات

١ ـ رؤية الأعمال في الروايات الإسلامية

لقد وردت مسألة رؤية الأعمال بنطاق واسع في الروايات الإسلامية المنقولة عن الشيعة وأهل السنّة، وهذه الكثرة بلغت إلى حدّ جعل المرحوم الشيخ البهائي يقول في احدى محاضراته. «تجسم الأعمال في النشأة الأخروية قد ورد في أحاديث متكثرة من طرف المخالف والموالف»، وسنتطرق هنا إلى بعض من هذه الأحاديث:

١ ـ ورد في حديث عن الرسول الأكرم ﷺ روى أصحابنا «رضي الله عنهم» عن قيس بن عاصم قال: وفدت مع جماعة من بني تميم على النبي ﷺ فدخلت عليه فقلت: يانبي الله عظنا موعظة ننتفع بها، فإنّا قوم نعبر في البرية، فقال الرسول الأعظم ﷺ: *«يا قيس إنّ مع العزّ ذلاً، وإنّ مع الحياة موتاً وإنّ مع الدنيا آخرة، فإنّ لكل شيء حسيبا، وإنّ لكل أجل كتاب وأنّه لابدّ لك ياقيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ثم لا يحشر إلّا معك، ولا تحشر إلّا معه، ولا تسأل إلّا عنه فلا تجعله إلّا صالحاً فإنّه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلّا منه وهو فعلك».*

وورد في ذيل الرواية أنّ قيس قال: يارسول الله أحب أن يكون هذا الكلام أبياتاً من الشعر نفتخر بها على من يلينا وندّخرها فأمر من يأتيه بحسّان، فقال الصلصال (وكان حاضراً في المجلس) يارسول الله قد حضرتني أبيات أحسبها توافق ما أراد قيس، فقال هاتها، فقال:

تجنب خليطا من مقالك إنّما	*قرين الفتى في القبر ما كان يفعل*
ولن يصحب الإنسان من قبل موته	*ومن بعده إلّا الذي كان يعمل*[1]

---

١. تفسير الميزان، ج ١٩، ص٢٢٨ و ٢٢٩ ولكن يستفاد من رواية المرحوم الصدوق في كتاب الخصال أنّ هذين البيتين قالهما قيس بن عاصم بالبداهة. وكان البيت الأول وحسب ما نقله الشيخ الصدوق في الخصال، ج ١، باب ٣، ح ٩٣:

تخير خليطا من مقالك إنّما   قرين الفتى في القبر ماكان يفعل.

٢ ـ في حديث آخر نقله أبو بصير عن الإمام الباقر ﷺ أو الإمام الصادق ﷺ: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ست صور، فيهن صورة أحسنهن وجهاً وأبهاهن هيئة، وأطيبهن ريحاً، وانظفهن صورة، قال: فتقف صورة عن يمينه، وأخرى عن يساره، وأخرى بين يديه، وأخرى خلفه، وأخرى عند رجليه وتقف التي أحسنهن فوق رأسه، فإن أتي عن يمينه منعته التي عن يمينه ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست قال: فتقول التي أحسنهن صورة: ومن أنتم جزاكم الله عنّي خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد. أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره أنا الزكاة وتقول التي بين يديه أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحج والعمرة وتقول التي عند رجليه، أنا بر من وصلت من اخواني، ثم يقلن من أنت؟ فأنت أحسننا وجهاً، وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيبة فتقول أنا الولاية لآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين»[١].

٣ ـ ورد في حديث عن الرسول ﷺ، أنه قال: «قال لي جبرائيل: يامحمدا عش ما شئت فانّك ميت، واحبب ما شئت فانّك ملاقيه»[٢]

٤ ـ وفي حديث آخر عن الرسول ﷺ: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له من أنت؟ فوالله إنّي لأراك امرأ صدق، فيقول له أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنّة»[٣].

٥ ـ وفي الختام نذكر حديثاً ورد عن الإمام الصادق ﷺ: «إذا وضع الميت في قبره مثل له شخص وقال له ياهذا كنّا ثلاثة، كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلفوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك، أما أنّي كنت أهون الثلاثة عليك»[٤].

والأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة ومن جملتها أحاديث المعراج، فلما عرج

---

١. كتاب المحاسن طبق نقل بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٣٤، ح ٥٠.

٢. كنز العمال، ج ١٥، ص ٥٤٦

٣. المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٦٦.

٤. فروع الكافي، ج ٣، (كتاب الجنائز)، ص ٢٤٠، ح ١٤

بالرسول ﷺ مرّ على الجنّة والنّار فرأى كل زمرة من العاصين تعذب بعذاب شبيه بأعمالهم، كذلك شاهد أعمال الصالحين وهم منعمون برفقة أعمالهم.

وما الأخبار الواردة حول الغيبة وتجسمها على صورة قطعة لحم متعفنة يتناولها المغتاب إلّا دليلا آخر على هذا المعنى.

ويمكن أن نستنتج من مجموع الروايات والآيات السابقة أنّ أعمال الإنسان تتجسد في عالم البرزخ والقيامة في صور متناسبة مع العمل، وأن تعبير: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾. (النساء / ١٠)

يدل على أنّ باطن العمل يتمتع بنوع من الحضور. فأكل مال اليتيم يكون في بطنه على شكل نار محرقة ومن لم تكن له عين باصرة لا يرى حقيقة هذا الأمر

من هنا نقول إنّه ليس من الضروري حمل جميع هذه الآيات والروايات على المعنى المجازي والكنائي أو إيجاد تأويل أو تقدير لها، مع العلم بأنّه لا يوجد أي مانع من العمل بظواهر مثل هذه الآيات وكما سيبين ذلك لاحقاً.

٢ ـ تجسد الأعمال في منطق العقل

الإشكال الأول الذي يرد على مسألة رؤية وحضور الأعمال ـ كما يتضح من بعض كلمات المرحوم الطبرسي في مجمع البيان ـ هو أنّ العمل من جنس «العرض» لا «الجوهر» فلا يحمل خواص المادة ولا هو مادة بنفسه لذا فهو ينعدم بعد حدوثه.

والإشكال الثاني: هو أنّ العمل يمحى ويزول بعد وجوده، لذا فإنّنا لا نجد آثاراً من أحاديثنا وأفعالنا الماضية إلّا ما أحدثت تغييراً في بعض المواد الموجودة كتحول الحصى والخشب والجص إلى بيت معين، وهذا ليس بتجسم وإنّما هو تحوّل ناشيء من العمل (تأمل).

ولكن إذا أخذنا النكتتين أدناه بنظر الاعتبار سوف تتضح الإجابة عن الشبهتين السالفتين وكذلك تتضح مسألة تجسم الأعمال.

النكتة الأولى: لقد ثبت اليوم أنّ المادة لا تفنى، وحتى الأعمال فانّها تتحول إلى صور مختلفة.

فإن تحدّثنا فستنتقل أصواتنا على شكل أمواج صوتية إلى الفضاء المحيط بنا وتصطدم بالأجسام التي تعترضها من جدران وأبنية وأجسام أخرى وتتحول إلى طاقة أخرى، ومن الممكن أن يتغير شكل هذه الطاقة مرّات عديدة ولكنها لن تفنى، وما حركات أيدينا وأرجلنا إلّا نوعٌ من الطاقة وهذه الطاقة (الميكانيكية) لا تفنى أبداً وإنّما تتحول إلى طاقة حرارية أو طاقة أخرى.

والخلاصة: ليست المادة لا تفنى فقط بل وحتى طاقتها ثابتة ولا تفنى أيضاً بل تتحول من شكل إلى آخر.

النكتة الثانية: وقد تمّ إثباتها بشكل قاطع من خلال بحوث العلماء وتجاربهم وهي: إنّ هناك علاقة قريبة بين المادة والطاقة، أي أنّ المادة والطاقة يظهران لحقيقة واحدة، فالمادة عبارة عن طاقة مخزونة أمّا الطاقة فهي مادة غير مخزونة (حرة)، لذا يمكن أن تتحول أحداهما إلى الأخرى تحت شروط معينة، فالطاقة الذرية هي تحول المادة إلى طاقة، وبتعبير آخر أنّ الطاقة الذرية: هي انشطار نواة الذرة وتحرير طاقتها الكامنة، ولقد أثبت العلماء أنّ الطاقة الحرارية للشمس تحصل نتيجة الانفجارات الذرية فيها، ولهذا السبب تفقد مقداراً كبيراً من وزنها كل أربع وعشرين ساعة ولو أنّ هذا النقصان ضئيل قياساً بوزن وحجم الشمس.

بلا شكّ وكما أنّ المادة قابلة للتحول إلى طاقة كذلك الطاقة فانّها قابلة للتحول إلى مادة، أي إذا تراكمت الطاقة المنتشرة فانّها تأخذ حالة الجسم المادي.

وعلى هذا الأساس لايوجد أي مانع من عدم فناء ومحو أعمالنا وأقوالنا التي هي طاقات مختلفة وارجاعها مرّة أخرى بأمر الله على صورة جسم.

ومن المسلَّم به أنّ كل عمل سيكون جسماً بما يتناسب مع خواصه وصفاته. فالطاقات التي تبذل في سبيل الإصلاح وخدمة الناس والتقوى تظهر على شكل صورة جميلة تتناسب مع ذلك العمل.

أمّا الطاقات التي تستعمل في مجال الظلم والجور والقبح والفساد فتتجسم على شكل صورة قبيحة مخيفة.

وعلى هذا الأساس تعتبر حالة تجسّم الأعمال احدى المعاجز العلمية للقرآن. وكما اتّضح أنّ بقاء الطاقة وتحول المادة إليها وبالعكس لم تكن مطروحة آنذاك. لكن الآيات والروايات تحدثت عن هذا الأمر بشكل واضح وبناءً على ذلك لم يكن هناك مشكلة لا من حيث كون الأعمال من جنس «العرض» ولا من حيث كونها ـ كما أشرنا ـ لا تفنى وأنّ العرض والجوهر وجهان لحقيقة واحدة ويتضح هذا المعنى أكثر بالالتفات إلى حركة الجوهر حيث إنّ القائلين بحركة الجوهر يستدلون بالحركات التي تقع في العرض ويرون أنّ العرض والجوهر لا ينفكان عن بعضهما البعض.

ومن المناسب أن نشير إلى هذه النكتة في نهاية الموضوع

إنّ العالم الفرنسي (لافوازيه) استطاع بعد جهود حثيثة أن يكتشف أصل بقاء المادة وأثبت أنّ مواد العالم لا تفنى أبداً بل تتحول من شكل إلى آخر.

ولم يمر طويلاً إلّا واكتشف (بيركوري وزوجته) ولأول مرّة العلاقة بين الطاقة والمادة من خلال تجاربه على المواد النشطة اشعاعياً (وهي أجسام تتكون من ذرات غير ثابتة وتتحول بعض أجزائها تدريجياً إلى طاقة) وبهذا الاكتشاف تبدل قانون بقاء المادة إلى قانون بقاء (المادة ـ الطاقة).

وبهذا تزلزل أصل بقاء المادة وحلّ محله أصل بقاء مجموعة (المادة ـ الطاقة)، وأخذت عملية تحول المادة إلى طاقة عن طريق انشطار الذرة بعداً علمياً واسع النطاق.

ومن خلال هذا تبيّن أنّ هناك علاقة قريبة بين انشطار المادة والطاقة، ويمكن أن تتحول إحداهما إلى الأخرى، وبعبارة أخرى أنّ المادة والطاقة شكلان لحقيقة واحدة.

إنّ هذا الاكتشاف العلمي الكبير أحدث تحولاً واسعاً في مجال البحوث والتجارب العلمية التي أثبتت وحده العالم أكثر فأكثر

إنّ هذا المبدأ في مسألة المعاد وبحث تجسّم الأعمال ودفع الإشكالات التي كان الأقدمون يطرحونها حول هذه المسألة كان له أكبر الأثر في ازالة موانع إثبات تجسّم الأعمال

ﮊﮋ

٣ ـ تجسد اخلاق وسجايا الإنسان

يستفاد من الروايات الإسلامية إضافة إلى مسألة تجسّم الأعمال أنّ أخلاق الإنسان تتجسّد أيضاً في ذلك اليوم على صورة إنسان

وعلى هذا الأساس فإنّ الناس يردون المحشر على صور مختلفة بما يتناسب مع أخلاقهم وطباعهم، فالذين لهم قلوب مملوءة بنور الإيمان تظهر وجوههم بيضاء ونورانية منيرة، وبعكس ذلك القلوب المظلمة الذين كانوا يعيشون في ظلمات الكفر فإنّ وجوههم سوف تكون مسودة وكالحة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بالقول: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(آل عمران / ١٠٦ ـ ١٠٧)

وقال تعالى في موضع آخر فيما يتعلق بعاقبة المذنبين والظلمة: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ﴾ (يونس / ٢٧)

نعم، إنّ ذلك اليوم هو يوم ظهور وتجسد الأعمال، فتبرز كل الأخلاق والطباع الداخلية والملكات النفسية ويصطبغ جميع جسد الإنسان بلونها الخاص كما قال الشاعر الفارسي

كلّما يسترطن القلب، له صبغة يوم انبعاث البشر
والذي كنت عليه عاكفاً فيه تحشر يوم المحشر

ونقل بعض المفسرين الكبار عند تفسيرهم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾. (النبأ / ١٨)

حديثاً عن الرسول ﷺ، وخلاصته:

كان معاذ بن جبل جالساً بالقرب من رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب الأنصاري، فقال: يارسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾، فقال: *«يامعاذ سألت عن عظيم من الأمر ثم أرسل عينه ثم قال: عشرة أصناف من أمتي يحشرون أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين فبعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم عمي يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلون وبعضهم يمضغون ألسنتهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقززهم أهل الجمع، وبعضهم أشد نتناً من الجيف»* الحديث.

فأمّا الذين على صورة القردة، فالقتات من الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير، فأهل السحت، والعمي، الجائرون في الحكم، والصم البكم، المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم العلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم، والذين أشد نتناً من الجيف، الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى في أموالهم[1]

٭٭٭

١ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٢٣؛ ولقد نقل هذا الحديث الكثير من المفسرين مثل أبي الفتوح الرازي في روح الجنان؛ والقرطبي؛ وروح البيان؛ وتفسير الصافي في ذيل الآية مورد البحث



٥ـ محكمة العدل الإلهي

الشهود والميزان والحساب:

تمهيد:

إنّ أهم منازل يوم القيامة هو مرحلة حساب الخلائق في محكمة العدل الإلهي بحضور مختلف الشهود، فتوزن الأعمال هناك بميزان خاص.

نعم، هي محكمة يتزلزل الجميع فيها ويغمرهم الخوف والوجل.

قاضيها وحاكمها هو الله جلّ جلاله، وشهودها الملائكة المقرّبون.

محكمة كتابها لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها فيُسأل الإنسان فيها عن كل شيء حتى عن نيّاته.

وآيات المعاد في هذا المجال كثيرة فأحياناً تشير إلى أصل محكمة الآخرة وإلى قاضيها سبحانه وتعالى، وأحياناً أخرى تشير إلى الشهود وثالثة إلى الميزان ورابعة إلى كيفية الحساب في ذلك اليوم.

إنّ الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع إضافة إلى ماتطرحه من نكات ظريفة ودقيقة في كافة المجالات، فانّها تحمل رسالة تربوية هامة لها أبلغ الأثر في تنوير القلوب بنور التقوى والهداية وتدفع الإنسان إلى القيام بمسؤولياته على أكمل وجه لتوصله إلى طريق السعادة والتكامل.

بعد هذه المقدمة نرجع إلى القرآن الكريم ولنقرأ هذه الطائفة من الآيات:

١ ـ ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس / ٣٢)

٢ ـ ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج / ٦٩)

٣ـ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾. (التين / ٧ و ٨)

٤ـ ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس / ٤٦)

٥ـ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾. (النساء / ٤١)

٦ـ ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾. (ق / ٢١)

٧ـ ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. (النور / ٢٤)

٨ـ ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

(فصلت / ٢١)

٩ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزال / ٤ـ٥)

١٠ـ ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء / ٤٧)

١١ـ ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾. (الأعراف / ٨ـ٩)

١٢ـ ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾. (ص / ٥٣)

١٣ـ ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (آل عمران / ١٩٩) (المائدة / ٤) (ابراهيم / ٥١) (غافر / ١٧)

١٤ـ ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾. (الانعام / ٦٢)

١٥ـ ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (الغاشية / ٢٥ـ٢٦)

١٦ـ ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ (الاسراء / ١٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الجميع محضرون في تلك المحكمة العظمى:

الآية الأولى تتحدث عن حضور جميع الأمم أمام الله تعالى في محكمة عدله، فبعد أن أشارت إلى الأقوام السالفة وكيفية هلاكها بذنوبها، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[1].

---

١. يرى جمع من المفسرين أنّ الآية تعرب على هذا النحو: إنْ نافية، ولمّا بمعنى إلّا، وجميع بمعنى ☜

صحيح، أنّ الناس وجميع المخلوقات في هذه الدنيا وفي كافة الأحوال حاضرون دائماً، في محضر الله تبارك وتعالى، فهو حاضر في كل مكان وهو معنا أينما كنّا، وهو أقرب إلىٰ أنفسنا منّا، ولكن هذه المسألة تتخذ بعداً آخر يوم القيامة، فمن جهة يكشف عن جميع حجب الغفلة والجهل فتصبح الأبصار حادة قوية والقلوب ذات بصيرة نافذة ومن جهة أُخرىٰ تتجلى في ذلك اليوم آثار الله أكثر من أي وقت آخر فتقام محكمة عدله وتوضع موازين القسط.

حقاً إنّه مشهد عظيم، الجميع يحضر ليقف على ماقدم وعمل في الحياة الدنيا، الكل في محضر الله تعالىٰ.

٭٭٭

وتتحدث الآية الثانية عن حكمه وقضائه تبارك وتعالى بين الناس في ذلك اليوم، وعن الفصل بين جميع الخلافات ومنازعات الناس في هذه الدنيا بمختلف أشكالها وألوانها (العقائدية، أو اليومية)، قال تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

من البديهي أنّ أنواع الحجب التي تحيط بفكر وقلب الإنسان في هذه الدنيا (حب الذات، الأنانية، المصالح الشخصية والطائفية، العصبية وحجاب الذنوب) لا تسمح بحل اختلافات الأقوام والشعوب، ولكن عندما ترفع جميع هذه الحجب ويصبح الحكم لله الواحد القهار عند ذلك تنتهي جميع الاختلافات والمنازعات.

إنّ المبطلين بعد ازالة هذه الحجب ينقادون ويرجعون إلىٰ عقولهم بحيث يصبحون هم المحاسبين لأنفسهم، وسيبيّن ذلك في البحوث المقبلة.

٭٭٭

مجموع خبر (كل)، وتنوين كلّ بدل من المضاف إليه المحذوف، وكان في الأصل (كلهم)، ومحضرون إمّا هو خبر بعد الخبر أو صفة لجميع، وعلى هذا المعنى يكون الجملة هكذا: (وما كلهم إلّا مجموعون يوم القيامة محضرون لدينا) وهناك احتمالات أخرى في إعراب الآية.

أمّا الآية الثالثة فقد أبرزت نفس هذا المعنى بنحو آخر فتحدثت عن الإنسان الجحود الذي خلقه الله سبحانه وتعالى: ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، وعلى أثر سوء أعماله سقط في (أسفل سافلين) فتقول الآية: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ [١] أيّ شيء يكذبك أيّها الإنسان بعد كل هذه الحجج والدلائل بالدين الذي هو الجزاء والحساب (أو أيّ شيء يُكذّبك أيها الإنسان بعد كل هذه الحجج والدلائل بالمعاد).

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾، أي (أليس الله بأقضى القاضين فيحكم بينك يامحمد وبين أهل التكذيب بك).

أجل فهو أحكم الحاكمين لعلمه المحيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية، فالعلم هو الشرط الأول الذي يجب توفره في الحاكم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أنّه تعالى غير محتاج لأحد وليس له مصلحة في شيء حتى يقضي لأجله على خلاف الحق.

أمّا الناس فهم محتاجون فيقعون تحت تأثير المصالح الشخصية أو الجماعية وأحياناً العواطف والأحاسيس فيحكمون حكماً على خلاف الحق والعدل، وبما أنّ الله سبحانه وتعالى منزّه عن كل ذلك فهو أحكم الحاكمين وخير الفاصلين.

والجدير بالذكر أنّ كثيراً من التفاسير ذكرت هذه الرواية عن الرسول الأكرم ﷺ وهي أنّه ﷺ عندما كان يكمل هذه الآيات كان يقول: *«بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»*.

هذا الحديث هو دليل على التفسير الذي ذكرناه سابقاً (تأمل جيّداً).

ﮋﮊ

شهود للمحشر:

ورد في الآية الرابعة كلام عن شهود يوم القيامة فأشارت إلى الذات الإلهيّة المقدّسة فهو

---

١. عدّ أغلب المفسرين الخطاب موجهاً إلى الذين سبق ذكرهم في السورة المباركة واحتمل البعض أنّه موجّه إلى النبي الأكرم ﷺ، (تفاسير مجمع البيان، الكبير، والقرطبي، وفي ظلال القرآن ـ وفي الصورة الأولى تصير كلمة (يكذّبك) (يجعلك كاذباً) وفي الصورة الثانية يفسر على معنى مظهر بمعنى ماينسبك إلى الكذب، وعلى أية صورة كانت فإنّ المراد أن لا مجال لانكار المعاد وتكذيب النبي ﷺ لكثرة الآيات والأدلة الواضحة.

تعالى الشاهد الأول، قال تعالى: ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

فالمحكمة التي يكون حاكمها الله جلّ جلاله وشاهدها الأول ذاته المقدّسة فهل من الممكن أن يغفل عن شيء ويفوته عند الحساب؟!

ومن البديهي أن تكون مثل هذه المحكمة محكمة مثيرة للقلق والوجل لا لاحتمال الحكم بغير الحق بل بسبب سوء أعمالنا.

لقد فسّر بعض المفسرين الشهادة هنا بمعنى الجزاء والمجازاة في حين أنّه لا ضرورة لمثل هذا التفسير الذي يخالف ظاهر الآية، وذلك لعدم وجود أي مانع لشهادة الذات الإلهيّة المقدّسة على أعمال العباد في ذلك اليوم وتعيين شهادته تعالى عن طريق الهام الملائكة المأمورين بالحساب.

وقيل: إنّ شهادة الله تكون بإنطاق أعضاء جسم الإنسان فتجيب عمّا اقترفت من أعمال في الدنيا.

٭٭٭

الآية الخامسة تحدّثت عن شهود المحشر أيضاً ولكن كان الكلام فيها يدور حول شهادة الأنبياء على أممهم وشهادة الرسول الأعظم ﷺ على سائر الأنبياء، قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾

ومع أنّ هذه الآية لم تذكر صراحة أنّ شهداء كل أمة هم أنبياؤها، ولكن القرائن تؤكد هذه المسألة وذلك لأنّ نبي كل أمة هو أكثر الناس صلاحية للشهادة على أمته كما أنّ الآية الكريمة لم تذكر من المراد بكلمة (هؤلاء) أي من هم بالدقّة؟ ولذا فقد ذكر المفسرون احتمالات لذلك، قال بعضهم: إنّها إشارة إلى قوم الرسول ﷺ فهو الشاهد عليهم يوم القيامة[2].

---

١ جاء في تفسير الميزان: أنّ (ثمّ) الواردة في الآية أعلاه تُفيد التراخي في البيان لا التراخي في الزمان في حين أنّه يمكن تصور التراخي الزماني في مورد الآية أيضاً، وذلك لأنّ الله تعالى يحشر الناس أولاً وبعدها يشهد على أعمالهم نظراً لأنّ المقصود هو الشهادة عند الحساب.

٢ ورد هذا الاحتمال في تفسير الكشاف، ج ١، ص ٥١٢ وكذلك في تفسير مجمع البيان ج ٣، ص ٤٦

ولكن الكثير من المفسرين قالوا: (هؤلاء) إشارة إلى الأنبياء الذين أشارت إليهم الجملة السابقة، وبهذا سيكون الرسول ﷺ هو الشاهد على جميع الشهود.

ويطرح هنا هذا السؤال: وهو كيف تكون شهادة الأنبياء ﷺ على أممهم أو شهادة الرسول ﷺ على الأنبياء مع العلم أنّ معنى الشهود مقرون مع الحضور، وأنّ كل نبي من الأنبياء ويضمنهم الرسول الأعظم ﷺ حاضر في مقطع زمني محدد من تاريخ أممهم؟

من الممكن أن يكون المعنى أنّ أرواحهم في عالم البرزخ ناظرة إلى أحوال أممهم وهذا ينافي قوله تعالى في الآية التي تتكلم عن لسان المسيح ﷺ ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾. (المائدة / ١١٧)

فيتضح من خلال هذه الآية الكريمة أنّ الشهادة تعني الحضور المقترن بالرقابة والتصدي للانحراف وليس بالحضور فقط. أمّا فيما يتعلق بالرسول الأكرم ﷺ فمن الممكن أن يكون حضور روحه المقدّسة على طول تاريخ البشرية هو السبب لهذه الشهادة كما ورد في الروايات أنّ أول ما خلق الله تعالى نور محمد ﷺ.

عن علي ﷺ: *«إنّ الله تبارك وتعالى خلق نور محمد ﷺ قبل أن يخلق السموات والأرض والعرش والكرسي واللوح والقلم والجنّة والنار»*[1].

وهناك احتمال آخر في معنى الشهادة وهو مقياس الوزن، وذلك لأنّ الإنسان النموذجي يمكن أن يكون بعمله شاهداً على أعمال الصالحين (الأشخاص الذين تشبه أعمالهم أعمال القدوة)، وكذلك شاهداً على أعمال الطالحين. وبهذا المعنى لا ينحصر مفهوم الآية بشهود القيامة.

ومن المناسب أن نذكر حديثاً للرسول الأكرم ﷺ في هذا الصدد، فقد روي أنّ النبي ﷺ قال لابن مسعود: *«اقرأ القرآن عليّ»* قال، قلت: يارسول الله أنت الذي علمتنيه. قال: *«أحبّ أن أسمعه من غيري»* قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء حتى انتهيت إلى هذه الآية فبكى الرسول ﷺ. قال ابن مسعود: فامسكت عن القراءة[2].

---

١. بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٤.

٢. التفسير الكبير، ج ١٠، ص ١٠٥.

وفي نقل آخر وهي امتداد هذه لرواية قال ﷺ: «*يارب هذا على من أنا بين ظهرانيهم فكيف من لم أرهم*»[١].

والظاهر أنّ بكاء الرسول ﷺ إنّما كان للموقف المرعبة في يوم المحشر ولثقل المسؤولية التي وضعت على كاهله ﷺ ألا وهي مسؤولية الشهادة على الحاضرين والأهم منها الشهادة على الغائبين والتي سوف يقدر عليها بالتأييد الإلهي.

ولقد جاء في الآية السادسة حديث عن شهادة الملائكة في تلك المحكمة العظيمة، قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾.

«*السائق*»: هو الذي يسوق النفوس إلى محكمة العدل الإلهي.

«*الشهيد*»: هو الذي يشهد على أعمالها.

ومع أنّ الآية الكريمة لم تصرّح بأنّ هذين (السائق) و(الشهيد) هو من الملائكة أو من غيرهم؟ وفي حال كونه من الملائكة فأي صنف منهم؟

ولكن القرائن تؤكد أنّه من الملائكة حتماً نظراً لكونهم الأنسب لتحمل مثل هذه المسؤولية الثقيلة وأنّ هذا العمل يناسب نفس الملكين المأمورين بتسجيل «الحسنات» و«السيئات» حيث إنّهما أكثر الملائكة اطّلاعاً على أعمال بني آدم.

وقيل: إنّ السائق هو ملك الموت الذي يسوق الإنسان نحو الموت، والشاهد هو عمل الإنسان أو جوارحه أو صحيفة أعماله.

وفسّر البعض، السائق (بالشيطان) والشاهد بالملك.

ويلاحظ أنّ جميع هذه التفاسير لا تنسجم مع ظاهر الآية باستثناء التفسير الأول، على أيّة حال فإنّ الملك الأول هو المانع من الفرار، أمّا الملك الثاني فهو المانع من الانكار فيومئذ لامحيص للفرار ولا حيلة لانكار الأعمال.

---

١. تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٦٧. ولقد نقل هذا الحديث الآخرون بشيء من الاختلاف.

ويمكن أنْ نشبه حال هؤلاء كمثل حال المجرمين الذين يساقون في هذه الدنيا إلى المحكمة، فهناك مأمور يسوقهم من ورائهم وآخر يتقدمهم بصحيفة أعمالهم

وجاء في نهج البلاغة أنّ الإمام امير المؤمنين علي ﷺ قال بعد هذه الآية: «سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها»[١].

ﻜﻰ

ولقد ورد في الآية السابعة كلام عن (شهادة الجوارح) في تلك المحكمة المرعبة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾. (نور / ٢٥)

ﻜﻰ

أمّا الآية الثامنة فهي تشبه الآية السابقة مع شيء من الاختلاف ألا وهو حديثها عن شهادة الجلود، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

يظهر من الآيات أعلاه أنّ الله سبحانه وتعالى يعطي لأعضاء البدن وحتى الجلد، القدرة على التكلم والنطق، فكل عضو من الأعضاء يجيب عمّا فعله، فالأذن تجيب عمّا سمعت، والعين عمّا رأت، والجلد عمّا لمس، واللسان عمّا قال، واليد عمّا اجترحت، والقدم عن الطريق الذي سلكته، فيعترف كل من الأعضاء الستة بالأعمال التي اكتسبها

ويقول بعض المفسرين: إنّ بعض هذه الأعضاء يشهد على جميع أعمال الإنسان كشهادة الزمان وليس على أعمال ذلك العضو فقط، وهذا لا يتناسب مع ظاهر الآيات، ومن هنا يتضح أنّه إذا لم تذكر بعض الأعضاء (كالقلب والمخ والشفتين والأسنان بالنسبة للنيات والأغذية والأقوال) فلا يعني ذلك أنّ الشهادة تنحصر بهذه الأعضاء الستة، وعلى ما يبدو أنّ

---

١. نهج البلاغة، خطبة ٨٥.

كل عضو يجيب عن أعماله، وأي شاهد أصدق من هذا!

ومن الواضح أنّ هذه الشهادة (شهادة الجوارح) ولو أنّها تنطق بقدرة الله سبحانه وتعالى إلّا أنّها ليست شهادة الله مباشرة ولقد نقل ذلك الفخر الرازي في تفسيره[1] كأحد التفاسير التي قيلت بشأن هذه الآية.

ومن الطريف، طبق هذه الآيات أنّ المذنبين يعاتبون جلودهم ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أو ـ كيف شهدتم ضدنا ـ (السؤال الأول سؤال عن السبب أمّا السؤال الثاني فهو سؤال عن الكيفية)

أمّا بقية الأعضاء الخمسة فلا تسأل مثل هذا السؤال، ولعل السبب في ذلك هو أنّ شهادة الجلود أكثر عجباً من سائر الشهادات وأنّها شهادة غير متوقعة تماماً، إضافة إلى ذلك أنّ الجلود تلمس بشكل من الأشكال جميع الأعمال ولا تختص بعضو معين لا كما قال بعض المفسرين إنّ هذه إشارة إلى «الفرج» فقط.

ونختم كلامنا في هذا البحث بالإشارة إلى أنّه يستفاد من بعض الآيات الكريمة أنّ سائر أعضاء الجسم ماعدا «اللسان» تشهد على الإنسان أولاً، وبعد أن تتضح المسائل يعترف اللسان أيضاً بالحقيقة كما ورد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (يس / ٦٥)

ﮔﮕﮖ

الآية التاسعة تتحدث عن (شهادة الأرض، على الإنسان بما عمل، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

وبهذا تعتبر الأرض التي تؤدّي عليها أعمالنا من أهم الشهود في ذلك اليوم، كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الأعظم ﷺ إذ قال: *«أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل*

---

١. تفسير الكبير، ج ٢٣، ص ١٩٤

على ظهرها تقول عمل كذا وكذا، ويوم كذا وكذا، وهذا أخبارها»[١].

وقال أبو سعيد الخدري: إذا كنت بالبوادي فارفع صوتك بالأذان فانّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: *«لا يسمعه جنّ ولا انس ولا حجر ولا شجر إلّا يشهد له»*[٢].

وأعطى بعض المفسرين احتمالات أخرى في تفسير الآية: من جملتها أنّ الأرض تخبر عن قيام الساعة في هذه الأثناء وعندما يشاهد الإنسان زلزلة الساعة يقول: ما لها **﴿وَقَالَ الإِنسانُ ما لَهَا﴾**[٣].

و ورد هذا الاحتمال أيضاً وهو أنّ الأرض تُحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها فتقول (هذا جسد فلان وهذا جسد فلان)، مشيرة إلى الأبدان التي تلفظها.

ولكن التفسير الأول إضافة إلى أنّه ينسجم مع سياق آيات السورة كذلك يتوافق مع الأحاديث الكثيرة المنقولة عن الرسول الأعظم ﷺ.

ولقد وردت أحاديث كثيرة عن الإمام علي عليه السلام بخصوص شهادة الأرض على الصلاة وعلى تقسيم بيت المال، حيث قال: *«صلّوا في المساجد في بقاع مختلفة فإنّ كلّ بقعة تشهد للمصلي عليها يوم القيامة»*[٤].

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف تتحدث الأرض عن أخبارها؟ لقد أخذ بعض المفسرين بظاهر الآية فقالوا: إنّ الأرض ستكون في ذلك اليوم وبقدرة الله ذات إدراك وشعور وقدرة على النطق فهي تجيب عن الحوادث التي جرت على ظهرها ولا عجب من هذا الأمر، حيث: **﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾**. (العنكبوت / ٦٤)

فحياة القيامة هي الحياة الحقيقية وكل شيء يصبح حيّاً وحتى الأرض فمن الممكن أن

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص٥٢٦، ولقد ورد نفس هذا المعنى في تفسير القرطبي؛ وتفسير روح المعاني؛ وتفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٦، العبارة الموضوعة بين الأقواس هي مطابقة لرواية تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٢.

٣. تفسير القرطبي، ج ٢٠، ص ١٤٩، ذيل الآية مورد البحث.

٤. لئالي الأخبار، ج ٥، ص ٧٩.

يكون لها نوع من الإدراك والشعور.

وقيل إنّ المراد هو أنّ الله سبحانه وتعالى يخلق فيها أمواجاً صوتية، ففي الواقع أنّ المتحدث هو الله سبحانه وتعالى: (ويمكن أن نشبه هذا المعنى بأشرطة التسجيل، حيث إنّ المتكلم ليس جهاز التسجيل وإنّما هو الإنسان الذي سجّل الكلام على الشريط).

وهناك احتمال آخر: هو أنّ المقصود من (حديث الأرض) هو اظهار آثار الأعمال التي اكتسبها الإنسان على ظهرها حيث إنّ لكل عمل آثاراً.

وانسب هذه التفاسير هو التفسير الأول.

نستنتج من مجموع الآيات السالفة الذكر أنّ في يوم القيامة بالإضافة إلى شهادة الله تبارك وتعالى بالنسبة لأعمال العباد، كذلك تشهد الأنبياء والملائكة والجوارح والأرض.

***

ميزان الأعمال:

الآية العاشرة ناظرة إلى مسألة «ميزان الأعمال»، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾.

فكل شيء يوزن بهذا الميزان كبيراً كان أو صغيراً حتى وإن كان بمقدار حبة من خردل فسوف يأتي به الله تعالى للحساب.

و«حبّة الخردل»: حبة صغيرة جداً خفيفة الوزن وتضرب بها الأمثال لصغر حجمها وخفتها، وهي إشارة إلى أصغر الأعمال أي كل شيء في ميزان حتى صغائر الأعمال.

«موازين»: جمع ميزان وهو الوسيلة لقياس الأشياء، وهذا التعبير يدل على أنّ في ذلك اليوم لا يوجد ميزان واحد للأعمال بل هناك عدّة موازين، قيل: من الممكن أن يكون لكل إنسان، أو أمة أو عمل، ميزانٌ، فالصلاة مثلاً توزن بميزان وكذلك الصيام والحج والجهاد أي لكل واحد منها ميزان خاص.

وقيل: إنّ الميزان هو واحد لا أكثر[1]، و سنديل على هذا القول بعض الروايات في هـذا المجال (وسنعرض لها لاحقاً) وما صيغة الجمع (موازين) إلّا لبيان عظمة الميزان حيث يعادل آلاف الموازين، ولكن ـ وكما سنتطرق إلى ذلك ـ لا يوجد أي دليل على هذا التفسير الذي يخالف ظاهر الآية بل هناك عدّة أدلة على تعدد الموازين.

وما يجب معرفته هنا، هو أنّ ميزان القيامة هو كالموازين الدنيوية، فلكل ميزان كفتان ولكن يختلف عنها بكبره وعظمته؟

وإذا كان الأمر كذلك فكيف توزن الأعمال وهي لا وزن لها؟

هناك عدّة آراء في هذا المجال.

فقيل: إنّما يوزن هو صحيفة الأعمال، وقيل: إنّ الأعمال تتجسّم يوم القيامة، ويصبح لها وزن.

والخلاصة أنّ الذين يعتقدون بأنّ موازين القيامة تشبه موازين هذه الدنيا قد اجبروا على القول إنّ هناك نوعاً من الأوزان والأثقال حتى يمكن وزنها بمثل هذه الموازين.

ولكن القرآن يدلّل على أنّ المقصود بالميزان هو وسيلة لقياس الأوزان بمعناها العام وذلك لأننا نعلم أنّ لكل شيء وسيلة وزن تناسبه، فمثلاً وسيلة قياس الحرارة يقال لها ميزان الحرارة أو المحرار، ووسيلة قياس الهواء «ميزان الهواء» أو المحرار أيضاً.

وبناءً على ذلك فإنّ المراد بـ(موازين الأعمال) الوسائل التي بها تقاس أعمال الأخيار والأشرار، وكما ينقل المرحوم العلّامة المجلسي عن الشيخ المفيد رحمه الله: «أنّ أمير المؤمنين والأئمّة من ذرّيته عليهم السلام هم الموازين»[2].

وقد نقل في (أصول الكافي ومعاني الأخبار) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى هذه الآية، فقال: *«هم الأنبياء والأوصياء»*[3].

---

١. تفسير روح المعاني، ج ١٧، ص ٥٠ ـ ٥١.

٢. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٢.

٣. تفسير البرهان، ج ٣، ص ٦١؛ أصول الكافي، ج ١، ص ٤١٩، وقد ورد نظير هذا الحديث في تفاسير أخرى.

ونقرأ في احدى الزيارات المطلقة لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «*السلام على ميزان الأعمال*»[1].

فهذه الشخصيات العظيمة هي موازين الأعمال، فالأعمال التي تشابه أعمال هذه الشخصيات تعتبر ثقيلة في الميزان والأعمال التي لا تشابه أعمالهم تعتبر خفيفة أو لا وزن لها أصلاً. فأولياء الله هم موازين الأعمال في هذه الدنيا ولكن تبرز وتتجسد هذه المسألة في العالم الآخر.

ومن هنا اتضح الجواب عن سبب ورود (الموازين) بصيغة الجمع لكون هؤلاء العظماء متعددين.

وهناك روايات ومسائل أخرى في مجال (ميزان الأعمال) وسوف نتعرض لها في فقرة التوضيحات.



الآية الحادية عشرة جاءت مكملة ومفسرة لموضوع ميزان الأعمال.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

والجدير بالذكر أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لكل إنسان عدداً من الموازين، وهذا التعبير يؤيد التفسير الذي يقول: إنّ لكل عمل ميزاناً، وهناك احتمال أنّ لكلٍّ من الروح والجسم والأقوال والأعمال ميزاناً خاصاً وهذا المعنى على فرض أنّ الموازين جمع ميزان، في حين يرى البعض أنّ موازين جمع موزون (يعني الشيء الذي يوزن وهي نفس أعمال الإنسان)، فمن المسلم أن يكون لكل إنسان وبحالة هذه موازين، أي أنّ له أعمال متنوعة توزن في ذلك اليوم، لكن هذا المعنى يبدو بعيداً نظراً لذهاب أغلب أرباب اللغة والمفسرين إلى أنّ الموازين جمع ميزان، وقد دلّت الروايات السابقة الذكر على أنّ الموازين بمعنى وسائل

1. المرحوم المحدّث القمي في كتابه (مفاتيح الجنان)، ولقد ورد هذه الزيارة كزيارة اولى من الزيارة المطلقة.

لقياس الوزن، وبناءً على هذا يكون ثقل الموزون بسبب ثقل الأعمال التي توضع فيها.

وهناك بحث آخر حول ميزان العدل في يوم القيامة سنتطرق إليه في فقرة التوضيحات.

ﮰﮱ

السرعة في الحساب:

تحدّثت الآية الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة عن يوم الحساب وسرعة الأعمال في ذلك اليوم من قبل الله تعالى.

ولقد تحدّثت الآية الأولى بعد أن أشارت إلى الآيات التي قبلها إلى جنّات عدن وما فيها من نعم كثيرة من أطعمة وأشربة، وحور عين. فقالت: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾

إنّ مسألة الحساب يوم القيامة مسألة واضحة جلية بحيث إنّ ذلك اليوم يسمى بيوم الحساب[1].

ولقد ورد في الآية التي بعدها حديث عن سرعة الحساب ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وكذلك ورد هذا المعنى في آيات عديدة من القرآن الكريم[2]، وهذا التكرار يدلّ على أهمية وعظمة هذه المسألة، فمن جهة أنّها بشرى للصالحين، حيث تخبرهم هذه الآيات بأنّهم ينالون جزاءهم بسرعة، ومن جهة أخرى أنّ هذه المسألة هي وعيد للكافرين والأشرار بأنّ مجازاتهم لن تتأخر أبداً وسوف ينالون مصيرهم بسرعة.

ولقد وردت حول هذا الموضوع (سرعة الحساب) روايات كثيرة نذكر منها:

ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي ﷺ: *«إنّه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة»*[3].

هذا التشبيه في الحقيقة يدلّ على قصر فترة الحساب، لذا جاء في رواية أخرى: *«إنّ الله*

---

١. اللام في (ليوم الحساب) لام الاختصاص، وقيل: إنّها لام التعليل وهذا غير صحيح.

٢. بالإضافة إلى الآية أعلاه ورد نفس هذا المعنى في الآية ٤، المائدة؛ ٥١ إبراهيم؛ و ١٧ غافر.

٣. تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٣١٣.

يحاسب الخلائق كلهم في مقدار لمح البصر [١].

إنّ سبب هذه السرعة واضح حيث إنّ الحساب منوط بالعلم والاطّلاع الكامل ومنوط أيضاً بالقدرة الخارقة، ورعاية العدالة.

وبما أنّ الله سبحانه وتعالى يمتلك الحدّ الأكمل من هذه الصفات لذا فانّه تعالى له القدرة على محاسبة جميع الناس في لمحة بصر.

إنّ وضع أعمال الإنسان والآثار التي تتركها في روحه وجسمه تذكّره دائماً، فهي تحتفظ بنفسها بحساب جميع الأعمال، ويمكن تشبيهها من هذه الجهة بالسيارات أو الطائرات أو السفن، حيث من الممكن حساب جميع ما قطعته السيارة أو الطائرة طيلة عمرها من خلال العدّاد (جهاز الكيلومتر) فكذلك حساب أعمالنا فلا تحتاج إلّا إلى نظرة واحدة لترى وتقرأ هذا المقياس في وجود الإنسان وعينه وأذنه ويده ورجله وروحه

إنّ كل هذه التعابير لها أهداف تربوية هامة، ويتضح هذا بشيء من التأمل والتدبّر في هذه الآيات.

لقد تحدّثت الآية الخامسة عشرة عن حساب أعمال العباد من قبل الله تبارك وتعالى فقالت صراحة: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾.

في حين أنّ الآية السادسة عشرة تقول ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾.

ولكن لا يوجد أي تضاد أو منافاة بين الاثنين

فالحسيب الأصل هو الله تبارك وتعالى ولكنّه يقول للإنسان أيضاً، أنت تستطيع أن تُحاسب نفسك بنفسك، وفي النتيجة تكون جميع المحاسبات واحدة، لا تحيد عن الحق والعدل، لماذا؟

لأنّ أدلّة الحساب في غاية الوضوح وإجراء معين، والقوانين الإلهيّة في ذلك اليوم

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص٢٩٨

صريحة جليّة فلا مجال للاستنباطات الظنّية التي هي منشأ الاختلافات في أحكام القضاء.

ومن الجدير بالذكر أنّ كلمتي «إلينا» و«علينا» اللتين وردتا في: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾، خبر مقدّم تفيدان الحصر، أي رجوعهم إلينا وحدنا، وسيكون حسابهم علينا فقط، وبهذا الترتيب فإنّ هذا ينفي جميع الاحتمالات والإشكالات الأخرى، على أيّة حال فإنّ هذا وعيد للكفّار والمجرمين الذين أعرضوا عن آيات الحق، وقد أشارت إلى هذا المعنى الآيات التي تسبق هذه الآية.

ويمكن أن تكون هذه الآيات بشرى لأولياء الله الذين يعلمون بأنّ حسابهم على الله وسوف يرجعون إلى محبوب قلوبهم فيجزيهم الجزاء الأوفى، وإن كان عندهم زلل أو خطأ فهو يغفره لهم بلطفه وكرمه، وهناك نكتة أُخرى جديرة بالاهتمام حيث ورد في بعض الروايات والزيارات أنّ إياب الخلق وحسابهم على علي عليه السلام والأئمّة المعصومين عليهم السلام، ولقد انتقد هذا الاعتقاد بعض مفسّري أهل السنّة مثل الآلوسي في روح البيان حيث قال إنّ هذا الكلام يتنافى مع ما ورد في الآيات أعلاه.

في حين نحن نعلم بأنّ الإمام علياً والأئمّة المعصومين عليهم السلام كلّهم مطيعون لأوامر الله وأحكامه، وبناءً على ذلك يصبح حسابهم هو حساب الله تعالى وحكمهم كحكم الأعمال التي تقوم بها الملائكة في عالم «التكوين» و«التشريع» وتُنسب جميع هذه الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى لحكم حصولها بأمره، وفي نفس الوقت تُنسب إلى الملائكة أيضاً.

وهناك شبهة أُخرى مشهورة طرحها هؤلاء في هذا الصدد وهذه الشبهة هي «مابالعرض» و«ما بالذات»، وبتعبير أوضح أنّه لا أحد يزعم بأنّ حساب الخلائق وإيابها ينسب إلى علي والأئمّة عليهم السلام بصورة مستقلة، بل إنّ الكل يقول إنّ هذا الفعل بذاته يختص بالله وينسب بالواسطة إلى علي عليه السلام والأئمّة عليهم السلام، وهذه المسألة لا تختلف عن مسألة الشفاعة وعلم الغيب وغيرها من المسائل، فجميع هذه الأُمور تُنسب بالذات إلى الله تعالى وتُنسب بالعرض للأنبياء والأوصياء والملائكة

ومن العجب أنّ الآلوسي قد التفت في آخر كلامه بشكل عابر إلى هذه النكتة، ولكنه عاد وأدار مسير الحديث معترضاً بقوله: «إن كان المقصود هذا فلماذا يختار علياً عليه السلام لأداء هذا العمل من بين الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين»[1]

إنّ الإجابة عن هذا السؤال واضحة: وهي أنّ الإمام علي عليه السلام رجل شامخ وذو درجة رفيعة وكان مجهول القدر في الأمة الإسلامية. فشاء الله تعالى وعن هذا الطريق أن يبرز مقامه الرفيع لكافة الناس.

والشاهد على هذا الكلام أنّ هناك روايات كثيرة رويت عن طرق أهل السنّة تدلّل على أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال بحق الإمام علي عليه السلام: ***«يا علي أنت قسيم النّار والجنّة»***.

ومن جملة هذه الأحاديث

١ ـ ينقل «ابن المغازلي» في كتاب «مناقب أمير المؤمنين عليه السلام» عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: ***«إنّك قسيم الجنّة والنّار»***[2].

٢ ـ ورد نفس هذا المعنى أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله في مناقب الخوارزمي[3]

٣ ـ ينقل ابن حجر في الصواعق المحرقة عن (الدار قطني)، قال الإمام علي عليه السلام ضمن خطاب طويل في الشورى التي أوصى بتشكيلها عمر (الستة أشخاص). هل فيكم رجل غيري، قال رسول الله صلى الله عليه وآله بحقّه: ***«يا علي أنت قسيم الجنّة والنّار؟!»*** فأجاب الجميع: كلا[4]

٤ ـ لقد خصص «الحافظ سليمان القندوزي الحنفي في كتابه «ينابيع المودة» باباً تحت هذا العنوان (في بيان كون علي عليه السلام قسيم الجنّة والنّار) ونقل في هذا الباب الكثير من الروايات[5].

---

١ تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ١١٨ و ١١٩

٢. إحقاق الحق، ج ٤، ص ٢٥٩.

٣. المناقب، ص ٢٣٤.

٤. الصواعق المحرقة، ص ١٢٤

٥. ينابيع المودة، ص ٨٣.

٥ ـ لقد نقل (ابن الأثير) في كتابه «النهاية» هذا الحديث.

٦ ـ يلاحظ هذا المعنى صراحة في الشعر المنسوب للإمام الشافعي:

علـــي حـــبه جُنّة قسيم النـــار والجنّـة

وصـي المصطفى حقّاً إمـام الإنس والجِـنّة [١]

وهناك أحاديث كثيرة في هذا المجال

مع كل هذه الأدلة فكيف يجرؤ الآلوسي في روح المعاني ويقول إنّ هذا الحديث كذب وافتراء على علي عليه السلام؟ لماذا نسمح للتعصب بأن يحول بيننا وبين التحقيق العلمي؟

توضيحات

١ ـ وصف للمحكمة الكبرى

من البديهي أننا (سجناء هذه الدنيا) لا نستطيع أن ندرك الحقائق المتعلقة بيوم القيامة بشكل تفصيلي، وذلك لأنّ عالم القيامة من العلو والعظمة بحيث لا يمكننا حتى تصور المفاهيم الحاكمة على ذلك العالم، ويعدُّ هذا الأمر من المشاكل العويصة، ومثل ذلك مثل تصور العلوم والدراسات الجامعية بالنسبة لطفل في المرحلة الابتدائية.

و مع هذا يمكننا أن نتصور صورة اجمالية عن هذه المحكمة على ضوء الآيات والروايات الواردة في هذا المجال

إنّ عالم الآخرة عالم يكشف عن جميع الحقائق المستورة، عالم تعمّ الحياة فيه كل شيء، وكل مكان، وحتى الجمادات، اليد، الرجل، العين، الأذن، وحتى الجلد وسائر أعضاء البدن كلها تصبح ناطقة وتجيب عن الأعمال التي اكتسبها الإنسان في الدنيا، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى تتجسم أمام الإنسان جميع أعماله، وتعرض صحف الأعمال بخطوط غير قابلة للانكار ويؤتى بالشهود من الملائكة والأنبياء والأوصياء، والأهم من هذا كلّه شهادة الذات الإلهيّة المقدّسة على أعمال الإنسان

---

١. ينابيع المودة، ص٨٦

نعم، إنّها عرصات مرعبة مخيفة فيحاسب الإنسان على كل شيء وحتى عن الأعمال التي بمقدار حبّة خردل أو مثقال درة فتبدو في صحف الأعمال حتى النيات. وفي لحظة واحدة يتمّ حساب جميع الخلائق وتُظلل راية الحق والعدل جميع أرجاء هذه المحكمة العظيمة. فيحضر فيها الصغير والكبير حتى الأنبياء والمرسلون فتطوى جميع الخلافات وينهى كل جدل ويحق حق جميع مظلومي العالم ويرى الناس بأعينهم الكثير من الحقائق التي ما كانوا يصدقون بها من قبل.

إنّ الإيمان والاعتقاد بهذه الحقائق له آثار تربوية عميقة في الإنسان فتنقذه من الضياع والحيرة وتخمد الشهوات وتقضي على المفسد وتصنع من هذا الإنسان ـ المادي ـ ملاكاً طاهراً وفي الحقيقة أنّ الهدف من عرض هذه الآيات هو نفس هدف القرآن الكريم في بناء الإنسان وتزكيته.



٢ـ شهود يوم القيامة

كما قرأنا في الآيات السالفة الذكر أنّ شهود تلك المحكمة كثيرون وعلى رأسهم الذات الإلهيّة المقدّسة

ثم الأنبياء والمرسلون

وبعدهم الملائكة المقربون.

وبعدهم أعضاء وجوارح الإنسان.

ثم الأرض التي نعيش على ظهرها.

إضافة إلى ذلك فقد أشارت الروايات الإسلامية إلى شهداء آخرين ومن جملتهم:

الأوصياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام

نقرأ حديثاً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حول قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾. (النساء / ٤١)

قال: «*نزلت في أُمة محمد ﷺ خاصة! في كل قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمّد شاهد علينا*»[١].

من الممكن أن يكون ذكر أُمة محمّد ﷺ خاصة للتأكيد، على أنّ هذه الأُمّة خاصة يوجد فيها في كل قرن إمام معصوم يشهد عليها.

وبناءً على ذلك فإنّ هذا لايتنافى مع شهادة الرسول الأعظم ﷺ على الأنبياء السابقين.

والشاهد السابع من شهود المحشر كما تنقل بعض الروايات هو «الزمان» فقد ورد في رواية عن أمير المؤمنين علي ﷺ قال: «*ما من يوم يمر على ابن آدم إلّا قال له ذلك اليوم يابن آدم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد فقل فيّ خيراً، أو اعمل فيّ خيراً أشهد لك به في يوم القيامة، فانّك لن تراني بعده أبداً*»[٢].

ومن هنا يطرح هذا السؤال: لماذا كل هذه الشهود؟

الأرض والزمان والملائكة والرسل وجوارح الإنسان والأهم من هذا كلّه شهادة الله تبارك وتعالى، ألا تكفي شهادة الله وحدها؟

نعم، إنّها كافية لأنّه (أحسن الناظرين) و(أحكم الحاكمين) (وعالم السر والخفيات).

ولكن الهدف من كل هذه الشهادات هو تربية الإنسان وتزكيته، فكلما كان عدد الشهود والمراقبين للإنسان أكثر زاد من تأثيرها التربوي على الإنسان، من هنا نرى أنّ الله سبحانه وتعالى زاد عدد الشهود وجعلهم يحيطون بالإنسان ويقفون على أعماله بشكل تام.

بلا شك أنّه يكفي للمؤمن الالتفات إلى أحد هؤلاء الشهود ليكون مراقباً لأعماله، فكيف وكل هذه الشهود؟

إنّ عمل الشهود ليس له بعد تكليفي إداري، حتى نقول لماذا نصب هذا العدد من الشهود لعمل واحد؟ وإنّما هي سلسلة حقائق غيبية خارجية، حيث إنّ أعمالنا تترك أثراً على أعضاء جسمنا وجلودنا، وجوارحنا، والمحيط الذي يحيط بنا والأرض التي نمشي عليها والزمان الذي نعيش فيه كمثل الشريط يحفظ ويسجّل آثار عمرنا بأكمله، إنّ حضور

---

١. اصول الكافي، ج ١، ص ١٩٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٨١، ح ٣٥.

الملائكة أو شهادة الأرواح الطاهرة للأنبياء والأوصياء هي إحدى الحقائق التي تنبع من قدرة أرواحهم وعظمتها، وإنّ حضور الله تبارك وتعالى أيضاً في كل مكان وكل زمان حقيقة غير قابلة للانكار.

لقد تمكن العلماء اليوم من خلال التجارب والبحوث التي أجروها على الطبقات الأرضية والحيوانات المطمورة في بطنها، والآثار الباقية من الإنسان القديم من اكتشاف حقائق عن هذه الحيوانات، فقد وقفوا على كيفية معيشتها وطراز حياتها في تلك العصور السحيقة وكتبوا عنها الكثير من الكتب والمقالات.

فاذا تمكن الإنسان بعلمه المحدود أن تكلم عن مثل تلك الحوادث ويكتشف الكثير من حقائق الحيوانات، والإنسان القديم من خلال آثارها الباقية، في حين أنّ الدنيا دار الخفيات والآخرة دار الظهور ويوم البروز، فكيف سكون القيامة؟

من هنا عندما يتأمل الإنسان بدقّة في هذه المسائل ويفكر في عمقها وعظمتها حقاً حقاً فانها تهزّه ولعله يصرخ: واغفلتاه، أهكذا غفلت مع كل هذه الشهود؟!

ﷺ

٣ـ ماهو ميزان العمل؟

يقول المرحوم الشيخ المفيد ﷺ: «وليس الأمر في معنى ذلك على ماذهب إليه أهل الحشو من أنّ في القيامة موازين كموازين الدنيا لكل ميزان كفتان توضع الأعمال فيهما، فالخبر الوارد أنّ أميرالمؤمنين والأئمة من ذريته هم الموازين فالمراد أنّهم المعدلون بين الأعمال فيما يستحق عليها والحاكمون فيها بالواجب والعدل»[١]

ولكن بعض المفسرين ردوا هذا الكلام، وقالوا إنّ الميزان في الآخرة كموازين الدنيا فتوضع الأعمال فيها، حيث تصبح الأعمال ذات وزن أو توزن صحف الأعمال التي لها وزن.

---

١ بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٢ (مع التلخيص).

ويقول البعض كالعلاّمة المجلسي ﷺ نحن نؤمن إجمالاً بالميزان أمّا فيما يتعلق بجزئياته وكيفيته فلا نقول شيئاً من عندنا.

روي أنّ داود ﷺ سأل ربه أن يريه الميزان فأراه، كل كفّة كما بين المشرق والمغرب، فغشي عليه، ثم أفاق فقال *«الهي! من الذي يقدر أن يملأ كفّته حسنات؟ فقال: يا داود إنّي إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة»* [١].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق ﷺ: *«أنّه سئل عن الميزان، فقال: الميزان العدل»* [٢].

من هنا يطرح هذا السؤال: كيف يكون الجمع بين كل هذه الأحاديث؟ فقد ورد في بعضها: أنّ الميزان بمعنى الوجود المقدّس للأئمة المعصومين ﷺ وفي حديث آخر بمعنى العدل وفي حديث داود (كل كفة كما بين المشرق والمغرب)، وفي الظاهر أنّ هذه الأحاديث الثلاثة متضادة، ولكن إذا أخذنا هذه النكتة بنظر الاعتبار فسوف يزول هذا الاختلاف الصوري، أنّ حقيقة الميزان هي العدل الإلهي وأنّ الرسول الأعظم ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ هم مظهر عدله تعالى، ومن جهة أخرى إننا نعلم أنّه (بالعدل قامت السموات والأرض) [٣].

ومن هنا يتضح سبب دهشة داود ﷺ عند مشاهدته عظمة الميزان وذلك لأنّه رأى عظمة مقام العدل، ومقامات محمّد وآله ﷺ بحيث وجد أعماله لا شيء قبالها.

ومن الطريف أنّ هذا الميزان وبهذه العظمة يمتلئ بتمرة واحدة إذا كان فيها روح الإخلاص فتوجب رضا الله تبارك وتعالى.

ويعتقد بعض المحققين: أنّ الأئمة المعصومين وأولياء الله بمنزلة كفّة الميزان الأولى،

---

١. تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٤٨٦ ذيل الآية ٤٧ الأنبياء. ولقد ورد نفس المضمون مع شيء من الاختلاف في تفسير الكبير ذيل الآية مورد البحث، وكذلك في تفسير روح المعاني الآية نفسها.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥.

٣. الفيض الكاشاني، ورد هذا الحديث في تفسير الصافي ذيل الآية ٧ من سورة الرحمن.

وأعمال الإنسان وعقائده ونيّاته بمنزلة الكفّة الأُخرى فيوازن بينهما يوم القيامة.

ويمكن أن نستفيد من هذا الكلام من خلال الآيات القرآنية التي تذكر: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أو ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ...﴾ أو التعبير الذي ورد في قوله تعالى: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ (الكهف / ١٠٥)

إنّ خفة موازين هذه الطائفة ناشئة من عدم امتلاك الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة وأمّا ثقل موازين الطائفة الأُخرى فهي ناتجة عن امتلاك الرصيد الثقيل من الأعمال الصالحة والاعتقادات الحقّة، وعلى أيّة حال، تقام الموازنة بين الناس من جهة وأولياء الله من جهة أُخرى. فكلما كانت أعمالنا وعقائدنا شبيه ومقاربة لأعمال أولياء الله فسيكون ميزان عملنا ثقيلاً (تأمل)

ﷺ

٤ ـ ماهي الأعمال الثقيلة في الميزان؟

نلاحظ في الروايات الإسلامية تعابير مختلفة حول الأعمال الثقيلة في ميزان العدل الإلهي، وهذه الأعمال هي موجبات النجاة ونيل الكرامة في يوم القيامة، وتحدد هذه الأعمال نظرية الإسلام في المسائل المختلفة ومن جملة هذه الأعمال مايأتي:

١ ـ ورد عن الرسول الأكرم ﷺ: ***«ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإنّ صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»***[١].

٢ ـ وجاء في حديث آخر عن الرسول ﷺ في باب الشهادة بوحدانية الله ونبوّة الرسول ﷺ أنّه قال: ***«تخف ميزان ترفعان منه وتثقل ميزان توضعان فيه»***[٢].

٣ ـ وفي حديث آخر عن الإمام الباقر أو الصادق عليه السلام قال: ***«ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وإنّ الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج ﷺ الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فيرجح به»***[٣].

---

١. سنن الترمذي، ج ٤، ص ٣٦٣، ح ٢٠٠٣.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٥٩، ح ٨.

٣. اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٩٤ باب الصلاة على النبي، ح ١٥ وورد هذا المعنى نفسه في كتاب بحار الأنوار ☜

٤ ـ ورد في بعض الروايات: «*أنّ بعض الأذكار مثل الحمد لله وسبحان الله والله أكبر وكذلك لا إله إلّا الله تملأ ميزان العمل يوم القيامة*»[١].

ويستفاد من الأحاديث السابقة أنّ العمل قد يكون صغيراً ولكن له أهمية كبيرة يجعل ميزان العمل ثقيلاً ويملأ كفتيه وهذا بسبب الأهمية العظيمة التي يوليها الإسلام لمثل هذه الحقائق (حقيقة التوحيد) (حقيقة محمد ﷺ) (حقيقة التسبيح) وكذلك الإرتباط المعنوي بمحمد وآل محمد ﷺ أو (حسن الخلق) وغيرها.

ولقد قرأنا في بعض الأحاديث السابقة أنّ دمعة واحدة تتفق بإخلاص لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته تملأ كفّة ميزان العدل الإلهي الذي يملأ ما بين المشرق والمغرب.

٥ ـ يستفاد من بعض الروايات أنّ الناس يوضعون في الميزان ويوزنون، فذكر المرحوم الطبرسي في مجمع البيان ذيل الآية ١٠٥ من سورة الكهف قال: ورد في رواية صحيحة أنّ الرسول ﷺ قال: «*إنّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة*»[٢].

والسبب واضح وهو أنّ هؤلاء وعلى الرغم من سمن ظاهرهم لكن أعمالهم وأفكارهم وشخصياتهم كانت في هذا العالم فارغة جوفاء.

٥ ـ المسائل التي يسأل عنها يوم القيامة

هناك روايات كثيرة تتعلق بالأمور التي يُسأل عنها يوم القيامة وكل واحدة من هذه الروايات تحتوي على تعابير عميقة المعنى، وإنّ دراسة هذه الروايات له أبلغ الأثر في تربية الإنسان وإبراز معالم القيم الإسلامية.

ومن هذه الروايات ما يأتي:

١ ـ جاء في حديث للرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «*لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى*

... في ج ٩، ص ٥٦، ح ٣١

١. اصول الكافي، ص ٥٤٧، ح ٥

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٩٧

يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت» [١].

٢ـ وجاء في حديث آخر عن الرسول الأعظم ﷺ: *«وأنّه تفتح للعبد يوم القيامة على كل يوم من أيّام عمره أربعة وعشرون خزانة ـ عدد ساعات الليل والنهار ـ فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم عن الاحساس بألم النار، وهي الساعة التي فيها اطاع ربّه ـ ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسم على أهل الجنّة لنغص عليهم نعيمها وهي الساعة التي عصى فيها ربّه ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا مايسوؤه وهي الساعة التي نام فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا فيناله من الغبن والأسف على فواتها حيث كان متمكناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف ومن هذا قوله (ذلك يوم التغابن)»* [٢].

٣ـ وجاء في حديث آخر للرسول الأعظم ﷺ: *«أنا أول قادم على الله ثم يقدم عليّ كتاب الله ثم يقدم عليّ أهل بيتي، ثم يقدم عليّ أمتي ليقفون، فيسألهم ما فعلتم في كتابي وأهل بيت نبيّكم»* [٣].

٤ـ وجاء في حديث آخر: *«أول ما يحاسب به العبد الصلاة فإن قبلت قبل ماسواها»* [٤]

٥ـ وجاء في حديث آخر: *«ان أول مايسأل عنه العبد يوم القيامة عن جلسائه»* [٥].

فمن الممكن أن يشعر القاري بأنّ هناك تضاداً فيما يتعلق بأوّل مايسأل عنه الإنسان يوم القيامة فاذا كان أحدهما هو الأول فكيف يكون غيره الأول أيضاً، ولكن يظهر أنّ المراد بأنّ هناك مجموعة من الأعمال يسأل عنها ضمن المرحلة الأولى، وكل الذي ورد في هذه

---

١. خصال الصدوق، (مطابق لما ورد في بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٨، ح ١).

٢. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦٢، ح ١٥

٣. المصدر السابق، ح ٢٢

٤. المصدر السابق، ص ٢٦٧، ح ٣٣

٥. تفسير درّ المنثور، ج ٥، ص ٢٧٣

الأحاديث إنّما من أجزاء هذه المجموعة، ومن المعلوم أنّ هذه الأحاديث توضح أهمية الموضوعات المذكورة في المنظور القرآني، أي توضح أهمية (التوحيد، والنبوة، وحب أهل البيت، والصلاة، والجلساء).

ويوجد احتمال آخر وهو أنّ هناك مواقف عديدة يوم القيامة وأول ما يسأل عنه في كل موقف من هذه المواقف هو أحد هذه الأمور.

٦ ـ وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين ﷺ أنّه قال: *«اتقوا الله في عباده وبلاده فإنّكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»* [1].

يخبر هذا الحديث بأنّ الإنسان مسؤول حتى عن البيئة والحيوانات وسوف يسأل عنها يوم القيامة.

٦ـ اليسر والعسر في حساب المحشر

نستفيد من مجموع الروايات وحتى الإشارات الواردة في بعض الآيات القرآنية أنّ حساب يوم القيامة دقيق للغاية، وجاء في حديث عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال لرجل: *«يا فلان مالك ولأخيك؟ قال: جعلت فداك كان لي عليه حق فاستقصيت منه حقي، قال أبو عبدالله: أخبرني عن قول الله: ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ أتراهم خافوا أن يجور عليهم أو يظلمهم؟ لا والله خافوا الاستقصاء والمداقة»* [2].

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر ﷺ قال: *«إنّما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»* [3].

ونستفيد من هذا التعبير أنّ هناك علاقة متينة بين «مستوى الفهم والإدراك» و«التكليف» فالحساب يكون على قدر العقول.

---

١ نهج البلاغة، خطبة ١٦٧.

٢ بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦٦، ح ٢٧.

٣. اصول الكافي، ج ١، ص ١١، ح ٧

وفيما يقابل هذه الطائفة (ذات الحساب العسير) طائفة أخرى يكون حسابها يسيراً للغاية قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾. (الانشقاق / ٧ـ٨)

وورد في حديث عن الرسول ﷺ أنه قال: *«ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنّة برحمته: تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك»*[١].

ويستفاد من بعض الروايات أيضاً أنّ (حسن الخلق) يخفف من حساب يوم القيامة، قال الرسول الأكرم ﷺ *«حسّن خلقك يخفف الله حسابك»*[٢]

على أيّة حال، يستفاد من كل هذه المصادر الإسلامية أنّ الناس يختلفون اختلافاً كبيراً فيما بينهم بالحساب يوم القيامة، فطائفة يشدد الله في حسابها وتضم الذين يشددون في حساب الناس في الدار الدنيا وذوي الأخلاق السيئة، والظلمة

وطائفة أُخرى يكون حساب أفرادها سهلاً يسيراً، بسبب أعمالهم الصالحة وحسن أخلاقهم، وتساهلهم وتسامحهم مع عباد الله أو عدم تلبسهم بمال ومقام الدنيا

وطائفة ثالثة وهي التي تدخل الجنّة بغير حساب كما ورد في حديث عن الإمام علي ﷺ في تقسيم الناس يوم القيامة قال: *«ومنهم الذين يدخلون الجنّة بغير حساب، لأنّهم لم يتلبسوا من أمر الدنيا بشيء، وإنّما الحساب هناك على من تلبس بها هاهنا»*[٣].

وفي المقابل: منهم الذين يدخلون النّار بغير حساب كما ورد هذا الحديث عن الرسول الأعظم ﷺ: *«إنّ الله عزّ وجلّ يحاسب كل خلق إلّا من أشرك بالله عزّ وجلّ فإنّه لا يحاسب ويؤمر به إلى النّار»*[٤].

ونقل عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: *«وأمّا الثلاثة الذين يدخلهم النّار بغير حساب*

---

١. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣٧، ح ١٢

٢. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٨٣، ح ٢٠

٣. ميزان الحكمة، ج ١، ص ٦٢٣

٤. بحار الأنوار، ٧٠، ص ٢٦٠، ح ٧

فإمام جائر، وتاجر كذوب، وشيخ زان» [1].

ونختم هذا البحث بحديث آخر للرسول الأعظم ﷺ **«ستة يدخلون النّار بغير حساب الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية والدهاقين بالكبر، والتجار بالكذب، والعلماء بالحسد، والأغنياء بالبخل»** [2].

إلهي نسألك بلطفك وكرمك لما يسرت علينا حساب يوم القيامة، وارحمنا برحمتك. إلهي إنّك تعلم أنّنا قادمون إليك بيد خالية وصحيفة سوداء ياأرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.

٭٭٭

١. بحارالأنوار، ج ٧٢، ص ٣٣٧، ح ٥

٢. ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٤١٩

٦ـ الصراط والمرصاد

تمهيد:

«*الصراط*»: هو جسر ينصب على جهنّم وعلى الجميع عبوره وقد أُشير إليه في الآيات الكريمة بينما ورد ذكره بالتفصيل في الروايات الإسلامية، وكذلك وردت إشارات حول «*المرصاد*» الذي يفسر أحياناً بمعنى الصراط وأحياناً أخرى بأنّه ممر خاص من نفس الصراط

وتدلّ كل التعابير أنّه لأجل الوصول إلى موضع الرحمة الإلهية أي الجنّة يجب العبور على جهنّم وهذا الأمر غير ميسّر إلّا للصالحين والأخيار

فالمذنبون والمجرمون والفاسقون والظالمون لا يمكنهم اجتياز وعبور هذه القنطرة وسوف تزل أقدامهم عنها ويقعون في جهنّم، ولقد وردت في تفسير هذين اللفظين وكذلك في حقيقة الصراط والمرصاد أحاديث كثيرة في الروايات الإسلامية وبحوث المفسرين

إنّ الاهتمام بهذا الموضوع يساعد في فهم وبيان الكثير من المسائل المتعلقة بالمعاد من جهة، ومن جهة أُخرى أنّ هذا الموضوع له أثر تربوي كبير في تزكية نفوس المؤمنين.

نكتفي بهذه المقدمة، ونرجع إلى القرآن الكريم ولنمعن في آياته خاشعين:

١ـ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾. (مريم / ٧١ـ٧٢)

٢ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. (الفجر / ١٤)

٣ـ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾. (يس / ٦٦)

٤ـ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾. (النبأ / ٢١ـ٢٢)

جمع الآيات وتفسيرها

طريق الجنّة يمر عبر جهنّم:

الآية الأولى تخاطب الجميع، وتقول ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ ثم تقول: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ من هنا يطرح هذا السؤال، ما المقصود من ورود جهنّم؟

هناك آراء عديدة وتفاسير مختلفة حول هذه الآية فيعتقد البعض من المفسرين أنّ الورود خلاف الصدور وهو قصد الماء ثم يستعمل في غيره.

يقال وردت الماء أرده وروداً فأنا وارد و ماء مورود، وقد وردت الابل الماء، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾. (القصص / ٢٣)

ومفهوم هذا أنّ الناس إنّما يحضرون النّار ويشرفون عليها من غير أن يدخلوها، ويكون هذا المعنى نفس تفسير *(الصراط)* أي الجسر الذي يمر على جهنّم فعلى الجميع اجتيازه وعبوره، فتزل أقدام المجرمين ويتردّون في النّار، أمّا المؤمنون فيجتازونه بسرعة ويدخلون الجنّة.

وخلاصة الحديث، يقول صاحب الميزان: «و الحق أنّ الورود لا يدل على أزيد من الحضور والاشراف عن قصد»[١]. أو بتعبير الفخر الرازي (وقد ذكر وجهين لمعنى الورود) أحدهما أنّ الورود بمعنى القرب.

ويستفاد من مجموع الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الكلمة أنّها قد استعملت بمعنى الحضور والقرب واستعملت أيضاً بمعنى الدخول أي إنّها تحمل مفهوماً عاماً يشمل كلا المعنيين. لذا قال تعالى مخاطباً المشركين: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(الأنبياء / ٩٨ ـ ٩٩)

وعلى هذا الأساس فلا مانع من أن نفسر *(الورود)* بمعنى القرب والاشراف وأنّه إشارة

---

١ تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٩١

إلىٰ جسر الصراط، والشاهد علىٰ هذا التفسير حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال في تفسير الآية المذكورة: *«أما تسمع الرجل يقول: وردنا ماء بني فلان، فهو الورود ولم يدخله»*[1].

وأوضح من هذا التعبير ماورد في حديث قصير نقله القرطبي في تفسيره وهو مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله *«الورود الممر على الصراط»*[2]

وهناك تفسير آخر يرجحه أغلب المفسرين وهو أنّ البر والفاجر يدخلان جهنّم فتكون برداً وسلاماً علىٰ المؤمنين وعذاباً لازماً على الكافرين والمجرمين، كما أصبحت النّار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، فالنار لا تحرق أجسام المؤمنين بسبب عدم سنخية هذه الأجسام مع النّار فيكون حكم أجسامهم كحكم المواد التي تخمد النيران في حين أنّ سنخية الكفّار تتلائم مع النّار، كمثل المواد المساعدة على الاحتراق.

والدليل علىٰ هذا الكلام رواية نقلت عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه إذ سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله يقول *«الورود الدخول لا يبقىٰ بر ولا فاجر إلّا دخلها فتكون علىٰ المؤمنين برداً وسلاماً حتىٰ أنّ للنّاس ضجيجاً من بردها»*[3].

وإذا رجحنا هذا التفسير فسوف لا تكون الآية دليلاً علىٰ مسألة جسر الصراط.

❀❀❀

الآية الثانية: عبارة عن تهديد ووعيد للظالمين فبعد أن ذكر عذابهم الدنيوي الشديد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾.

«المرصاد»: مشتقة من مادة *(رصد)* على وزن (حَسَد) وهو المكان الذي يرصد منه

---

١ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٠

٢ تفسير القرطبي، ج ٦، ذيل الآية مورد البحث

٣ تفسير روح الجنان، ج ٧، ص ٤٣٦ (وقد نقل هذ الحديث جمع آخر من المفسرين من جملتهم صاحب نور الثقلين، والفخر الرازي).

ويرقب (قال الراغب الرصد الاستعداد للترقب) والمرصد، موضع الرصد.

فما المراد بـ(المرصاد)؟ قال البعض: إنّ الله سبحانه وتعالى رقيب يرقب أعمال عباده في هذه الدنيا ويأخذهم بالعذاب إذ طغوا، وجاء في الميزان: «إنّ الله سبحانه وتعالى رقيب يراقب أعمال عباده حتى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب»[١].

ولكن ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: ***«المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة»***[٢].

وجاء في حديث آخر في روضة الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله بعد أن ذكر خصائص جسر الصراط أنّه قال: ***«وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾»***[٣].

نستفيد من هذين الحديثين اللذين وردا في تفسير الآية أعلاه أنّ الآية ناظرة إلى القيامة وجسر الصراط مع عدم وجود أي مانع من أن تكون الآية ناظرة إلى كليهما، يعني أنّ الله تبارك وتعالى كما أنّه رقيب يرقب أعمال عباده في هذه الدنيا كذلك هو رقيب في العالم الآخر في جوار الصراط، لكن وعلى كل حال فالآية ليس لها مفهوم مكاني وذلك لأنّ الله تعالى لا يحدد بمكان والمقصود هو الاحاطة الوجودية لله على جميع الأمور.

وجاء في حديث عن ابن عباس أنّه قال: «إنّ على جهنّم سبع قناطر، يسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يسأل عن الصلاة فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يسأل عن الزكاة فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يسأل عن صيام شهر رمضان فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يسأل عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة ثم يسأل عن صلة الرحم فإن جاء بها جاز السابعة، ثم يسأل عن المظالم، وينادي مناد: ألا من كانت له مظلمة فليأت، فيقتص للناس منه، ويقتص له من الناس،

---

١. تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٤٠٩، ص ٢٨١

٢. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٤ ولقد وردت نفس هذه الرواية في تفسير البرهان ج ٤، ص ٤٥٨ كتفسير لهذه الآية الشريفة ﴿إنّ ربك لبالمرصاد﴾ ونقلت عن الإمام الصادق عليه السلام.

٣. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٧٢؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٥٨

فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾»[١]

ونحن نستبعد أن يكون هذا الحديث وبهذه التفاصيل من الاستنباطات الشخصية لابن عباس، فلابّد أنّه قد سمعه كرواية من الرسول الأعظم ﷺ أو الإمام علي ؑ.

ولقد ورد تعبير *(المرصاد)* في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾. (النبأ / ٢١) ولكن الظاهر من هذه الآية أنّ جهنّم نفسها مرصاد للطاغين والمجرمين، ومع أحد الآيات السابقة لها بنظر الاعتبار ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ المقصود بالمرصاد هو القنطرة التي تمر من فوق جهنّم (يقال للمكان الذي يختص بالرصد وبما أنّهم غير قادرين على اجتيازه فيسقطون في جهنّم).[٢] إضافة إلى أنّ تعبير بـ(المرصاد) يطلق على الطرق والمعابر، وبما أنّ جهنّم التي تعتبر باصطلاح آخر خطاً، لذا لاتتناسب مع معنى المرصاد وهذه قرينة أخرى على التفسير أعلاه.



الآية الثالثة والأخيرة أشارت إلى وضع الكفار والمجرمين يوم القيامة وأنّهم سيختم في ذلك اليوم على أفواههم ولا تتكلم إلّا أيديهم وأرجلهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾[٣] لقد ذكر الكثير من المفسرين، أنّ هذه الآية ناظرة إلى وضع هذه الطائفة في دار الدنيا حيث فسروا الصراط بـ(طريق الحق) أي أنّهم يجهدوا أنفسهم في سبيل العثور على طريق الحق وطريق النجاة، ولكن الله سبحانه وتعالى وبسبب أعمالهم السيئة جعلهم عمياً لا يبصرون وبهذا فهم ليسوا بقادرين على تمييز ومشاهدة طريق النجاة.

---

١ تفسير القرطبي، ج ١٠ ذيل الآية مورد البحث.

٢. ورد هذا التفسير في تفسير الميزان وفي التفسير الكبير (الفخر الرازي) وفي المفردات والقرطبي في تفسيره ذيل آية سورة النبأ، وذكروا هذا المعنى كتفسير للآية أو كأحد الأقوال في تفسير الآية.

٣. «طمسنا» من مادة «طَمْس» على وزن «شَمْس» بمعنى محو وإزالة آثار الشيء ويمكن أن يكون هنا بمعنى محو العين تماماً أو إطفاء نورها والمطموس والطميس الأعمى الذي ليس في عينه شق.

ويوجد هذا الاحتمال أيضاً وهو أنّ هذه الآية ناظرة إلى وضع هذه الطائفة أثناء عبورها من الصراط (جسر جهنّم) فاذا أراد الله جردهم أعينهم بشكل كامل حتى لا يقدروا على المرور من الصراط مهما جهدوا أنفسهم في ذلك.

والظاهر أنّ عبارة تفسير (في ظلال القرآن) لها نفس هذا المعنى ونقل القرطبي هذا التفسير كأحد الأقوال في تفسير الآية، وإلى ذلك ذهب (عبدالله بن سلام)[1] في تفسير هذه الآية حيث قال: «إذا كان يوم القيامة ومدّ الصراط، نادى منادٍ ليقم محمد ﷺ وأمته، فيقومون برّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فاذا صاروا عليه طمس الله أعين فجّارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم ينادي منادٍ ...»[2].

ونحن نستبعد أن يكون هذا البيان من استنباط (عبدالله بن سلام) حيث إنّ ماورد في هذه الرواية يعد من أخبار الغيب ولا يطلع على الغيب إلّا المعصومون ﷺ.

ولا نستبعد بأنّه قد نقل ذلك كرواية عن الرسول الأعظم ﷺ.

توضيح

ماهي حقيقة الصراط؟

لقد أشرنا عدّة مرات إلى أنّ أهل الدنيا ليس لهم معلومات مفصلة عن الحقائق المتعلقة بيوم القيامة وعالم ما بعد الموت، حيث هو عالم فوق هذا العالم، ولكن هذا الأمر لا يمنع من المعرفة الإجمالية بهذا الموضوع.

ويستفاد من الروايات الإسلامية أنّ الصراط جسر على جهنّم في طريق الجنّة ويرده كل

---

١. (عبدالله بن سلام) كان من علماء أهل الكتاب الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، وكان اسمه الأصل (الحصين) وبعد الإسلام غير الرسول ﷺ اسمه إلى (عبدالله) ويعتقد بعض علماء الرجال بأنّه مجهول الحال ويعتقد آخرون بأنّ رواياته ضعيفة، ولكن بما أنّ ابن داود ذكر في القسم الأول من كتابه في الرجال أنّه معتبر، فقد اعتبروا هذا الشيء قرينة على حسن حاله.

٢. تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٤٩٤.

برّ وفاجر فالأبرار يمرون عليه بسرعة ويصلون إلى النعم الإلهيّة غير المتناهية أمّا الفجّار فتزل أقدامهم ويتردون في نار جهنّم.

ولقد ورد في بعض الروايات أنّ سرعة عبور الناس على الصراط ترتبط بمستوى إيمانهم وإخلاصهم وأعمالهم الصالحة.

فقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: *«منهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً»* [1].

وهنا يطرح هذا السؤال:

لماذا يجب المرور عبر جهنّم للوصول إلى الجنّة؟

هناك نكات لطيفة سنتعرض لها وهي أنّ أصحاب الجنّة عندما يمرون على جهنّم يدركون قيمة الجنّة أفضل إدراك، ومن جهة أخرى أنّ وضع الصراط هناك عبارة عن تجسم لأعمالنا في هذه الدنيا، لذا يجب المرور عبر جهنّم (المحرقة للشهوات) من أجل الوصول إلى جنة التقوى، ومن جهة ثالثة فهو انذار جدي لكافة المجرمين والمذنبين حيث إنّ مصيرهم يؤول إلى العبور من هذا الممر الخطير. لذا ورد في حديث (مفضل بن عمر) قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن الصراط. فقال: *«الصراط الطريق إلى معرفة الله سبحانه وتعالى».*

ثم قال: *«وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط الذي في الدنيا، فهو الإمام المفروض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنّم»* [2].

---

١. أمالي الصدوق، مجلس ٣٣

٢. معاني الأخبار، ص ٣٢، ح ١.

وفي تفسير عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام[1] أنّه فسّر الصراطين (صراط الدنيا والآخرة) الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر من الغلو وارتفع عن التقصير وأمّا الصراط في الآخرة فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة.

وهناك نكتة مهمّة أشارت إليها الروايات الإسلامية، وهي أنّه من العسير العبور على هذا الطريق، فقد ورد حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: *«إنّ على جهنّم جسراً أدق من الشعرة وأحد من السيف»*[2].

نعم، هكذا الصراط (المستقيم) وحقيقة (الولاية) و(العدالة) في هذه الدنيا فهي أدق من الشعرة وأحد من السيف، وهذا يرجع إلى أنّ خط المستقيم خط واحد دقيق لا أكثر. أمّا الخطوط الأخرى فهي منحرفة نحو اليمين أو الشمال، ومن الطبيعي أن يكون صراط القيامة هكذا فهو تجسيد عيني للصراط الدنيوي، ومع هذا فهناك طائفة تمر على هذا الطريق الخطر سريعاً في ظل إيمانها وأعمالها الصالحة.

وممّا لا شك فيه أنّ التمسك بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام يسهل اجتياز هذا الطريق المخوف، فقد جاء في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: *«إذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على جهنّم لم يجز عليه إلّا من كان معه جواز فيه ولاية علي بن أبي طالب»*[3]

ولقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير آخر يتعلق بـ فاطمة الزهراء عليها السلام ومن البديهي أنّ ولاية الإمام علي عليه السلام وولاية الزهراء عليها السلام هما من ولاية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ولا يمكن الفصل بين القرآن والإسلام وسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فإذا لم يكن هناك ارتباط إيماني وأخلاقي مع هؤلاء العظام فلا يمكن الجواز على الصراط، وتوجد في هذا المجال روايات

1. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٩، ح ١٨.
2. ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٣٤٨؛ ووردت كلمة «الصراط» في حديث الإمام الصادق بدل جملة «إنّ على جهنّم جسراً» (بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٤، ح ١).
3. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٨، ح ١١.

عديدة، وللمزيد من المعلومات راجع كتاب بحار الأنوار المجلد ٨ وبالأخص هذه الروايات: (١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧)

ونختم حديثنا بالإشارة إلى البعد التربوي للإيمان و لاعتقاد بمثل هذا الصراط حيث هو صراط مخوف مرعب متزلزل تشوبه الاخطار، صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، صراط له عدّة مواقف وفي كل موقف تُسأل فيه عن شيء، فأمّا الأول فيسأل عن الصلاة وأمّا الثاني فعن الأمانة وصلة الرحم والثالث عن العدالة وما شابه ذلك، ممر لا يمكن لأحد العبور عليه واجتيازه إلّا إذا كان معه جواز فيه ولاية الرسول الأعظمﷺ وولاية الإمام علي عليه السلام والتحلق بأخلاقهم والسير على نهجهم.

وفي النهاية نقول: إنّه ممر تتوقف قدرة اجتيازه على قدر نور الإيمان والعمل الصالح، ومن لم يقدر على اجتيازه فسيقع حتماً في نار جهنّم وسوف لن يصل إلى موضع النعم الإلهيّة المادية والمعنوية (الجنّة) أبداً.

وممّا لا شك فيه أنّ الاهتمام بمثل هذه المفاهيم والاعتقاد بها له آثار واسعة في أعمال الإنسان وتربيته فتحثه على التخلق بأخلاق أولياء الله وتمنحه البصيرة في انتخاب سبل حياته والتمييز الدقيق بين الحق والباطل.






الجنّة

١ ـ موجبات دخول الجنّة

٢ ـ النعم المادية في الجنّة

٣ ـ اللذّات الروحية

٤ ـ أبواب الجنّة

٥ ـ سعة الجنّة

٦ ـ هل الجنّة مخلوقة؟

٧ ـ درجات الجنّة

٨ ـ أسئلة وأجوبة حول الجنّة






الجنة

تمهيد:

إنّ جميع بحوث المعاد تختتم لا محالة بإحدى النقطتين، إمّا (الجنّة) أو (النّار).

فأمّا «الجنّة»، فهي مركز لأنواع المواهب ونعم الإلهيّة المعنوية والمادية.

وأمّا «النّار» فهي مكان لأنواع العذاب ومختلف العقوبات والحرمان، من هنا نتساءل عن حقيقة الجنّة، وكيف تكون؟ وأين تقع؟ وهل هي مخلوقة أم لا؟

هناك آراء عديدة في هذا المجال، ولأخذ الجواب الصحيح عن هذه الأسئلة يمكننا الاستعانة بالتصريحات أو الإرشادات الواردة في الآيات الكريمة، إضافة إلى ذلك هناك آيات كثيرة تتحدث عن خواص الجنّة وأصحابها، والنعم الموجودة فيها من الحدائق، والأنهار، والعيون، والأطعمة، والأشربة الطهورة، والألبسة، والحور العين، والولدان المخلدين، والخدم، والحشم، والاحترام، والإكرام المنقطع النظير من الملائكة وكذلك المواهب المعنوية واللذائذ الروحية، وتشكل مجموع هذه الآيات القسم الأعظم من آيات (المعاد).

ونرى من الضروري الإشارة إلى هذه النكتة وهي أنّ أفكارنا وتصوراتنا محدودة ضمن المعايير والأطر الدنيوية، لذا فإنّ عقولنا لا تدرك حقيقة الجنّة وما فيها من نعم مخفية، الجنّة أفضل وأعلى وأعمق ممّا رأينا أو كتبنا أو قرأنا.

ولكن على أيّة حال يمكننا ـ وعلى ضوء دراسة الآيات القرآنية والروايات الواردة في هذا المجال ـ أن نرسم صورة إجمالية عن الجنّة ومافيها من نعيم، ومن المعلوم أنّ لهذا

التصور آثاراً تربوية قيمة، فمهما كانت دوافع الإنسان المادية أو المعنوية فانّها تدعوه إليها وتجذبه نحوها

بهذه المقدمة نرجع إلى القرآن الكريم ونستعرض الآيات التي تتحدث عن الجنّة، ومن الطريف أنّ هذه الآيات جاءت في ثمان مجموعات بعدد أبواب الجنّة.

٭٭٭

١ ـ موجبات دخول الجنة في المنظور القرآني

لقد تحدثت آيات كثيرة في القرآن الكريم عن أوصاف أهل الجنّة كما حددت الأوصاف والأعمال التي توصل الإنسان إلى الجنّة والتنعم بالمنزلة الرفيعة فيها.

وبهذا فقد بيّنت هذه الآيات المنظور الإسلامي في مسألة النجاة والسعادة الأبدية وتكامل الإنسان، ويمكن إجمال هذه الأوصاف بالنقاط الآتية:

١ ـ الإيمان والعمل الصالح

إنّ رأس المال للنجاة والسعادة وفتح أبواب الجنّة هو الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (البقرة / ٨٢)

ولقد ورد نفس هذا التعبير أو ما يشبهه في كثير من الآيات، وما تكراره إلّا دليلاً على أهميّة الموضوع وعناية القرآن الخاصة به[1]

وبهذا فإنّ القرآن الكريم قد كشف النقاب عن الأوهام التي كان يعتقد بها جمع من أهل الكتاب والسائرين على نهجهم من سائر الأمم حيث كانوا يتصورون أنّ النجاة ودخول الجنّة تقوم على أساس سلسلة علاقات وروابط معينة، أو أنّهم وضعوا ضوابط غير الإيمان والعمل الصالح، فجاء القرآن ليميّز الناس ويبني أنفسهم على أساس بعدين رئيسيّين هما (العقيدة) و (العمل).

وهذه الآية التي نحن بصددها جاءت على أثر الآيات التي تتحدث عن اليهود الذين

---

١. آل عمران، ١٣٦؛ النساء، ١٢٤؛ الأعراف، ٤٢؛ الحج، ١٤، ٢٣، ٥٦؛ العنكبوت، ٥٨؛ الزمر، ٧٤-٧٠؛ الأحقاف، ١٤؛ محمد، ١٢ وآيات أخرى

كانوا يعتقدون بأنّهم أولياء الله وأحباؤه. ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً...﴾. (البقرة / ٨٠)

ومن البديهي أنّ علاقة الإيمان والعمل الصالح هي كعلاقة (الشجرة) و(الثمرة) فالشجرة الطيبة (من أشجار الفواكه) لا تخلو من الثمار الطيبة وكذا الحال بالنسبة للإيمان فهو لا ينفك عن العمل الصالح إلّا أن يكون ضعيفاً أو خرج من الروح فيتأثر بالشهوات.. والأهواء النفسية، لذا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن حقيقة الإيمان، فقال: «*الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى*»[1] وبتعبير أوضح: «العمل الصالح هو تجسيم الإيمان القلبي» ولا يعني هذا الحديث أنّ العاصين أو مرتكبي الكبائر كفار[2] كما يعتقد الخوارج وإنّما المقصود أنّ الإيمان القوي لا ينفك أبداً عن العمل الصالح، أمّا الإيمان الضعيف فممكن أن ينفك عن هذا العمل الصالح ويقع صاحبه في ارتكاب الكبائر.

ومن الجدير بالذكر أنّ أغلب الآيات الكريمة تقدم الإيمان على العمل الصالح بالرغم من أنّ الإتيان بالواجبات وترك المحرمات هو أكثر صعوبة من الإيمان ومقدم عليه عرفاً، ولعلّ السبب في تقديم الإيمان على العمل الصالح يعود إلى أنّ القرآن الكريم يريد أن يبيّن أنّ الإيمان هو أساس الأعمال الصالحة.

وأخيراً فإنّ تعبير الإيمان والعمل الصالح تعبيران واسعان إلى حد يشملان جميع مراحل الإيمان بالله وسائر الاصول الاعتقادية، من جهة، والإتيان بكافة الأعمال الفردية والاجتماعية والعبادية والسياسية من جهة أخرى، وهذا هو المفتاح الأول من مفاتيح الجنّة.

٢ـ التقوى

العامل الآخر من عوامل دخول الجنّة هو (التقوى)، ولقد ذكرت الكثير من الآيات

---

١. اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣، ح ٣.

٢. من الاصول المتفق عليها عند الخوارج هي أنّهم يكفرون مرتكبي الكبائر، سفينة البحار، مادة (خرج).

القرآنية هذا العامل من جملتها ماورد في سورة مريم بعد الإشارة إلى (جنات عدن) وبعض من نعمها: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [١] (مريم / ٦٣)

من المعلوم أنّ الإسلام أعطى أهميّة كبيرة للتقوى، واعتبرها أحد شعاراته المشهورة كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾. (الحجرات / ١٣)

فتقول الآية إنّ الشرف والكرامة هو بتقوى الله سبحانه وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة، فليس من العجب أن تصف الكثير من الآيات القرآنية (التقوى) بأنّها مفتاح الجنّة.

«والتقوى»: هي اجتناب الذنوب والمعاصي والامتثال لأوامر الله ونواهيه، واتّباع الحق والعدل، وبتعبير آخر: هي حالة الخوف الباطنية والورع الذاتي الذي يمنع الإنسان من الوقوع في المعاصي والآثام، أي أنّ التقوى مفهوم جامع يضم كافة التكاليف الإلهية والأخلاقية والإنسانية.

التعبير بـ*(تلك)* في بداية الآية والذي يشير إلى البعيد هو إشارة إلى عظمة الجنّة وكأنّها عالية بدرجة خارجة عن نطاق الفكر والخيال.

وأمّا كلمة *(الإرث)* فيمكن أن يشير بها إلى معاني الآتية:

١ ـ كل تمليك ثابت، لأنّ الملك الوحيد الذي لا يقبل الرجوع والفسخ هو ما ينتقل عن طريق الارث وكذلك الجنّة فإنّ الله سبحانه وتعالى يورثها للمتقين.

٢ ـ قبل أن يكون للوراثة بعدٌ قانوني وتشريعي فإنّ لها بعداً تكوينياً وطبيعياً إذ تنتقل مجموعة الصفات الوراثية للآباء والأمهات إلى الأبناء، وبهذا يكون المراد بالإرث في الآية أعلاه: هو أنّ هناك علاقة معنوية تكوينية بين التقوى والجنّة.

٣ ـ الأموال الموروثة: هي أموال تصل إلى الإنسان بدون تعب وعناء غالباً، والنعم

---

[١] هناك الكثير من الآيات التي تشير إلى العلاقة بين (التقوى والدخول إلى الجنّة) ومن جملتها: آل عمران، ١٥، ١٣٣، ١٩٨؛ الرعد، ٣٥؛ الحج، ٤٥؛ النحل، ٣١؛ الفرقان، ١٥؛ الشعراء، ٩٠؛ الزمر، ٢٠، ٧٣؛ الدخان، ٥١؛ محمد، ١٥؛ ق، ٣١؛ الذاريات، ١٥ وغيرها.

الإلهيّة في الجنّة من العظمة بحيث تعتبر أعمال المتقين لا شيء قبالها، فكأنّ الجنّة تعطى لهم مجاناً وبدون أي مقابل لضآلة أهميّة أعمال المتقين قياساً بهذه النعمة العظيمة.

وبتعبير آخر نقول: حقاً أنّ أعمال الإنسان وتقواه هي الأساس في استحقاق الجنّة ولكن عظمة الجنّة وما فيها من النعم كأنّها أعطيت للمتقين مجاناً.

من هنا يجب القول: إضافة إلى كون الجزاء الأخروي له بعد استحقاقي كذلك له بعد تفضّلي أيضاً، أي أنّ الجنّة هي تفضّل من الله سبحانه وتعالى للمتقين.

٤ـ ونقرأ رواية وردت في تفسير هذا المعنى عن الرسول الأكرم ﷺ قال: *«ما من أحد إلّا وله منزل في الجنّة، ومنزل في النّار، فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة»*[1].

فيدل هذا الحديث على أنّ جميع الناس خلقوا أحراراً في اختيارهم فكما خلق عندهم الاستعداد لدخول الجنّة كذلك خلق عندهم الاستعداد أيضاً لدخول النّار وهذا يرتبط بكامل اختيارهم وإرادتهم[2].

٣ـ الاحسان

الاحسان عامل آخر من عوامل الدخول في موضع النعمة الإلهيّة ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المفهوم الواسع في آيات عديدة من جملتها الآية ٨٥ من سورة المائدة فبعد أن أشارت هذه الآية إلى وضع مجموعة من علماء أهل الكتاب الذين انقلبوا بعد سماعهم آيات القرآن الكريم وفاضت أعينهم بالدمع ممّا عرفوه من الحق، قال تعالى بصددهم:

---

١ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣١، ح ١٢١؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٤٣، من سورة الأعراف، ولقد ورد في تفسير علي بن إبراهيم نفس المعنى بتعبير آخر عن الإمام الصادق ﷺ، ذيل الآية ١١، من سورة المؤمنون

٢ إنّ هذا التعبير «الارث» لم ينحصر في الآية السالفة الذكر بل قد ورد في آيات أخرى تذكر منها: المؤمنون، ١٠ـ ١١؛ الأعراف، ٤٣؛ الزخرف، ٧٢؛ الشعراء، ٨٥، فهو تعبير واسع

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

صحيح أنّ القرآن يصرّح بأنّ كل هذه النعم التي أثابهم الله بها لما قالوا بعظمة القرآن والإيمان به ولكن من البديهي أنّ هذا لم يكن قولاً فقط بل كان قولاً ممزوجاً بالإيمان، ذلك الإيمان الذي ملأ كل وجودهم، لذا تقول الآية التي قبلها: ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة / ٨٣)

لكن كيف يكون كلام هؤلاء مصداقاً للاحسان؟ يمكن القول، إضافة إلى أنّهم درسوا القرآن وتدبروا معانيه جيداً كذلك أقروا واعترفوا بدين الحق وعملوا به بشكل جيد.

ونستفيد من بعض الروايات أنّ الاحسان هو العبودية المقترنة باليقين الكامل والشعور بأنّ الأنسان تحت رقابة الله تبارك وتعالى في جميع الاحوال.. كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الأعظم ﷺ فقد سئل عن الاحسان فقال: *«أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»*[٢].

ومن الواضح أنّ من يشعر بمثل هذه المراقبة ستكون عبادته عبادة حقّة لها روح وحقيقة وليس ذلك فحسب بل إنّ آثار هذا الشعور ستنعكس على جميع أعمال الإنسان وأقواله وسلوكه

٢٠٠٣

٤ـ الجهاد والشهادة

إنّ كل من له أدنى اطلاع على منطق القرآن والإسلام يعلم جيداً بالمقام السامي والدرجة الرفيعة للمجاهدين والشهداء في الإسلام، فلقد وعد القرآن صراحة هذه الطائفة المضحية بالجنّة، ومن جملة الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ

---

١. ورد نفس هذا المعنى في الزمر، ٣٤؛ المرسلات، ٤٤.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٥٣، ح ٥٧٩ ذيل الآية الشريفة ١٢٥ من سورة النساء.

وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعداً عَلَيهِ حَقّاً فِي التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]. (التوبة / ١١١)

حقاً إنّها لتجارة لا نظير لها، فالمشتري هو الله سبحانه وتعالى والبائعون هم المؤمنون المجاهدون.

«البضاعة»: الأنفس والأموال التي وهبها الله لهم والثمن الذي يدفع إليهم هو جنّة الخلد وسند هذه المعاملة الكتب السماوية الثلاثة، إضافة إلى كل هذا هناك تبريك من قبل المشتري للبائع.

كم هي تعابير جميلة ورائعة! وكم هي معاملة رابحة مقابل متاع زائل وغير ثابت وكم هو ثمن مبارك وخالد، وكم هو مقدار اللطف والمحبة في هذه المعاملة من قبل الله تبارك وتعالى؟

وعن جابر بن عبدالله قال: *«نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد (ان الله ...) فكبّر الناس فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل»*[2].

ونستفيد من الآية السابقة أنّها لا تختص بالشهداء فقط بل إنّ هذه المعاملة تشمل المجاهدين في سبيل الله أيضاً.

ونلاحظ في الآية تقدم عبارة ﴿يَقْتُلُونَ﴾ على ﴿يُقْتَلُونَ﴾ وهذا دليل على أنّ الهدف الرئيس من الجهاد هو القضاء على العدو لا الشهادة، وبناء على ذلك فإنّ الشهادة درجة رفيعة لا يبلغها إلّا الخاصة من أوليائه.

من هنا لا يمكن أن يكون الغرض من الجهاد هو الشهادة أبداً وبتعبير أدق الشهادة ليست هدفاً وإنّما هي وسيلة لتحقيق الهدف.

---

١. كما ورد نفس هذا المعنى في الآيات ٢٠، ٢١، ٨٨، ٨٩، من نفس السورة، والصف، ١٢؛ آل عمران، ١٤٢.

٢. تفسير درّ المنثور وطبق نقل تفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٢٩.

٥ ـ نهي النفس عن الهوى

من الأمور الأُخرى التي هي من موجبات دخول الجنّة، الخوف من الله تعالى ونهي النفس عن الهوى، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾. (النازعات / ٤٠ ـ ٤١)

ممّا لا شك فيه أنّ هناك علاقة متبادلة بين (الخوف من الله) و(نهي النفس عن الهوى) فالأُولى بمنزلة الشجرة والثانية ثمرها، فعندما يتجذر الخوف من الله تعالى في أعماق روح الإنسان، عندئذٍ تشن حرب من الداخل لمواجهة هوى النفس، ومن المعلوم أنّ مصدر جميع المفاسد والذنوب على سطح الأرض هو (عبادة الهوى)، فمن هنا يكون الخوف من الله مصدر كل الإصلاحات، لذا ورد هذا الحديث النبوي: *«ما تحت ظل السماء من إله يُعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىً مُتّبع»*[١] في ذيل الآية الشريفة ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (الفرقان / ٤٣)

والجدير بالذكر أنّ ما يقابل هاتين الصفتين (الخوف من الله ونهي النفس عن الهوى) صفتان أُخريان وردتا في الآيات التي تسبق هذه الآية من نفس السورة وهما (الطغيان وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة) ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾. (النازعات / ٣٧ ـ ٣٩)

والحقيقة أنّ هاتين الصفتين مصدر كل البلايا كما أنّ تلك الصفتين مصدر كل خير.

وعلى حد قول بعض المفسرين فالمصادر التي تأتي منها الذنوب السبعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾. (آل عمران / ١٤)

تتلخص في هوى النفس، وأنّ مصدر هوى النفس هو عدم المعرفة وعدم الخوف من الله تعالى[٢].

من هنا فما المقصود من *(مقام ربّه)*؟ هناك آراء مختلفة حول تفسير هذا التعبير فقيل: المراد مقامه من ربّه يوم القيامة حين يسأله عن أعماله

---

١. تفسير در المنثور، ج ٥، ص ٧٢

٢. تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٣٢٧

وقيل: إنّه إشارة إلىٰ مقام علم الله ومراقبته لعباده.

وقيل: إنّه إشارة إلىٰ مقام عدالته تعالىٰ.

ولكن هذه التعابير ترجع في الحقيقة إلى الخوف من الأعمال والذنوب وذلك لأنّ الله (أرحم الراحمين) ولا يوجد في ذاته تعالىٰ مايوجب الخوف منه، فكما أنّ المجرمين يخافون رؤية القاضي العادل ويفزعون من سماع إسم المحكمة فكذلك الحال بالنسبة للمذنبين فانّهم يخافون من مقام العدل والحساب والعلم الإلهي، وفي الحقيقة أنّ هناك جحيم في هذه الدنيا هي جحيم الشهوات، و الجحيم الأُخروية إنّما هي جحيم محاذاة تنبع من هذه الجحيم.

ونختتم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «*من علم أنّ الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم مايعمله من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى*»[1].

٦ـ السابقون إلىٰ الإيمان

من المعلوم أنّ ظهور أي دين جديد يقترن بمخالفة السنن والتقاليد الرائجة في ذلك المجتمع، وخصوصاً الدين الإسلامي الذي ظهر في محيط خرافي ملئ بأنواع المفاسد والسنن الباطلة الخاطئة.

فمن البديهي أن يكون السبق إلى الإيمان بمثل هذا الدين أمراً عسيراً للغاية ويحتاج إلىٰ شهامة منقطعة النظير، فالسابقون للإيمان يتعرضون عادة لأشد هجمات الجاهلين المتعصبين وبما أنّهم يشكلون الأقلية من المجتمع، لذا تكون أنفسهم وأموالهم في خطر دائماً، إضافة إلىٰ ذلك يعتبر هؤلاء القدوة الحسنة والانموذج الأمثل للآخرين وهم الوسيلة والعامل الرئيس في نشر تعاليم السماء في الأرض، فمن هنا يكون للسابقين في الإيمان

١. تفسير الثقلين، ج ٥، ص ١٩٧ ح ٤٨؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٧٠ باب الخوف والرجاء ح ١٠.

امتياز كبير ودرجة رفيعة وقد وعدهم الله تعالى وعداً قاطعاً بدخول الجنّة. كما ورد ذلك في قوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾[1].
(الواقعة / ١٠ ـ ١٢)

هذا في حالة تفسير *(السابقون)* بمعنى السابقين إلى الإيمان، لكن بعض المفسرين فسّروا *(السابقون)* بمعنى السابقين إلى طاعة الله (طاعة أوامر الله) أو السابقين إلى الصلوات الخمس أو الجهاد، أو الهجرة، أو التوبة وأعمال البر، لأنّ السابق إلى الخير إنّما يقتدى به في الخير وهو شاهد على المراد حتى على هذه الصورة

وكذا الرجال السابقون المؤثرون المتوكلون على الله تعالى لهم الأحقية في السبق إلى جنات النعيم

وقيل *(السابقون)* ـ كما جاء في الروايات الإسلامية ـ (الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام) حيث كان أول القوم إسلاماً من الرجال وقيل إنّ السابقين هم (هابيل) و(مؤمن آل فرعون) و(حبيب النجار) و(الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام) حيث يمثل كل واحد منهم في عصره مصداقاً واضحاً للقدوة الحسنة في السبق إلى الإيمان والجهاد وأعمال الخير[2]

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أول موهبة جعلها الله لهم هي موهبة القرب من الله تبارك وتعالى ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ والتي تفوق كل النعم العظيمة بما فيها جنات النعيم

ومن المعلوم أنّ *(جنات)* تفي بالغرض من دون ذكر (النعيم) الذي هو جمع نعمة، وإنّما ذكرها تعالى للتأكيد، ولإعطائها أهمية أكبر، من هنا يمكن الإشارة إلى نكتة أخرى وهي أنّ الجنات موضع الرحمة والنعم الإلهيّة فقط وهي على خلاف البساتين الدنيوية التي يلزم إدارتها وصيانتها وحفظها جهود كبيرة إضافة إلى ذلك فإنّها معرضة للآفات والفناء والعدم

ـــــــــــــــ

١ لقد ورد نفس هذا المعنى في الآية ٢١ من سورة الحديد وكذا الآية ١٣٣ من سورة آل عمران

٢ للاطلاع على هذه الأحاديث راجع كتاب احقاق الحق، ج ٣، ص ١١٤ و ج ١٥، ص ٣٤٥؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٠٩، ح ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١

٧ـ الهجرة والجهاد

الهجرة بمعنى الابتعاد عن بؤرة الكفر و الشرك والظلم والمعاصي ، وتكون في كثير من الموارد السبيل الوحيد لخلاص المؤمنين و الصالحين وإنقاذهم من معاناتهم ، فهم يبتعدون عن أجواء محيطهم الملوث ليعملوا على بناء أنفسهم وإعدادها من أجل تعبئة كافة إمكاناتهم وطاقاتهم للهجوم على أعداء الله من كافرين ومشركين وظلمة، ولقد هاجر المسلمون مرّتين في عصر صدر الإسلام، الهجرة الأولى (هجرة الحبشة) وهي هجرة خاصة حيث هاجرت مجموعة من المسلمين من مكة إلى الحبشة . والهجرة الثانية (هجرة عامة) من مكة إلى المدينة وتعتبر هذه الهجرة بداية فصل جديد في تاريخ الإسلام . ومن البديهي أن ترك المنازل والممتلكات والأهل والأقارب والأصدقاء والوطن الذي نشأ فيه المرء وترعرع فيه أمر عسير للغاية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مواجهة المشاكل لغرض الاعداد للجهاد والهجوم على مواطن الكفر والفساد لذا فإنّ القرآن الكريم وعد المهاجرين بأعظم الدرجات وبشرهم برحمته ورضاه. ﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾.[١] (التوبة / ٢٠ ـ ٢١)

تتحدث الآيتان الكريمتان عن ثلاث صفات (الإيمان، الهجرة، الجهاد) طبعاً أنّ كل واحدة من هذه الصفات ترتبط مع الأخرى برابطة العلة والمعلول فكان إيمانهم هو السبب في هجرتهم وهجرتهم مقدمة لجهادهم وجعل الله سبحانه وتعالى جزاءهم ثلاثة أمور هي *(الرحمة الإلهيّة) و(الرضوان) و(جنات النعيم)* وبهذا فقد جعل الله سبحانه وتعالى مقابل كل صفة أجراً عظيماً، فالإيمان يستوجب مغفرة الذنوب والهجرة تستوجب جلب الرضوان الإلهي والجهاد بالأموال والأنفس هو السبب في دخولهم جنات النعيم.

روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال «بينما شيبة والعباس يتفاخران إذ مرّ عليهما

١. لقد ورد هذا المعنى في الآية ٧٠١ من سورة التوبة

علي بن أبي طالب ﷺ قال: بِمَ تفتخران؟ قال العباس: لقد أوتيت من الفضل مالم يؤت أحد، سقاية الحاج، وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام. وقال علي ﷺ: وأنا أقول لكما لقد أوتيت على صغري مالم تؤتيا، فقالا: وما أوتيت ياعلي؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله تبارك وتعالى ورسوله فنزل جبرائيل ﷺ بالآية ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ... ﴾»[1]

وللمفسرين بحوث كثيرة في مسألة (كيف اعتبر القرآن درجة الذين هاجروا وجاهدوا أعلى من درجة غير المؤمنين؟ في حين أنّ (غير المؤمنين) ليس لهم أية درجة أصلاً).

يمكن القول في جواب قصير إنّ المراد بيان أنّ النسبة بينهما هي نسبة الأفضل إلى من لا فضل له وهذا كثير في مورد الصفات التفضيلية كقوله تعالى: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ﴾. (البقرة / ٢٢١)

ويلاحظ أمثال هذا التعبير الكثير في القرآن والروايات وكلام العرب.

والخلاصة: أنّ نفس عمل سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام عمل حسن من أي شخص كان أمّا إذا كان الفاعل كافراً ومشركاً فلا قيمة له، حيث إنّ الكفر والشرك يحبطان الأعمال الصالحة.

ജ

٨ـ الصبر والتحمل عند الشدائد

مسألة الاستقامة هي أساس لكل الأعمال الصالحة وركن أساس في امتثال كل طاعة واجتناب كل معصية.

وعلى هذا الأساس فلا عجب أن تعدّ الاستقامة من العوامل المهمّة في دخول الجنّة كما ذكر في ذيل هذه الآية: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾.[2] (الدهر / ١٢)

وعند دخولهم الجنّة تستقبلهم الملائكة بالترحيب، وهذا دليل على عظمة مقام

---

١. شواهد التنزيل لأبي القاسم الحسكاني، ذيل الآية مورد البحث ص ٢٤٤ فما بعدها. ولقد ورد نفس المضمون بشيء من الاختلاف في كتب كثيرة لأهل السنّة راجع إحقاق الحق، ج ٣، ص ١٢٢ و ١٢٧

٢. لقد ورد نفس هذا المعنى في سورة الرعد، ٢١ ، ٢٤؛ الفرقان، ٧٥

الصابرين: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ (الرعد / ٢٤)

ومن المعلوم أنّ الآية التي نحن بصدده هي من آيات سورة الدهر التي نزلت على قول أكثر مفسري الشيعة والسنة في حق علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حيث ضربوا أروع الأمثلة في الصبر والتحمل حينما تصدقوا بما عندهم من طعام إلى (المسكين) و(اليتيم) و(الأسير) وبقوا ثلاثة أيام متتابعة يفطرون بالماء فقط وهذا هو الصبر على الطاعة.

من البديهي: أنّ الصبر والتحمل عند مشاكل ومصاعب الحياة وكذلك الصبر والتحمل على ترك مانهى الله عنه من عوامل الاثارة والذنوب والمعاصي، يكون مفتاح من مفاتيح الجنّة فيبدل الله تعالى ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذه الآية خصت من بين جميع النعم الإلهيّة الألبسة الفاخرة الجميلة ويعود السبب في ذلك إمّا لأنّ هذه الفئة من الصابرين إضافة إلى ما جادوا به من الطعام للجياع كذلك أنّهم وما وهبوه من الألبسة إليهم واكتفوا بلباس بسيط أو أنّ جمال ظاهر الإنسان بالدرجة الأولى يكمن في زيه ولباسه كما أنّ لباس (التقوى) هو زينة وجمال الباطن.

ꕥꕥ

٩ ـ الإيمان والاستقامة

ركزت بعض الآيات القرآنية على مسألة الاستقامة والثبات على طريق الإيمان وطاعة الأوامر الإلهيّة فقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1] (الاحقاف / ١٣ ـ ١٤)

استقاموا مشتقة من مادة *(الاستقامة)* أي ملازمة الطريق المستقيم والثبات على الطريق الصحيح وبتعبير آخر الابتعاد عن كل زيغ وانحراف والثبات على ماشهد الإنسان به من دين

١. ولقد ورد نفس هذا المعنى في الآية ٣٠، ٣١ من سورة فصلت.

الحق، والتعبير بـ«الاعتدال» من أربابت اللغة ممّا هو من هذا الباب أيضاً.

قال الراغب في مفرداته: «يقال الاستقامة: للطريق الذي يقع على خطّ مستقيم ولهذا يقال للطريق الحق: (الصراط المستقيم) واستقامة الإنسان هي ملازمة الطريق المستقيم»[١].

إضافة إلى أنّ مفهوم الاستقامة يعني استواء الطريق كذلك أنّه يعني المقاومة والثبات، وعلى هذا الأساس فتعبير الاستقامة على النهج الصحيح من عوامل الدخول إلى موضع اللطف والكرامة الإلهيّة (ألا وهي الجنّة) وورد عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام في تفسير الآية أنّهم قالوا: «*استقاموا على ولاية أمير المؤمنين*» والتي تعد الخط المستقم للإسلام الصحيح[٢].

ولو تأمّلنا في الآية الكريمة لوجدنا أنّها ذكرت *(الإيمان)* أولاً *(قالوا ربّنا الله)* وبعدها عطفت (الاستقامة على الطريق الصحيح) على الإيمان بـ«ثم» التي تفيد العطف المباشر لتوحي إلى أنّ عملاً كهذا هو نتيجة مثل ذلك الإيمان، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الإنسان يحزن على أمور قد حدثت في الماضي وأحياناً أخرى يخاف ويقلق من أمور قد تحدث في المستقبل، يقول القرآن الكريم في الآية مورد البحث: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ونختتم هذا الموضوع بحديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال سفيان الثقفي: قلت يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصمُ به. قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «*قل ربّي الله ثم استقم، قال: فقلت: ما أخوف ما تخاف عليّ: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بلسان نفسه فقال: هذا*»[٣].

١٠ ـ إطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله

من الأعمال التي توجب دخول الجنّة هي طاعة الله والرسول صلى الله عليه وآله كما ورد ذلك في قوله

---

١. مفردات الراغب، مادة (قوم).

٢. تفسير علي بن إبراهيم ج ٢، ص ٢٦٥، ذيل الآيتين ٣٠ و ٣١ من سورة فصلت واللتين تشبهان الآية أعلاه.

٣. تفسير الكبير، ج ١٠، ص ٢٢

تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدخِلهُ جَنَّٰتٍ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ ﴾[١] (النساء / ١٣)

تعبير *(جنات)* يدلّ على تعددها وأنّ كل واحدة منها أحد مقامات العارفين والصالحين والأطهار.

أمّا تعبير *(تجري من تحتها الأنهار)* فدلالة على جمال ساتينها ورونقها ودوام خضرتها لأنّ أنهارها دائمة الجريان.

«خالدين فيها»: إضافة إلى أنّ الآية نفت احتمال فناء وسلب النعمة التي هي عادة من عوامل القلق جاءت الآية بصيغة الجمع وهذه إشارة إلى أنّ أهل الجنّة يتمتعون بنعمة الاجتماع والانس مع بعضهم البعض.

في حين أنّ الآية التي بعدها والتي تتحدث عن عصيان لله ورسوله جاءت بصيغة المفرد *(خالداً)* وهذه إشارة إلى أنّهم *(أهل النار)* يعذبون بالوحدة والعزلة وكأنّ كل واحد منهم سجين في زنزانة انفرادية في نار جهنّم.

---

١١ ـ الاخلاص

خلوص العقيدة، وخلوص العمل، وخلوص النية، من موجبات دخول الجنّة، قال تعالى: ﴿ وَمَا تُجزَونَ إِلَّا مَا كُنتُم تَعمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ المُخلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُم رِزقٌ مَّعلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكرَمُونَ * فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴾. (الصافات / ٣٩ ـ ٤٣)

فبعد أن أشارت هذه الآيات إلى عذاب أهل النّار استثنت المخلصين وقالت إنّهم في معزل من كل هذا العذاب.

من هنا يجب أن نعرف من هم *(المخلَصين)* (بفتح اللام)؟ إذا تأملنا في الآيات القرآنية فسوف ندرك جيداً أنّ *(المخلِص)* بكسر اللام يعني الشخص الذي أخلص نفسه وأعماله

---

١ نفس هذا المعنى ورد في الآية ١٧ من سورة الفتح.

وتيئه، وغالباً ما يستعمل هذا في مراحل بناء الإنسان لنفسه، في حين أنّ (مخلَص) (بفتح اللام) يطلق على الذين بلغوا الدرجات العليا من الإيمان والمعرفة والعمل، فهؤلاء خارجون عن وساوس الشيطان وأحابيله، فلا سلطان للشيطان عليهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾. (ص / ٨٢ـ٨٣)

وفي الحقيقة أنّ أدران وجود الإنسان على قسمين: الأول يمكن تشخيصه وعلاجه، والثاني لا يمكن إزالته وعلاجه إمّا لكونه مخفي عن الإنسان أو أنّه ظاهر وجلي ولكن لا قدرة له على إزالته، فعندما يضع الإنسان قدمه في طريق الإخلاص ويعمل على تخليص نفسه من أدران القسم الأول والتي تقع ضمن استطاعته وقدرته فإنّ الله سبحانه وتعالى يخلصه ويزكيه بلطفه وكرمه من أدران القسم الثاني وحينئذٍ يليق لمقام الـ«مُخلَص».

والعجيب أنّ الله سبحانه وتعالى وهب لهذه المجموعة من المواهب والعطايا ما لم يهب غيرهم، ومن جملتها الرزق المعلوم وهو رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم فهؤلاء يتلذذون بلذة القرب من الذات الإلهيّة المقدّسة فالله تعالى اخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد حيث إنّ قلوبهم لم تتعلق بشيٍ غيره تعالى فليس فيها إلّا الله سبحانه، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾، ومن خواصهم كذلك بلوغهم مقاماً سامياً من العرفان فعباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفاً يليق به أو بما يلقب به من الأوصاف، لا كما يصفه الكفّار أو المشركون، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾. (الصافات / ١٥٩ـ ١٦٠)

وبهذا فإنّ معرفتهم بالله أعلى المعارف وأنقها، وصيانتهم من الشيطان وهوى النفس أشد وجزاؤهم يوم القيامة أجزل وأوفر وهذا هو جزاء المخلَصين. (اللهم اجعلنا من المخلَصين بحق محمد وآله الطاهرين)

<>

١٢ ـ الصدق

قلما نجد في أعمال الإنسان مثل جمال وجاذبية (الصدق والواقعية). ويتبيّن من الآيات والروايات أنّ وزن الصدق ثقيل جداً في ميزان الأعمال. وذلك لأنّه يعد من أسمى أوصاف أولياء الله وهو أحد مفاتيح الجنّة كما صرح بذلك القرآن الكريم ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾[1] (المائدة / ١١٩)

ومن الواضح أنّ المراد بالصدق في هذه الدنيا هو الصدق في العقيدة والقول والفعل وكل صفة من هذه الصفات هي علامة من علامات (التقوى) عند الإنسان في هذه الدنيا وإلّا فلا محل للصدق في الآخرة حيث لا يكذب هناك.

إضافة إلى هذا فإنّ الأوضاع يوم القيامة لا مجال فيها إلّا للصدق، وحتى المذنبون فإنّهم إن عمدوا إلى انكار الحقائق مؤقتاً فسرعان ما يدركون بأنّ لا جدوى من الانكار وبالتالي يعترفون بجميع ذنوبهم.

ويمكن أن نستفيد من هذا التعبير أيضاً أنّ جميع الأعمال الصالحة تنحصر في الصدق، ويتضح التحليل المنطقي لذلك بشيء من التأمل حيث إنّ جميع الذنوب إنّما هي ناشئة من عدم الصدق في ادّعاء الإيمان والإسلام، فالشخص الذي يعترف ويقر بقانون كيف يسمح لنفسه بمخالفته؟

وتتّضح أهميّة الصدق من هذه الناحية وهي أنّ الله سبحانه وتعالى جعله الوسيلة لكشف حقائق الناس، كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الأعظم ﷺ قال: *«لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف، وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث، وأداء الأمانة»*[2]. وقال ﷺ في حديث آخر: *«إنّ الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنّة»*[3].

إذن فالصدق مفتاح من مفاتيح الجنّة.

---

١. في هذه الآية يكون «هذا» مبتدأ و«يوم» خبر وجملة «ينفع...» مضافة إلى «يوم».

٢. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٩، ح ١٣.

٣. المحجة البيضاء، ج ٨، ص ١٤٠.

١٣ ـ تزكية النفس

ممّا لا شك فيه أنّ الجنّة هي محل الصالحين والأخيار، ولقد ذكر القرآن ذلك صراحة كجزاء لمثل هؤلاء الأشخاص ورد في قوله تعالى، عن لسان سحرة فرعون بعد غلبة معجزة موسى وإيمان وتسليم السحرة بما جاء به والتمرد على فرعون فقالت: ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (طه / ٧٥ ـ ٧٦)

«تزكى»: مشتقة من مادة *(تزكية)* وتشمل تزكية العقيدة وكذلك تزكية الأقوال والأفعال أيضاً

وفي الحقيقة أنّ الجنّة محل مطهر من جميع القذارات والأدران، ومن الطبيعي أنّ هذا المحل لا يصلح إلّا للأخيار الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم

وقد قال بعض المفسرين إنّ *(الدرجات العلى)* جعلها الله لمن كان له إيمان وعمل صالح وتزكية نفس.

وعلى هذا الأساس لا ينافي أن تكون الدرجات العلى للمؤمنين الذين خلطوا أعمالاً صالحة بأخرى سيئة، أو حتى الذين ارتكبوا أحياناً المنكرات.

ولكن هؤلاء لن يستطيعوا دخول الجنّة التي هي محل القدس والطهارة ما لم يتطهروا من هذه الذنوب، وهناك احتمال آخر وهو أنّ هذه الآيات لم تكن عن لسان سحرة فرعون وإنّما هي كلام الله المباشر، ولكن ومهما كان تفسير الآية فإنّ المعنى واحد.

***

١٤ ـ الانفاق والاستغفار

الاستغفار من الذنوب والتوبة والانفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو والصفح عن الناس وعدم الإصرار على الذنب مجموعة من الصفات تعرضت لها بعض الآيات من القرآن الكريم ووعدت في مقابل ذلك الجنّة، قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، وهذه الآية كالتوطئة لذكر ما يذكره تعالى بعد من أوصاف المتقين ثم شرع ببيان هذه الأوصاف وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾، ووعدهم في نهاية الآية المغفرة والجنة. ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... ﴾.

(آل عمران / ١٣٣ ـ ١٣٦)

«المسارعة»: هي الاشتداد في السرعة وهي ممدوحة في الخيرات ومذمومة في الشرور، والمسابقة إلى المغفرة هي إشارة إلى السبق إلى أسباب المغفرة، لذا فسرها البعض بالإسلام وقيل أداء الفرائض وقيل الهجرة وقيل الصلوات الخمس وقيل الجهاد وقيل التوبة والتي تعد كل واحدة منها من عوامل المغفرة الإلهية. وتشكل هذه الأوصاف موجبات السبق إلى الجنّة والفوز بها. ولقد أشارت الآيات بعدها إلى مسألة الانفاق والاستغفار والعفو والصفح والاحسان وكل هذه الأمور من الأسباب المهمّة للمغفرة ودخول الجنّة.

ولقد ورد نفس هذا المعنى في قوله تعالى بشيء من الاختلاف حيث حلّ تعبير *(سابقوا)* محل *(سارعوا)* قال تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾.

(الحديد / ٢١)

ومن البديهي أن (سارعوا) من باب (مفاعلة، وتأتي بمعنى التسابق والنتيجة واحدة (تأمل).

ولكن بعض المفسرين فسر *(سارعوا)* بمعنى المبادرة أو الاشتداد في السرعة ولم يروها من باب (مفاعلة)

على أيّة حال، فإنّ هذه التعابير تدلل على أنّ الدنيا ساحة تسابق، والهدف النهائي من هذه المسابقة هو الوصول إلى المغفرة والفوز بالجنّة وبهذه السعة التي وصفتها الآية الكريمة، وسوف نتكلم حول (سعة الجنّة) في نهاية هذا الجزء إن شاء الله.

١٥ ـ الخوف من الله

الخوف من الله تبارك وتعالى يعني الخوف من عدالته وحسابه وكتابه وعقابه درع حصين أمام الذنوب والمعاصي وعامل فعال في مواجهة الظلم والفساد والعصيان ولهذا السبب يعتبر الخوف مفتاحاً من مفاتيح الجنّة كما قال تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن / ٤٦)

ولقد ذكر المفسرون في تفسير *(مقام ربّه)* احتمالين .

الأول: الاحاطة العلمية للرب تعالى بجميع أعمال الإنسان ونواياه.

الثاني: مقامه بين يدي ربّه للحساب (حيث يوجد مقدّر في هذه الصورة والتقدير هو *«مقامه بين يدي ربّه»*[١].

ومهما كان التفسير فإنّ الخوف من الله هو الوزع من كل معصية وخطيئة كما ورد ذلك في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: *«من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول من خير أو من شر فتحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فله جنتان»*[٢]

ولقد قيل في تفسير *(جنتان)* آراء عديدة.

١ ـ المقصود الجنّة (المادية) و(المعنوية) كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ ﴾. فالأولى هي البساتين التي تجري من تحتها الأنهار والثانية رضا المعبود والمحبوب الحقيقي أي لله تعالى

٢ ـ وقيل الجنّة الأولى للإيمان والثانية للعمل.

٣ ـ وقيل جنّة لفعل الطاعات وجنّة لترك المعاصي

٤ ـ وقيل جنّة جزاء للعمل وجنّة تفضل من الله

وهذه الأقوال ـ كما ترى ـ لا دليل على شئ منها، ويمكن أن يكون التعبير الأول هو الأنسب، واعتبار جميع الآراء ممكن أيضاً

---

١. ورد كلا الاحتمالين في تفسير مجمع البيان، و تفسير الميزان

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٢٠٧

١٦ ـ التولي والتبرؤ

أي محبّة أولياء الله ومعاداة أعداء الله، وبتعبير آخر التودد للصالحين والأخيار، والتبغض للكفار والأشرار، والقرآن الكريم اعتبر التولي والتبرؤ مفتاح الجنّة كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. (المجادلة / ٢٢)

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾. (المجادلة / ٢٢)

وكما أشار تعالى في ذيل الآية الكريمة إلى أجرهم المعنوي بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وفي النهاية أعطاهم الله تاج الفخر والشرف ونعتهم بأنهم حزب الله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ ومن الواضح أن لا تجتمع محبتان في قلب واحد فإمّا محبة الله أو محبّة أعدائه، وعلى هذا الأساس فإنّ أقوى الأواصر وأمتنها هي تلك المبنية على أساس محبة الله ومحبة أوليائه، أمّا ما سواها فهي علاقات زائفة لا معنى لها.. (فيبيّن تعالى أنّ بين الإيمان وموادة أهل المحادة تضاد فلا يجتمعان لذلك).

إنّ هذه الموادة ليست هي علاقة فحسب بل هي برنامج عمل متكامل في كافة المجالات والأصعدة، أي هي حرب ضد ظلم الظالمين وفساد المفسدين وجرم المجرمين وهؤلاء هم المخلصون في إيمانهم، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ يحمل معنى عميقاً، فالكتابة جرت بيد القدرة الإلهيّة وعلى صفحة القلب وهي بمعنى ثبات ورسوخ حقيقة الإيمان في قلوبهم بحيث لا تتغير ولا تزول أبداً، أجل فمثل هؤلاء الأفراد المؤيدين بروح القدس أيضاً هم الجديرون بحمل اسم (حزب الله) الذي هو مظهر من مظاهر التولي والتبرؤ

١٧ ـ الاهتمام بالصلاة

ذكرت الآيات ٢٢ ـ ٣٤ من سورة المعارج تسع صفات من صفات أهل الجنّة وعلى أثر هذه الصفات يمدحهم الله تعالى بالجنّة. وهذه الصفات هي: المحافظة على الصلاة، وتعيين حق ثابت في أموالهم للمحرومين، والإيمان بيوم الجزاء، والخوف من عذاب الله، والمحافظة على الفروج، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، والقيام بالشهادة، والمحافظة على آداب وشرائط وروح الصلاة، وبعد ذكر هذه الصفات قال تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾. (المعارج / ٣٥)

وهذا التعبير تعبير واحد لجميع النعم الجسمانية والروحانية.

ومن الطريف أنّ هذه الصفات التسع ابتدأت بالصلاة واختتمت بالصلاة أيضاً مع هذا الاختلاف، وهو أنّها ابتدأت بالاستمرار على الصلاة وانتهت بالمحافظة عليها أي حفظ آدابها وشرائطها وخصوصياتها، تلك الآداب والشرائط تحفظ مظهر الصلاة من الفساد والبطلان وكذلك تقوّي روح الصلاة التي تتمثل بحضور القلب وإزالة موانع قبولها كأكل السحت، وشرب الخمور، والغيبة، وأمثال ذلك.

إذن فالآية تدلل على أنّ أعمال الخير كلها تبدأ بالصلاة وتنتهي بالصلاة أيضاً، ومن الناحية العملية أنّ أول ما يجب على الإنسان البالغ الصلاة وآخر ما يلازمه حتى نهاية عمره، الصلاة أيضاً. اللطيف هو أنّ للمحافظة على الصلاة طرفين، الأول: وجوب المحافظة عليها من الفساد والخلل، والثاني: أنّ الصلاة تحفظ الإنسان من الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، ونختم هذا البحث بحديث عن الرسول الأعظم ﷺ إذ قال: *«من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة»*[١]

ـــــــــــ

١. تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ١٦٧.

الخلاصة:

إنّ كل ما أشرنا إليه في الفقرات الماضية يمثل جانباً مهماً من أسباب دخول موضع الرحمة وهذه الأمور تعكس النظرة الإسلامية في مجال توفير أسباب النجاة والسعادة الأبدية، ومن جهة أخرى تمثل الدافع القوي، للتزود بالأعمال الصالحة الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية. وبلا شك أنّ استلهام هذه المفاهيم له أكبر الأثر في إيصال الإنسان إلى أوج التكامل والتربية والافتخار

إلهي وفقنا لطاعتك ولا تحرمنا من مفاتيح أبواب جنانك

٢ ـ النعم المادية في الجنّة

تمهيد:

لقد اتّضح في بحث المعاد الجسماني أنّ المعاد في التصور القرآني له بعد جسماني وبعد روحاني أيضاً، حيث إنّ الإنسان في تلك العرصات يحضر بجسمه وروحه، وأنّ المواهب والعطايا الإلهيّة تشمل الاثنين معاً. فالذين يعتقدون أنّ النعم في الجنّة كلها نعم معنوية وروحية وأنّ الآيات التي تتحدث عن هذه النعم المادية إنّما هي تعبر بلغة الكناية فإنّ هؤلاء قد غفلوا عن هذه الحقيقة وهي أنّهم وبحصرهم النعم هناك بالنعم الروحية فإنّهم ينفون المعاد الجسماني وهذا خلاف صريح للآيات القرآنية التي تؤكد على وجود هذه النعم، وكما ذكرنا في بحث المعاد الجسماني فإنّ الجسم والروح توأمان مرتبطان معاً ولا يمكن أن يبلغا الكمال بمعزل عن أحدهما الآخر، إضافة إلى هذا أنّه لايمكن للروح أن تلتذ بالمواهب والعطايا الإلهيّة بمعزل عن الجسم.

على أيّة حال، فالنعم الجسمانية في الجنّة كالنعم الروحية متنوعة وواسعة للغاية وجاذبة للنفس، ولقد أكد على ذلك القرآن كثيراً لكي يلفت انتباه الناس إلى الأعمال والصفات والفضائل التي توجب هذه المواهب (ومن المعلوم أنّ الإنسان يفكر بالنعم المادية قبل الروحية)، وفي نفس الوقت فتح الله سبحانه فصلاً مهماً لبيان النعم المعنوية واللذات الروحية (وسنتطرق إلى هذا في الفصل اللاحق).

وإذا لم تكن النعم الروحية من ناحية شمولية البيان بمقدار النعم المادية لكنّها أكثر بكثير من النعم المادية من الناحية الكيفية، وسنستعرض أدناه جملة من المواهب والنعم المادية الموجودة في الجنّة تحت هذه العناوين:

١ ـ حدائق الجنان
٢ ـ الظل الظليل.
٣ ـ قصور أهل الجنة.
٤ ـ الفرش والأرائك.
٥ ـ الأغذية والأواني.
٦ ـ الشراب الطهور.
٧ ـ أفضل شراب أهل الجنّة.
٨ ـ الأكواب والصحاف والأواني والكؤوس (الأقداح).
٩ ـ ألبسة الجنة.
١٠ ـ حلي الجنّة.
١١ ـ الحور العين.
١٢ ـ الخدم والسقاة.
١٣ ـ المضيفون.
١٤ ـ النُزل.
١٥ ـ النعم التي لا تتصور.

ولقد وردت في كل من هذه المواضيع آيات متعددة في القرآن الكريم وسوف نستعرض هذه المواضيع على ضوء تلك الآيات.

٨٠٠٨

١ ـ حدائق الجنان

يتبيّن على ضوء الآيات الواردة في هذا المجال أنّ الجنّة هي مجموعة حدائق وبساتين لا مثيل لها ولا نظير في هذه الدنيا وكل ما رسمه لنا القرآن الكريم لا يمثل إلّا صورة تقريبية كي يتمكن ساكنو هذه الدنيا من إدراك هذه المعاني، وإلّا فإنّ حقيقة الجنّة هي ما وراء إدراكنا. لقد ذكر القرآن أكثر من مائة آية حول الجنّة وبتعابير مختلفة مثل (جنّات) أو (جنّة)

أو (جنتان) ، فنقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾. (النساء / ١٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ واللهُ يَدْعُوَا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾. (البقرة / ٢٢١)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾. (الرحمن / ٤٦)

فهذه الكلمات (جنات ، جنتان ، جنة) مشتقة من مادة *(جنّ)* على وزن *(فنّ)* وهو الستر والتستر، ويقول الراغب في مفرداته ستر شيء عن الحس، وعلى هذا الأساس له مشتقات كثيرة.

«والجنّة»: بمعنى البستان وذلك لأنّ أرضه مستورة بأغصان الأشجار ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة يقول : الجنّة مايصير إليه المسلمون في الآخرة وهو ثواب مستور عنهم اليوم ، ولكن نحن نستبعد هذا المعنى وذلك لأنّ بساتين الدنيا يقال لها أيضاً جنّة وهذا لا يكون إلّا لسبب ستر أرضها بواسطة أغصانها .(تأمل).

«والجنين»: الولد في بطن أمّه، والجنان: القلب لأنّه مستور في الصدر والمجن: الترسُ، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة (على قول صاحب مقاييس اللغة) و(الجن) و(الجان) يطلق على الموجودات الحيّة المستورة عن أعين الخلق،وكذلك على الثعابين العظيمة تشبيها لها بـ «الجن» (الذي هو موجود خطر خفي)، ويطلق على عظام الصدر ـ جناجن ـ ولعل السبب في هذه التسمية كونها درعا لحفظ القلب

«جنون»: بمعنى ذهاب العقل وأصل الجنون هو الستر ، جنون الليل ، سواده وستره للاشياء ، على أيّة حال فإنّ المهم في هذا الموضوع هو أنّ بساتين الجنّة كثيفة الأشجار إلى درجة سترت أرضها بأغصانها المتدلية .

ولقد وردت في عشرات الآيات بعد ذكر (جنات) جملة (تجري من تحتها الأنهار) وهذا يدل على أنّ الماء يجري دائماً تحت الأشجار وبتعبير آخر أنّ أغصان أشجارها تظل على المياه التي تجري تحتها ، فيكون الماء تحتها(تأمل جيداً) ، وهذا يعود إلى

أولاً : أنّ الماء والشجر يشكلان مع بعضهما البعض منظراً جميلاً في منتهى الروعة والجمال ، وكأنّ كل واحدٍ منهما ناقص ويحتاج إلى الكمال من الآخر

وثانياً: أنّ الأنهار تؤمّن طراوة دائمية للأشجار، فالتي تجري من تحتها المياه تكون خضراء زاهية، إمّا الأشجار التي لا تتوفر لها مياه دائمة أو يؤتى به من الخارج فلا تتمتع بمثل هذه الطراوة والاخضرار، فالماء هو أساس حياة النباتات ولابدّ من توفر هذا العنصر الأساس للحياة بجانبها دائماً. وجاء في إحدى الروايات: *«إنّ أنهار الجنّة ليست في أخاديد إنّما تجري على سطح الجنّة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها»*[1] والأعجب من هذا أنّه ليس فقط الأشجار تجري من تحتها الأنهار بل ـ وكما جاء في بعض الآيات ـ إنّ *(الغرف)* بنيت على الأنهار أيضاً فالأنهار تجري من تحتها كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[2] (العنكبوت / ٥٨).

٢ ـ ظلال الجنّة

لقد أشارت آيات عديدة إلى ظلال الجنّة ومن ضمنها: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ (الواقعة / ٢٧ ـ ٣١)

من المعلوم أنّ ظلال الأغصان هي أجمل وأروع من أي ظلال، فظلال الأشجار ليست كمثل ظلال الخيام والغرف المظلمة الفاقدة للتهوية، حيث تعمل الرطوبة الملائمة للأوراق على تلطيف الظل ويضيف لها عطر الأشجار وتفتح الأزهار جمالاً آخر إلى جمالها، وظلال الجنّة ظلال دائمة لذا فلا تحمل سكينة الإنسان وراحة باله أبداً: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾. (الرعد / ٣٥)

وعبّر عنه أحياناً بـ(ظل ظليل)، قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾[3] (النساء / ٥٧)

---

١. تفسير القرطبي، ج ١، ص ٢٤٠.

٢. ورد نفس هذا المضمون في الآية ٢٠ الزمر أيضاً.

٣. «الظل الظليل» كناية عن الظل الكامل والدائم والعالي، ولقد أشارت آيات عديدة إلى مسألة الظل في سورة الرعد، ٣٥؛ يس، ٥٦؛ المرسلات، ٤١.

اتّضح من خلال ما مرّ أنّ أجواء الجنّة لا مثيل لها ولا نظير فهي في منتهى اللطافة والجمال والاعتدال، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾ [1][2] (الإنسان / ١٣)

أي أنّهم لا يرون شمساً يتأذّون بحرّها ولا زمهريراً يتأذّون ببرده.

❊❊❊

٣ ـ قصور أهل الجنّة

لقد أشارت آيات عديدة من القرآن إلى مساكن أهل الجنّة وبتعابير مختلفة، قال تعالى:

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ (التوبة / ٧٢)

وقد ورد نفس هذا التعبير في سورة الصف الآية ١٢.

«طيّبة» لها معنى واسع جدّاً يشمل جميع المزايا، ومعناها في الأصل: الشيء الذي ترتضيه النفس الإنسانية وتسمّى عند الإنسان (طيب النفس)، أو أنّ السكن فيها مطهر وصالح في كل الأحوال. وهذه الكلمة جمعت كل خواص السكن الجيد. وقد عبّرت سورة الفرقان عن المساكن بتعبير (غرفة) وتعني: بناء فوق بناء.

قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الفرقان / ٧٥)

«غرفة»: من مادة (غرف) على وزن (فعل)، وتأتي بمعنى رفع شيء وتناوله، ويقال (غرفة) للشيء الذي يرفع ويتناول، ثم اطلق ذلك على القسم العلوي للبناء (الغرفة كما قيل البناء فوق البناء) فهو الدرجة العالية من البيت وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنّة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الغرف تتمتع بعدّة خصائص فأجواؤها ألطف وأجمل الأجواء ومناظرها أحسن المناظر، ومحيطها يؤمّن أفضل سكن لساكنيها. وما تعبير «غرفة» إلّا إشارة إلى هذه الخيرات، ولذا نقرأ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾. (سبأ / ٣٧)

---

١. «زمهرير» مشتقة من مادة «زمهر» بمعنى شدة البرد، وشدة الغضب، والمراد هنا المعنى الأول.

٢. ورد نفس المعنى في سورة الواقعة، ٣٠ ويس، ٥٦، والمرسلات، ٤١.

وهناك تعبير آخر في هذا المجال قال تعالى ﴿لَهُم غُرَفٌ مِّن فَوقِهَا غُرَفٌ مَّبنِيَّةٌ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ﴾. (الزمر / ٢٠)

وعندما أشار إلى محل إقامة أهل الجنّة قال تعالى : ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الدخان / ٥١ ـ ٥٢)

ومن هنا يجب الإشارة إلى هاتين النكتتين :

١ ـ لقد أشارت بعض الآيات الكريمة (مثل الآية ١٢ من سورة الصف) من بين جميع النعم في الجنّة إلى *(المساكن الطيبة)* ويعود في ذلك إلى أنّ *(المسكن)* يعتبر أحد أهم عوامل راحة الإنسان وسكينته ، وهذا المسكن هو مسكن طاهر ومطهر من جميع القذارات الظاهرية والباطنية فهو يؤمن كل أسباب الأمن والأمان والاستقرار وراحة البال للإنسان. ومما تجدر الإشارة إليه أنّ *(السكن)* أخذ من مادة (سكون) وتعني الهدوء.

٢ ـ لقد ذكر القرآن الكريم عدة أمور واعتبرها من موجبات السكينة والاطمئنان وهي

١ ـ البيوت السكنية المناسبة سواء في الدنيا أو في الآخرة. ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ (النحل / ٨٠)

٢ ـ الازواج الصالحة. ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُم أَزوَاجاً لِّتَسكُنُوا إِلَيهَا﴾ (الروم / ٢١)

٣ ـ الليل من موجبات السكينة والهدوء ﴿وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً﴾. (الانعام / ٩٦)

٤ ـ دعاء الرسول ﷺ للذين يؤتون الزكاة ﴿إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُم﴾.[١] (التوبة / ١٠٣)

٥ ـ السكينة الناتجة عن الإيمان ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المُؤمِنِينَ﴾ (الفتح / ٤)

ولا شك أنّ لبعض هذه الأمور بعداً مادياً، وللآخر بعداً معنوياً

٨٠٠٣

١. ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٥٩٤

٤ ـ الفرش والأرائك

من النعم الإلهيّة الأُخرىٰ في الجنّة الفرش و الأرائك المختلفة وهي في منتهى الروعة والجمال والجذابية.

قال تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ (الرحمن / ٥٤)

ومن الطريف أنّ بطانة هذه الفرش من أفخر الأقمشة في الدنيا أمّا ظاهرها فهو من اللطافة والجمال والقيمة بحيث يعجز عنها الوصف، وعلى قول بعض المفسرين هي من الأمور التي يقول القرآن بصددها ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. (السجدة / ١٧)

ولقد ورد حديث عن الرسول ﷺ قال: «*وظواهرها نور يتلألأ*»[1]

وفي سورة الغاشية نجد تعبيراً آخر ضمن توصيف النعم المختلفة في الجنّة: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾. (الغاشية / ١٦)

«*زرابي*»: جمع *(زربيه)* على وزن *(قبرقيه)* وهي على قول بعض أرباب اللغة مشتقه في الأصل من الكلمة الفارسية «زرنشته» وهو القماش الذي يستعمل في نسجه الذهب بدلاً من القطن والصوف، وتأتي أحياناً بمعنى القماش الغالي الثمن[2] (البسط الفاخرة)، وقال بعض أرباب اللغة والمفسرين أنّ (زربي) جمع زربي بكسر الزاء و(زربية) في الأصل بمعنىٰ أنواع النباتات التي اختلطت فيها الألوان الصفراء والحمراء الخضراء، ولهذا السبب يطلق علىٰ الفرش التي تحمل ألواناً زاهية متنوعة،[3] وقد وصفت هذه الفرش بـ(مبثوثة)، وهي (المبسوطة المنشورة أو المفرقة في المجالس).

ونجد في نفس هذه السورة في الآية السابقة عبارة اُخرىٰ تصف الوسائد وتقول: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾.

---

١. تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٣٤٩

٢. التحقيق في كلمات القرآن الكريم مادة (زرب)

٣. تفسير المراغي، ج ٣٠، ص ١٣٣ قاموس اللغة مادة (زرب)

«نمارق»، جمع (نُمرقة) علىٰ وزن (غُلْفة) ويقول صاحب (صحاح اللغة) هي وسائد صغيرة يُتكأ عليها (وقد توضع أثناء الاستراحة والجلوس علىٰ الرجلين ويُتكأ عليها)

وفي سورة الرحمن نجد تعبيراً آخر فيما يتعلق بالفُرُش في الجنّة قال تعالى ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾. (الرحمن / ٧٦)

«رفرف»، على قول الراغب في مفردات الأوراق والمناشف، ثم اطلق على الأقمشة الزاهية الألوان، وقال بعض أرباب اللغة أنّ الرفرف بمعنى أطراف الخيمة التي تهتز بحركة الريح، ورفرفة بسط جناحي الطائر [1] (تحريك الطائر جناحيه)

وقيل: ثياب خضر تبسط على السرير، ويوجد هذا الاحتمال أيضاً وهو البساتين التي ترف من نضارتها، لأنّ رفرف تعني كسر الخباء ونحوه حيث تتحرك حين هبوب الريح، ويقول أبو الفتوح الرازي في تفسير (الرفرف): المروج الخضراء

أمّا «عبقري» فهو مشتق من «عبقر» (علىٰ وزن جعفر) ويقول (صحاح اللغة) و(المفردات): موضع كان العرب تزعم أنه كثير الجن ثم اطلق على كل ما يتعجب من كماله وقوته وجدته، ويطلق على كل شخص عالم ماهر عبقري، وجمعه عباقرة [2]

على أيّة حال، فإنّه يطلق على الأشخاص الذين ليس فوقهم شيء، وعلى الأشياء الفاخرة النفيسة، وفي الآية هو وصف للاقمشة الفاخرة وقيل هو الديباج، وقيل البسط

وقيل (عبقر) اسم مدينة مشهورة بحياكة أحسن أنواع الأقمشة [3]

أمّا فيما يتعلق بالسُّرُر التي يجلس عليها أصحاب الجنّة وقد عبّر بـ(السرر) جمع (سرير) كما في قوله تعالى ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ (الواقعة / ١٥ـ١٦)

ولقد تكرر هذا التعبير في خمسة مواضع من القرآن الكريم، فقد وصف هذه السرر في

---

١ مقاييس اللغة

٢ اعترض بعض أرباب اللغة وبعض المفسرين على هذا الجمع وذلك لأنّه منسوب إلى شيء، لا يجمع إلّا في حالة مجيء الكلمة على صيغة الجمع كأن يقال (عباقر) ثم تنسب (عباقري)، ومن المعلوم أنّ الجمع بين النسبة وصيغة الجمع غير وارد عند الأدباء.

٣. تفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث

الآية السالفة بـ(موضونة) وهي مشتقة من مادة (وَضْن) على وزن (وَزْن) وفي الأصل بمعنى (النسج) واطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجه.

ومن هنا يمكن أن يكون هذا المعنى إشارة إلى أنّ الأسرّة منسوجة نسج خاص من اللؤلؤ والياقوت والجواهر أو منسوجة من خيوط الذهب والفضة (أو منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدرر والجواهر) أو لأنّها مرتبة بترتيب خاص، على اختلاف آراء المفسرين. وقد وصفت في آيات أُخرى بـ«مصفوفة» مثل ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ (الطور / ٢٠)

وقال في آيات أُخرى «مرفوعة» ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (الغاشية / ١٣)

فلقد أشارت الآية الأُولى إلى ترتيبها وتقاربها، والثانية إلى علوها وارتفاعها.

ويشير ارتفاع سُرُر أهل الجنّة إلى علو مكانتهم وطهارتهم ورفعتهم أو أنّهم يشرفون من موقعها على مناظر الجنّة المحيطة بهم من كل جانب.

على أيّة حال، فإنّ هذه السرر تكون بهيئة مجاميع حتى تنفع أصحابها أنسهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم، كما جاء ذلك في موضعين من القرآن حيث ورد تعبير: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (الحجر / ٤٧) (الصافات / ٤٤)

أي (يستمتع بعضهم بالنظر إلى وجوه بعض ولا يرى بعضهم قفا بعض).

والجدير بالذكر هو أنّ (سُرُراً) جمع (سرير) من مادة (سرور) وكأنّ الجلوس على الأسرة عموماً وعلى أسرة الجنّة خصوصاً من عوامل النشاط والارتياح والسرور، إضافة إلى أنّها متعلقة بمجالس الانس والسرور.

وفي مواضع أُخرى عبر القرآن الكريم بتعبير آخر وهو (الأرائك)، وورد هذا التعبير خمس مرات في القرآن فقال في موضع ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ (الكهف / ٣١)

ولقد ورد نفس هذا التعبير بشيء من الاختلاف في الآية ﴿ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾. (يس / ٥٦)

وورد نفس هذا التعبير أيضاً في سورة الإنسان، وقال تعالى في آيتين من سورة

المطففين: ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾. (لانسان / ١٣) (المطففين / ٢٣ ـ ٣٥)

«أرائك»: جمع أريكة، وعلى قول الكثير من المفسرين (مثل صاحب مجمع البيان، والقرطبي، والفخر الرازي، وصاحب روح المعاني) بمعنى الحجلة إذا كان فيها سرير، وفسّرها البعض بالسرير الذي فيه مظلة، و«أريكة السرير» وهي (البيت المزين للعروس).

ويقول الراغب في المفردات: مأخوذة من (أراك) وهي اسم شجرة معروفة.

ويقول أبو الفتوح الرازي في ذيل الآية ١٣ من سورة الإنسان: إنّ «السرير» و«الأريكة» معنيان مختلفان أحدهما فيه مظلة والآخر بدونها.

وتدل تعابير القرآن على هذا المعنى، لأنّ الكلام عن السرر طرح في موارد مجالس انس أهل الجنّة حيث يتقابلون ويتسامرون، في حين أنّ الأرائك تختص بجلساتهم الخاصة أي عندما يختلون مع ازواجهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ (يس / ٥٦)

ومن هنا يمكن أن نستنتج أنّه عندما يقول القرآن: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾. (الإنسان / ١٣)

ومن الممكن أن تكون الآية قد أشارت إلى هذا المعنى، وهو أنّ الشمس تشرق عليهم عندما يجلسون على هذه الأسرّة الخاصة، ولو أنّ هناك تفسيراً آخر قد اشير إليه في حينه.

ومن الطريف أنّه وردت في القرآن خمس آيات حول الأسرّة وخمس آيات حول الأرائك، ولقد وردت إشارات متساوية عن الحياة العامة والخاصة لأهل الجنّة.

وهناك كلام طويل حول أوصاف هذه الأسرّة والأرائك ورد في الأخبار والروايات أعرضنا عن ذكره لأجل الاختصار.

❊❊❊

٥ ـ الأغذية والأواني

إنّ الأغذية المادية لأهل الجنّة ـ كما يستفاد من القرآن الكريم ـ متنوعة للغاية، ويستفاد

من مجموع آيات القرآن الكريم أنّ الغذاء الرئيسي لأهل الجنّة هو من جنس الفواكه. وورد هذا المعنى تحت عناوين مختلفة مثل «فاكهة» «وفواكه» «وثمره» و«ثمرات» و«أُكُل» في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾. (الرحمن / ٥٢)

و«فاكهة»: حسب قول صاحب كتاب مقاييس اللغة مشتقة في الأصل من «فكه»، والتي تعني طيب الخاطر، وعلى هذا الأساس سميت الفاكهة، فاكهة، حيث إنّ أكلها يطيب الخاطر.

و«المفاكهة»: تعني الممازحة بالكلام الطيف.

و«الفاكه»: يطلق على الشخص المزّاح ذي المعشر الطيب.

ويعتقد الكثير من المفسرين أنّ الفاكهة تشمل جميع أقسام الفواكه، ويؤكد الراغب في مفرداته هذا المعنى، في حين أنّ البعض يقول (الفاكهة) تشمل جميع الفواكه ماعدا العنب والرمان (أو ماعدا الرطب والرمان)، وذلك لأنّ سورة الرحمن، الآية ٦٨ عطفت هذين الجنسين على الفواكه، من هنا فانّهم يعتقدون أنّها لن تدخل في مفهوم الفاكهة، في حين أنّ هذه الآية لا تدلّ على هذا المعنى وإنّما نجد في كثير من المواطن يذكر الخاص بعد العام لأهمية الخاص.

وفي اعتقاد جمع من المفسرين أنّ تعبير «زوجان» إشارة إلى أنّ لكل ثمرة نوعان وضربان متشاكلان: نوع في هذه الدنيا، ونوع من شكله غريب لم يعرفوه في الدنيا، وقيل: إنّ هذا التعبير هو إشارة إلى تنوع فواكه الجنّة كل نوع أكثر لذة من الآخر، ولقد بيّن القرآن الكريم تنوع اغذية أهل الجنّة بهذا الشكل: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾. (الواقعة / ٢٠)

وقال في موضع آخر: ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (المرسلات / ٤٢)

ولقد أكدت بعض الآيات على فواكه خاصة باعتبارها فاكهة الجنّة: ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾. (الرحمن / ٦٨)

وقال الفخر الرازي في تفسيره: «إنّه تعالى ذكر نوعين من الفواكه الشجرية وهما الرمان والرطب لأنّهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو وكذلك أحدهما حار والآخر بارد

وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهه. وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره في غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لايؤكل كامن والآخر بالعكس فهما في الصدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى مابينهما»[1].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾. (النبأ / ٣٢)

وجاء في آية أُخرى ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ (الواقعة / ٢٨ ـ ٢٩)

لقد فسّر أغلب المفسرين *(الطلح)* بمعنى شجرة الموز التي لها أوراق عريضة خضراء جميلة، وثمرتها حلوة ولذيذة الطعم.

و«*منضود*» من مادة *(نضد)*. وتعني «المتراكم»، أي إذا جعل بعضه على بعض، وهذه إشارة إلى عذق الموز وشجرة الموز ذات الأوراق العريضة الخضراء الجميلة وثمرتها حلوة المذاق.

وقيل المنضود (المراد الورق لأنّ شجر الموز من أوله إلى أعلاه يكون ورقاً بعد ورق)[2]

ويجمعهما (السدر، والطلح) نوعان أورق صغيرة، وأوراق كبيرة، والسدر في غاية الصغر والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر فقوله تعالى ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ إشارة جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها[3]

وإضافة إلى ذكر الفاكهه أشار القرآن الكريم إشارة عابرة مختصرة إلى «الطلح» بشكل عام وإلى «لحم الطير» بشكل خاص، فقال في أحد المواضع بعد ذكر مجموعة مهمّة من النعم الموجودة في الجنّة: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[4]. (الطور / ٢٢)

---

١ تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٣٤

٢ المصدر السابق، ج ٢٩، ص ١٦٢

٣ المصدر السابق.

٤ «أمددناهم» من مادة «إمداد» وهو العطاء المتتابع أو المستمر وقال بعض أرباب اللغة مثل صاحب القاموس إنّ الامداد بمعنى تأخير الأجل وإدامة الحياة، وهو لا يختلف كثيراً عن المعنى الأول.

جملة: ﴿ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ لها معنى واسع جداً حيث تشمل كل أنواع الأغذية بكافة أقسامها وأشكالها وكيفياتها.

وقال في موضع آخر بعد ذكر أنواع النعم وأنواع الفواكه في الجنّة: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (الواقعة / ٢١)

ولعل السبب في تقديم الفواكه في كلا الآيتين، هو أنّ الفواكه تعد الغذاء الأفضل والأحسن والألذ، ويعتقد البعض أنّ الغذاء الطبيعي للإنسان هو الفواكه، ويرونه موجوداً «آكلاً للفواكه» وبهذا السبب لا يستطيع الإنسان الانتفاع من اللحوم أبداً على وضعها الطبيعي، بل لابدّ من إجراء تغييرات عليها، ومزجها مع أشياء أخرى حتى يمكن الاستفادة منها.

في حين أنّ الفواكه مألوفة لديه على شكلها الطبيعي ومن دون إجراء أي تغييرات عليها فضلاً عن أنّ أكل الفاكهة قبل اللحوم فيه لطف خاص.

٦ ـ الشراب الطهور

إنّ الأشربة في الجنّة كالفواكه وسائر الأغذية متنوعة ومعطشة للغاية، ولقد عبّر القرآن الكريم عنها بتعابير مختلفة، والغريب أنّ الكثير من هذه الأشربة تكون على شكل أنهار، ولقد أشار القرآن الكريم إلى أربعة أقسام منها.

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾. (محمد / ١٥)

هذه الأشربة الأربعة والتي تجري في أنهار الجنّة الأربعة (لا يجري كل واحد منها في نهر خاص بل في كل الأنهار) تبين مجموعة من أنواع الأشربة المختلفة، فالماء لرفع العطش، واللبن للتغذية، والعسل للذة والقوة، والخمر للذة والنشاط وهو شراب طهور

إنّ هذه الأشربة مخلوقة بشكل لا يعتريها الفساد وإن طال الزمن ولا يتغير طعمها أبداً.

وتحتفظ دائماً بحداثتها، فالجنّة محيط مبرء من كل كدر، فلا وجود فيها حتى لميكروب واحد يفسد أطعمة أهلها وأشربتهم.

والجدير بالذكر أنّ ماء هذه الدنيا يتغير لونه وطعمه بمرور الزمان، أمّا مياه أنهار الجنّة فهي تبقى على حالها ووضعها الأول صافية، زلال مطهرة، وكذلك الحال بالنسبة للبن، ففي الدنيا يفسد سريعاً بعد برهة من الزمن فيتبدل طعمه إلى طعم حامض وهذه مقدمة لفساده وتلفه، أمّا لبن الآخرة فهو لبن سائغ شرابه لذيذ لا يتغير طعمه ولا يعتريه عارض كالذي يصيب الألبان في الدنيا.

الخمر والشراب، شراب غير مستساغ ولا لذّة فيه ويوصف بمرارة المذاق ورداءة الطعم فهو مذهب للعقل، ومفسد للروح

أمّا خمر أهل الجنّة فهو شراب لذيذ منعش يبعث في النفس النشاط والحيوية الرحمانية لا الشيطانية.

وعسل الدنيا مشوبه في الغالب الكثير من الكدورات والشوائب، أمّا عسل الآخرة فهو عسل مصفى خالص بمعنى الكلمة، ومن الجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم اعتبر العسل جزءً من المشروبات وحتى في سورة النحل والتي تتحدث عن (النحل) ذكره كشراب ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾. (النحل / ٦٩)

ولعل السبب في ذلك هو أنّ العسل إذا شرب كمشروب (شربت العسل) فيكون أكثر لذّة ومنفعة وحيوية.

ولقد أشارت آيات سورة الدهر والتي تعرضت لأنواع النعم التي وعدها الله سبحانه للأبرار من عباده إلى مجموعة أخرى من الأشربة قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾. (الدهر / ٥ ـ ٦)

وقال تعالى في نفس السورة ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾. (الدهر / ١٧ ـ ١٨)

وقال تعالى في السورة ذاتها: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾. (الدهر / ٢١)

فهذه الآيات أشارت إلى عدد من الأشربة «الطهورة» في الجنّة:

الأول: الكافور، وهو شراب خاص مهدىء، حيث إنّ الكافور في اللغة له عدة معان: منها الرائحة الطيّبة، ومنها مادة بيضاء اللون يضرب المثل في برودتها وبياضها ولها رائحة قوية خاصة مهدئة، وهي تقابل الزنجبيل الحار وهو عبارة عن جذور نبتية لها طعم ونكهة طيبة تضاف أحياناً إلى الأطعمة والأشربة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ العرب يستخدمون نوعين من الشراب ولحالتين مختلفتين، تارة: منشط ومقوي، والأخرى: مضعف ومهدئ، الأول يمزجونه مع الزنجبيل، *والثاني*: مع الكافور.

ومن المعلوم أنّ حقائق العالم الآخر لا تستوعبها عقولنا، لذا فلا حيلة لبيان هذه الحقائق إلّا أن تستخدم هذه الألفاظ بمفاهيم أوسع وأعلى.

وقال جمع من المفسّرين أيضاً: إنّ الكافور: اسم عين ماء في الجنّة تشبه الكافور في صفارها وبياضها ورائحتها الطيبة وبرودتها ولكن ليس طعمها. (ولابدّ من الإشارة إلى أنّ الكافور المألوف هو نوع من الصمغ يستخرج من شجرة في جنوب الصين أو بلاد الهند وله استخدامات طبية).

إنّ التفسير الذي أشرنا إليه هو الأنسب وذلك لأنّ شراب الكافور يقابل شراب *(الزنجبيل)*.

والجدير بالذكر أنّ القرآن يقول: إنّ هذا الشراب الزنجبيلي ينبع من عين في الجنّة اسمها *(سلسبيل)* ويعتقد الكثير أنّ هذه الكلمة مشتقة من *(سلاسة)* بمعنى الجُريان، ويرى البعض أنّها مشتقة من (تسلسل) بمعنى الحركة المتتابعة والمستمرة وهي إشارة إلى أنّها سلسلة تتسلسل في الحلق.

وقيل: إنّ هذه الكلمة مركبة من كلمتين «سال» و«سبيل» بمعنى طلب الطريق وهذه إشارة إلى غاية سلاسته وعذوبته.

على أيّة حال، يستفاد من مجموع التعابير أنّ عين السلسبيل فيها شراب في غاية اللذة والسلاسة.

الشراب *الثالث* الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو «الشراب الطهور» وساقيه هو الله تبارك وتعالى. وهو يبعث على تطهير الجسم والروح من كافة الأدران والكدورات (وهذا شراب خاص للأبرار والمحسنين كالموعين السابقين) بعكس خمر الدنيا الذي هو نجس وينجس الروح والبدن.

ويعتقد بعض المفسرين أنّ هذا الشراب يسقى بعد تناول الأغذية (فإذا أكل [الإنسان] ماشاء سقي شراباً طهوراً فيطهر بطنه ويصير ما أكل رشحاً يخرج من جلده أطيب ريحاً من المسك)، لقد ذكر الفخر الرازي هذا التفسير كرواية.

وقال صاحب تفسير الميزان: «(وسقاهم...) أي بالغاً في التطهير لا يدع قذارة إلّا أزالها ومن القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه وتعالى والاحتجاب عن التوجّه إليه فهم غير محجوبين عن ربّهم»[1].

وورد في تفسير «منهج الصادقين» نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام: *«إذا شرب المؤمن الشراب الطهور نسي ما سوى الله وانقطع إليه بالكامل»*[2].

وذكرت سورة المطففين ضمن عرضها للنعم الإلهيّة التي وعدها الله سبحانه وتعالى للأبرار ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ ثم قال ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ وفي الختام قال: ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين / ٢٥ ـ ٢٨)

كلمة *(رحيق)* على قول أغلب المفسرين هو الشراب الخالص من الغش والقذى (أي خمر صافية خالصة من كل غش).

«مختوم»: ممنوع من أن تمسّه يد حتى يفك ختمه للأبرار، وهذا تأكيد آخر على خلوصه وصفائه.

«ختامه مسك»: إشارة إلى الذي خُتم بذلك بالمسك، ويستخدم الختم عادة للتأكيد والاطمئنان من عدم لمسه أو فتحه حيث يوضع الشيء في إناء معين ويغلق غلقاً محكماً من

---

١. تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ١٣٠.

٢. منهج الصادقين، ج ١٠، ص ١١٠ (طبقاً لنقل تفسير الاثني عشري ذيل الآية مورد البحث).

جميع الجوانب ثم يختم ويوضع على (الختم) مقدار من الطين أو العجين أو الشمع الأحمر أو النحاس أو أيّة مادة أُخرى تفي بالغرض. وبهذا (لا يمكن فتح أو كسر هذا الإناء) فلا سبيل إلى ما في الإناء إلّا بكسر ذلك الختم. وكان العرب ينظرون إلى ختم الإناء قبل كل شيء ليعرفوا أنّه لم تصل إليه يد. ويسمونه (المختوم).

وهناك تفاسير عديدة في هذا المجال لا نراها تتناسب وظاهر الآية.

«تسنيم»: من مادة (تَسَنَّم) على وزن (تَقَدَّم) وفي الأصل على رأي صاحب (مقاييس اللغة) بمعنى (العلو والارتفاع) ومنه (سنام البعير)، وتطلق على ألسنة النار، والغيوم المرتفعة والدخان وسنابل النباتات أيضاً.

لذا «عين التسنيم» عين في الجنّة تكون سبباً في الارتفاع والعلو، يقال: سنّمه أي رفعه ومنه سنام الابل. ولذلك إذا شربها المقربون يتقربون من المقام الإلهي والفناء في نور الحق أكثر فأكثر.

وقيل: «تسنيم» عين تقع في الطبقات العليا في الجنّة تصبُّ شرابها عليهم من عُلوٍّ انصباباً. وقيل هو نهر يجري في الهواء فينصب في أواني أهل الجنّة وهو خالص للمقربين ويمزج بمقدار من الرحيق المختوم للأبرار وهو نوع آخر من شراب الجنّة.

ويظهر من خلال الجمع بين هذه المعاني أنّ هذه العين لها مكانة عالية رفيعة من ناحية المكان وكذلك من حيث التأثير المعنوي فهي توصل الروح وتجذبها إلى مقام القرب الإلهي.

٧ ـ أفضل شراب أهل الجنّة

لقد ذكرت الآيات السابقة الذكر سبعة أنواع من الأشربة، ونستنتج من مجموع هذه الآيات أنّ مشروبات الجنّة على أنواع وأصناف مختلفة، فمنها تجري في الأنهار (أنهار من لبن وعسل وماء وخمر)، ومنها مختومة، ومنها ينبع من عيون من سماء الجنّة أو طبقاتها

العليا، ومن الواضح أنّ أشرف شراب أهل الجنّة هو الشراب الذي يسمى «تسنيم» وهو خاص بالمقربين.

وورد في تفسير علي بن إبراهيم: «إنّ أشرف شراب أهل الجنّة يأتيهم من أعالي تسنيم وهي عين يشرب بها المقربون، والمقربون آل محمد ﷺ، والمقربون يشربون من تسنيم بحتاً صرفاً وسائر المؤمنين ممزوجاً»[١].

ويأتي (الشراب الطهور) في الدرجة الثانية، ولقد أشارت إليه سورة الإنسان، الآية ٢١، بقرينة، أنّه الشراب الوحيد في القرآن الكريم الذي يكون ساقيه هو الله تعالى.

ومن المعلوم أنّ جميع هذه الأوصاف التي نسمعها ونقرأها ماهي إلّا صورة غير واضحة تتجسم في أذهاننا عن ذلك العالم الكبير، وإلّا فلا يمكن توصيف هذه النعم وهذا الشراب الطهور من قبل سجناء عالم المادة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.
(السجدة / ١٧)

والطريف أنّ القرآن الكريم عبر بتعابير مختلفة لرفع أي ابهام في مجال الاختلاف الواضح بين الأشربة الدنيوية المكدرة بأنواع الكدورات، والشراب الطهور في الجنّة قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾. (الصافات / ٤٦)

لا كمثل شراب الدنيا المر الطعم غير المستساغ الشرب حتى أنّ شاربيه يتجرعونه في بادئ الأمر بكراهة، أمّا شراب الجنّة فهو شراب لذيذ منعش تعقبه نشوة معنوية وروحية غير قابلة للوصف.

ثم يضيف تعالى بقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾. (الصافات / ٤٧)

إنّ شراب الدنيا يفسد العقل ويسكر الأبدان بحيث يصبح الجسم من الضعف والوهن فلا يقدر على الحركة وحفظ التوازن، أمّا أشربة الجنّة فتعمل على تأجيج شعلة العقل والذكاء، وتشد من جاذبية العشق، وتهيّئ الجسم والروح للتمتع باللذات المعنوية والمادية بشكل أفضل[٢].

---

١. تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٤١٢.

٢. «غَوْل» على وزن «قَوْل» في الأصل بمعنى غال، أهلكه وأخذه من حيث لا يدري، وتطلق هذه الكلمة على الفساد الخفي الذي ينفذ في الشيء.

وقال تعالىٰ في مكان آخر بعد الإشارة إلى بعض من أشربة الجنّة: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[١]. (الواقعة / ١٩)

«يُصَدَّعون»: من مادة (صداع) على وزن (رُباع) وهو الصداع المعروف (أي لا يأخذهم من شربها صداع)، وأصله (صَدْع).

فعندما يتعرض الإنسان إلى صداع شديد فكأنّ رأسه يريد أن يتصدع من شدّة الألم، فتستعمل هذه الكلمة للتعبير عن آلام الرأس الشديدة.

الخلاصة: أنّ خمر الدنيا رديء الطعم، كريه الرائحة.. يجلب الصداع ويسبّب فقدان الوعي وضعف العقل، ويسبب الكثير من الأمراض الجسمية والروحية، وقد يعقبه حالة التهوع والتقيؤ والآلام المعوية، في حين أنّ خمر الآخرة شراب لذيذ منعش يزيد العقل ويعمل على تربية الجسم والروح وله نشوة روحية ومعنوية غير قابلة للوصف.



٨ ـ الأكواب والصحاف والكؤوس:

ممّا لا شك فيه أنّ المطلوب الرئيس من الأغذية والأشربة هو نفسها لا الأواني، ولكن بلا ريب أنّ لكيفية عرض الغذاء والأواني المستعملة فيها تأثير عميق في جذابية الأطعمة والأشربة وصفاتها ومضاعفة اللذّة الناتجة منها، لهذا السبب رسم القرآن الكريم وفي آيات عديدة صورة إجمالية عن هذه الأواني التي هي في منتهى الروعة والجمال في عبارات قصيرة عميقة المحتوى.

إنّ جميع هذه الألفاظ والمعاني لا تمثل إلّا صورة باهتة عن الوضع هناك، وإلّا فكل شيء هناك فوق حد التصور.

قال تعالىٰ: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ (الزخرف / ٧١)

---

١ «ينزفون» من مادة «نَزْف» على وزن «حذف» بمعنى ذهاب الشيء بصورة تدريجية ومنه نزف الدم.. وهذا ما يفعله الشراب الدنيوي في وجود الإنسان، إذ يحطمه تدريجياً.

«صحاف»: جمع (صَحفة) على وزن (صفحة) وتعني: الأواني الكبيرة والواسعة (لأنّ هذه المادة في الأصل بمعنى الاتساع).

«أكواب»: جمع (كوب) وهو القدح الذي لا عروة له (وهناك معان أخرى ولكن المشهور هو هذا القول).

والجدير بالذكر أنّ وصف (من ذهب) ذكر بخصوص الصحاف ولكن عطفها على الأكواب يدلل على أنّها من ذهب أيضاً [1].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾. (الواقعة / ١٨)

«أباريق»: جمع (ابريق) وحسب ماصرح به أرباب اللغة أنّها مشتقة من الكلمة الفارسية (آبريز) بمعنى القدح الذي له عروة وخرطوم لسكب السوائل.

يقول: «الجواليقي» في «المعرب من الكلام الأعجمي» إنّ هذه الكلمة تعني في الفارسية: إمّا طريق العبور من الماء، أو سكب الماء، وقيل: إنّ هذه الكلمة مأخوذة من مادة «برق» والتي هي كلمة عربية [2]. وبناءً على ذلك فإنّ ما جاء في تفسير مجمع البيان والقرطبي (في ذيل الآية) غير صحيح.

«كأس»: القدح الممتلئ بالشراب وقال بعض المفسرين: وعلى عادة العرب في شربهم تكون لديهم أوان كبيرة فيها الخمر ممدة ثم يغرفون منها بالأباريق ثم يصبونه في الأقداح ويلاحظ هذا الترتيب أيضاً في (الشراب الطهور).

حيث تكون في البداية في الأكواب ثم الأباريق وأخيراً الكأس [3]، وعُبّر في الشعر القديم عن هذا الموضوع بتعبير (القدح) (الكأس).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ جنس أواني الجنّة حسب مايستفاد من الآيات الكريمة،

---

[1] في الحقيقة: كانت الجملة في الأصل (أكواب من ذهب)، وحذفت عبارة (من ذهب) تجنباً للتكرار مثل قوله تعالى: ﴿الذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾.

[2] التحقيق في كلمات القرآن الكريم.

[3] تفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

مختلف، فبعضها من الذهب كما أشرنا إلى ذلك وبعضها من «الفضة» وبعضها من «البلور».

قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوارِيرَا﴾ (الدهر / ١٥)

والعجب أنّه يقول بعدها مباشرة ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾. (الدهر / ١٦)

«قوارير»: زجاجات لها بياض الفضة وصفاء القوارير وهذه من خواص الجنّة، وذلك لأنّ القوارير في الدنيا لا تصنع من الفضة وإنّما تصنع من الزجاج، في حين أنّ الفضة احدى الفلزات، ولكن ليس ببعيد أن يخلق الله نوعاً من الفضة الشفافة تصنع منها هذه القوارير كما ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «*ينفذ البصر في فضة الجنّة كما ينفذ في الزجاج*»[1].

وهذا دليل على أنّ كل شيء في الآخرة هو أعلى وأفضل وأكمل من هذا العالم.

وعلى أيّة حال وكما أشرنا سابقاً فإنّ أواني أهل الجنّة من اللطافة والرونق والجمال.. بما يضاعف لذة المأكول والمشروب لأهل الجنّة.

٩ ـ ألبسة الجنّة

اللباس له أهمية كبيرة في الحياة الدنيا فهو أولاً: يحفظ الجسم ويقيه الحر والبرد والاضرار المختلفة، وثانياً: يعتبر اللباس زينة مهمة للإنسان ولكم نجد أنّ لطراز الألبسة ابتداء من جنس القماش وحتى نوع خياطته ولونه يحكي عن طرز تفكير المرء وشخصيته، ونجد على طول التاريخ أنّ للملابس دوراً مهماً في زينة الإنسان وبهائه.

ممّا لا شك فيه أنّ اللباس في الجنّة لا يهدف إلى دفع البرد والحر أو حفظ الجسم من أنواع الآفات والأمراض والعوارض، حيث إنّ كل شيء هناك في حد الكمال فلا أمراض ولا آفات و.. من هنا تكون الملابس مظهراً من مظاهر الزينة، ولعل لهذا السبب ركزت الآيات القرآنية على إبراز مظهر زينة اللباس وجاء ذلك ضمن تعابير مختلفة، ولكنّها تحكي جمال

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٠.

وبهاء وجذابية ملابس أهل الجنّة

قال تعالى: ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾. (الكهف / ٣١)

وورد نفس هذا المعنى بشيءٍ من الاختلاف في قوله تعالى في الآيتين الأولى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وفي الآية الثانية: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ [١].

(الدخان / ٥٣) (الدهر / ٢١)

ونقرأ في تعبير آخر: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (الحج / ٢٣)

ولقد ورد نفس هذا التعبير في الآية ٢٣ من سورة فاطر، وشبيهه في سورة الدهر، الآية ١٢

وكلمة «سندس» حسب اجماع أهل اللغة والمفسرين (ما رقّ من الثياب) وهي ثياب حريرية فاخرة. وأصل هذه الكلمة غير عربي فلقد ورد في بعض كتب اللغة أنّ أصلها فارسي أو رومي [٢]، ولو أنّنا لم نعثر على هذا المعنى في اللغة الفارسية.

و قال البعض: إنّ أصلها يوناني [٣]

وقال آخرون: السندس قماش من الحرير يستعمل في نسجه خيوط من الذهب

وأمّا «استبرق» على قول أرباب اللغة و المفسرين (ما غلظ من الملابس الحريرية ولا يراد به الغلظة في الخيوط إنّما يراد به المتانة في النسيج)

وقيل: إنّ (الاستبرق) فارسي معرب أصله «استبره» أو (ستبر) والذي يعني السميك، وقيل هو الديباج المنسوج بالذهب، وقيل السندس: الديباج الرقيق الفاخر الحسن، والاستبرق: الديباج الغليظ الذي له بريق. وهذا يدل على أنّ ثياب أهل الجنّة من الحرير الخالص وبأشكال مختلفة.

---

١ «عاليهم» من مادة «علوّ» أي من فوقهم. وقيل في عربها احتمالان، الأول: أنّها «ظرف» لأنّها تحمل معنى «فوق»، والآخر: «حال» للضمير «هم» الذي جاء في الآيات السابقة.

٢ التحقيق في كلمات القرآن الكريم.

٣. معجم اللغة لـ(دهخدا)

ويمكن الإشارة هنا إلى أنّ الحرير وبسبب نعومته ولطافته وقبوله لألوان مختلفة يعتبر من أفضل الأقمشة وأفخرها.

وبما أنّ الناس لم يعرفوا لباساً أعلى وأفخر من الحرير لذا استعملت هذه الكلمة في توصيف لباس أهل الجنّة، وإلّا فكل شيءٍ في الجنّة فوق حد التصور.

والجدير بالذكر أنّ الآيات الكريمة تحدثت عن اللون الأخضر، ولعل السبب في ذلك هو أنّ هذا اللون أجمل الألوان في عالم الطبيعة والخلق، فهو لون يبعث على البهجة والارتياح في النفس، فالنباتات بشكل عام خضراء، والبحار والمياه تبدو أحياناً زرقاء وأحياناً أخرى خضراء، ولهذا فإنّ هذا اللون يبعث في الروح الإنسانية البهجة والطمأنينة والارتياح.

ويعتقد بعض العلماء بأنّ اللون الأخضر لون مهدئ ومسكن، ونقرأ في أحد الكتب مقالة تحت عنوان: (الصحة واللباس). «إنّ اللون الأخضر له أثر كبير في علاج الأمراض العصبية والنفسية والهستريا والارهاق العصبي، وكذلك له الأثر في زيادة قوة الإدراك والتحمل وبعث الأمل والاعتدال، كذلك له الأثر في تقوية حبالات الأرق وتخفيف ضغط الدم، وتسكين أوجاع الأعصاب، ويلاحظ أنّ أغلب الذين يتخيلون اللون الأخضر في الوهلة الأولى رحماء واقعيون، ويتمتعون بتعادل روحي ونفسي.

ولقد اجريت تجربة على ثلاث مجاميع من العمال، المجموعة الأولى عهد إليها حمل صناديق خضراء اللون، والثانية، صناديق سوداء اللون والثالثة، بنية اللون، فلوحظ أنّ أغلب المراجعين للمستشفى هم من المجموعة الثانية والثالثة وكانوا يشكون من آلام في الظهر وآلام أخرى.

يذكر أنّه كان في لندن جسر أسود اللون وكان الكثير من الناس ينتحرون بإلقاء أنفسهم من فوقه، ولما غيروا لونه إلى الأخضر لوحظ انخفاض نسبة الانتحار بشكل كبير»[1].

وعرف منذ القدم هذا القول. (ثلاث يذهبن الحزن الماء والخضراء والوجه الحسن)

١ الجامعة الأولى والنبي الخاتم، المرحوم الشهيد الدكتور پاك نجاد ج ١٨، ص ١٣٣ـ١٣٤.

ونختم هذا الموضوع بما نقله أحد المفسرين: «لو بسط ثوب من أثواب الجنّة في الدنيا لاندهش أهلها جميعاً»[1].

٨٠٣

١٠ ـ حلي الجنّة

أشرنا في البحث السابق إلى ألبسة أهل الجنّة، وسنتطرق في هذا البحث إلى حليهم أيضاً.

من المعلوم أنّ للحلي والزينة المناسبة أثر نفسي كبير على روح الإنسان، فتبعث فيها الارتياح والانبساط والبهجة، وإذا لم تخرج عن حد الاعتدال فلا بأس في ذلك وهو عمل مرضي، لذا نجد أنّ الكثير من الآيات القرآنية والروايات أكدت على الزينة والتجمل والتطيب حتى أثناء العبادة ومن جملتها ارتداء الألبسة الطاهرة، اختيار الألوان المناسبة، تمشيط الشعر، استعمال العطور والطيب، والتختم بالعقيق ونحو ذلك.

ويستفاد من آيات عديدة من القرآن أنّ أهل الجنّة يتحلون ويتزينون بأفخر أنواع الحلي، وبهذا فهم يتمتعون بلذة نفسية كافية، ولقد ورد في ثلاث آيات من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾[2].

«أساور» جمع *(أسورة)* على وزن (تجربة) وهي أيضاً جمع *(سُوار)* على وزن (غبار) و(كتاب) ومشتقة من الكلمة الفارسية (دستوار).

ولقد صرحت آيتان من الآيات الثلاث بالإضافة إلى *(الذهب)* بـ*(اللؤلؤ)* أيضاً، ويقول بعض المفسرين أنّها إشارة إلى أساور الجواهر واللؤلؤ، ولو أخذنا بنظر الاعتبار أنّ (اللؤلؤ) عطف على محل (من أساور) وهو منصوب فيكون بمنزلة المفعول به لـ«يحلون» فيكون معنى الآية هكذا ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (الحج / ٢٣)

ومن الممكن أن تكون زينة اللؤلؤ مشتقة من الأساور، وكذلك يمكن أن تكون جزءاً منها.

---

١. روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٤٩

٢. الكهف، ١٣ والحج، ٢٣ وفاطر، ٣٣

ويحتمل البعض: أنّ أهل الجنّة بالإضافة إلى تزينهم بأساور من ذهب كذلك أنّهم يتزينون بأساور من اللؤلؤ الخالص أيضاً.

ولقد أشار القرآن الكريم في موضع واحد إلى (أساور الفضة): ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾. (الإنسان / ٢١)

من هنا يطرح هذا السؤال: أنّ الأساور سواء كانت من ذهب أو من فضة فهي من زينة النساء، ولا يتحلى الرجال عادة بالأساور فهل يختلف الأمر في الجنّة؟

يجب أن نلاحظ هذه المسألة وهي أننا نجد وفي أماكن مختلفة من هذا العالم أنّ كلا الجنسين يتزينون بالأساور ولا يختص بالنساء فقط.

ويتبيّن من اعتراض فرعون على موسى الذي كان يقول: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾. (الزخرف / ٥٣)

إنّ هذا الموضوع كان له شياع في عرف أهل مصر، وتدل الزينة على شخصية الرجال وعظمتهم.

لقد أشرنا في البحوث السابقة ولمرات عديدة إلى هذه المسألة وهي أنّ القرآن يحدثنا بلغتنا وماهو سائد عندنا. ومن البديهي أنّ زينة أهل الجنّة وحتى زينتهم المادية هي أعلى من أن تحيط بها أفكار أهل الدنيا

١١ ـ الحور العين

يعتبر اختيار الزوجة الصالحة من أهم عوامل الراحة والسكينة والأنس والحيوية في هذه الدنيا.

فالزوجة الصالحة (وكذلك الأمر بالنسبة للزوج الصالح) تسهل على الزوج تحمل جميع مشاكل الحياة وصعوباتها، وتعطي للحياة طعماً خاصاً مليئاً بالمحبة والبهجة والسعادة.

وعلى العكس ـ في حالة عدم امتلاك زوجة أو امتلاك الزوجة غير الصالحة ـ فسوف تتبدل حلاوة الحياة وعذوبتها إلى جحيم لايطاق حتى وإن توفرت جميع أسباب الراحة

وبتعبير آخر، إنّ الزوجة الصالحة التي تتحلى بالفضائل الأخلاقية والخصال الحميدة، لم تكن أساس اللذة الجسمانية فقط وإنّما تعتبر أساس اللذة الروحانية أيضاً.

فليس من قبيل المصادفة أن يركّز القرآن الكريم ضمن عرضه لأنواع النعم في الجنّة على هذه المسألة، فقد عبّر بتعابير عميقة المحتوى في هذا المجال

قال تعالى في موضع: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ (البقرة / ٢٥)

وصف الأزواج بكونها *(مطهرة)* له مفهوم جامع وشامل، فكما يدل التعبير على نقائها وصفائها من كل النقائص والأقذار الجسمية و الخلقية، كذلك يشمل أيضاً نزاهتها من العيوب والأدران المعنوية والخُلقية، ومن المعلوم أنّ أهم شرط في اختيار الزوجة هو طهارتها.

إنّ تعبير *(مطهرة)* أكثر عمقاً من تعبير طاهرة *(فمطهّرة)* تشير إلى أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الذي طهّرها ومن يطهره الله ويشهد على طهارته تكون حالته واضحة بيّنة.

وجاء نفس هذا المعنى في هذا الحديث (أزواج مطهرة من أنواع الأقذار والمكاره)[1]

لقد عبّر القرآن في عدّة مواضع عن زوجات أهل الجنّة بـ(الحور العين)، فقال تعالى:

﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ (الدخان / ٥٤)

وورد نفس هذا التعبير في الآية ٢٢ من سورة الطور وذهب إلى أبعد من ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾.[2] (الواقعة / ٢٢ ـ ٢٣)

وقال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾. (الرحمن / ٧٢)

ونقرأ في قوله تعالى ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ... * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾. (الرحمن / ٥٦ ـ ٥٨)

«حور»: جمع *(حوراء)* و*(أحور)*، وعلى قول الكثير من أرباب اللغة والمفسّرين (شدة

---

١ تفسير الميزان، ج ١ ذيل الآية ٢٥ من سورة البقرة وهكذا ذكره المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٤٠.

٢ هناك احتمالات عديدة في محل اعراب «حور عين» ومن جملتها مبتدأ لخبر محذوف تقديره (لهم حور عين)، أو عطف على (ولدان مخلدون) والاحتمال الأول هو الأرجح وذلك لأنّ الحور العين ليست للخدمة.

بياض العين في شدة سوادها) وهذه غاية جمال العين. ولعل السبب في ذكر القرآن لجمال العين هو أنّ أكثر جمال الإنسان في عينيه. ولقد فسّره البعض ببياض جميع الجسم لذا تطلق كلمة التحوير على عملية غسل الملابس وتبييضها ويمكن الجمع بين المعنيين على أساس اتصافهما ببياض الجسم وجمال العيون وسعتها

ومن هذا الباب أيضاً أُطلقت كلمة (الحواريون) على أصحاب السيد المسيح ﷺ الذين كانوا يرتدون الملابس البيضاء.

أمّا كلمة «عين» جمع *(أعين)* على وزن (فُعل) و«عيناء» في الأصل بمعنى العين الوسيعة، وتطلق هذه الكلمة على المرأة التي تمتلك عينين واسعتين جميلتين وجذابتين أو الرجل كذلك.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كلمتي «حور» و«عين» تطلق على المذكر والمؤنث أيضاً. لهذا فهي تحمل مفهوماً واسعاً بحيث يشمل جميع الأزواج في الجنّة، زوجات للرجال المؤمنين، وأزواج للنساء المؤمنات (سنتكلم عن هذا الموضوع أيضاً في مكان آخر).

يلاحظ أنّ القرآن الكريم قد أكّد على جمال العيون ـ وكما أشرنا ـ أنّ جمال الإنسان يكون قبل كل شيء وبعد كل شيء في عينيه، فالعيون معيار جمال الجسم والروح.

«لؤلؤ» أي الدر المصون المخزون في الصدف لم تمسّه الأيدي، والذي يكون له صفاء ورونقٌ خاصٌ حين استخراجه من الصدف وتشبيه *«حور العين»* بـ(اللؤلؤ المكنون) إشارة إلى لطافتها وجمالها الخارق. ومن الممكن أن يكون إشارة إلى أنّها مستورة بشكل كامل عن أنظار الآخرين، فلا يد مسّتها ولا عين وقعت عليها

وقال بعض المفسّرين أيضاً [١] بما أنّ *(حور)* مشتقة من مادة *(حيرة)*، فيكون مفهومها هو أنّ الحور العين من الجمال بحيث تتحير العيون عن النظر إليها

وبعدها امتدح الله *(الحور العين)* بقوله: *(خيرات حسان)*، أي نساء خيّرات الأخلاق حسان الوجوه، وذكر صفة أُخرى لهن وهي (مقصورات في الخيام)، قيل المقصور بمعنى

---

١ أبو الفتوح الرازي في تفسيره نقل ذلك عن بعض المفسرين القدماء (تفسير روح الجنان، ج ١١، ص١٣).

المستور أي مستورات في القباب، وقيل مصونات محفوظات مخدّرات لا يبتذلن، وقيل مقصورات أي قصرن على أزواجهن فقط دون غيرهم

وقيل نفس الشيء في تفسير قوله تعالى: *(قاصرات الطرف)*، وذلك لأنّ *«طرف»* على وزن (حرف) بمعنى (جفن العين)، لأنّها تطرف فيطبق عليها تارة وينفتح تارة، ويكون المعنى قصرن طرفهن على أزواجهن لم يرون غيرهم، وهذه أعظم صفة وأكبر امتياز حيث لاترى أحسن من زوجها، فليس لها أي علاقة بغيره.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كلمة «الخيمة» في اللغة العربية لا تنحصر بالخيمة المصنوعة من القماش، بل تطلق على كل بناية مدورة، حتى قال بعض أرباب اللغة: «كل بناية بنيت من الحجر و... وغيره هي خيمة، وأنّ الخيمة في الأصل حسب قول صاحب كتاب مقاييس اللغة بمعنى الإقامة والثبات».

ويستفاد من الروايات الإسلامية أنّ خيام الجنّة وحكمها كسائر النعم الإلهيّة الاخرى لا يوجد أي شبه بينها وبين الخيام الدنيوية، فبعضها قطع من اللؤلؤ

وجاء في وصف آخر للحور العين حيث شبههن بالياقوت والمرجان: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن / ٥٨)

أي هنّ على صفاء ولون وتلألؤ الياقوت وبياض وجمال المرجان.

ومن المعلوم أنّه إذا امتزج هذان اللونان مع بعضهما يشكلان أحلى الألوان وأجملها

«ياقوت»: حجر معدني في غاية الشفّافية، وعادة يكون أحمر اللون.

«مرجان»: يشبه أغصان النباتات ويوجد في البحار، وله ألوان مختلفة ويراد منه هنا اللون الأبيض، وقيل إنّه اللؤلؤ الصغير، حيث تتصف مثل هذه اللئالئ ببياض وجمال وشفافية أكثر[١]، ولكن يعتقد العلماء اليوم أنّ (المرجان) موجود حيّ ويشبه الأغصان الصغيرة للشجرة وينمو في أعماق البحار، وكان العلماء يعتقدون لفترة طويلة بأنّه نوع من أنواع النباتات، ولكن اتّضح فيما بعد أنّ له صفات الحيوان رغم أنّه ملتصق بصخور قاع البحر.

---

١. ذكر هذا المعنى الراغب في (مفرداته) ومجموعة من أهل اللغة والتفسير

وجاء في سورة الواقعة وصف آخر لهن وهو *(أبكار)* ثم «عرب».

«أتراب»: قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً﴾ (الواقعة / ٣٦ ـ ٣٧)

«أبكار»: جمع *«بكر»* أي خلقناهن عذارى كلما آتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً. ويستفاد من بعض الروايات وكلمات المفسّرين أنّ هذه الحالة حالة دائمية لا تتغير.

«عُرُب»: على وزن *(كُتُب)* جمع *(عَروب)* على وزن *(طروب)* أو *(عَرِبَة)* أي متحننات على أزواجهن متحببات إليهم، وقيل عاشقات لأزواجهن، وقيل العروب اللعوب مع زوجها، وفي الأصل مأخوذة من مادة (إعراب) التي تعني الإظهار، وقد تعني أنّ لسان حالها يدل على عفتها وطهارتها.

وفسّرها البعض أيضاً بمعنى الدلال وهو قريب من المعنى السابق.

ولقد ذكرت كلمة «أتراب» في ثلاث آيات من القرآن الكريم كوصف للحور العين [1] وهي جمع *«تِرب»* على وزن (حرب) بمعنى (المتساويان) في السن، وتستخدم في الجنس المؤنث على الأغلب، وقيل: إنّها في الأصل مشتقة من «ترائب» بمعنى أضلاع القفص الصدري، أي متشابهات. وقال البعض إنّها مشتقة من مادة (تُراب) وكأنّهم ولدوا في وقت واحد ووطئوا تراب الأرض معاً.

على أيّة حال فإنّ التساوي في السن يمكن أن يكون إشارة إلى تقاربهم، حيث إنّ الأزواج المتقاربين في السن يدركون غالب أحاسيس ومشاعر بعضهم البعض على نحو أفضل، أو أنّه إشارة إلى تشابههم في الخلقة والقامة والصورة والسن حتى أصبحوا متشاكلين.

ولكن ذكر هذا الوصف مع بقية الأوصاف الأخرى مثل *«عرب»* و*«كواعب»* و*«قاصرات الطرف»* يدلل على أنّ المعنى الأول هو الأنسب.

«كواعب»: لقد ورد هذا الوصف مرّة واحدة في القرآن الكريم في سورة النبأ، و(كواعب) جمع (كاعب) بمعنى الفتاة صغيرة السن، وهي مشتقة من مادة (كعب) والتي تعني في الأصل

---

[1] سورة النبأ، ٣٣؛ ص، ٥٢؛ الواقعة، ٣٧.

بروز ظاهر القدم، واستعملت هنا للإشارة إلى الفتيات الصغيرات السن اللاتي أشرفت أثداؤهُنّ على البروز، ولقد ورد كذلك أنّ "تكواعب" إشارة إلى مرحلة البلوغ الجسمي حيث يبدأ الجسم بالنمو السريع في هذه المرحلة.

وبهذا الشكل فإنّ الحور العين يتّصفن بجميع الصفات والمحاسن وحسن الظاهر والباطن والفضائل الجسمانية والروحانية والأخلاقية، وبذلك يتّصفن بكل ما هو حسن.

ونكرر مرّة أُخرى ونقول: إنّ كل ذلك إشارات لحقائق مادية ومعنوية عليا للعالم الآخر ولا يمكن إدراك تفاصيلها.

٭٭٭

١٢ ـ الخدم والسقاة

إنّ الله سبحانه وتعالى اتم نعمته على أهل الجنّة واعطاهم كل شيء ومن جملتها المصيفون الذين يخدمونهم وبأعلى كيفية.

و«السُقاة»: وهم الذين يطوفون على أهل الجنّة ويسقونهم من الشراب الطهور.

إنّ حسن ظاهرهم ولطف باطنهم وصلاح خَلقهم وخُلقهم من الدرجة بحيث يجذب إليهم أهل الجنّة وينسيهم كل ما تحملوه من الآلام والمعاناة في الدنيا في سبيل اطاعة أوامر الله تعالى.

ولقد تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة عن (الغلمان) و(الولدان المخلدون) ووصفهم بأجمل الأوصاف.

إنّ التعابير الواردة في هذا الصدد، وكسائر المواهب والعطايا الإلهيّة متنوعة ومختلفة، فقد جاء تعبير «غلمان» في قوله تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾. (الطور/٢٤)

تعبير *(يطوف)* (مع ملاحظة كونه فعل مضارع يفيد الاستمرار) دليل على أنّ طوافهم حول أهل الجنّة طواف دائمي.

«لؤلؤ مكنون»: وصف للخدمة، فهم في حسنهم وصباحتهم وصفائهم وبياضهم كاللؤلؤ المصون في الصدف، أو الذي اخرج تواً من الصدف.

صحيح أنّ الجنّة ـ حسب التعابير الواردة في الآيات والروايات ـ لاتحتاج إلى خدم، وكل مايريد أهل الجنّة مهيأ وجاهز، ولكن هذا يعبّر عن مقدار الاحترام والاكرام المنقطع النظير لأهلها من قبل الخدم.

ولو أنّ هذه الآية لم تخبر صراحة، عن عمّة طوافهم، ولكن الآيات التي بعدها أشارت إلى أنّ مهمتهم تتعلق بخدمة وتضييف أهل الجنّة بأنواع الأشربة والشراب الطهور، ومختلف الأغذية.

التعبير بـ *(لهم)* يدل على أنّ لكل واحدٍ من أهل الجنّة خدماً خاصين به، وقيل: ليس على الغلمان مشقة في خدمة أهل الجنّة بل لهم في ذلك اللذة والسرور إذ ليست تلك الدار دار محنة.

وقد نقل الكثير من المفسّرين هذا الحديث عن رسول الله ﷺ: قيل يارسول الله الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: *«والذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»*[١].

ومن الجدير بالذكر أنّ *(الغلمان)* جمع غلام وتعني في اللغة *(الصبي)* لا العبد[٢].

ومن البديهي أنّ الأفراد بهذا السن يتمتعون بالنشاط والحيوية والجدية.

وذكر القرآن الكريم تعبيراً آخر بخصوص الخدم وهو *«ولدان»*، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾. (الواقعة / ١٧ـ١٨)

«ولدان»: جمع *«وليد»* بمعنى (مولود)، وهنا بمعنى (الغلام) وما ذهب إليه البعض من كونهم صغار المؤمنين يخدمون آباءهم فهو بعيد[٣]، وذلك لأنّهم إن كانوا مؤمنين فهم

---

١. راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح المعاني؛ روح البيان؛ القرطبي؛ و الكشاف ذيل الآية مورد البحث.

٢. لقد كتب الكثير من أرباب اللغة في تفسيرها «الغلام هو الطار الشارب» (مقاييس اللغة، المفردات، لسان العرب).

٣. تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٤٩ ذكر هذا الاحتمال في تفسيره واستبعده.

يُخدمون لا أنّهم خدم للآخرين، وإن كانوا غير مؤمنين فلا سبيل لهم

وتعبير *(مخلدون)* إشارة إلى بقائهم على حالهم فيبقون صغاراً دائماً لا يكبرون ولا يلتحون فهم على هيئتهم من حداثة السن و نشاط والحيوية.

ولقد ورد نفس هذا التعبير بتوضيح أكثر وألطف. قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ (الإنسان / ١٩)

وهذا شاهد آخر على أنّ المراد من *(ولدان)* هو نفس *(الغلمان)* الذين وصفتهم الآيات السابقة بـ*(لؤلؤ مكنون)*، وهنا وصفتهم هذه الآية بـ*(اللؤلؤ منثور)*

ولقد احتمل الكثير من المفسرين أنّ هؤلاء الغلمان هم أطفال المشركين والمؤمنين الذين رجحت كفة سيئاتهم، فلم يؤاخذهم الله سبحانه بأعمال آبائهم ولكن جعلهم خدماً لأهل الجنّة وهم مسرورون بذلك

ولو أخذنا بنظر الاعتبار ما أشرنا إليه سابقاً في تضعيف هذا الاحتمال، وما الرواية التي نقلت في هذا المجال إلّا رواية مرسلة لا أكثر

وجاء في تعبير آخر (بصيغة المبني للمجهول) يشير إلى المضيفين في الجنّة، قال تعالى ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ (الصافات / ٤٥)

ولقد ورد شبيه هذا المعنى بشيء من التفاوت كدليل على تنوع الموائد في الجنّة في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾. (الدهر / ١٥)

ونقرأ تعبيراً آخر في قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾. (الزخرف / ٧١)

«صحاف»: جمع *«صحفة»* وعلى قول الزمخشري (طبق ما جاء في مصباح اللغة): إناء مستطيل (كبير)، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار المادة الأصلية للكلمة والتي تعني الانبساط والاستواء، فيمكن أن يكون إشارة إلى إناء يشبه (الصينية)

و«أكواب»: جمع *(كوب)* وهو إناء للشرب لا عروة فيه وقد يعبر عنه بـ(القدح) أحياناً والجدير بالذكر وعلى قول بعض المفسّرين *(صحاف)* (جمع كثرة) *و«أكواب»* جمع «قلة»، وهذا يعود إلى أن تنوع الأغذية وصحافها أكثر من تنوع المشروبات وأكوابها[١].

---

١. تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٩٠

وتقتضي فصاحة القرآن التطرق حتى لمثل هذه الجزئيات. (تأمل)

وأخيراً، ولو أنّ هذه الآيات الأخيرة لم تبيّن أوصاف المضيّفين، ولكن يمكن أن تفسرها الآيات السابقة وتدلل عليهم وعلى مواصفاتهم

٭٭٭

١٣ ـ المضيفون

يلاحظ في مجالس الضيافة ولأجل تقدير واحترام الضيوف على أحسن وجه حضور شخصية أو مجموعة من الشخصيات المحترمة، وهؤلاء يقومون بواجب الضيافة كدعوتهم الضيوف إلى تناول الطعام أو المراجعات أو سائر لوازم الضيافة، وغالباً مايكون هؤلاء من غير الخدم.

وهذا يعتبر احتراماً مضاعفاً، وكذلك سماع بعض الأشياء بلغة وعظمة خاصة، بالإضافة إلى ذلك يزيد من احترامه وتقديره.

ويستفاد من الآيات الكريمة أنّ هذا المعنى مهيّأ إلى الملائكة وخزنة الجنّة، فإنّهم يدعون أهل الجنّة للانتفاع من نعمها:

ورد في القرآن الكريم (ومن دون أن يذكر القائل) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (الطور / ١٩)

ولقد ورد عين هذا التعبير في الآية ٤٣ من سورة المرسلات.

فهل أنّ المتكلم هو اللّه تبارك وتعالى؟ وهل ورد هذا الكلام كاحترام وإكرام وعناية ولطف خاص من قبل اللّه تبارك وتعالى؟ أم أنّ هذا الكلام صادر عن الخزنة والملائكة...؟

على أيّة حال، فإنّ جميع نعم الجنّة هنيئة، وما قول ﴿هنيئاً ...﴾ إلّا عناية أخرى تضاف إلى جميع النعم.

ولقد ورد شبيه هذا التعبير بشيء من الاختلاف في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[1] (الحاقة / ٢٤)

---

١. في اعراب «هنيئاً» أقوال: يرى البعض أنّه وصف بمعنى «المفعول المطلق» ويكون التقدير (كلو أكلاً ☜

إنّ هذه الآية لم تشر إلى المتكلم أيضاً، وما جاء في الآيات لا يختلف عمّا ذكرناه في الآية السابقة.

❀❀❀

١٤ ـ النُّزُل

نلاحظ في بعض الآيات تعبيراً عميق المعنى يكشف عن حقيقة جديدة وهذا التعبير هو *(النُّزُل)*، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾. (آل عمران/ ١٩٨)

كما ورد نفس هذا المعنى في الآية ١٠٧ من سورة الكهف، والآية ١٩ من سورة السجدة، والآية ٦٢ من سورة الصافات والآية ٣٢ من سورة فصلت.

ولأجل توضيح المفهوم الحقيقي لهذه الآيات، فلابدّ من توضيح المعنى الدقيق للنزل.

قال الراغب في مفرداته: *(النزل ما يعد للنازل من الزاد)*، وعلى ضوء هذا التفسير تكون جميع النعم التي تعد لاستقبال الضيوف مصداقاً من مصاديق النزل، ولقد ورد نفس هذا المعنى في «صحاح اللغة» و«المقاييس».

وقال بعض المفسرين: «النزل ما يعطى لمن يكون نازلاً وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له جيزاً»[1].

وقيل: *(النزل)*[2] أول طعام يقدم إلى الضيف (وكما هو جارٍ في زماننا حيث يقدمون عصير الفواكه، أو الفواكه للضيف في أول حلوله)، وينسجم هذا المعنى مع مفهوم *(النُّزُل)*

☜ هنيئاً، وقيل إنّها وصف المفعول به ويكون المعنى: كلوا واشربوا مأكولاً ومشروباً هنيئاً)، وفي الواقع أنّ هنيئاً هو نفس المأكول والمشروب.

وعلى أيّة حال، فإنّ المراد من «هنيئاً» أنّ الطعام أو الشراب لايترك أيّ أثر سيء على الإنسان، بل إنّه يهضم بكل سهولة.

١. تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٨٢

٢. تفسير المنار، ج ٤، ص ٣١٤ ـ لقد ذكر ثلاثة معان مختلفة ومتقاربة في نفس الوقت.

وبناءً على ذلك ومع الأخذ بنظر الاعتبار «الجنات» بكل نعمها ومواهبها يكون مفهوم «النزل» في ذلك المضيف الكبير هو وجود استقبالات أعلى وأهم ولعلها تكون إشارة إلى تلك *النعم المعنوية والجذبات الروحانية والمظاهر القدسية*، وبهذا السبب ورد في قوله تعالى بعد جملة: ﴿نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾. (آل عمران / ١٩٨)

حتى وإن كان *(النزل)* بمعنى مايعد للضيف من الكرامة والبر والطعام والشراب (كما قال ذلك بعض المفسرين)، فإنّه لا يمكن انكار أنّ ضيافة الشخص الكريم لاتنحصر بإطعام الضيوف فقط، بل تشمل إضافة إلى ذلك تقديم أنواع الهدايا والعطايا التي تهدى إليهم، وما الطعام والشراب إلّا شيئاً يسيراً قبال هذه الأُمور.

وبناءً على هذا ومهما كان معنى *(النزل)*، ففيه إشارة لطيفة إلى تلك المواهب المعنوية والروحانية للجنّة.

١٥ ـ النعم التي لا تتصور

ممّا لا شك فيه أنّ النعم المادية في الجنّة لا تنحصر بما قيل سلفاً، فطبيعة هذا العالم المحدود تحول دون أن يكون لدينا تصور متكامل عن النعم المادية والروحانية في العالم الآخر.

ومن جهة أُخرى، أنّ حب التنوع عند الإنسان يدفعه لطلب المزيد من المواهب والنعم المختلفة، ولذا عني القرآن الكريم بهذه المسألة عناية خاصة وأعلن صراحة: ﴿وَفِيهَا مَاتَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾. (الزخرف / ٧١)

وهذا التعبير هو أكثر التعابير شمولية وجمعاً فيما يتعلق بالمواهب والنعم الإلهيّة في الجنّة.

يقول المرحوم (الطبرسي) في مجمع البيان: «لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما

في الجنّة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما تعظمه هاتان الصفتان» [1].

والملفت هو ذكر هذه الجملة بعد بيان العديد من نعم الجنّة حتى يُعرف أنّ نعم الجنّة لاتنحصر بها.

وهنا يطرح هذا السؤال: لماذا ذكر تعالى لذة الأعين بعد لذة الأنفس؟ هناك عدّة احتمالات:

الأول: أنّ جملة *«تشتهيه الأنفس»* تشمل جميع اللذات، أمّا لذّة «الأعين» ولما لها من أهمية استثنائية فقد وردت على شكل (ذكر الخاص بعد العام).

الثاني: أنّ الجملة الأُولى إشارة إلى لذات جميع الحواس (حاسة السمع، واللمس، والذوق، والشم)، أمّا جملة *«تلذ الاعين»* فهي إشارة إلى لذة حاسة البصر وهذه اللذة تعادل جميع اللذات أو أكثر.

الثالث: أنّ الجملة الأُولى أشارت إلى جميع اللذات الجسمانية (المادية)، أمّا الجملة الثانية فقد أشارت إلى اللذات الروحانية (المعنوية)، أي النظر بعين البصيرة إلى جمال الخالق المطلق، ومشاهدة صفات الجمال والجلال التي تعادل كل لحظة منها جميع النعم المادية في الجنّة.

ومن الواضح أنّ محيط الجنّة محيط منزه ومقدس، لذا فإنّ طلبات الإنسان من أنواع النعم (المشروبة والمأكولة والملبوسة والمشمومة وغيرها) لا تتعدى الأشياء الطاهرة التي تليق بالإنسان الطاهر، وعلى هذا فلا استثناء في عمومية الآية، ولا تحتاج إلى تساؤلات هذا وذاك من قبيل هل تشمل الطلبات السيئة للنفس؟

لقد ورد نفس هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ﴾ [2]. (فصلت / ٣١)

قال بعض المفسرين: إنّ الجملة الأُولى إشارة إلى جميع النعم المادية في الجنّة، أمّا

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٥٦

٢. «يدَّعُون» من مادة «ادّعاء» (افتعال من دعاء) بمعنى طلب الشيء

الجملة الثانية فهي إشارة إلى المواهب المعنوية بقرينة قوله تعالى: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس / ١٠)

إنّ هذا التفسير يعتبر تفسيراً مناسباً، حيث إنّ شهوة النفس تكون أكثر فيما يتعلق بـ(المسائل المادية)، أمّا الدعاء فيستعمل عادة في المسائل المعنوية.

ونقرأ تعبيراً آخر في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾. (الأنبياء/١٠٢)

وإضافة إلى ماذكرنا هناك آيات اُخرى في هذا المجال:

فنحن في تعبير جديد: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ (نحل / ٣١)

وكذلك ورد نفس هذا التعبير في سورة الفرقان الآية ١٦

ويلاحظ هذا التعبير أيضاً(وبشيء من الاختلاف) في ثلاث سور اُخرى من القرآن (الزمر / ٣٤، والشورى / ٢٢، وق / ٣٥).

ويتّضح من مجموع ماذكر في هذا الفصل، أنّ العطاء الإلهي في الجنّة *لا تحدّه أي حدود*، لا من حيث المقدار، ولا الكيفية والنوع، ولا الزمان والمكان، وبناءً على ذلك فإنّ ما ذكر في الفصول الماضية إنّما هو عبارة عن نماذج و صحة لما يمكن أن يدركه أهل هذا العالم إجمالاً، أمّا النعم التي هي فوق تصورنا وإدراكنا فقد أشارت إليها الآيات القرآنية المذكورة بعبارات أكثر شمولية وعمومية.

وفي الحقيقة أنّ الجنّة والعطاء الإلهي فيها ما هو إلّا مظهر كامل من مظاهر القدرة واللطف الإلهي، وبما أنّه لا نهاية لقدرته ولطفه تعالى.. فكذلك لا نهاية ولاحد لعطاياه ومواهبه في الجنّة.

✽✽✽



٣ ـ اللذات الروحية

نظراً لوجود أبعاد روحية وجسمية في « معاده ونظراً لكون الروح أسمى وأشرف من الجسم بمرّات ومرّات ، فينبغي إذن عدم الشك في أنّ النعم الروحية والمعنوية للجنّة أفضل وأسمى وأعظم بمرّات من النعم الماديّة والجسمية !

ولكن لمّا كان الوصف لا يتسع عادة للتعبير عن هذه النعم ، وهي أمور تعتمد على المشاهدة (القلبية) لا على القول والسماع فلهذا غالباً ما نعثر في الآيات القرآنية على إشارات مبهمة لهذه النعم التي يتمتّع بها أصحاب الجنّة باستثناء الموارد التي يمكن شرحها وبيانها حيث تولى القرآن الكريم شرح وبيان عدد منها.

وبعبارة أخرى ، فإنّ لذّة إدراك معرفة الله وما فيها من نفحات جلالية وجمالية وأنوار ألطافه الخفيّة ، والسكر لدى ارتشاف كأس العشق لذاته المقدّسة تعادل بل وتفوق اللحظة الواحدة منها كل النعم المادية في هذا العالم .

وقد نتصور أحيانا نماذج بسيطة لهذه النعم في الدنيا تتجلّى لنا عندما نقف بين يدي الله سبحانه وتعالى وننقطع للعبادة والخلوة، فنمد الأيدي بالدعاء والمناجاة ونغرق بالاستغاثة ونداء يا قاضي الحاجات، فننسى الدنيا وما فيها، وفي لحظات قصيرة نحس وكأننا في حالة ذوبان في جمال الله الذي لا مثيل ولا نظير له، وبالخصوص لو كنّا في هذه اللحظات في بعض الأماكن المقدّسة، في بيت الله الحرام أو عرفات والمشعر وغيرها من الأماكن والعتبات المقدّسة المخصصة للعبادة، فيشعر الإنسان بلذة لا يمكن لأي قلم أو بيان أن يصفها ويتصورها.

تصوّر لو أنّ هذه الحالات تحصل وبشكل أكثر قوّة بآلاف المرات وتستمر لساعات

وأيّام وليال وأشهر وسنوات متواصلة. كيف سيكون الحال؟ خاصّة مع انعدام عوامل الغفلة عن ذكر الله في الجنّة وزوال المسببات التي تعصف باستقرار القلب وحضوره، وانكشاف الحجب وموانع المعرفة من أمام الأبصار، حيث يصبح إدراك الإنسان وبصيرته أشدّ وأقوى ولا وجود هناك للوساوس الشيطانية التي تقف حجر عثرة دوماً في وجه سالكي هذا الطريق.

يمكن حينذاك تصوّر ما يجري هناك، وما هي النعم المعنوية العظيمة التي تتجلّى لنا، وما هي النفحات الجذابة التي تستقطب الروح إلى جوار قرب الله، وتجعلها غارقة في أنوار ذاته وغافلة عن ذاتها حتّى يصل بها الحال إلى عدم رؤية ما سواه ولا تطلب سواه، ولا ترى إلّا ما تحب، وتحب كل ما ترى.

ونعود الآن إلى القرآن مع الالتفات إلى الإشارات المذكورة أعلاه لنرى القرآن نفسه وهو يبيّن هذه النعم التي يمكن تلخيصها تحت الأبواب الآتية:

١ ـ الاحترام الخاص

تبدأ الاحترامات الخاصة لأهل الجنّة منذ لحظة دخولهم فيها فيقابلهم خزنتها مهنّئين، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. (الزمر / ٧٣)

يُستفاد من هذه الآية أنّ خزنة الجنّة ينتظرون المتقين بلهفة على أبواب الجنّة وقد فتحوا لهم أبوابها من قبل وما أن يصلوا إليها حتّى يسارعوا إلى استقبالهم بأجمل التحيات ووافر الاحترام ويدعوهم بأطيب العبارات إلى الجنّة والحياة الخالدة فيها[١].

---

١. الملفت للنظر هنا أنّ القرآن استعمل «واو» الحالية في جملة ﴿وفُتحت أبوابها﴾ للتعبير عن انفتاح الأبواب مسبقاً (كما ورد هذا في الآية ٥٠ من سورة ص ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ إلّا أنّه تعالى يقول عن النار: ﴿حتّى إذا جاءُوها فُتِحت أبوابها﴾ بدون استعمال «واو» الحالية

نعم هذه هي الأصول المتّبعة في استقبال الضيف العزيز، فأوّل الأمر تفتح الأبواب والمضيّفون ينتظرون على الباب، وما يكاد يدخل حتّى يستقبلوه بالترحاب وهذه من اللذات المعنوية الثمينة.

«والخزنة»: جمع (خازن) وهو بمعنى الحارس والمراقب، والمقصود هنا هو الملائكة الذين يتولون المحافظة على الجنّة وتسيير شؤونها.

وفي المرحلة اللاحقة بعد دخول الجنّة يؤمر ملائكة الله المقربون بالدخول عليهم من كل باب والترحيب بهم وتهنئتهم، ورد في قوله تعالى ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[1]. (الرعد / ٢٣ ـ ٢٤)

ويُفهم من الآية السابقة أنّ جموعاً من الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، مع الالتفات إلى أنّ كل باب من أبواب الجنّة مخصص لواحد من الأعمال الصالحة مثل: (باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الحج) فيتضح أنّ كل مجموعة من الملائكة تدخل عليهم لأجل واحد من الأعمال الصالحة التي أدوها في الدنيا، والطريف في الأمر أنّ كل هذه الأعمال تتلخص في معنى الصبر بكل أنواعه الصبر على الطاعة والصبر على المصيبة، والصبر عن المعصية.

والأهم من كل ذلك التحية والسلام الصادر من الله إلى أهل الجنّة، وهو سلام مقرون بالمحبة ومليء باللطف والرحمة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[2]. (يس / ٥٨)

هذا السلام وهذه التحية الإلهيّة التي تنفذ في أعماق النفس وتملؤها بالطاقة فتشد إليها نفوس أهل الجنّة بما فيها من لطف واحسان وتجعلها مستغرقة بالبهجة، إنّها نعمة لا تضاهيها نعمة، أجل، إنّ سماع نداء المحبوب المنبعث من جوده ولطفه لهُو أفضل من الدنيا وما فيها.

١ـ هذه الجملة تقديرية، وتقديرها هو: فنعم عاقبة الدار الجنّة.

٢ـ قيل في إعراب هذه الجملة: «سلام» خبر «ذلك» وهي مقدّرة. و«قولاً» مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: يقول قولاً. وهناك آراء أُخرى أيضاً في هذا الصدد إلّا أنّ ما ذكرناه هو الأنسب.

إنّ نفحة لقاء المحبوب ورؤية لطف الحبيب والسلام الذي يعني رفع الحجب، يحوي من اللذة والأشواق والبهجة بحيث لو بقي العشاق بعيدين عن فيضه المعنوي لما صبروا، على تحمل ذلك، وقد روى بعض مفسري السُنّة حديثاً قيّماً عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه «*لو حجبت عنه ساعة لمتّ*»[١].

وعلى أيّة حال، فإنّ أسمى أماني أهل الجنّة وأشرف مفخرة لهم وأحبّ ساعة إليهم، هو أنْ يسلّم عليهم الرّب الرحمن الرحيم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك آيات عديدة اُخرى في القرآن الكريم تتضمن إهداء التحية لأهل الجنّة من غير أن تحدد مصدر التحية والسلام كما في «الآية ٤٦ من سورة الحجر ـ والآية ٧٥ من سورة الفرقان ـ والآية ٣٤ من سورة ق»، فربّما يكون مصدر التحية الملائكة، ويحتمل في بعضها أن يكون السلام من أهل الجنّة على بعضهم، أو ربّما يكون من الله وهذا أفضلها وأكملها.

٢ ـ وجود الأمن والسلام

إنّ أكثر ما يعكر صفو روح الإنسان في الدنيا هو عدم الشعور بالأمان في شتى مناحي الحياة، وعدم الشعور بحلاوة الدنيا يعود في الغالب إلى عدم ثقة الإنسان بما بين يديه، فهو غير واثق من المستقبل ولا هو واثق من أبناء جنسه، لا سيما إذا كانت لديه نعمة أكثر فهو يجد نفسه عرضة لأمواج متلاطمة من الحقد والحسد والكراهية بما يجعل الدنيا مظلمة في عينيه.

وإحدى النعم الروحية المتوفّرة في الجنّة هي الشعور بالأمن والأمان في جميع المجالات، فلا خوف من اندلاع الحرب ولا وجل من المخاصمات، ولا الحقد له وجود ولا الحسد، والعشق والوفاء يملأ الأرجاء، وكذلك المحبّة والاخوّة تحيط بالجميع

١ تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٤١٦.

نلاحظ في القرآن الكريم آيتين فيهما وصف جميل وغني للجنّة وهو *دار السلام* وهذا ما جاء في الآية الكريمة ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. (الأنعام / ١٢٧)

وكذلك جاء هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾. (يونس/٢٥)

ينقسم المفسرون في تفسيرهم لمعنى *(دار السلام)* إلى قسمين:

الأول: يرى أنّ السلام هنا يعني أسلامه من كل ألم وآفة وبلاء، وهو من أوصاف الدار أي: الجنّة، فلا وجود هناك لصراع لماهيين في الدنيا المادّية ولا أثر للسلوكية المنحرفة لأصحاب الثروة الغافلين عن ذكر الله، ذلك لمكان خالٍ من الحروب وإراقة الدماء ولا مكان فيه للاستعمار والاستثمار، نعم هناك دار السلام والوئام والأمن والأمان [١]

الثاني: يرى أنّ *السلام* من أسماء الله، وعلى هذا *فدار السلام* هي من قبيل المضاف والمضاف إليه، وهو إشارة إلى أنّ الجنّة دار الله، وكلا المعنيين جميل رغم أنّ المعنى الأول يبدو مناسباً أكثر، لأنّ أصل هذه المفردة بناءً على قول الراغب الإصفهاني: يعني الخلو والسلامة من العيب والنقص الظاهري والباطني، حتّى أنّ هذه المفردة أُطلقت على ذات الباري عزّ وجلّ كواحدة من صفاته وأسمائه الحُسنى، لأنّ ذاته المقدّسة سالمة من العيب والفناء.

ويظهر كذلك من جملة *(لهم دار السلام)* أنّها تتطابق والمعنى الأول (تأمّل).

وورد في حديث عن ابن عبّاس أنّه قال: *دار السلام:* الجنّة وأهلها لهم السلامة من جميع الآفات والعاهات والأمراض والأسقام، ولهم السلامة من الهرم والموت وتغير الأحوال عليهم، وهم المكرمون الذين لا يهانون أبداً، وهم السعداء الذين لا يشقون أبداً، وهم الفرحون المسرورون الذين لا يغتمون ولا يهتمون أبداً، وهم الأحياء الذين لا يموتون

---

١ بلغني وأنا أكتب هذه الجمل أنّ المستعمرين بقيادة أمريكا قد بدأوا قبل عدّة ساعات بهجوم على العراق وأنّ المئات من طائراتهم تضرب وبشكل متواصل جميع المنشآت الحيوية في هذا البلد (٢٧/١٠/١٣٦٩ المصادف ليوم ٣٠ جمادى الثانية عام ١٤١١)

أبداً، فهم في قصور الدر والمرجان أبوابها مشرعة إلى عرش الرحمن والملائكة يدخلون عليهم من باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[1].

وأخيراً تأتي تكملة هذا الموضوع في الآية الكريمة ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[2] (الحجر/٤٧ـ٤٨)

وبما أنّ كلمة «غل» تحتمل الكثير من المعاني الواسعة التي تدل في الغالب على الصفات الباطنية القبيحة التي تعكر صفو الروح والجسد والعائلة والمجتمع، لهذا يفهم من هذه الآية أنّ صدور أهل الجنّة خالية من الحقد ولا تحمل قلوبهم أي ضغينة وعداوة وكبر وحسد، فالله قد نزع من قلوبهم كل هذه الصفات الرذيلة، فسادتهم روح الاخوة والمحبّة. وما أجمل وألطف مثل هذه الأجواء الخالية من تلك الصفات التي يخيم عليها الحب والعطف والسلام والوئام.

وحتى في الحياة الدنيا كلما أزيلت أمثال هذه الرذيلة من المجتمع كلما ساده الأمن والاستقرار، وعلى العكس من ذلك كلما انتشر وجود أمثال هذه الظواهر في أي بيت أو مجتمع أصبحت مصدراً للنزاعات الدامية ومؤسفة وسبباً لزعزعة الأمن والاستقرار

وممّا يثير الاهتمام أنّ القرآن الكريم جعل الاستقرار الداخلي مكمّلاً للاستقرار الخارجي حيث يقول: لا يوجد في الجنّة تعب أو اضطراب، وينعدم فيها الخوف من زوال النعم، وهو الهاجس الذي يقلق بال الإنسان الذي ينعم بالخيرات ويكدّر عليه عيشه، وكل هذه الأسباب تجعل من نعم الجنّة هنيئة مستساغة[3]

ജ ജ

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٩٤، ح ١٧٦

٢. «غلّ» مشتقّة من كلمة «غلل» على وزن «بلل» وتعني في الأصل النفوذ التدريجي للشيء، ولهذا يُقال للماء الذي يجري ويتسلل بين الأشجار (غلل)، وكذلك يقال للحسد والحقد والعداوة «غل» لأنّها تنفذ إلى القلب خفية وبالتدريج، وكذلك يطلق على الخيانة اسم «الغلول» لهذا السبب

٣. ورد ما يشابه هذا المضمون مع بعض الاختلاف الجزئي في الآية ٤٣ من سورة الأعراف، والآية ٣٥ من سورة فاطر

٣ـ الأمان بعد الخوف

إنّ نعمة الأمن وبغض النظر عن جذورها التي أشرنا إلى بعضها في بحثنا السابق، تُعد من أكبر النعم المعنوية التي يعز على الإنسان فقدانها ولو للحظة واحدة، وهذه الحقيقة يشعر بها الأشخاص في المناطق الصحراوية الموحشة أو في المناطق الحربية المعرّضة في أي وقت للقصف بالصواريخ والقنابل، فهناك يتكدّر معين الحياة الصافي وتمضي الساعات والدقائق ثقيلة وعسيرة. والنقطة المقابلة لذلك هي مناطق الأمن والأمان [1].

يَصفُ القرآن المجيد حال المتقين بقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (الدخان / ٥١)

فلا هم يخشون هجوم الشياطين ولا يخافون سلطة الطواغيت ولا هم يتعرضون للآفات والبلايا ولا يعتريهم الحزن والغم

ولهذا السبب يضيف في مكان آخر ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف / ٤٩)

لقد لاحظنا من خلال التجربة أنّ بعض الناس ـ رغم ماتوفر له من متطلبات الحياة ومستلزمات الراحة ـ يعيش حالة من القلق والاضطراب بسبب الحزن والهم الذي يستحوذ عليه، أو لوجود الخوف والهلع الذي ينتابه فينغص مضجعه فتراه لا يلتفت مطلقاً إلى كل تلك النعم ولا يعير أدنى اهتمام لما بين يديه، ففي مثل هذه الأحوال يمكن لمس حقيقة وعمق التعابير القرآنية بشأن أهل الجنّة.

لابدّ أنّ أهل الجنّة يشعرون حتّى في هذه الدنيا بشيء من ذلك الأمان والسكينة في ظل إيمانهم، وينعمون بالاستقرار حتّى في أشدّ المعضلات من خلال الاعتماد على حقيقة التوكل وروح التسليم والرضا بالإرادة الإلهيّة ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ... ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (يونس / ٦٢ ـ ٦٤)

—

[1] ـ كلمة «آمنين» الواردة في الآية ٥٥ من سورة الدخان والآية ٤٦ من سورة الحجر بشأن أهل الجنّة، وكذلك كلمة «آمنون» في الآية ٣٧ من سورة سبأ حيث تقول «وهم في الغرفات آمنون» هاتان الكلمتان تشيران إلى نفس هذا المعنى.

٤ ـ الأخلاء والأصدقاء الأوفياء

ومن أهم اللذائذ الروحية الأخرى معاشرة الأصدقاء المخلصين والأخلاء الذين يتصفون بالإيمان والسجايا الرفيعة، ويفوح من أرواحهم عطر المحبّة والمودّة. إنّ الجلوس مع هؤلاء لحظة واحدة يغمر النفس ببهجة لا توصف، وتذكر الآيات القرآنية الشريفة أنّ أهل الجنّة يتمتعون بهذه النعم فيجالسون الأخلاء ويتحدثون إليهم، ولكن ما هي المواضيع التي تدور حولها أحاديثهم؟ هذا ما لا يمكن التكهن به، لعلهم يتحدثون في مواضيع يستحيل علينا إدراكها اليوم، ولكن من البديهي أنّها من نوع الأحاديث التي تحيي القلوب.

تطالعنا الآيتان بما يأتي: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً[١] * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً﴾. (النساء / ٦٩ ـ ٧٠)

نعم، إنّ الأخلاء في الجنّة هم خيرة ذوي الفضائل في العالم كالأنبياء العظام والخلّص من أصحابهم والصديقين والشهداء والصالحين.

ولو قارنا هذا مع ما يجري في هذه الدنيا حيث يضطر الناس في كثير من الأحيان إلى تحمل العذاب الناتج عن معاشرة أشخاص لا يجمعهم وإيّاهم انسجام أو ترابط، يمكن حينذاك فهم طبيعة الأوضاع الموجودة في الجنّة.

والذي يسترعي الاهتمام هنا أنّ الكثير من المفسرين قد نقلوا روايات عديدة بشأن نزول هذه الآية، تنقل فيما يلي ملخّصها (مع وجود بعض الاختلاف بين المفسرين في النقل).

يروى إنّها نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، إذ كان شديد الحبّ لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله، فقال: يارسول الله ما بي وجع غير إنّي إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت

---

١. يرى البعض أنّ كلمة «رفيقا» جاءت هنا تمييزاً ولهذا وردت مفردة، واعتبرها البعض الآخر حالاً، وأن مجيئها مفردة (مع أنّ الحال جمع) إنّما لكون كلمة رفيق تعني المفرد، وتعني الجمع أيضاً أو تضمنها لمعنى الجنس.

وحشة شديدة حتىٰ ألقاك، فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنّي إن أُدخلت الجنّة فأنت تكون في درجات النبيين وأنا في درجات العبيد فلا أراك وإن أنا لم أُدخل الجنّة فحينئذٍ لا أراك أبداً، فنزلت الآية[1].

وكلمة «ذلك» التي تستعمل عادة إشارة لبعيد، جاءت هنا للدلالة على عظمة هذه النعمة الإلهية، وكأنّها عالية إلىٰ الحد الذي يجعلها بعيدة عن متناول أيدينا، وكذلك عبارة «فضل من الله» إنّما هي تأكيد على هذا المعنى وإشارة إلى أنّ هذه النعمة لا يمكن الحصول عليها بمجرّد العمل، بل تنال بفضل الله.

وتجدر الإشارة إلىٰ قضية أُخرىٰ في هذه الآية، وهي ذكرها لأربع جماعات بالترتيب واعتبارهم كأصدقاء في الجنّة وهم: *«الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين»*.

ويبدو أنّ هذا الترتيب يدل على تسلسل درجاتهم فقال بعضهم «إنّ الأنبياء وُضعوا في المقام الأول لأنّهم وصلوا في مجال المعرفة الإلهية إلىٰ حد رؤيته عن قرب بباصرة القلوب، والصديقون في المقام الثاني من المعرفة وهم كمن يرىٰ الأشياء بعينيه من بعيد، والشهداء في المقام الثالث وهم كمن يدرك وجود الشيء بالأدلة العقلية، والصالحون في المقام الرابع وهم كمن يقبل الأشياء عن طريق تقليد الكبار واتّباع أهل الفن»[2]

يمكن في كثير من الحالات اطلاق كلمات *(الشهداء والصالحين والصديقين)* علىٰ الأنبياء أيضاً، لكن ربّما يُقال: إنّ هذه الأوصاف الأربعة عندما تصبح في ازاء بعضها فانّها تعطي مثل هذا المعنىٰ.

ويبدو أنّ هناك تفسيراً أكثر روعة بشأن هذه الدرجات الأربع، وهو أنّ الحاجة إلىٰ هداية المجتمع الإنساني تحتاج في بداية الأمر إلى الأنبياء أي (القادة الربّانيين)، ومن بعدهم يأتي دور الصديقين أي المبلّغين الصادقين في القول والعمل الذين ينشرون دعوتهم

---

١. راجع تفاسير مجمع البيان؛ والكبير؛ والقرطبي؛ والمراغي؛ وروح المعاني؛ وفي ظلال القرآن ذيل الآية مورد البحث.

٢. مقتبس من تفسير روح المعاني، ج ٥، ص ٦٨.

من بعدهم، وفي المرحلة التالية عند اصطدامهم بالعوائق والموانع تبرز الحاجة إلى أشخاص يهبّون للدفاع ويقدّمون التضحيات حتّى يتمكّن الصالحون أخيراً من حكم المجتمع.

وفي هذه المناسبة ينبغي الإشارة إلى أنّ مرافقة هذه الفئات الأربع لا تعني وحدة المقام معها، بل تعني إمكانية الارتباط بها كما هو الحال في اتصال الطالب بأستاذه أو الجندي بآمره.

ورد ما يشبه هذا المعنى ـ ولكن بثوب آخر ـ في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾. (الحجر / ٤٧)

ويلاحظ في الآية ٣١ من سورة الكهف إشارة إلى نفس المعنى أيضاً.

وعلى أيّة حال، فإنّ مرافقة هؤلاء الصالحين والاتصال بهم يُعد من أكبر اللذات المعنوية لأصحاب الجنّة.

٥ ـ العلاقات الطيّبة

إنّ ما يملأ أجواء الحياة بهجةً هي الأحاديث الطيّبة التي يتبادلها الناس مع بعضهم، فلو كانوا كلهم صادقين ويفكّرون بشكل اصولي ويتعاملون فيما بينهم بالانصاف والمودّة ويتبادلون الحبّ والاحترام، لكانت حياتهم مملوءة بالاستقرار والبهجة. ولكن لو انحرفت العلاقات فيما بينهم نحو الكلام القبيح وتبادلوا التهم والأكاذيب والذم والتجريح وتنابزوا بالكلمات الفجّة التي تأباها الآداب العامّة، يصبح من الصعب على أحدهم صيانة شخصيته والتعامل في مثل هذه الأجواء بل إنّ هذه الأجواء تصبح خانقة ومؤلمة له.

وأحد الخصائص الموجودة في الجنّة هي خلوّها من هذه الظواهر، فأهل الجنّة لا يسمعون كلمة كذبٍ واحدة على مدى خلودهم أبداً ولا تطرق أسماعهم الكلمات النابية ولا الأحاديث الباطلة، وهذه من أهم الفضائل المعنوية التي يتمتّعون بها.

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾. (الواقعة / ٢٥ـ٢٦)

فيحيي بعضهم الآخر، والملائكة أيضاً تسلّم عليهم، والأهم من كل ذلك هو سلام الله عليهم وما تحمله تلك التحيات من المحبّة والإخلاص والصفاء، أجل، إنّ مجالس أهل الجنّة فوّاحة بالحب والمودّة، وإذا توفّرت مثل هذه الأجواء في أي مكان فهو نموذج من الجنّة.

وجاء في موضع آخر من الكتاب المجيد: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾. (النبأ / ٣٥)

«اللغو»: في اللغة يعني الكلام الفارغ، وبعبارة أخرى: الكلام الذي لا يتضمن أيّة أفكار أو معانٍ. ويبدو أنّ الكلمة مأخوذة أصلاً من *(لغا)* وهو صوت زقزقة العصافير، أمّا الضمير *«فيها»*: فقد أرجعه أغلب من فسر هذه الآية إلى أحد هذين الاحتمالين:

الأول: أنّه يرجع إلى كلمة الجنّة *الثاني:* أنّه يرجع إلى كلمة *الكأس* التي وردت في الآية السابقة لها. فإذا كان الاحتمال الأول فالمعنى واضح وإذا صح الاحتمال الثاني فيكون المعنى أنّ شراب أهل الجنّة لا يسكر ولا يسبب فيه أي لغو.

لكن التفسير الأول أكثر انسجاماً مع معنى *«فيها»* والآيات الأخرى المشابهة، وورد نفس هذا المعنى في آية أخرى أقصر وأكثر وضوحاً حيث يقول تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾. (الغاشية / ١٠ـ١١)

هناك آيات قرآنية أخرى تؤكد على هذا المعنى منها (مريم / ٦٢) و(يونس / ١٠).

إضافة إلى ما ذكر، يتنعم أهل الجنّة بكثير من المتع المؤنسة ومجالس الفرح والبهجة والأحاديث المسلّية والمزاح اللطيف كما يصفهم القرآن: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾. (يس / ٥٥)

تعني كلمة *«شُغُل»* أية حادثة أو حالة تشغل الإنسان، ولكنها هنا تفيد معنى الحالة المسلّية التي تبعث السرور، وذلك بوجود قرينة «فاكهون» وهي جمع «فاكه» وتعني

الإنسان المسرور، وهي مشتقة من كلمة «فكـهة» ومعناها المزاح، وتعني كلمة «فاكه» في اللغة العربية الإنسان الممازح المرح الذي يجيد الأحاديث الظريفة.

وبما أننا نجهل طبيعة الأشياء التي يتسلى بها أهل الجنّة لأننا نقيس كل شيء في هـذا العالم بمعيارنا المحدد الصغير، فمن البديهي أنّ النعم التي يشغلون بها هناك لا يمكننا حتّى تصوّرها في هذا العالم.

وعلى أيّة حال فإنّ الأمور التي تستهويهم وتشغلهم هناك تكون سبباً لنسيان آلام هذا العالم وهول المحشر أو فقدان بعض الأحبّة. ولا شك أنّ مواضيع التسلية السبعة أو العشرة الّتي ذكرها بعض المفسرين، إنّما هي موضوعة وفقاً للمعايير والتصورات الدنيوية للتسلية، وإلّا فالأوضاع في ذلك العالم تختلف عمّا في هذا العالم [١].

ﮋﮊ

٦ـ الانشراح النفسي

قد يُدعى الإنسان أحياناً إلى أجمل الحدائق، وتوفّر له كافة مستلزمات الراحة، إلّا أنّ روحه منقبضة فلا يلتذ بأي منها، فالإنسان يشعر بلذة النعم الإلهيّة فيما إذا كان منشرح النفس.

يُستفاد من مجمل الآيات الواردة في هذا الصدد أنّ الفرح والانشراح يظهر على وجوه أهل الجنّة بكل وضوح، وقد استخدم القرآن الكريم عبارات جذّابة في هذا الصدد، فإليك مثلاً قوله ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (الزخرف / ٧٠)

فكلمة «تُحبرون» مأخوذة من المصدر (حبر) على وزن (فكر)، وتعني في الأصل الآثار الجميلة حسب ما وردت في كتاب (مقاييس اللغة)، ولذلك يطلق على الأشياء المزيّنة اسم «مُحَبَّر» على وزن مُشَجر وسمّي الحِبرُ حِبراً لأنّه يترك وراءه أثراً جميلاً، ويُقال للعلماء «أحبار» لأنّهم يمتلكون آثاراً قيّمة، وهذه الكلمة تعني هنا البهجة والانشراح الذي يظهر أثره على الوجوه [٢].

---

١. ورد نفس هذا المضمون في سورة الطور، الآية ١٨.

٢. ورد نفس المعنى في سورة الروم، الآية ١٥

وقد وردت الإشارة إلى هذا الموضوع بتعبير آخر في قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (المطففين / ٢٤)

فكلمة «النضرة» تعني في الأصل الجمال، والمقصود من (نضرة النعيم) الطراوة والنعومة التي تظهر من أثر وفرة النعمة والحياة المرفهة وتعكس حالة (الارتياح والانبساط الداخلي) كما أنّ «تعابير الوجه تفشي سر الداخل»[١].

وقد فسّر بعضهم هذه الكلمة بمعنى السعيد والفرح والمستبشر كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾[٢] (عبس / ٣٨ ـ ٣٩)

ولكن الآيات السابقة لها تظهر أنّ هذه الآية تشرح حال المؤمنين في مشهد المحشر وليس في الجنّة.

وفسرها البعض الآخر بمعنى النور والجمال والاشراق الذي لا يتيسر للبيان وصفه.[٣]

وذهب البعض الآخر إلى أنّها تعني البِشر والبشاشة التي تظهر على وجوههم شعوراً منهم برضا المحبوب أي الله سبحانه وتعالى[٤].

ونقرأ هذا الوصف الآية الكريمة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾.

(الغاشية / ٨ ـ ٩)

كلمة «ناعمة» مأخوذة من مصدر (النعمة) وتعني هنا الاستغراق في النعمة إلى حد ظهور آثارها من السرور والارتياح على الوجه

وقال آخرون: إنّها تعني النعومة واللطافة، وهذه أيضاً حاصلة من النعم المختلفة[٥].

ومن الطبيعي أنّ هذه النعومة والطراوة، أو تلك الوجوه المنيرة على قول بعض المفسّرين وكأنّها القمر في الليلة الرابعة عشرة، ليست معلولة للنعم المادية فقط لأنّ النعم المادية لا

---

١. جاءت تعابير مشابهة في سورة القيامة، الآية ٢٢؛ وسورة الدهر، الآية ١١.

٢. تفسير الكبير، ج ٣١، ص ٩٨ (نقله باعتباره قولاً).

٣. المصدر السابق، ص ٩٩.

٤. روح البيان، ج ١٠، ص ٣٧١.

٥. تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٧٤.

يمكنها لوحدها إيجاد مثل هذه الآثار، ومن المؤكد أنّ هذا الأثر ناتج عما يختلج في نفوس أصحابها من أحاسيس ومشاعر معنوية وروحية سامية تنعكس آثارها على أجسامهم، وختام الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً.

٧ـ الشعور برضا الله

ليس هناك شعور يخامر الإنسان أكثر من شعوره برضا محبوبه وعزيز قلبه، فهذا الشعور يثير لديه بهجة وارتياحاً لا يوصفان.

نعم، إنّ نيل رضا المحبوب من أكبر اللذات المعنوية، وهي لذّة ممزوجة بالشعور بالشخصية وقيمة الوجود، لأنّه إن لم يكن يتحلّىٰ بالقيمة والشخصية، لما كان موضع قبول محبوبه الأكبر.

لقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه القضية المهمّة وجعل منها ركيزة يستند عليها، فبعد الإشارة إلى الجنان اليانعة والأزواج المطهّرة تورد في قوله تعالى ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ﴾ (آل عمران / ١٥)

وهذه النعمة التي تُعتبر أفضل من جميع النعم قد لخّصت في جملة قصيرة وبليغة.

وفي الآية ٧٢ من سورة التوبة أزيح الستار أكثر عن هذا الموضوع، فبعد الإشارة إلى مجموعة من النعم المادية المتوفّرة في الجنّة ومنها الحدائق التي تجري من تحتها الأنهار والمساكن الطّيبة، يقول تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ ثم تُختتم الآية بالجملة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فاستخدام تعابير من أمثال «*أكبر*» و«*ذلك هو الفوز العظيم*» يُظهر بوضوح عدم وجود نعمة تضاهي هذه النعمة وبالشكل الذي يتضمن مفهوم الحصر وكأنّ الجملة تريد أن تقول: (ذلك هو الفوز العظيم لا غير).

لقد ذكرنا عدّة مرّات عدم إمكانية تصوّر أيٍّ من النعم الماديّة للعالم الآخر في نطاق هذا السجن الدنيوي المحدود، فكيف يجوز ذلك بشأن نعمة روحية ومعنوية كبرى ألا وهي «رضوان الله».

ويمكننا أن نفهم بشكل إجمالي الفارق بين النعم الماديّة والمعنوية واللّذات المنبثقة عن أيٍّ منهما، فنحن نعرف مثلاً أنّ اللذة الناتجة عن لقاء الحبيب الغالي بعد سنوات من الفراق، أو الشعور باللّذة من جرّاء اكتشاف قضيّة علمية معقدة كنّا نبحث عنها لسنوات طويلة، والأكثر من كل ذلك النفحات الروحية والانشراح النفسي الذي يغمرنا حين العبادة الخالصة والمناجاة المقرونة بحضور القلب و محبّة الدافئة، نعرف أنّه لا يمكن مقارنة كل هذا بلذّة الطعام والشراب وسائر اللذات الماديّة الأخرى

روى أبو سعيد الخدري حديثاً عن رسول الله ﷺ قال فيه:

«إنّ الله يقول لأهل الجنّة: يا أهل الجنّة، فيقولون لبيك ربّنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى يا ربّ وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون يا ربّ وأيّ شيء أفضل من ذلك فيقول: أُحلّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» [1].

وورد نفس هذا المعنى عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام ولكن بتعبير آخر، جاء في آخره: *«ويقول تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبّتي لكم خير وأعظم ممّا أنتم فيه»* [2].

«رضوان»- يعني الرضا والارتياح بالمعنى المصدري، ومجيئها هنا على هيئة النكرة يدل على العظمة، أي إنّ رضوان الله الأكبر أهم من كل شيء.

وقيل أيضاً إن تنكيرها هنا فيه دلالة على القِلّة، أي إنّ أقلّ رضاً من الله يُعتبر أكبر من جميع النعم المادية المتاحة في الجنّة.

وعلى أيّة حال، فليس في ميسور أحد وصف تلك النفحات الروحية واللذات المعنوية التي ينالها الإنسان بسبب الشعور برضا الله، نعم إنّ أي جانب من هذه اللذة الروحية يفوق جميع النعم والمسرّات الموجودة في الجنّة.

وممّا يسترعي الإنتباه أنّ الآية (١١٩) من سورة المائدة، وبعد سردها للنعم المادية في

---

١. تفسير روح الجنان، ج ٦، ص ٧٠؛ تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ١٢٢

٢. تفسير العياشي، ذيل الآية مورد البحث وفقاً لما جاء في تفسير الميزان

الجنّة، أشارت إلى الرضوان وصورته وكأنّه أمر متبادل بين الخلق والخالق قائلة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وما أجمل أن يكون الرضا من الجانبين، فهو يغرقهم بالنعم حتّى يرضون، ويغمرهم بالمحبّة بحيث يعلن لهم عن رضاه. وخلاصة القول أنّه لا فوز أكبر من أن يشعر الإنسان بأنّ مولاه ومحبوبه ومعبوده راضٍ عنه. ودلالة ذلك الرضا أنّه يفيض عليه بكل ما يتصور وما لا يتصور من النعم.

وعبارة ﴿راضية مرضية﴾ من الآية ٢٨ من سورة الفجر هي أيضاً إشارة إلى نفس هذا المعنى، إذ تصوّر النفس المطمئنة لعباد الله المخلصين الذين يصلون إلى جوار قرب المحبوب قائلة: إنّ صاحب النفس المطمئنة يرجع إلى ربّه وهو راضٍ عنه وربّه راضٍ عنه أيضاً. وهنا يصدر الأمر الإلهي: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ كتاج للكرامة يزيّن به الرأس. فياله من فخر كبير عندما يخاطب تعالى الإنسان في قوله: «عبادي»!

نعم هذه هي عقبى من اجتاز مرحلة النفس *الأمّارة* والنفس *اللوّامة* ووضع قدمه على أعتاب النفس *المطمئنة* فكبح جماح الأهواء، وألجم الشيطان وامتطى مركب التقوى.

ولا تقتصر الآيات المتعلقة برضا الله في يوم القيامة باعتباره نعمة إلهيّة، على ما ذكرناه، فهذا المعنى يلوح للعيان في آيات أخرى أيضاً ويعكس الأهمية الاستثنائية لهذا الموضوع[١].

ഇ‌ഇ

٨ـ نظر الله إليهم ونظرهم إليه

إنّ من أثمن اللذّات المعنوية هي أن يجود المحبوب الجامع لكل الكمالات بنظرة لطف على الإنسان ويتحدّث إليه. والأكثر أهمية من كل ذلك أن يتمكن الإنسان من بلوغ مقام شهود ذاته المقدّسة أي إنّه يراه بقلبه ويغرق في بحر جماله.

وقد أكّد القرآن الكريم مراراً على هذه النعمة المعنوية. فتذكر احدى الآيات العذاب

---

١. راجع سور: القارعة، ٧؛ والتوبة، ٢١؛ والحديد، ٢٠؛ والبيّنة، ٨.

الإلهي الأليم على من يكتم آيات الله بالقول ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. (البقرة / ١٧٤)

ويتحدث القرآن في موضع آخر عن نفس هذا الموضوع والعذاب الإلهي على من يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. (آل عمران / ٧٧)

نعم، إنّهم محرومون من لذّة التكلم مع الله ونظرة رحمته ولطفه، ولذلك فهم لا يطهرون، ولما كانت الجنّة مأوى الأطهار فهم يبقون في جهنّم يذوقون أليم عذابها.

ونستفيد من هاتين الآيتين أنّ هذه النعم والهبات سوف يخص بها الله سبحانه وتعالى المؤمنين وأصحاب الجنّة، وسوف يكلمهم بنفسه، ولهم نفس المنزلة التي أولاها لأنبيائه في هذه الدنيا، فالتذوا واستأنسوا بما وهبهم الله سبحانه وتعالى، وأيّة لذّة أعظم وأحسن من هذه اللذّة؟ فبالإضافة التي نعمة الحديث معهم، فإنّ الله ينظر إليهم نظرة لطف خاص، وأية موهبة أعظم من هذه الموهبة؟ حيث ينظر المحب نظرة لطف ومحبة إلى محبوبه الصادق العاشق الولهان؟!

ومن البديهي أنّ الكلام لا يكون باللسان، ولا النظر يكون بالعين، فالله سبحانه أجل من الجسم والجسمانية.

ربّما يحصل أحياناً أن يغضب الأب على إبنه فلا يكلّمه ولا ينظر إليه، وإذا كان الابن واعياً فهو يعتبر هذا التجاهل من أبيه تجاهه أكبر عذاب نفسي له، أمّا في حالة الرضا عنه فهو يجلس معه وينظر إلى قوامه ويحادثه بانشراح ومحبّة وهذا من دواعي فخر الابن وسعادته.

هذا في عالم المادّة والجسم والصورة، ونفس هذه القضيّة تحدث بمقياس أسمى في عالم المعنى بين المولى الحقيقي وعباده.

وذكرت سورة القيامة لذّة النظر إلى الجمال الذي لا مثيل له للمحبوب الحقيقي: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾. (القيامة / ٢٢ـ٢٣)

وما يلفت الانتباه هنا هو أنّ تقديم (إلى ربّها) ـ وهو ما يفيد الحصر ـ يدلّ على أنّهم ينظرون إليه فقط في ذلك اليوم ولا ينظرون إلى سواه، وهم إن نظروا إلى غيره فهي ليست إلّا نظرة عابرة، ومع ذلك فهم يرونه هو وحده لأنّ كل ما في العالم مظاهر لذاته المقدّسة وآثار لطفه ورحمته، وفي الحقيقة أنّ رؤية الأثر هي بمثابة رؤية المؤثر.

وهناك احتمال آخر أيضاً في تفسير هذا المقطع من الآية: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يشير إلى انتظار الناس لرحمة الله ولطفه، كما تقول أحياناً: إنّ الشخص الفلاني لا ينظر إلّا إليك أي أنّه ينظر كرمك وفضلك، أو عندما تقول إنما معقد الأمل عليك، ولا مانع من اتساع معنى الآية لتشمل كلا المفهومين.

وقد استدل أغلب مفسري أهل السُّنّة عند وصولهم إلى هذه الآية ببعض الروايات الصحيحة التي تشير إلى المشاهدة الحسيّة لله تعالى، وقالوا: إنّ أحد نعم أهل يوم القيامة رؤية الله بهذه العين، حتى أنّ بعضهم قال: إنّ الله يظهر في السماء على هيئة النور! وهم ينظرون فوق رؤوسهم ويلتذّون بمشاهدة نور الله بهذه العين المجرّدة.

وقد بحثنا في الجزء الرابع من هذا التفسير وبشكل موسّع في بطلان مثل هذه *التصورات المليئة بالشرك* والتي تهبط في تصوير الإله إلى أنّه جسم محدود بالمكان والاتجاه، وشرحنا كذلك ضعف هذه الأحاديث، ولا نرى لزوم تكرار ما سبق القول فيه، وإننا نعتبر مثل هذا الخطأ الفاحش ناتجاً عن الابتعاد عن تعاليم أهل البيت عليهم السلام ونسيان حديث الثقلين المتواتر[1].

من البديهي أنّ آثار عظمة الله في ذلك اليوم أوضح بكثير ممّا عليه الحال في الدنيا، وكذلك الحجب المظلمة التي تغطي قلوب المؤمنين في هذا العالم فإنّها ستُزاح جانباً حتّى ليمكنهم مشاهدة ذاته المقدّسة من خلال نظرة قلبية وروحية واحدة، بل ويكون الفيض الشهودي أحياناً أعمق، فيغمرهم بجماله فينسون الجنّة والنعم التي هم فيها.

ونختم بحثنا هذا بآية أخرى تتحدث عن هذا الموضوع بأسلوب آخر، إذ ورد فيها:

---

١. للمزيد من المعلومات، يرجى المراجعة إلى ج ٤، ص ١٧٥ ـ ١٩٢ من هذا التفسير

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين / ١٥)

وهل هناك جزاءٌ أشدّ إيلاماً من حرمان الإنسان من لقاء الله ومنعه من الحضور في المحضر الإلهي المقدّس

ومفهوم هذا الكلام هو أنّ المؤمنين غير محجوبين في ذلك اليوم، بل يتمتّعون برؤية جمال الحق ويتلذّذون بفيض لقاء المحبوب الذي لا نظير له، وإن كان ذلك الحجاب عذاباً أليماً للكفّار فهذا اللقاء هو من أمتع اللّذات بالنسبة للمؤمنين.

٩ـ لهم ما يشتهون

قد يقوم المضيف أحياناً بتهيئة جميع المستلزمات الضرورية لضيفه العزيز، لكنّها عادة ما تكون محدودة بشكل أو آخر، إلّا أنّه عندما يعطي توفير كل ما يشتهي وما يطلب بلا استثناء فالضيف يشعر في مثل هذه الحالة بالارتياح والسكينة لأنّه يتأكد من انعدام أيّة قيود أو حدود في هذا الصدد.

وكما أنّ هذا الكلام يصدق على النعم المادية في الجنّة، وهو كذلك يصدق تماماً على النعم المعنوية فيها، وبعض تعابير الآيات القرآنية تتّسق معانيها أكثر مع النعم المعنوية، فمثلاً ورد قوله تعالى بعد التحدث عن حدائق الجنّة: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (الشورى / ٢٢)

فتعبير «*عند ربّهم*» وتعبير «*ذلك هو الفضل الكبير*» يتناسبان مع العطايا المعنوية والروحية في الجنّة، وقد أُشير إليهما بعد تبيان النعم المادّية.

وقد ورد نفس هذا المعنى في قوله تعالى دون الإشارة إلى النعم المادية. ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾. (الزمر / ٣٤)

وعلى هذا فلا توجد هناك أيّة قيود على النعم في الجنّة وخاصّة في الأبعاد الروحية والمعنوية، بالإضافة إلى ما تتضمنه هذه التعابير من دلالات على عدم محدودية نِعَم الجنّة

في الأُطُر المادية ، فهي تُظهر أيضاً عدم وجود أيّة محدودية في أيٍّ من الجانبين .

وبتعبير آخر إنّ الله يهب الإنسان القدرة التي تجعل من إرادته سبباً لحصول أيّة نعمة ، خلافاً لما عليه الحال في الدنيا إذ إنّ إرادة الإنسان فيها تابعة لوجود الأسباب وتوفّر العوامل ، فعندما يرغب الإنسان في التجول في روضة أو بُستان ولا يكون الجو معتدلاً ولا الأشجار يانعة ، فإرادة الإنسان لا تستطيع مطلقاً خلق أجواء ربيعية أو أشجار مورقة نديّة ، ولكنه في الجنّة ما أن يطلب شيئاً حتّى يتحقق له بإذن الله ، وهذا الامتياز مثير للعجب [١]

وقد طرح بعض المفسرين ، الذين يصرّون على قضية رؤية الله تعالى ، هذه المسألة هنا وقالوا إنّها تتضمن المشاهدة أيضاً ، فمن ذا الذي لا يطلب ولا يبغي رؤية الله جل وعلا؟! [٢]

لكن خطأهم الفاحش يكمن في عدم رغبتهم للاذعان لهذه الحقيقة وهي أنّ مشاهدة الله حسيّاً أمر غير ممكن، وذلك لأنّ الاتصاف بالجسمية والمكانية والأينية لا تعدو أن تكون من الصفات الخاصة بالمخلوقات وهو أمر مستحيل بشأن ذاته المقدّسة، وأهل الجنّة لا يطلبون المحال ، أمّا المشاهدة القلبية والباطنية فهي متيسرة في هذا العالم وكذلك في العالم الآخر .

وفي نفس هذا السياق ورد في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. (ق / ٣٥)

ويدلّ هذا التعبير على توفير كل ما تتسع له جملة «*لهم ما يشاءون*» وكل ما تشتمل عليه إرادتهم إضافة إلى توفير جميع النعم والعطايا التي لم تخطر على بال أي إنسان ، ويشملهم بلطفه الذي يستعصي على البيان وصفه

ويُستدل من بعض الروايات أنّ جملة: «*ولدينا مزيد*» هي إشارة إلى أيّام الجمعة التي يحظى فيها أهل الجنّة بكرامات وعنايات خاصة من قبل الباري جلّ وعلا ، وهو أكثر لديهم

١. مقتبس من تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٢٦٠

٢. تفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٢٨٠.

باثنين وسبعين مرّة[1]. وتوجد هناك آيات أُخرىٰ في القرآن الكريم تتّسق بشكل أو آخر مع الآيات السابقة الذكر[2].

ﮂﮃ

١٠ـ النعم التي لا يحركها التصور

تُلحظ في القرآن الكريم تعابير تذهب إلى أكثر بكثير ممّا ذكرناه لحد الآن، فهي تتحدث عن قضية تخرج عن إطار التفكير لدىٰ جميع أبناء البشر ولا تسعها دائرة التصور والخيال والوهم، وهي أبعد ممّا قرأنا وكتبنا.

إنّ استدلال الآيات القرآنية بمثل هذا الأمر يعكس مدىٰ عظمة النعم الإلهيّة والتي يعجز البيان عن وصفها، وهي من الآيات العجيبة في القرآن، مثل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. (السجدة / ١٧)

وجاء في حديث مشهور عن النبي ﷺ أنّه قال: *«إنّ الله يقول أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»*[3].

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه البشارة العظمى قد وردت في القرآن الكريم في أعقاب سرده لصفات المؤمنين الذين يقومون الليل لمناجاة ربّهم (صلاة الليل) والذين ينفقون من أموالهم، وهذه دلالة على أنّ أفضل الطاعات والعبادات والأعمال الصالحة هي «صلاة الليل»، «والانفاق»، والغريب في الأمر أنّ صلاة الليل تعني عبادة يؤدّيها المؤمن في الخفاء، وكذلك الانفاق الخالص فإنّه غالباً ما يجري في الخفاء كذلك، ويكون الجزاء على ذلك من قبل الله تعالى في الخفاء أيضاً، فجميعه مستوراً ولم يُطلع عليه أحداً.

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢٦، ح ٢٧.

٢. من جملة ذلك: سورة يس، الآية ٥٧؛ سورة فصلت، الآية ٣١ والتي تشتمل على النعم المختلفة ويتبيّن ذلك من خلال تعابيرها ﴿ولهم ما يدّعون﴾ ﴿ولكم فيها ما تدّعون﴾.

٣. نقل هذا الحديث عدد كبير من المفسرين منهم الطبرسي في مجمع البيان؛ والآلوسي في روح المعاني؛ والقرطبي في تفسيره؛ والعلّامة الطباطبائي في الميزان، وذكره كل من البخاري ومسلم في كتابيهما

وهناك نقطة أُخرىٰ أيضاً تسترعي الإنتباه، وهي أنّ تعبير «*قرّة أعين*» تعني برودة الأعين [١]. لأنّه من المعروف بين العرب أن «دموع الشوق» التي تنهمر عادة من الأعين عند الفرح الشديد تكون باردة، علىٰ العكس من دموع الحزن التي تتصف عادة بالحرارة والحرقة، لذا فإنّ العربي عندما يريد القول: إنّ الموضوع أو الحادثة الفلانية مدعاة للسرور والارتياح، تراه يقول «قرة العين أو قرّة أعين».

وعلىٰ أيّة حال فهنالك كلمات وآيات لا يبلغها عقل الإنسان مهما بلغ من التسامي ومهما ارتقىٰ من الذُرى، وكلما تعمّق لسبر أغوارها كلما توصل إلىٰ مفاهيم وأبعاد جديدة، حتّىٰ يصل الفكر إلىٰ مكان يقف عنده ويعترف بعدم القدرة على بلوغ أعماقه. والآية التي نبحث فيها تمثل في الواقع إشارة قيّمة وذات معنىً للنعم الروحية والمعنوية العظيمة لأصحاب الجنّة، فهي تحمل بين طيّاتها هذا المفهوم وهو عدم استطاعة أي إنسان حتّىٰ الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين من بلوغ هذه الحقيقة ومعرفة ما أخفى الله من جزاء لخاصة عباده، ومن المؤكد أنّهم يبلغون درجات عالية من القرب إلىٰ ذاته المقدّسة ومراحل رفيعة من وصال لقائه ومنازل سامية من عنايته وألطافه لا يدركها إلّا من يلغها

***

١١ - خلود نعم الجنّة

وممّا يضفي علىٰ الجنّة أهميّة بالغة وقيمة معنوية كبيرة ويميّزها تماماً عن جميع النعم الدنيوية هو (عدم إمكانية فنائها أو زوالها). فلا قلق هناك من ذلك ولا خوف ولا وجل من انقطاعها، فالإنسان مطمئن البال في هذا الجانب تماماً. وهذا الشعور بالأمان يضفي علىٰ تلك النعم طعماً خاصاً.

هذه الحقيقة يعرف معناها كل من ينال نصيباً وافراً من النعمة ثم تنتابه الهواجس الداهمة في إمكانية ذهابها، فتمسي حلاوتها مرارة في فمه.

---

١. «قرّ» في اللغة على وزن «حرّ» وتعني البرودة

ويتضمن القرآن الكريم آيات عديدة في هذا المجال وهي تذكّر دوماً بهذه الحقيقة وتزفّ البشرى للإنسان معلنة عن حدود النعم الإلهية، ليهنأ بها الإنسان ويعيش في فرح وحبور.

جاء في قوله تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾. (الرعد / ٣٥)

ولما كان هذا البحث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة الخلود فإننا سنتناوله بالبحث في فصل آخر وبشكل مستقل.



٤ ـ أبواب الجنّة

تمهيد:

من المتعارف أنّ طريق الدخول إلى أيّة دار أو بناية أو حديقة مسوّرة إنّما يكون من أبوابها، وعلى هذا فأبواب الجنّة تحدد مدخلها، وقد تكون للأبواب أقفال لا تفتح إلّا بأدواتها الخاصّة، وهو ما يطلق عليه العرب اسم «مفتاح» وجمعه «مفاتيح»، أو «مقليد ومقاليد». لكن أبواب ومفاتيح الجنّة لها مفهوم آخر، وتشير إلى الأعمال والأمور المفيدة الخالصة التي تكون سبباً لدخول الجنّة، وقد وردت في القرآن إشارات غامضة إلى أبواب الجنّة، لكن التعبيرات التي وردت بشأنها في الروايات الإسلامية، تحدّد بوضوح القيم الإسلامية بشأن المعايير التي تؤدّي إلى دخول مستقر الرحمة الكبرى أي الجنّة. نعود إلى القرآن لنتأمل في الآيات المختلفة التي وردت في هذا الصدد:

١ ـ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾. (الزمر / ٧٣)

٢ ـ ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾. (ص / ٥٠)

٣ ـ ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾. (الرعد / ٢٣ ـ ٢٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الجنّة في الانتظار!

تشير الآية الأولى إلى حركة أصحاب الجنّة *(زمراً زمراً)* نحو الجنّة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾. ويفهم منها أنّ أصحاب الجنّة عند

وصولهم إليها تفتح لهم الأبواب وكأنّ الجنّة في انتظارهم فتستقبلهم ويقول لهم خزنتها سلام عليكم، حتّى أنّهم لا يتحمّلون مشقّة فتح الأبواب.

ويتجلّى نفس المعنى في الآية اللاحقة ولكن بتعبير آخر. ﴿ جَنَّاتِ عَدنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبوَابُ ﴾.

ولما كانت كلمة «مفتّحة» من باب التفعيل وتعطي في مثل هذه الموارد مفهوم الكثرة والتأكيد، فهي ربّما تشير إلى انفتاح جميع الأبواب أمامهم لا باب واحد، وأنّها مفتوحة على مصاريعها تماماً.

هل تتفتح هذه الأبواب من ذاتها وكأنّ لها روح وحياة، أم أنّها تنفتح مع اقتراب أهل الجنّة منها احتراماً لهم؟ أم أنّها تنفتح بمجرّد القصد والأمر والإرادة ولا حاجة لأية واسطة أخرى؟ أم أنّ ملائكة الجنّة وخزّانها قد فتحوها من قبل احتراماً لأهلها ووقفوا جانباً ينتظرون قدومهم، كما نفعل نحن تجاه الضيوف الأعزاء؟ يبدو أنّ الاحتمال الأول يناسب المقام أكثر من غيره؛ ويحتمل أن تكون صيغة المجهول دلالة على ذلك، وفي نفس الوقت يبدو أنّ انتظار ملائكة الجنّة وخزّانها إلى جانب الأبواب متناسباً مع الآية الأولى.

وأخيراً ورد في الآية الثالثة دخول الملائكة من الأبواب المختلفة للجنّة، وذلك بعد استقرار أصحابها فيها. فتقول الآية ﴿ وَالمَلائِكَةُ يَدخُلُونَ عَلَيهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُم ﴾.

ألا يعني هذا أنّ جميع الأعمال الصالحة، التي تمثل في الحقيقة أبواب الجنّة، تتلخص في الصبر والاستقامة؟!

***

توضيحان

١ ـ أبواب الجنّة في الأحاديث الإسلامية

لم تُشِر أي من الآيات القرآنية إلى وجود ثمانية أبواب للجنّة، بل أُشير إلى أنّ

جهنّم: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾. (الحجر / ٤٤)

لكن الأحاديث الشريفة قد أشارت مراراً إلى أنّ للجنة ثمانية أبواب، وذلك إشارة إلى أنّ طرق الوصول إلى السعادة والتي تمثل الجنّة مظهرها هي أكثر من طرق السقوط في هاوية البلاء والتي تمثل جهنّم مركزها، وأنّ رحمة الله تسبق غضبه: «سبقت رحمته غضبه».

وقد جاء في حديث عن أمير المؤمنين ﷺ أنّه قال: *«إن للجنّة ثمانية أبواب»*. ثم تطرق إلى شرح هذه الأبواب فقال: *«يدخل من بعضها الصدّيقون ومن بعضها يدخل الشهداء والصالحون، ومن بعضها يدخل محبّو أهل بيت العصمة ﷺ و...»*[1].

وورد في حديث عن الإمام الباقر ﷺ أنّه قال: *«وأحسنوا الظن بالله واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب، عرض كل منها مسيرة أربعين سنة»*[2].

هذا في حين تشير بعض الأحاديث الأخرى إلى وجود واحد وسبعين باباً للجنّة. وورد هذا المضمون في حديث لأمير المؤمنين ﷺ[3].

ويحتمل أن تكون هذه الاعداد إشارة إلى كثرة الأبواب، إلّا أنّها ذكرت في أحد المواضع على أنّها ثمانية مقارنة بأبواب جهنّم وذلك للدلالة على أنّ أسباب بلوغ السعادة تفوق أسباب الشقاء، بل ويشير موضع آخر إلى كثرة الأقوام الذين يدخلون مستقر الرحمة الإلهيّة، كل من طريقه الخاص.

و يتّضح من التعابير المختلفة لهذه الروايات أنّ أبوابها تتناسب والأعمال الصادرة عن الصلحاء والمخلصين.

جاء في حديث منقول عن الإمام الصادق ﷺ عن النبي ﷺ *«للجنّة باب يقال له باب المجاهدين، يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلّدون بسيوفهم والملائكة ترحّب بهم»*[4]

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢١، ح ١٢.

٢. المصدر السابق، ص ١٣١، ح ٣٢

٣. المصدر السابق، ص ١٣٩، ح ٥٥

٤. أصول الكافي، ج ٥، ص ٢، ح ٢

وورد نفس هذا المعنى في نهج البلاغة ولكن بصياغة أخرى: «*إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه*»[١].

وجاء أيضاً في حديث آخر عن النبي ﷺ أنّه قال: «*إنّ للجنّة باباً يُدعى الريّان لا يدخله إلّا الصائمون*»[٢].

ونقل عنه أيضاً (صلوات الله عليه): «*إنّ للجنّة باباً يُقال له باب المعروف لا يدخله إلّا أهل المعروف*»[٣].

كما أشارت أحاديث أخرى إلى: «*باب الصبر*» و«*باب الشكر*» و«*باب البلاء*»، حتّى ذكر أنّ «*أبواب الجنّة تحت ظلال السيوف*»[٤] (وذلك إشارة إلى الجهاد).

وتبقى الإشارة إلى أنّ بعض الأحاديث تفيد أنّ أبواب الجنّة هم رجال الله العظماء، كما جاء في الكافي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «*إنّ عليّاً باب من أبواب الجنّة*»[٥]. وهذه إشارة إلى أنّ كل من يتّبع هذا الرجل العظيم في سلوكه وإيمانه وعمله، يدخل الجنّة.

يتّضح ممّا سبق معنى ومفهوم أبواب الجنّة وكيفيتها أيضاً.

٢ـ المكتوب على أبواب الجنّة

إنّ المكتوب على باب كل بناية يعكس عادة المحتوى والهدف الحقيقي لتلك البناية، ويتبيّن من الروايات الإسلامية وجود كتابات على أبواب الجنّة تستوجب التأمل، وأنّ التمعّن في مدلولات تلك الروايات يضفي عمقاً أبعد على ما ذكرناه آنفاً بشأن معاني أبواب الجنّة ويستخلص منها حقائق أكثر سعة وأهميّة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.
٢. بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٥٢، ح ١٧.
٣. المصدر السابق، ج ٧١، ص ٤٠٨، ح ٢.
٤. ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٠٤ (نقلاً عن تفسير در المنثور، ج ١، ص ٢٤٨).
٥. اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٨٩، ح ٢١.

من جملة ذلك الحديث الوارد عن جابر بن عبد الله نقلاً عن النبي ﷺ ***«مكتوب على باب الجنّة لا إله إلّا الله محمد رسول الله، علي أخو رسول الله»*** [1].

ونظراً لكون الحديث أعلاه مذكوراً في الكثير من كتب الشيعة والسنّة وبعبارات متباينة، فهو يبيّن مدى أهميّة هذه الأسس الثلاثة في دين الإسلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام في حديث له: ***«على باب الجنّة مكتوب الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر»*** [2]. فيشير هذا الحديث إلى أنّ أحد المبادىء الأساسية لدخول الجنّة، هو الاهتمام بالمشاكل المالية للفقراء والمساكين في المجتمع وتقديم العون لهم.

وأخيراً جاء في حديث آخر شرحٌ لما جرى في المعراج ومشاهدة الجنّة والنّار في ذلك السفر، فورد فيه أنّ النبي ﷺ قال: ***«للجنة ثمانية أبواب ... على كل باب منها أربع كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها وللنار سبعة أبواب على كل باب منها ثلاث كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها فقال لي جبرئيل: اقرء يامحمد ما على الأبواب فقرأت ذلك، أما أبواب الجنّة فعلى أول باب منها مكتوب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة وحيلة العيش أربع خصال: القناعة، وبذل الحق، وترك الحقد، ومجالسة أهل الخير، وعلى الباب الثاني مكتوب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة وحيلة السرور في الآخرة أربع خصال مسح رؤوس اليتامى والتعطف على الأرامل والسعي في حوائج المؤمنين والتفقد للفقراء***

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٣١، ح ٣٤. ورد هذا الحديث أيضاً أو ما يشابهه في الكثير من كتب السنّة منهم الحافظ أبونعيم الإصفهاني، في حلية الأولياء، ج ٧، ص ٢٥٦. والحافظ أبو بكر البغدادي في تاريخ بغداد، ج ٧ ص ٣٨٧، وابن المغازلي في كتاب مناقب أمير المؤمنين (مخطوط)، والحافظ السمعاني النيسابوري في مناقب الصحابة. والطبري في ذخائر العقبى (ص ٦٦)، وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان، ج ٤، ص ٨١ وتقله جماعة آخرون (للاطلاع على مزيد من المعلومات يمكن مراجعة ج ٤ من كتاب احقاق الحق، ص ١٩٩ وما تلاها، وص ٢٨٠ وما تلاها وص ٣٨٧).

٢. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٨١، ح ١٤١ (ربّما يكون المراد من العدد ١٨ مرّة هو أنّ القرض يتضمن عملين من أعمال الخير وهما أولاً: «قضاء حاجة المؤمن» وثانياً: «حفاظ على حيثيته»، ولكل واحد منها عشرة حسنات، وبما أنّه يسترد المبلغ لذلك تنقص منه حسنتان وتبقى له ثمانية عشر).

والمساكين، وعلى الباب الثالث مكتوب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة وحيلة الصحة في الدنيا أربع خصال قلة الكلام وقلة المنام وقلة المشي وقلة الطعام، وعلى الباب الرابع مكتوب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم والديه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت، وعلى الباب الخامس مكتوب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله، من أراد أن لا يُظلم فلا يظلم ومن أراد أن لا يُشتم فلا يَشتم ومن أراد أن لا يُذَلّ فلا يذِل ومن أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى في الدنيا والآخرة فليقل لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله، وعلى الباب السادس مكتوب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله من أراد أن يكون قبره وسيعاً فسيحاً فليبنِ المساجد ومن أراد أن لا تأكله الديدان تحت الأرض فليسكن المساجد ومن أحب أن يكون طرياً مطراً لا يبلى فليكنس المساجد ومن أحب أن يرى موضعه في الجنّة فليفرش المساجد بالبسط، وعلى الباب السابع مكتوب: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله، بياض القلب في أربع خصال عيادة المريض، واتباع الجنائز، وشراء الأكفان، وردّ القرض، وعلى الباب الثامن مكتوب: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله، من أراد الدخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال: السخاء، وحسن الخلق، والصدقة، والكف عن أذى عباد الله تعالى» [1].

إنّ الأبعاد التربوية والإنسانية لهذا الحديث شاملة وواضحة، وتبيّن أنّ دخول جنان الخلد رهين بأيّ أعمال وصفات

٭٭٭

---

[1] بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٤٤، ح ٦٧ (مع شيء من التلخيص).

٥ ـ سعة الجنّة

تمهيد :

لقد قلنا مراراً أنّ العالم الذي نعيش فيه محدود وحقير جدّاً بالقياس مع العالم الآخر، وأنّ البحث لا يمكن مقارنته في السعة والشمول بالأطر الضيقة الموجودة في عالمنا، ولا أدلُّ على ذلك من الآيات القرآنية والروايات الإسلامية التي تتحدث عن مساكن أهل الجنّة وسعتها، ولابدّ لمثل هذه النعم العظمى أن توجد في عالم عظيم وهائل.

نعود إلى القرآن لنتمعن فيه وهو بصدد هذه السعة والعظمة :

١ ـ ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾. (الحديد / ٢١)

٢ ـ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. (آل عمران / ١٣٣)

٣ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾. (الدهر / ٢٠)

جمع الآيات وتفسيرها

كعرض السموات والأرض :

لقد قدرت الآية الأولى سعة الجنّة بعرض السموات والأرض بقولها : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾.

ومن الواضح أنّ المقصود من «العرض» هنا ليس ما يقابل الطول بل المقصود هو المفهوم

اللغوي الذي يعني السعة والامتداد.[١] وقد تحملت جماعة من المفسّرين مشقّة كبيرة للعثور على طول الجنّة بسبب الخطأ الذي وقعوا فيه في فهم معنى «العرض».

وقال البعض أيضاً إنّ لهذا التعبير بُعد كنائيّ، لأنّ أوسع ما يمكن أن يتصوّره ذهن الإنسان هو عرض السموات والأرض، وإلّا فسعتها الحقيقية أكبر من هذا بكثير.

وممّا يلفت الانتباه أنّ الحديث ابتدأ أوّلاً بالمغفرة الإلهيّة، ثم تطرق ثانياً إلى الجنّة وما فيها من امتداد وذلك لأنّ المغفرة تعني التطهر من الذنوب ونيل الاستحقاق في القرب الإلهي وهو ما يفوق الجنّة أهميّة، إضافة إلى أنّ الطهارة والمغفرة إذا لم تتحققا، فلن يكون هناك طريق للجنّة.

الفعل «*سابقوا*» مأخوذ من مصدر «*المسابقة*» وهو إشارة إلى هذه المسألة التي تعني أنّ للجنّة والمغفرة أهميّة بالغة تحتّم على المؤمنين بذل الجهد لبلوغهما كما يفعل الأطفال عادة حين التسابق لبلوغ هدف معيّن.

ونفهم من هذا التعبير أيضاً أنّ هذه الدنيا لا تعدو أن تكون سوى حلبة سباق والهدف النهائي لها هو ذلك العالم.

ولكن على أي شيء يجري التسابق؟ لقد وضع الكثير من المفسرين أصابعهم على مصاديق خاصة دون سواها، كأمثال التسابق نحو «*الإسلام*» أو «*الهجرة*» أو «*الصلوات الخمس*» أو «*الجهاد*» أو «*التوبة*».

إلّا أنّه من الواضح أنّ الآية تحمل مفهوماً واسعاً يشمل جميع الطاعات والأعمال الصالحة، وأنّ ما ورد في كلام هذه المجموعة من المفسرين يمثّل في الواقع مصداقاً واحداً من هذا المفهوم الواسع.

✻✻✻

---

١ قال الكثير من أصحاب اللغة أنّ «العرض» يقابل «الطول» لكنهم لم ينكروا أنّ العرض جاء أيضاً بمعنى السعة، ووفقاً لما ورد في كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» المعنى الأصل للعرض هو وضع الشيء في مقابل الانظار، ولما كان نظر الانسان غالباً ما يقع على عرض الأشياء لا طولها، فقد استخدمت هذه الكلمة في المعنى المذكور أعلاه، وعلى هذا فعرض السموات والأرض في الآية التي بحثها يعني كل وجودهما الذي يمكن مشاهدته.

أمّا الآية الثانية فهي انعكاس ـ ولكن بتعبير أُخرى ـ لنفس هذه القضية، فهناك كان الكلام عن السباق وهنا عن المسارعة، وهناك وصفت الآية أنّ سعة الجنّة بعرض السماء والأرض، وهنا حُذفت «كاف» التشبيه، وحلّت كلمة السموات محل كلمة السماء، وأشارت الآية هناك إلى أنّها ـ أي الجنّة ـ اُعدّت للذين آمنوا بالله ورسله، وهنا تقول الآية أنّها: «*اُعدّت للمتقين*» حيث نصّت على: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

ولا يخفى أنّ «*التسابق*» يرتبط «بالمسارعة في العمل» وأنّ «*المتقين*» هم «الذين يؤمنون بالله ورسله» وذلك لأنّ التقوى هي انعكاس للإيمان الراسخ، وكلمة «السماء» تنطوي أيضاً على معنى الجنس الذي يشمل جميع السموات، إذن فالآيتان في واقعهما تنشدان حقيقة واحدة.

وهنا واجه الكثير من المفسّرين سؤ لاً حول ما إذا كانت سعة الجنّة كعرض السموات والأرض، فلن يبقى هناك مكان للنار!

ويمكن تبيان جواب هذا السؤال بالصورة الآتية، وهي أنّ العالم يومذاك سيكون أوسع بمرّات عديدة من عالمنا هذا، لأنّه عالم أفضل وأكمل، وستكون سعة الجنّة فيه بسعة السماء والأرض في عالم اليوم، والنّار في معزل عنه، لأنّ ذلك العالم أوسع من عالمنا اليوم في جميع الجوانب.

وهناك جواب آخر أيضاً عن هذا السؤال يتلخص في أنّ النور والظلام متزاحمان، وكذلك النعمة والنقمة في هذا العالم ولا تجتمعان طبعاً في مكان واحد، ولكن ذلك العالم لا يحفل بمثل هذا التزاحم، فربّما يوجد الاثنان معاً وهما يغطّيان العالم في وقت واحد، وبما أنّهما مرحلتان من مراحل الوجود والكينونة فهما لا يتزاحمان مع بعضهما.

ويمكن الإتيان بمثال بسيط لتوضيح هذا المعنى في الأذهان وهو: ربّما تقوم احدى محطات الارسال الاذاعي ببث صوت رقيق وناعم على احدى موجاتها وفي نفس الوقت ينبعث من محطّة إرسال أُخرى صوت مرعب وكريه يصمّ الآذان مصحوباً بأنغام مرعبة،

وربّما تغطي هاتان الموجتان جميع أنحاء الكرة الأرضية إلّا أنّهما غير مسموعتين من قبل الناس العاديين، والشخص الوحيد الذي يمكنه الاستماع هو الذي يستطيع تنظيم أمواج محطّته مع الموجه الأُولى إذ يمكنه عند ذلك الاستغراق في سماع النغمات الممتعة. أمّا الذين ينظمون أمواج محطتهم مع الموجه الثانية فيلقون العذاب والشقاء وكان الفريق الأول في الجنّة والثاني في جهنّم، وسنشرح هذا الكلام عمّا قريب بإذن الله

ﷺ

وجاء في الآية الثالثة والأخيرة تعبير غني بخصوص عظمة الجنّة، وظاهر الآية يُخاطب به الرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾[1].

وطرحت في تفسير الملك الكبير آراء متعددة تبلورت بصورة رئيسية حول محورين فقال جماعة: إنّ الملك الكبير إشارة إلى سعة وعظمة الجنّة وما فيها من قصور وغرف وحدائق، ومن جملة ذلك ماورد في أحد التفاسير «إنّ أدناهم منزلة ينظر في ملكه من مسيرة ألف عام، وفي بعض الروايات لمسافة ألفي سنة»[2].

واعتبره آخرون إشارة إلى العظمة المعنوية للجنّة والمقامات الرفيعة لأهلها، ومن جملة ذلك: أنّ الملائكة لا يدخلون عليهم إلّا بإذنٍ منهم، ويؤدّون لهم التحية والسلام، أو أنّ الفناء والزوال لا وجود له هناك، أو أنّ لكل واحد منهم هناك سبعين باباً[3].

وفسّر جماعة آخرون «الملك» بمعنى المَلَكية، والبعض الآخر قالوا إنّه يعني الحاكمية. وقال آخرون في تفسير «الملك الكبير» إنّه يعني «القرب إلى الله والشهود المعنوي

---

١ «ثَمّ» هنا ظرف مكان و«رأيت» فعل لازم، وعلى هذا يكون معنى الآية: عندما تنظر هناك ترى نعمة كبيرة وملكاً عظيماً. وبناءً على التفسير الآخر يكون «رأيت» فعل متعدّ و«ثمّ» اسم إشارة للبعيد ومفعول به، فيكون مفهوم الآية: (إذا رأيت ذلك المكان رأيت نعيماً وملكاً كبيراً).

٢ تفسير روح البيان، ج ١١، ص ٣٥٢؛ وتفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٩٦٣؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ١٦١؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٤١١.

٣ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤١٥؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٤١١.

لجلاله وجماله» ويمكن الجمع بين كل هذه المعاني، لعدم وجود أي تضاد بينها.

والذي يتّضح من مجموع هذه الآيات أنّه وكما أنّ النعم في الجنّة تستعصي على الوصف بسبب أهمّيتها واتساعها وتنّوع أشكالها، فكذلك الحال بالنسبة لعظمة الجنّة وسعتها. فكلّما يُقال في هذا الباب يبقى قاصراً عن أداء الوصف المطلوب.

***



٦ ـ هل الجنّة مخلوقة؟

تمهيد:

مع أنّ الوعد الإلهي حق، ولا تخلف فيه، وأنّ جزاء المؤمنين ومعاقبة وتعذيب الكافرين الذي وعد بهما الله سيتحقق قطعاً، لأنّ التخلف عن الوعد لا يكون إلّا بسبب العجز والضعف أو بسبب الجهل والندم، وهذا ما لا يمكن أن توصف به ذاته المقدّسة، وعلى هذا يمكن للجميع أن يرجوا وعده ويخشوا وعيده وما أُنذر به من العقاب، إلّا أنّ الآيات القرآنية ـ رغم ذلك ـ تؤكّد أنّ الجنّة والنّار مخلوقتان الآن وهما موجودتان الآن وجاهزتان لاستقبال المستحقّين!

ويُستفاد أيضاً من الروايات المختلفة أنّ الأعمال الصالحة التي تصدر عن الناس هي التي توجد الجنّة، وهذا يُعتبر دليلاً على وجود الجنّة في هذا الوقت، وسبب هذا التأكيد من أجل أن تدخل مسألة العقاب والثواب مرحلة أكثر جدّية، ولأجل أن يشعر المحسنون بوجود جزاء لأعمالهم على مقربة منهم، وليتحسس المسيؤون عواقب أعمالهم.

ونعود بعد هذا التمهيد الوجيز إلى القرآن ونتدبّر في الآيات الواردة في هذا الصدد:

١ ـ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. (آل عمران / ١٣٣)

٢ ـ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾. (الحديد / ٢١)

٣ ـ ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. (البقرة / ٢٤)

٤ ـ ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران / ١٣١)

٥ ـ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾. (النجم / ١٣ ـ ١٥)

٦ـ ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾. (العنكبوت / ٥٤)

٧ـ ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾. (الانفطار / ١٣ـ١٦)

٨ـ ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ ﴾. (التكاثر / ٥ـ٧)

جمع الآيات وتفسيرها

أُعدّت للمتقين!

جاء في الآية الأُولى والثانية بعد الإشارة إلى سعة الجنّة وعظمتها وأنّها كعرض السموات والأرض، إلى أنّها «أُعدّت للمتقين».

قال كبار المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية أنّه يُستفاد منها أنّ الجنّة مخلوقة وموجودة الآن [1].

وممّا يلفت الانتباه أنّ القرطبي أشار في تفسيره لهذه الآية قائلاً: «يرى غالبية علماء الإسلام أنّ الجنّة مخلوقة الآن وموجودة، وأنّ صريح روايات المعراج والروايات الأُخرى الواردة في «الصحيحين» وغيرهما يفيد هذا المعنى، لكن المعتزلة رفضوا هذا المعنى ولم يعتقدوا به وقالوا: إنّها تخلق بعد نهاية هذا العالم، وذلك لأنّها دار الثواب وهنا دار التكليف، وهما لا تجتمعان» [2]. ولا يشكل استدلال المعتزلة هذا إلّا مغالطة لا أكثر ولا أقل، لأنّ الحديث هنا يدور حول خلقها حالياً لا دخول الناس فيها.

وتناولت الآيتان الثالثة والرابعة موضوع الوجود الحالي لـ«جهنّم» إذ جاء في إحداهما: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾.

---

١ تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠٤؛ و تفسير الكبير، ج ٩، ص ٤؛ و تفسير روح البيان، ج ٢، ص ٩٤؛ و تفسير روح الجنان، ج ٣، ص ١٨٨؛ و تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٤٦؛ و تفسير روح المعاني، ج ٤، ص ٥١؛ و تفسير المنار، ج ٤، ص ١٣٢.

٢ تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٤٤٧.

فتدل هذه الآيات على الوجود الحالي لجهنّم أيضاً وقد صرح بهذا المعنى جماعة من المفسرين، رغم ما ورد بشأنها من تفسير، وما قيل في معنى «أُعدّت» فمع أنّه فعل ماض إلّا أنّه يدل على المستقبل لأنّ المستقبل المؤكد يأتي أحياناً على صيغة الفعل الماضي، وهذا بخلاف ظاهر الآية، ومثل هذا التفسير غير ممكن بلا وجود شاهد وقرينة.

وتتحدث الآية الخامسة عن قصة معراج النبي ﷺ قائلة: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾.

لكن هل أنّ «جنّة المأوى» هي جنّة البرزخ أم أنّها جنّة الخلد؟

فالمفسرون يختلفون في الحكم على هذا الموضوع، فكلمة «المأوى» ربّما تستدعي إلى الذهن معنى الخلود رغم ما يفترضه كون هذه الجنّة في بعض السموات من تداعي معنى الجنّة البرزخية، لأنّ جنّة الخلد تمتد على سعة الأرض والسموات.

وعلى هذا فالاستدلال بالآية الآنفة الذكر بشأن مخلوقية الجنّة لا يتطابق إلّا مع التفسير الأول، ورجّح جماعة من المفسرين هذا المعنى، منهم الطبرسي في مجمع البيان والعلّامة الطباطبائي رحمه الله في الميزان.

وتتحدث الآية التالية عن احاطة جهنّم بالكافرين بسبب أضرارهم وعنادهم إذ يقول القرآن الكريم: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾.

إنّهم لم يوجِدوا لأنفسهم جهنّم الدنيا بشركهم وذنوبهم وعصيانهم وظلمهم فحسب بل وحتّى جهنّم الآخرة قد أصبحت محيطة بهم لاسيما مع التنبّه إلى بداية الآية التي تتحدث عن استعجال الكفّار بالعذاب، ومن المناسب هنا القول: لماذا تستعجلون فإنكم الآن في جهنّم إلّا أنّ حجب هذا العالم تحول دون تأثيرها المباشر عليكم، لكن هذه الحجب ستزول يوم القيامة وتشاهدون حينها بأعينكم إحاطة جهنّم بكم[1].

وطرح احتمال آخر في تفسير هذه الآية وهو أنّها إشارة إلى يوم القيامة، والآية التالية لها والتي جاء فيها ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾. (العنكبوت / ٥٥)

هي بمثابة القيد لإحاطة جهنّم.

---

١ رجّح المرحوم العلّامة الشعراني هذا المعنى في هامش تفسير روح الجنان، ج ٩، ص ٣٠

وبعبارة أُخرى، جُعلت هذه الجملة إشارة إلى المستقبل المؤكد، فكما ذكرنا أنّ اللغة العربية تعبر عن المستقبل المؤكد «المضارع المستحقق الوقوع» بالحال حيناً وبالفعل الماضي حيناً آخر.

ويمكن الاستعانة بآيات سورة الانفطار لتأكيد التفسير الأول حيث جاء فيها: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾.

يتّضح من هذا التعبير أنّ «الصلي» يكون يوم القيامة إلّا أنّ جهنّم محيطة بالكافرين الآن، رغم أنّ الحجب تحول دون احترامهم في الدنيا، لاسيما ما ورد في جملة: ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ فهو تأكيد مجدد على هذا المعنى (فتأمّل).

وتخاطب الآية الأخيرة منكري يوم القيامة قائلة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ثم تضيف مؤكّدة: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾.

ولو أنّنا أخذنا معنى الآية كما هو في الظاهر (واعتبرنا «لو» شرطاً وجزاؤها «لترونّ الجحيم») لكانت تعني: إنّ الذين لديهم «علم اليقين» يشاهدون جهنّم وهم في هذا العالم، وهذا الكلام يستلزم وجودها حالياً.

أثار المفسرون ضجّة في تفسير هذه الآية، واختار كلّ منهم طريقاً خاصاً وكأنّهم في الغالب لم يتمكنوا من هضم هذا المعنى وهو إمكانية إشارة هذه الآيات إلى مشاهدة جهنّم في الدنيا، ومن ثم مشاهدتها في الآخرة.

فنحن نرى عدم إمكانية اعتبار الآية مكرّسة تماماً للآخرة وذلك لأنّ جميع الكفار والمجرمين يرون جهنّم في القيامة وهذا ممّا لايحتاج إلى الشرط، ولهذا اعتقد جماعة بحذف جزاء الشرط هنا بل وادّعى الفخر الرازي اتّفاق المفسرين على هذا المعنى[1]. ولكن من البديهي أنّ هذا الكلام مبالغ فيه فليس هناك اتّفاق في الآراء بشأن هذه المسألة، وعلى أيّة حال فقد اعتبر جماعة من المفسرين أنّ المعنى يكون هكذا: «لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر»[2].

---

١. تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٧٨

٢. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٣٠.

أمّا المجموعة الأخرىٰ التي رأت عدم صحة الرأي القائل بحذف الجزاء، فإنّها اعتبرت الرؤية علمية وقلبية، واستناداً إلى هذا سيكون معنى الآية: «لو أنّكم علمتم علم اليقين لأيقنتم بجهنّم».

من الواضح أنّ كلا التفسيرين الأول والثاني يخالف ظاهر هذه الآيات، لأنّ اعتبار الجزاء محذوفاً يخالف القاعدة وكذلك تفسير الرؤية بمعنى العلم[١].

وعلىٰ هذا لو أنّنا أخذنا الآية كما هي من غير حذف أو تقدير، وفسّرنا ألفاظها طبقاً لمعناها الحقيقي، فستكون النتيجة نفس التفسير المذكور آنفاً، وقد ارتضىٰ بعض المفسّرين هذا المعنىٰ ولو باعتباره واحداً من الاحتمالات علىٰ أقل تقدير.

ويلحظ في الروايات الإسلامية تعابير صحيحة تتسق وهذا المعنى، من جملتها القصّة المشهورة لذلك الشاب المؤمن والتي وردت في كتاب الكافي وبصورة حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: *«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إنّ لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقيني يارسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي واظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة، يتنعمون في الجنّة ويتعارفون وعلى الارائك متكئون وكأنّي أنظر إلى أهل النّار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأنّي الآن أسمع زفير النّار يدور في مسامعي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه، هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالإيمان، ثم قال له: ألزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يارسول الله أن أُرزق الشهادة معك فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»*[٢].

---

١ كلمة «الرؤية» تفيد معنىٰ العلم أيضاً وذلك فيما لو تعدت إلى مفعولين، بينما هذه الآية ليست كذلك، وينبغي الالتفات إلى أنّ الآية التالية «ثم لترونّها عين اليقين» يمكن أن تشير إلى القيامة.

٢ أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٣ باب حقيقة الإيمان، ح ٢ (مع بعض التلخيص).

وجملة «*كأنّي الآن اسمع زفير النّار يدور في مسامعي*» دليل على وجود جهنّم حالياً وانّه يراها بعينه عن طريق الإيمان الممتزج بالشهود.

ويُستفاد من مجموع الآيات المذكورة أنّ الجنّة والنّار مخلوقتان وموجودتان حالياً ولو عُرض هناك شكّ في دلالة بعض هذه الآيات لا يمكن ـ على أيّ تقدير ـ التشكيك في دلالة المجموع، وخاصة الآيات التي تدور فيها كلمة «اُعدّت».

ഇഇ

توضيحات

١ ـ آراء العلماء المسلمين في خلق الجنّة والنّار

يعتقد أغلب العلماء المسلمين ـ كما أشرنا سابقاً ـ بأنّ الجنّة والنّار موجودتان في الوقت الحاضر واستدلوا ببعض الآيات المذكورة مسبقاً لتدعيم معتقدهم هذا، لكن بعض علماء الكلام من أمثال أبي هاشم وعبد الجبار وهما من قدماء المتكلمين يعتقدون بأنّ الجنّة والنّار ليس لهما وجود حالياً وأنّهما سيخلقان فيما بعد، وتأكيداً لرأيهم هذا استدلّوا بالآية الشريفة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. (القصص / ٨٨)

فلو كانتا موجودتين حالياً فانّهما ستتعرضان للفناء في نهاية هذا العالم وعندئذ تتنافى هذه الآية مع الآية القرآنية القائلة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ (الرعد / ٣٥)

يقول العلّامة الحلي ﷺ ردّاً على هذا الاستدلال «إنّ الهلاك والفناء اللذين وردا في الآية يُراد منهما الخروج عن قابلية الاستفادة، ومن البديهي أنّ الناس وجميع المكلفين لو كُتب عليهم الفناء لما عادت للجنّة أيّة فائدة».

والجواب الآخر عن هذا السؤال هو أنّ الجنّة والنّار غير موجودتين في ظاهر هذا العالم بل في باطنه، والهلاك والفناء يصدقان على ظاهر هذا العالم. (سيأتي عمّا قريب مزيد من التفاصيل بهذا الصدد).

وقال البعض أيضاً: إنّ الآية. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ تشير إلى أنّ الله عزّ وجلّ وكل ماخلق بغير أسباب مادّية وبلطفه ورحمته، حصد، وأنّ كلمة «وجه الله» تشمل جميع هذه المعاني ومنها الجنّة والنّار وأنّ الفاني والهالك هو عالم المادّة الذي جاء إلى الوجود بعلل مادية.

٢ ـ الوجود الحالي للجنّة والنّار في الروايات الإسلامية

هناك الكثير من الأحاديث الإسلامية تدعم هذا المعنى وتؤكد أنّ الجنّة والنّار مخلوقتان حالياً، ومن جملة ذلك ماورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حين سأله أحد أصحابه عن الجنّة والنّار هل هما مخلوقتان؟ قال عليه السلام: *«وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد دخل الجنّة ورأى النّار لمّا عُرِج به إلى السماء»* فقال له السائل: إنّ قوماً يقولون إنّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين. فقال عليه السلام: *«ماأولئك منّا ولا نحن منهم، من أنكر خلق الجنّة والنّار فقد كذّب النبي وكذّبنا»*[1].

ووردت في الكثير من الروايات الإسلامية المتعلّقة بمعراج النبي صلى الله عليه وآله إشارات إلى موضوع الجنّة والنّار ووجودهما حالياً وهي تشكل في الحقيقة تأكيداً لما ورد في الآيات التي تناولناها بالبحث وأشار إليها القرآن الكريم في سورة النجم أثناء الحديث عن معراج النبي صلى الله عليه وآله.

قال علي بن إبراهيم في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ «... وأمّا الرد على من أنكر خلق الجنّة والنّار فقوله عندها جنّة المأوى، أي عند سدرة المنتهى، فسدرة المنتهى في السماء السابعة وجنّة المأوى عندها»[2].

وهناك روايات تؤيد هذا المعنى جاءت في مصادر أهل السنّة ومصادر الشيعة بخصوص ولادة السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام جاء فيها أنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله قال: *«لمّا عرج بي*

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١١٩، ح ٦

٢. تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٣٣٥

إلى السماء أخذ بيدي جبرائيل عليه السلام فأدخلني الجنّة فناولني من رطبها فأكلته فتحوّل ذلك نطفة في صلبي فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة عليها السلام ففاطمة حوراء إنسية فكلما اشتقت إلى رائحة الجنّة شممت رائحة ابنتي فاطمة» [1].

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً...﴾ (آل عمران / ٣٧)

وفي الكثير من المصادر الإسلامية الشيعية منها والسُنّية أنّ ذلك الطعام كان من فاكهة الجنّة كان الله يعطيها لمريم في غير أوانها [2].

وهناك روايات إسلامية وردت بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام منها أنّ الله تعالى قد أنزل عليها مائدة من الجنّة وقد أكل منها النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وعدد من نساء النبي صلى الله عليه وآله والجيران وأنّ النبي صلى الله عليه وآله قد شبه ذلك بقصة مريم وقال: ***«الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيّدة نساء بني اسرائيل»*** [3].

قد يُقال إنّ هذا الكلام متعلّق بالجنّة البرزخية وهي الجنّة التي تستقر فيها أرواح الشهداء بعد الشهادة وقبل القيامة، والجواب على مثل هذا الإعتراض هو أنّ الجنّة البرزخية ليست جنّة مادّية بل هي ذات بعد مثالي والأرواح تنعم فيها على هيئة القوالب المثالية، ومن البديهي أنّ مثل هذه الجنّة الخالية من الجسم المادي لن تحوي فاكهة نظير الفاكهة الموجودة في عالمنا هذا والتي يمكن أنّ يستفيد منها الجسم المادّي، بل هي تشبه في بعض جوانبها المشاهد التي يراها الإنسان في المنام ويتلذذ بها.

---

١. ورد مضمون هذا الحديث في الكتب الشيعية وفي كثير من الكتب السنّية مثل ذخائر العقبى، ص ٣٦ وص ٤٤؛ والمستدرك على الصحيحين، ج ٦، ص ١٥٦؛ وتفسير الدر المنثور للسيوطي في تفسير آية ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ وكتب أخرى

٢. تفسير العياشي وتفسير البرهان؛ وتفسير نور الثقلين؛ وكذلك تفسير الدر المنثور ذيل الآية ٣٧ من سورة آل عمران

٣. نقله كل من الزمخشري في الكشاف، والسيوطي في تفسير در المنثور في ذيل الآية ٣٧ من سورة آل عمران، والثعلبي في قصص الأنبياء في ص ٥١٣

إضافة إلى هذا نقرأ في روايات عديدة أنّ الجنّة حالياً في حالة بناء واتساع بواسطة أعمال الإنسان، فبعض أعمال الإنسان ينتج عنها غرس أشجار جديدة في الجنّة، ولا تصح مثل هذه الأخبار إلّا إذا كانت الجنّة موجودة حالياً، ومن جملة ذلك ماورد في الروايات التالية التي تحمل ابعاداً تربوية رفيعة:

١ ـ نقل أبو أيوب الأنصاري حديثاً عن رسول الأكرمﷺ أنّه قال: *«في ليلة المعراج مرّ بي إبراهيم الخليلؑ وقال: مُر امّتك أن يكثروا من غرس الجنّة فإنّ أرضها واسعة وتربتها طيبة قلت وما غرس الجنّة؟ قال: لا حول ولا قوة إلّا بالله»*[1].

٢ ـ جاء في حديث عن رسول اللهﷺ أنّه قال: *«من قال لا إله إلّا الله، غرست له شجرة في الجنّة»*[2].

٣ ـ نقل الإمام الصادقؑ حديثاً عن آبائه عن رسول اللهﷺ أنّه قال: *«من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال لا اله إلّا الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال الله أكبر غرس له بها شجرة في الجنّة» فقام له رجل من قريش كان بين الحاضرين وقال له: اذن فشجرنا في الجنّة أكثر، فقال له النبيﷺ: «نعم ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها»*[3].

٤ ـ وجاء في حديث آخر عن النبيﷺ أنّه قال: *«لمّا أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: مالكم ربّما بنيتم وربّما أمسكتم؟ فقالوا: حتّى تجيئنا النفقة! فقلت لهم: وما نفقتكم؟ فقالوا: قول المؤمن في الدنيا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، فاذا قال بنينا، وإذا أمسك أمسكنا»*[4].

نختم هذا البحث بحديث للمرحوم العلّامة المجلسي، فقد قال في نهاية هذه الرواية

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٤٩، ح ٨٣.

٢. ورد هذا الحديث في كتب كثيرة منها المحاسن؛ ثواب الأعمال؛ بحار الأنوار عن اصول الكافي، ج ٢، ص ٥١٧ ح ٢.

٣. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٨٦، ح ١٥٤.

٤. المصدر السابق، ج ١٨، ص ٣٧٥، ح ٨٠ (بشيء من التلخيص).

المتعلقة بالجنّة والنّار والتي أوردها في بحار الأنوار: «اعلم أنّ الإيمان بالجنّة والنّار على ماوردتا في الآيات والأخبار من غير تأويل من ضروريات الدين، ومنكرهما أو مؤولهما بما أوّلت به الفلاسفة خارج من الدين، وأمّا كونهما مخلوقتان الآن فقد ذهب إليه جمهور المسلمين إلّا شرذمة من المعتزلة والآيات والأخبار الواردة دافعة لقولهم مزيّفة لمذهبهم، والظاهر أنّه لم يذهب إلى هذا القول أحد من الإمامية إلّا ما ينسب إلى السيد الرضي»[١].

٣ـ جوابه على المعترضين

لعل منكري الوجود الحالي للجنّة والنّار يتمسكون باعتراضين أحدهما عقلي والآخر نقلي، أمّا الاعتراض العقلي فهو أن إيجادهما قبل القيامة لغو وعبث، لأنّه مامن أحد يدخل الجنّة أو النّار قبل حساب يوم القيامة ويبدو هذا شبيهاً لمن يبني قبل ألف عام داراً لمن يأتي بعد ألف عام، أليس هذا عبث؟!

والجواب على هذا الاعتراض واضح وهو أنّ هكذا القضية ـ كما سبق منّا القول فيها ـ تترك تأثيراً تربوياً على الناس، فالله سبحانه وتعالى يريد أن تفهم الناس أنّ الثواب العظيم غير مؤجّل ولا العقاب الأليم، بل كلاهما حاضر، ويبدو هذا العمل شبيهاً بتهيئة مجموعة من الجوائز في بداية العام الدراسي للطلبة الذين يحوزون في نهاية العام على أعلى الدرجات بل وقد نصبها معروضة أمام أنظارهم ونقول لهم هذه المكافأة لمن يبذل أقصى الجهد في الدراسة، أو يبدو شبيهاً بإعداد السجن والمشنقة مقدّماً للقتلة والجُناة.

ومن البديهي أنّ مثل هذا العمل لا يُعدُّ عبثاً، بل له آثار عميقة أيضاً في الجانب التربوي، ولكن بما أنّ الجنّة والنّار محجوبتان عن أهل الدنيا بسبب الحجب الموجودة حافظت الآيات القرآنية والأخبار النبوية في هذا الصدد على ذلك التأثير.

والاعتراض الآخر هو علمنا بأنّ ﴿كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ في نهاية هذا العالم، ويمكن تقديم عدّة إجابات على هذا الاعتراض.

الأول: إنّ المقصود من «كل شيء» هو الدنيا بأجمعها وما يتعلق بها، أمّا معنى «الهلاك» فلا

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٠٥، ذيل ح ٦٢.

يصدق على الجنّة والنّار فهما من الأشياء الباقية والمستثناة من الهلاك فوق العالم المادي أو في باطنه، وهما خارج نطاق الدنيا الفانية.

الثاني: إنّ «الوجه» المستثنى يشمل جميع الأمور التي تنتسب إليه بقوّة بحيث تُعتبر داخلة ضمن مفهوم «الوجه» وبما أنّ الجنّة والنّار هما مظهر رحمته وغضبه وموضع الثواب والعقاب فهما داخلتان ضمن الاستثناء طبعاً.

الثالث: إنّ «الهلاك» يعني انعدام المستفيدين من الشيء كالدار العامرة التي يموت أهلها وتبقى بلا وارث، فهذه الحالة تسمّى أحياناً بـ هلاك.

٤ ـ أين الجنّة؟

يُطرح هذا السؤال جديّاً مع أخذ نقطتين بنظر الاعتبار:

الأولى: وهي أنّ الجنّة موجودة الآن، (طبقاً للشواهد المتاتية من الآيات والروايات المذكورة سابقاً).

والثانية: إن عرض الجنّة كعرض السماء والأرض (استناداً إلى صريح الآيات الواردة في البحث السابق).

ولعل البعض يقول: أين يقع بالدقّة مثل هذا الوجود الذي هو كعرض السماء والأرض؟ وكيف يمكن وجود مثل هذا الشيء دون أن تصله حواسّنا؟

وقد أجاب جماعة عن مثل هذا السؤال بقولهم: تفيد الآيات القرآنية أنّ الجنّة موجودة في السماء، فكما أشرنا سابقاً، إنّ عروج النبي ﷺ كان إلى السماء حيث أخبرت الآية الشريفة: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾ (وهذه النقطة هي أسمى وأرفع نقطة في السماء).[1]

(النجم / ١٥)

رغم أنّ البعض اعتبرها الجنّة البرزخية التي تصعد إليها أرواح الشهداء أو أنّها جنّة آدم،

---

١. صرّح بذلك المرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان، والفخر الرازي في التفسير الكبير، والعلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان؛ والبروسوي في تفسير روح البيان، في ذيل الآية ٢٢ من سورة الذاريات أو ذيل الآية ١٥ من سورة النجم أو في كليهما.

ولكن كلا هذين الاحتمالين يخالف معنى التعبير الظاهري لجنّة المأوى.

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. (الذاريات / ٢٢)

إذ يعتقد كثير من المفسرين أنّ المقصود من «ماتوعدون» هي جنّة الخلد التي وعد الله بها عباده[1]، وقال جماعة إنّ هذا يشمل الجنّة والنّار رغم قول البعض أنّ الغرض هو الإشارة إلى العذاب الدنيوي الذي ينزل على الكفّار والجبابرة (كعذاب قوم نوح وقوم لوط وأمثالهما).

محصّلة هذا الكلام هو أنّ جنّة الخلد تقع في ماوراء السماء الدنيا وسعتها كعرض السماء والأرض أو أنّها أوسع من ذلك بعدّة مرّات لعدم وجود ما هو أوسع من هذا البيان ليصف به القرآن سعة الجنّة، وعلى هذا الأساس فهي موجودة ومكانها في السماء وسعتها كعرض السماء والأرض في هذه الدنيا.

وقد طرح بعضهم عدّة مؤاخذات على هذا الرأي وهو إذا كانت الجنّة فوق الفلك التاسع فهذا يستلزم أنّها كائنة في اللامكان واللاجهة! وحتى لو كانت واقعة في طبقات السماء أو بين فلكين من هذه الأفلاك فهذا إمّا يستلزم التداخل أو انفصال الأفلاك عن بعضها، وكل هذا محال ولا يتّسق مع التعبير القرآني القائل: إنّ سعتها كعرض السموات والأرض.

ولا يخفى أنّ هذا الاعتراض قائم في الحقيقة على أساس هيئة بطليموس والأفلاك التسعة التي يعتقد أنّها قائمة فوق بعضها كطبقات قشرة البصل ولا يوجد بينها أي فاصل ولكن بعد أن ثبت الآن بالدلائل القطعية بطلان هذه العقيدة، وحتى أنّ بطلانها في بعض الجوانب ثبت حسّياً، لم يَعُد هناك أي دليل تستند عليه مثل هذه الاعتراضات ولا يوجد هناك أي مانع من وجود عوالم كبيرة أُخرى أوسع بكثير من سمائنا وأرضنا هذه فوق هذه النجوم الثابتة والسيارة وفوق المجرّات، وعليه فلا تتعارض مع مفهوم الآية الآنفة الذكر أيضاً.

---

١. صرّح بذلك المرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان، والفخر الرازي في التفسير الكبير، والعلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان، والبرسوئي في تفسير روح البيان (في ذيل الآية ٢٢ من سورة الذاريات أو ذيل الآية ١٥ من سورة النجم أو في كليهما.

النظرية الأخرىٰ تقوم علىٰ رأي جماعة من الفلاسفة الذين ينكرون ماديّة الجنّة والنّار، وعلى هذا ذهبوا إلىٰ عدم حاجة الجنّة إلىٰ المكان المادّي بل هي في ماوراء عالم الحس والمادّة، وقد تحدّث صدر المتألهين عن هذا الموضوع في كتاب الأسفار قائلاً:

«واعلم أنّ لكل نفس من نفوس السعداء في عالم الآخرة مملكة عظيمة الفسحة، وعالماً أعظم وأوسع ممّا في السماوات والأرضين، وهي ليست خارجة عن ذاته بل جميع مملكته ومماليكه وخدمه وحشمه وبساتينه وأشجاره وحوره وغلمانه كلها، قائمة به، وهو حافظها ومنشئها بإذن الله تعالىٰ وقوته، ووجود الأشياء الأخروية وإن كانت تشبه الصور التي يراها الإنسان في المنام أو في بعض المرايا لكن يفرقها بالذات والحقيقة. أمّا وجه المشابهة فهو أنّ كلا منها بحيث لا يكون في موضوعات الهيولي ولا في الأمكنة والجهات لهذه المواد، وأن لا تزاحم بين أعداد الصور لكل منهما وأنّ شيئاً منهما لا يزاحم شيئاً في هذا العالم في مكانه أو زمانه، فإنّ النائم ربما يراه في يقظة هذا العالم، وهي مع كونها مغايرة لما في الخارج بالعدد لكن لا تزاحم ولا تضايق بينها. وأمّا وجه المباينة فهو أنّ نشأة الآخرة والصور الواقعة فيها قوية الجوهر شديدة الوجود عظيمة التأثير إلتذاذاً وإيلاماً، وهي أقوىٰ وأشد وآكد، وأقوى من موجودات هذا العالم، فكيف بالصور المنامية والمرآتية، ونسبة النشأة الآخرة إلىٰ الدنيا كنسبة الانتباه إلى نشأة النوم»[1]

وبالرغم من استخدامه لتعابير مختلفة بشأن المعاد فليس من السهل الحكم علىٰ رأيه من خلال هذه التعابير، لكن من الواضح أنّ هذا التفسير للمعاد لا يتطابق مع ظاهر بل مع صريح القرآن، بل يتناسب مع آراء الذين يعتبرون المعاد روحياً فقط، فقد ورد في النص السابق أنّ الجنّة في داخل ذات الإنسان وفي نفسه وروحه وكل شيء هناك له صورة مثالية، وكل شيء روحاني، بل وأنّ الموجد له هي روح الإنسان!

لقد ذكرنا فيما سبق عشرات الآيات التي تثبت جسمانية المعاد، وذلك ضمن عدّة مجاميع وبإمكان كل مجموعة أن تكون جواباً علىٰ مثل هذا الرأي.

---

١ الاسفار الأربعة، ج ٩، ص ١٧٦ الفصل ١٠

أمّا الرأي الثالث الذي يمكن طرحه في هذا الصدد فهو أنّ كلاً من الجنّة والنّار تقعان في باطن هذا العالم، وحجب عالم الدنيا تحول دون رؤيتهما. لكن أولياء الله بإمكانهم مشاهدتهما، وقد استطاع النبي الكريم ﷺ أثناء معراجه حيث صار بعيداً عن ضجيج سكان هذا العالم، أن يرى بعينه الملكوتية قصة من الجنّة في العالم الأعلى، وحتّى أنّ أولياء الله قد يتاح لهم بين الفينة والأخرى أثناء بعض النفحات مشاهدة ذلك وهم على الأرض!

وقد تكون الآيات التالية إشارة إلى هذا المعنى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (العنكبوت / ٥٤)

وقال: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾. (الانفطار / ١٣ ـ ١٤)

وكذلك: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾. (التكاثر / ٥ ـ ٦)

يمكن تشبيه وجود الجنّة في باطن هذا العالم بماء الورد في الورود، فمع أنّ ماء الورد مادّة وكذلك الورود لكن ذلك لايمنع من وجود أحدهما مخفياً داخل الآخر فلا يشاهد بالعين.

والتشبيه الآخر الذي يمكن الإتيان به لتقريب الموضوع إلى الأذهان، وهو تشبيه سبق ذكره حيث توجد أشياء كثيرة في عالم المادّة هذا لا يتيسّر لنا إدراكها في الظروف الاعتيادية، وكثير منها موجود في داخل هذا العالم المادّي فعلى سبيل المثال توجد في فضاء هذا العالم أمواج إذاعية عديدة تبثها في الفضاء محطات الاذاعة العالمية، وتصل أحياناً بواسطة الأقمار الصناعية إلى جميع أرجاء العالم، وتوجد أنواع متعددة من هذه الموجات في كل بيت، لكنّ أحداً لايشعر بها، ولعل بعضها يحمل أنغاماً وأصواتاً جذابة ورائعة، وقد يحمل بعضها الآخر أصواتاً مرعبة وصفّارات انذار وأنغاماً تشمئز منها النفوس، وكذلك محطات التلفزة، فقد تبث صوراً ومشاهد جميلة وجذّابة وتربوية فيما تبث محطّات أُخرى مشاهد الحرب والدمار والخراب والمذابح والحرائق والجرائم، وكل هذه الصور والمشاهد والأصوات المختلفة موجودة في عالمنا المادي هذا وفي هذا الفضاء

المحيط بنا ، وقد اصطنعت لنفسها جنّةً وناراً في داخل هذا العالم ، فيقوم بعض النّاس بتنظيم أجهزة الاستلام لديهم مع الأصوات الجذابة و الأنغام المريحة والمشاهد الممتعة والمفيدة ، بينما ينظّم البعض الآخر أجهزة الاستلام ـ اختياراً أو اضطراراً ـ مع الأنغام والأصوات والمشاهد المعاكسة للأولى ، فيعيش الفريق الأول أجواء عالم ممتع ، والفريق الثاني يعيش في عالم من العذاب والأذى ، وهذه كلها كامنة في قلب هذا العالم الماديّ .

نأمل عدم حصول الالتباس في الفهم، فنحن لا نقول أبداً إنّ الجنّة والنّار هكذا تماماً بل نقول ما المانع في أن يكون في عمق هذا العالم عالم آخر أو عوالم اُخرىٰ ونحن لا نتمكن في الظروف الحالية من الاطّلاع عليها مطلقاً بوجود الحجب المتعددة الحائلة بيننا وبينها ؟ إنّ من اُوتي القدرة علىٰ إزاحة هذه الحجب فبإمكانه رؤية تلك العوالم حتّى وإن كان هو في هذا العالم. (فتأمّل) .

وقد اُتيح للنبي الكريم ﷺ أثناء معراجه إلىٰ السماء ـ حيث خفّت صبغة عالم المادّة، وتقلصت الهموم والمشاغل وتعاظمت مظاهر جلال الله وجماله ـ إزاحة الحُجب ومشاهدة جوانب من العالمين (الجنّة والجحيم) الواقعين داخل هذا العالم

وليس معنىٰ هذا أنّ الرسول الكريم ﷺ أو سائر أولياء الله لا يتمكّنون من مشاهدة الجنّة والنّار وهم علىٰ الأرض ، بل إنّ هذا قد حصل أيضاً في بعض الأوقات علىٰ الأرض كما يتّبين من بعض الروايات .

جاء في الحديث الذي نقله الراوندي في « خرائج» أنّ أصحاب الإمام الحسين عليه السلام حين أكدوا له وفاءهم الكامل له وامتنعوا عن مغادرة الميدان ونقض البيعة : *«دعا لهم بالخير وكشف عن أبصارهم فرأوا ما حباهم الله من نعيم الجنان وعرّفهم منازلهم فيها»* [1].

ويروي مؤلف كتاب «مقتل الحسين» بعد ذكره لهذه الرواية : *«وليس ذلك في القدرة الإلهيّة ولا في تصرفات الإمام بغريب ، فإنّ سحرة فرعون لما آمنوا بموسىٰ عليه السلام وأراد فرعون قتلهم أراهم النبي موسىٰ منازلهم في الجنّة»* [2]

---

١. الخرائج للراوندي طبقاً لما ورد في «مقتل الحسين» مقرم، ص ٢٦١؛ وبحار الأنوار ج ٤٤، ص ٢٩٨.

٢. أخبار الزمان للمسعودي، ص ٢٤٧ (المستند إلىٰ مقتل الحسين، ص ٢٦١)

ورد في بعض الروايات أيضاً أنّ الإمام الصادق عليه السلام أرى بعض أصحابه حوض الكوثر[1].

وهذه النظرية حول مكان الجنّة تحل ضمناً مسألة سعتها التي هي كعرض السموات والأرض وترد على بعض اعتراضات المتكلمين بشأن ضرورة التداخل.

وعلى أيّة حال فإنّ ما طرحناه بخصوص وجود الجنّة والنّار في باطن هذا العالم لا يتجاوز النظرية، والاعتقاد به يحتاج إلى مزيد من الدراسة والأدلة والشواهد.

---

١. بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٨٧، ح ٩.

٧ـ درجات الجنة

تمهيد:

تدل العبارات القرآنية المختلفة على أنّ حدائق الجنّة متعددة ومتنوّعة، ولو أمعنا النظر في الروايات الواردة في تفسير الآيات النازلة في هذا الصدد لاستخلصنا منها أنّها تحدد درجات ومنازل أهل الجنّة وتضع كل فئة منهم في المكانة اللائقة بهم ضمن هذه الحدائق، كل شخص حسب أفضليّة وسمو مقامه.

فهناك ـ مثلاً ـ حديث وارد عن النبي ﷺ في تفسير الآيات من سورة (الرحمن) الواردة بخصوص حدائق الجنّة أنّه قال ﷺ: ***«جنّتان من ذهب للمقرّبين، وجنّتان من ورق لأصحاب اليمين»***[1].

ومن الواضح أنّ استعمال كلمتي الذهب والفضّة في هذا الحديث يشير إلى تفاوت درجتي هاتين الجنتين

مع هذه اللمحة التمهيدية نعود إلى آيات القرآن الكريم لنشاهد، ماذا تقول عن ذلك:

١ ـ ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً ﴾.

(الفرقان / ١٥)

٢ ـ ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾. (الكهف / ٣١)

٣ ـ ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

(السجدة / ١٩)

٤ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾.

(الكهف / ١٠٧)

---

١. تفسير درّ المنثور، ج ٦، ص ١٤٦

٥ ـ ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾. (الواقعة / ١٠ ـ ١٢)

٦ ـ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ﴿مُدْهَامَّتَانِ ﴾. (الرحمن / ٤٦ ـ ٤٨ ـ ٦٢ ـ ٦٤)

جمع الآيات وتفسيرها

جنّة أم جنان؟

تتحدث الآية الأُولى عن العذاب الأليم لأصحاب النّار وتقارن حالهم بالمنزلة الرفيعة لأصحاب الجنّة: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً ﴾.

«*جنّة الخلد*»: وردت مرّة واحدة في القرآن الكريم وهي تشير إلى خلود الجنّة.

يقول الراغب في «المفردات»: «الخلود» بمعنى: بُعد الشيء عن الفساد وبقاؤه على حاله. وقال صاحب «مقاييس اللغة»: إنّ الكلمة تعني أساساً الثبات والملازمة. وفسّرها صاحب «مصباح اللغة» بمعنى الإقامة، ورغم أنّ هاتين الكلمتين ـ أي جنة الخلد ـ جاءت أحداهما مضافة إلى الأُخرى فإنّهما تفيدان معنى الوصف، ويبدو أنّه وصف للجنّة بشكل عام، لأنّ كل نعمة فيها خالدة، وكذلك أهله فهم خالدون أيضاً، وعلى هذا فهي لا تختص بجانب من الجنّة دون الجانب الآخر، لأنّ هذا وصف شامل لكل حدائق الجنّة.

واعتبر بعض أصحاب اللغة مثل ابن منظور في «لسان العرب»: «الخلد» واحداً من أسماء الجنّة، ولا يستبعد أن تكون آراؤهم أيضاً بياناً لصفة الدوام والبقاء التي تحوّلت بالتدريج إلى اسم من أسماء الجنّة

ـــــــ

وفي الآية الثانية نلاحظ تعبيراً آخراً، فبعد أن تؤكد الآية على عدم ضياع أجر المؤمنين الصالحين، تبشرهم أنّ: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾.

وردت كلمة «جنات عدن» احدى عشرة مرّة في القرآن الكريم [١] وهذا التكرار يفيد الأهمّية في المواصفات المتعلّقة بالجنّة.

و«الجنّات»: جمع (جنّة) وهي الحدائق الكثيرة في الجنّة. و«عدن» تعني في الأصل الإقامة حسب ماذكر صاحب «مقاييس اللغة» وبمعنى الثبات والاستقرار حسب ماأفاد به كتاب المفردات، وهذا يتضمن إشارة إلى خلود الجنّة، لا إلى حدائق هذه الدنيا التي تتعرض أشجارها لتساقط الأوراق في فصل الخريف وقد تيبس وتموت بعد عدّة سنوات، وقد تنقطع عنها مصادر المياه، أو قد تتعرض ثمارها للآفات أو تجف جذوعها من الداخل أو قد تقضي عليها الرياح الحارّة اللاهبة أو القارصة بل وقد تتعرض للصواعق فتتحول إلى رماد، وخلاصة القول أنّها عرضة لألف آفة وبلاء بينما أشجار الجنّة باقية دوماً وحدائقها خضراء غنّاء لا يعتريها اليبس ولا المرض ولا تساقط الأوراق أو الذبول.

قال بعض المفسرين: إنّ المقصود من (جنّات عدن) وسط الجنّة، وهي في الحقيقة جنّة من جنانها إلّا أنّ لها من السعة ما يجعل كل جزء من أطرافها وكأنّه جنّة قائمة بذاتها وقد ذُكرت على هيئة الجمع [٢]. لكن التأمل فيما سبق من القول يجعل مثل هذا المعنى بعيداً.

وابرزت الآية الثالثة نفس هذا المعنى ولكن بعبارات أخرى، فهي تقول: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

«والمأوى»: مشتقة من كلمة «أويّ» على وزن (قويّ)، قال الراغب في المفردات: إنّها تعني انضمام الشيء إلى شيء آخر (ثم أصبحت تعني الإقامة عند الشيء).

وقال صاحب مقاييس اللغة: إنّ أحد معانيها هو «التجمّع» وهذا يستلزم السكن عند الشيء، والمأوى يعني باختصار: المكان والمسكن والمقر الذي يسكنه الإنسان ليلاً أو نهاراً ويستريح فيه، وعلى هذا فـ«جنّات المأوى» تشير إلى الخلود والدوام والاستقرار في الجنّة.

---

١. في سور: التوبة، ٧٢؛ الرعد، ٢٣؛ النحل، ٣١؛ الكهف، ٣١؛ مريم، ٦١؛ طه، ٧٦؛ فاطر، ٣٣؛ ص، ٥٠؛ غافر، ٨؛ الصف، ١٢؛ البيّنة، ٨.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٦٧؛ وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤٠١٣.

ويُستَشفُ منها أيضاً معنى الهدوء والسكينة.

قال البعض: إنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ دار الدنيا ليست مأوى الإنسان (أي ليست دار مقرّه النهائي)، بل هي ممر يجتازه، أوكما وصفتها الرواية المشهورة *«الدنيا قنطرة»* فهي ليست محل استقرار وثبات.

ولا يخفى أنّ مثل هذا الوصف ينطبق على جميع الجنّة، ومع ذلك فقد نُقِل عن ابن عبّاس أنّه قال: حدائق الجنّة ثمان إحدها جنّة المأوى، وسواها هي *«دار الجلال»* و *«دار القرار»* و *«دار السلام»* و *«جنّة عدن»* و *«جنّة الخلد»* و *«جنّة الفردوس»* و *«جنّة النعيم»*.

سبق أن قلنا أنّ *«النزل»* تعني أول مايُستقبل به الضيف (كما يُستقبل اليوم مثلاً بالعصير أو الماء البارد أو الشاي) وإذا كان الأمر كذلك فهو يدل على أنّ جنات المأوى ـ رغم سعتها وعظمتها ـ فهي أدنى درجات الاستقبال لعباد الله المخلصين! وعلى هذا فإنّ الاستقبال والتكريم الأساس لهم هي تلك النعم التي تتضاءل أمامها جنات المأوى، وهي ليست سوى قرب الإله ولقائه وجنّة معرفة جلاله وجماله.

٨٠٠٣

التعبير الآخر الذي استخدمه القرآن الكريم لوصف مستقر هذه الرحمة الإلهيّة الكبرى هو *«جنات الفردوس»* إذ يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾.

هناك اختلاف بين المفسرين وأصحاب اللغة في أصل كلمة *(فردوس)* هل هي رومية أم سريانية أم نبطية أم حبشية أم عربية؟ كما اعتبرها البعض فارسية الأصل تحوّرت إلى «پراديرس» و«پراديز» ثم إلى «فردايس» و«فردوس».

وقد ذكروا معاني عديدة لهذه الكلمة، منها: الحديقة والبستان، وحدائق العنب والحدائق الشاملة لكل الأزهار والثمار، والحدائق المغطّاة بالأشجار والتي تحوي الكثير من المياه، وأحياناً الحاوية للكثير من العنب

فأمّا الذين عدّوها عربية الأصل فقد قالوا: إنّها مأخوذة من مصدر «الفَرْدَسة» وهو بمعنى السعة واستعملت هذه الكلمة التي وردت في القرآن مرّتين فقط (في سورة الكهف / ١٠٧ وسورة المؤمنون / ١١) بمعنى الجنّة، ويُستشف من الروايات المنقولة عن النبي ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ هذا الاسم يختص ببقعة ممتازة جداً من الجنّة.

جاء في حديث عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنّه وسط الجنّة وأعلا الجنّة وفوقه عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنّة»[1].

ونقل عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «لكل شيء ذروة وذروة الجنّة الفردوس وهي لمحمد وآل محمد»[2].

وأخيراً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير الآية: إنّها نزلت بحق أبي ذر وسلمان والمقداد وعمار بن ياسر وهي «جعل الله لهم جنّات الفردوس نُزُلاً» أي مأوى ومنزلاً[3].

ومن الواضح عدم وجود أي تضاد بين الحديث الثاني والثالث، لأنّ المؤمنين من أصحاب الدرجات الرفيعة من أمثال أبي ذر وسلمان والمقداد وعمّار وهم التابعون المخلصون لمحمد وآل محمد عليهم السلام يعدّون في الحقيقة من زمرتهم.

ولكن ما معنى «نزلاً» هنا؟ اعتبرها البعض بمعنى دار النزول ومحل السكن كما أشار إلى هذا حديث الإمام الصادق عليه السلام. وقال بعض المفسرين: إنّ النزل يعني وسائل الاستقبال أو أوّل ما يستقبل به الضيف، ولامانع أيضاً من جمع هذين المعنيين.

التعبير الآخر الذي ورد في وصف حدائق الجنّة هو ما جاء في سورة الواقعة «جنات النعيم» إذ يقول تعالى في كتابه الكريم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

---

١. صحيح البخاري، وصحيح مسلم (نقلاً عن كتاب روح المعاني، ج ١٦، ص ٤٧).

٢. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٩٥، ح ٢.

٣. استناداً إلى ما نقله تفسير الميزان عن تفسير القمي، ذيل الآية مورد البحث.

«الجنّات»، جمع «جنّة» ولعل استعمال الجمع هنا لبيان أنّ لكل واحد من أصحاب الجنّة جنّة خاصة به فيكون جمعها جنّات. والنعيم هو جمع «نعمة» لأنّ الجنّة تحوي دوماً أنواع النعم المادّية والمعنوية، لا كمثل حدائق الدنيا التي تكون أحياناً مدعاة للتعب والمعاناة والألم وأحياناً سبباً للراحة والنعمة، إضافة إلى أنّ حدائق الدنيا تضم كل واحدة منها نعمة واحدة لا جميع النعم.

وما يسترعي الانتباه هنا هو أنّ الله ذكرهم أولاً فقال ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ومن ثم انتقل إلى ذكر *«جنات النعيم»* ومن الواضح أنّ جنات النعيم وبكل ماتزخر به من نعمة وعظمة لا تمثل في قبالة القرب الإلهي إلّا قطرة في بحر.

وقد تكررت هذه الكلمة (جنّة النعيم، وجنات النعيم)، عشر مرات في الآيات الشريفة والتكرار دليل على التأكيد والأهمية[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإنسان كلما اقترب في هذه الدنيا من مراكز القوى ازداد قلقه، لأنّه يعيش دوماً في حالة من الوجل والهواجس والرعب خوفاً من تغيير آراء أصحاب القوّة بشأنه فيسقط ويتعرض لأشد أنواع العقوبة والتنكيل، ولهذا يحذّر أهلُ المعرفة وكبار الشخصيات من «التقرّب إلى السلطان»، وأمّا القرب من الإله فعلى العكس من هذا تماماً، فلا يشعر بغير الاطمئنان واللذة الروحية والمعنوية، وجنّات النعيم.

وهناك قضيّة تستدعي الدقّة أيضاً وهو ماورد في الروايات العديدة التي جاءت في ذيل الآية الشريفة: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾. (التكاثر / ٨)

حيث فُسر *«النعيم»* بـ «نعمة الولاية»[٢] ومن هذا المنطلق فمن المحتمل أنّ جنّات النعيم هي جنّة الولاية، ولاية الله وأوليائه، ومحبّتهم والاستضاءة بنورهم المعنوي.

---

١. المائدة، ٦٥؛ يونس، ٩؛ الحج، ٥٦؛ الشعراء، ٨٥؛ لقمان، ٨؛ الصافات، ٤٣؛ الواقعة، ١٢ ـ ٨٩؛ القلم، ٣٤؛ المعارج، ٣٨.

٢. للحصول على مزيد من المعلومات عن هذه الأحاديث راجع كتاب بحار الأنوار، ج ٢٤، الباب ٢٩، ص ٤٨ ومابتلاها

أمّا هل أنّ «جنّات النعيم» تشمل كل الجنّة أم تُشير إلى بقع مهمّة منها؟ فهنالك احتمالان، فمن جهة، قد يكون الوعد الإلهي للمقرّبين دليلاً على الاحتمال الثاني لاسيما وأن تعبيراً مشابهاً لهذا قد ورد في نفس هذه السورة. ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ (الواقعة / ٨٨ـ٨٩)

ﮰﮱ

المجموعة السادسة والأخيرة من هذه الآيات تشير باختصار إلى أربع روضات من رياض الجنّة مع عدة خصائص، كل اثنين منهما على حدة، إذ قال الكتاب الكريم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾.

كانوا يتصوّرون أنّ هذه الحدائق الأربع كلها لجميع المؤمنين، وهذا التعدد من أجل إيجاد التنوع لأنّ طبيعة الإنسان تميل إلى التنوع، لكن لهجة الآيات وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها تظهر لنا بوضوح أنها ـ أي تلك الحدائق ـ من نصيب فئتين مختلفتين وعبارة «ومن دونهما» تعطي معنى الأدنى، وعلى هذا الترتيب فروضتان من رياض الجنّة من نصيب «المقرّبين» واثنتان أدنى منهما من نصيب «أصحاب اليمين» وهذا في الحقيقة إشارة إلى درجات ومراتب أهل الجنّة، وهذا ما ينبغي أن يكون وذلك لأنّ أهل الجنّة ليسوا على سواء في المرتبة والدرجة.

لقد وصف النبي ﷺ هذا الاختلاف بعبارات جميلة في حديث ورد عنه إذ قال: *«جنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، جنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما»*[١]

وورد نفس هذا المعنى في حديث أكثر صراحة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: *«لا تقولنّ واحدة إنّ الله يقول: ومن دونهما جنّتان، ولا تقولنّ درجة واحدة إنّ الله يقول: درجات بعضها فوق بعض، وإنّما تفاضل القوم بالأعمال»*[٢].

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٩، ١٠، ص ٢١٠.

٢. المصدر السابق.

وذكر المفسرون احتمالات متعددة لسبب حصول كل واحدة من هاتين الفئتين على جنّتين، وهذه الاحتمالات لا تتعارض فيما بينها ولعلّها ملخّصة في مفهوم الآية، ومن جملة ذلك أنّ إحداهما تشير إلىٰ الجنّة الروحية و لأخرى تشير إلىٰ الجنّة المادية أو أنّ لكل واحد من أهل الجنّة جنّتين، إحداهما عامّة لمقابلة الاصدقاء، والأُخرىٰ خاصة لمعاشرة الزوجات.

أو أن تكون إحداهما كثواب على العقيدة و لإيمان والأُخرى جزاءً للعمل الصالح.

أو أن تكون إحداهما جزاءً للعمل والأُخرى فضل من الله.

أو ربّما إحداهما جزاءً علىٰ طاعة الأوامر و لثانية ثواباً على اجتناب الذنوب!

ꕥꕥꕥ

ويمكننا أن نستخلص من مجموع ماذكر أنّ للجنّة مقامات ودرجات ومراتب ويمكن اعتبار كل واحدة منها جنّة، ولا شك إنّ اختلاف درجات أولياء الله في الدنيا يستوجب اختلاف مراتبهم في الجنّة، فجنّة المقربين تختلف عن جنّة أصحاب اليمين، وجنّة الذين يحتلّون الذُرىٰ في الورع والإيمان والمعرفة و عمل الصالح تختلف عن جنّة من هم في مراتب أدنىٰ.

ورغم عدم قدرة أذهاننا على استيعاب مواصفات أي منهما، إلّا أننا نعلم قطعاً أنّهما عالمان مختلفان، ولعل أهل المراتب الأدنىٰ في الجنّة لا يتمكّنون من معرفة أحوال العوالم الأرفع مكانة!

ينبغي الإشارة إلىٰ أنّ كلمة الجنّة قد وردت في القرآن الكريم أحياناً بصيغة المفرد الذي يحمل مفهوم اسم الجنس ويشمل جميع الحدائق والرياض في الجنّة، وأحياناً أُخرى بصيغة الجمع وهو مايشمل رياض الجنّة ودرجاتها ومراتبها المختلفة، وأحياناً بصيغة التثنية (جنّتان) وهو ما دلّ علىٰ درجتين مختلفتين، وقد سبق لنا شرحه.

ويتحدّث القرآن في بعض الأحيان عن خلود الجنّة ويستخدم عبارات من أمثال

«جنّات عدن» أو «جنّة المأوى» و«جنّة الخلد»، ويتناول في أحيان أُخرىٰ تبيان نعمها المادية والمعنوية المختلفة ويعبّر عنها بـ«جنّة النعيم». ويشير أحياناً أُخرىٰ إلى الرياض الفاخرة جدّاً فيها ويطلق عليها اسم «جنّة الفردوس».

يعبّر كل واحد من هذه الأوصاف الغنيّة عن واحد من أبعاد هذا المكان وهو مقرّ الرحمة الإلهيّة الكبرى، ودرجات القرب والوصال بالمحبوب الحقيقي:

«اللهم ارزقنا الجنّة بمنّك ورحمتك يا أرحم الراحمين»

ﮪﮪﮪ



٨ ـ أسئلة وأجوبة حول الجنّة

١ ـ هل أنّ التكرار يولد الملل؟

يعترض البعض قائلاً: إنّ ما يُستشف من الآيات والروايات يشير إلى أنّ النعم في الجنّة ونمط الحياة فيها يسير برتابة وعلى وتيرة واحدة، ونحن نعلم أنّ هذا الوضع ـ ولاسيما إذا استمر لمدّة طويلة ـ يثير الملل ويطفيء شعلة الشوق والحماسة والنشاط، لأنّ تكرار أجمل المشاهد وأحلى المناظر وأطيب الأطعمة يضفي عليها مسحة طبيعية ويجعل منها وضعاً عادياً، حتى أنّ الإنسان قد يلجأ أحياناً إلى أساليب حياتية أبسط أو أكثر مشقّة من أجل كسر طوق الرتابة والملل وممارسة التجديد والتنوع. وللاجابة عن هذا السؤال ينبغي الالتفات إلى ثلاث نقاط:

الأولى: يجب عدم تطبيق المقاييس والمعايير المادية والنفسية السائدة في هذا العالم على ذلك العالم، فلعل هذه الحالة النفسية الموجودة فينا وهي سرعة التعب والضجر واللامبالاة في هذا العالم قد تكون على العكس تماماً هناك، فكلما تكررت المشاهدة ازداد الشوق وتضاعفت الرغبة، ومع تزايد التكرار تزداد اللذة، فيكون التكرار مدعاة لمضاعفة اللذّة المعنوية والمادية.

فما هو الدافع الذي يجعلنا نتصور أنّ الوضع النفسي للإنسان في هذا المجال واحد هنا وهناك؟

الثانية: توجد في هذا العالم أيضاً نِعَمٌ لا يملّها الإنسان ولا يشبع منها، فنحن كلما تنفسنا هواءً طلقاً جديداً ومليئاً بالاوكسجين، لا نملّه ولا نضجر منه، بل نلتذ به ويثير فينا البهجة والارتياح، وكذلك الماء هذا المشروب البسيط فلو أننا عمّرنا مئات السنين يبقى شرب

الماء العذب عند العطش من أعظم اللذات بالنسبة لنا، وهذا هو معنى قولنا إنّ طعم الماء هو طعم الحياة، فلا يبعث فينا الملل ولا الضجر بل يبقى الماء العذب مستساغاً ولذيذاً في أفواه العطاشى.

فما المانع في أن يجعل الله لدى الإنسان حالة شبيهة بحالة العطش (العطش اللذيذ الخالي من الازعاج والأذى، مثل العطش للقاء المحبوب) لكي يلتذ الإنسان بواسطتها من النعم الروحية والجسمية الموجودة في الجنّة؟

ثالثاً: لما كانت ذات الله وصفاته غير متناهية، فلا شكّ أنّ مظاهره الروحية والمعنوية لا نهاية لأمدها، فهو يفيض عليهم في كل يوم بألطاف جديدة ويمدّهم في كل لحظة بهداية متجددة لا تكرار فيها ولا رتابة وهل يمكن أن يتكرر ما لا نهاية له؟

والنعم المادية هي من مظاهر رحمانيته ورحيميته، ولا حد لها ولا حصر.

فما المانع في أن تكتسب أنهار الجنّة وأشجارها وأزهارها وتلك الألوان والعطور وتلك الأشربة الطاهرة، لوناً وطعماً وشكلاً وعطراً جديداً في كل يوم وفي كل ساعة؟ فألوانها في حالة تبدل دائم وهي في تغيّر مستمر، تكتسي على الدوام بحلل جديدة بحيث لا يتكرر الطعام الواحد ولا المشهد الواحد على أهل الجنّة إلّا مرة واحدة طوال حياتهم فيها! (فياله من مشهد عجيب!).

هناك بعض الآيات القرآنية والروايات التي تؤكّد ما ورد في هذا الباب منها: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. (الرحمن / ٢٩)

وقد طرح المفسرون آراءً كثيرة متنوعة في تفسير هذه الآية ويشير كل واحدٍ منها إلى فعل من أفعال الله في مسألة خلق الناس وموتهم أو رزقهم وحياتهم أو عزّة ومذلّة الأمم والأقوام أو غفران الذنوب وكشف الهموم أو جلب النفع ودفع الضر، ولا شكّ أنّ لهذه الآية مفهوماً أوسع يشمل أي تغيير يطرأ على أوضاع العالم، ونظراً لانعدام الدليل على تخصيص هذه الآية في مجال الدنيا، بل وإنّ مجيئها بعد الآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. (الرحمن / ٢٦ ـ ٢٧)

يمكن اعتباره قرينة على استمرارية التغير والتبدّل في الدار الآخرة أيضاً، وأنّ أصحاب الجنّة كل يوم في شأن بإرادة الله.

وقد اطلق بعض المفسرين عبارة «كل يوم» وأعطاها عمومية أوسع لتشمل أيّام الدنيا والآخرة كليهما معاً[1].

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: *«إنّ الله خلق جنّة لم ترها عين ولم يطّلع عليها مخلوق، يفتحها الرب تبارك وتعالى كل صباح فيقول: إزدادي طيباً! إزدادي ريحاً»*[2].

وورد حديث آخر أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام: *«إنّ أهل الجنّة توضع لهم موائد عليها من سائر ما يشتهون من الأطعمة التي لا ألذّ منها ولا أطيب، ثم يرفعون عن ذلك إلى غيره»*[3].

تُظهر هذه التعبيرات وبكل وضوح أنْ لا رتابة في الحياة هناك، بل في كل لحظة نِعم وعطايا جديدة.

نختم حديثنا هذا بإشارة مقتضبة لأحد المفسرين حيث قال: «إنّ الآية تشير إلى تجلّي الحق في كل زمن فرد ونفس فرد على حسب المتجلّى له واستعداده ولا نهاية للتجلّيات»[4].

ولا شك في أنّ هذا الكلام لا يشمل كل مفهوم الآية، بل يعبّر عن جزء من مفهومها (فتأمل)!؟

٢ ـ أتعرف قيمة اللذة بفقدانها؟

من المعروف أنّ «الفقدان» يبرز أهمية «الوجدان» وبعبارة أخرى: أنّ النعم الإلهيّة والعطاء الربّاني يُعرف عند زواله، فلو لم يكن للمرض وجود في العالم لما عرف أحد قيمة الجوهرة الثمينة لنعمة السلامة، ولولا الخوف لما عرفت قيمة وأهمية نعمة الأمان.

وعلى هذا فالجنّة التي تخلو من الفقدان والخوف والمرض والتعب، ولا تعرف العوز

---

١. تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ٩٦.
٢. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٩٩، ح ١٩٨.
٣. المصدر السابق، ح ١٩٩.
٤. تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٣٠٠.

والقحط... الخ، لن تعرف قيمة كل هذه النعم وستُنسىٰ أهميّتها بالتدريج، ولن يكون هناك أي شعور باللذة.

والجواب عن هذا السؤال لا صعوبة فيه، لأنّ أهل الجنّة مشرفون على أهل النّار وبإمكانهم الاطلاع على أوضاعهم ومقارنتها بما هم عليه، وحين يرون هذا الفارق الشاسع يلتذّون بالنعم اللامتناهية التي يعيشون فيها

تطرّق القرآن الكريم مرّات عديدة إلى علاقة أهل الجنّة على أهل النّار، فجاء قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾. (الأعراف / ٥٠)

وفي سورة الصافات تحدّثت عدّة آيات منها عن هذا المشهد قائلة: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (الصافات / ٥٠-٥١، ٥٥-٥٧).

كما نقرأ أيضاً في سورة الأعراف: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف / ٤٤)

يُفهم من مجموع هذه الآيات أنّه لا أهل الجنّة يجهلون أوضاع أهل النّار، ولا أهل النّار محجوبون عن أحوال أهل الجنّة، فاطلاع أهل الجنّة يضاعف ما هُم فيه من السرور والنعمة لنجاتهم من ذلك العذاب الأليم، ويسعدون لما يرفلون فيه من النعمة والرفاه، وعلى العكس منهم أهل النّار إذ يتضاعف عذابهم عند إجراء مثل هذه المقارنة.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديث يقول: *«ما خلق الله خلقاً إلّا جعل له في الجنّة منزلاً وفي النّار منزلاً، فاذا سكن أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار نادى منادٍ: يا أهل الجنّة اشرفوا، فيشرفون على النّار وترفع لهم منازلهم في النّار ثم يقال لهم: هذه منازلكم التي لو عصيتم ربّكم دخلتموها، قال: فلو أنّ أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنّة في ذلك اليوم فرحاً*

لما صرف عنهم من العذاب، ثم ينادون: يامعشر أهل النّار ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى منازلكم في الجنّة فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم في الجنّة وما فيها من النعيم، فيقال لهم: هذه منازلكم التي لو أطعتم ربّكم دخلتموها...»[1].

وجاء في ذيل الرواية نص هذا المعنى بشأن أصحاب النّار حينما يرون منازلهم في الجنّة فيكادون يموتون من الحسرة والغيظ.

ونُقل في تفسير الدر المنثور حديث مشابه عن الرسول ﷺ ولكن بشكل مختصر[2].

إنّ وجود منزلين لكل إنسان يدل على الطبائع والاستعدادات الموجودة في كل إنسان بالقوّة، حيث يُحدّد منزله في الجنّة أو في النّار وفقاً لتلك الطبائع والاستعدادات، ولا يتنافى هذا مع ماذكرناه سابقاً من أنّه يبني تلك المنازل بعمله ويكملها من جميع الجوانب، ويخرج كل تلك الاستعدادات من حالة القوّة إلى حالة الفعل، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ أهل الجنّة لا ينسون أبداً ذكريات الدنيا، ويمكنهم معرفة قيمة وأهمية كل هذه النعم والفضائل من خلال مقارنة أوضاعهم الحالية مع ما كانوا عليه في الدنيا.

ذكرت الآيات ما يأتي: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾. (الطور / ٢٥ ـ ٢٧)

ويُظهر هذا التعبير أنّ أصحاب الجنّة يتذكرون معاناتهم في الدنيا وشقاءهم ويقارنون بينهما وبين ماهم فيه، ومن الطبيعي أنّ هذه المقارنة تُظهر لهم بوضوح عظمة النعم التي يتنعّمون بها.

٣ـ هل يوجد في الجنّة تكامل؟

رغم أنّ جواب هذا السؤال قد اتضح إجمالاً من خلال الإجابة عن السؤال السابق، لكن

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢٥، ح ٢٦

٢. تفسير الدر المنثور، استناداً لما ورد في تفسير الميزان، ذيل آيات سورة الأعراف

من الضروري هنا البحث عن جواب أوسع. فنقول: نعم إنّ التكامل موجود هناك قطعاً ولا يبقى أهل الجنّة يراوحون في أماكنهم، بل هم يقتربون -بفضل الله ولطفه ورحمته- نحو ساحة قدسه يوماً بعد يوم، ويواصلون سيرهم في التقدم صوب القرب إلى الله.

وليس مفهوم هذا الكلام وجود العبادات والطاعات والأعمال هناك. لأنّ الجنّة ليست دار التكليف، فالمقوّمات الأوّلية للتكليف معدومة هناك، بل هم يواصلون مسيرتهم التكاملية في ظل أعمالهم المنجزة في الدنيا. تماماً كالأشجار المثمرة التي يغرسها الإنسان مرّة واحدة، فتمتد جذورها وتخرج منها فروع وأغصان هنا وهناك حتّى تعم السهول والصحاري، أو كسفينة الفضاء التي تحتاج في بداية انطلاقها وخروجها عن مجال جاذبية الأرض إلى طاقة عظيمة، ولكنها بعد الخروج من هذا المجال تواصل حركتها -إذا لم تصطدم بمانع- من غير حاجة إلى أي وقود جديد.

وهناك آيات قرآنية تشير إلى هذه القضية، وتتحدث عن أصحاب الجنّة كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾. (مريم / ٦٢)

ويتضح جلياً من خلال الآيات السابقة لهذه الآية أنّ هذا الوصف ينطبق على جنّة الآخرة التي عبّرت عنها بكلمة ﴿جنّات عدن﴾ لا على جنّة البرزخ، وهنا يتبادر سؤال إلى الأذهان وهو إذا كانت الآيات الشريفة تشير إلى أنّ أهل الجنّة لهم فيها ما يشتهون في أي وقت وزمان، فما هي هذه العطايا والفضائل التي تُمنح لهم في كل بكرة وعشيّ؟

من المؤكد أنّها فضائل وأرزاق ماديّة ومعنوية تقدّم لهم في هذه الأوقات، إضافة إلى رفعهم نحو درجات أسمى وأعلى.

و ورد حديث عن النبي ﷺ يلقي الضوء على هذا الموضوع يقول فيه: «*وتأتيهم طُرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلّون فيها في الدنيا، تسلّم عليهم الملائكة*»[1]. وهنا يثار سؤال آخر تُفرزه تعابير الآية، فحينما لا وجود لليل ولا نهار في الجنّة فكيف تكون هناك بكرة وعشيّاً؟

---

[1] تفسير روح المعاني، ج ١٦، ص ١٠٣؛ وتفسير القرطبي ج ٦، ص ٤١٦٦، ذيل الآية مورد البحث.

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال كما يأتي:

إنّ الجنّة وإن كانت مضيئة بالنور دائماً إلّا أنّ ذلك ليس على وتيرة واحدة على الدوام بل هو في حالة توهّج وخفوت يتيح لأهل الجنّة تحديد الليل من النهار تماماً مثل المناطق القطبية التي تمر عليها ستّة أشهر كاملة والوقت فيها نهار، إلّا أنّه يمكن تحديد الليل والنهار من خلال زيادة ونقصان درجة النور.

وبالنظر لاستعصاء هاتين القضيتين (قضية الرزق الجديد وقضية البكرة والعشي) على الكثير من المفسرين، فقد طرحوا بشأنها آراء وتبريرات متعددة تتعارض في الغالب مع ظاهر الآية ككونها كناية عن دوام النعمة، حيث كان من المتعارف بين العرب أنّ من يملك طعام الصباح والمساء (البكرة والعشي) يُعتبر غنياً. أو أنّ النعم الإلهيّة تأتيهم متوالية وبفواصل زمنية تعادل الليل والنهار في هذه الدنيا.

ومن الواضح أنّ جميع هذه الآراء تخالف ظاهر الآية، أليس من الأفضل القول بوجود نوع من الليل والنهار الحاصلين من خلال اشتداد وانخفاض درجة الضياء ووجود نوع من الرزق مُستمد من فضل الله وألطافه ومبشّر بطيّ مسيرة التكامل، بحيث ينطبق مع ظاهر الآية أو لا يتعارض معه كثيراً؟!

وهناك حديث نُقل عن النبي ﷺ أنّه قال: *«والذي أنزل الكتاب على محمد إنّ أهل الجنّة ليزدادون جمالاً وحُسناً كما يزدادون في الدنيا قباحةً وهرماً»*[١].

وهذا الحديث يُظهر بوضوح التكامل التدريجي لأصحاب الجنّة وإن كانت فيه إشارة إلى الجوانب الجسمانية فقط، لكن من البديهي أنّه يتضمن أيضاً الأبعاد الروحية من باب أولى.

ﷺ

١. علم اليقين، ص١٠٢٣. (استناداً على مانقله في المحجة كلام علمي).






النّار

١ ـ من هم أصحاب النّار
٢ ـ ماهية جهنّم
٣ ـ أبواب جهنّم وطبقاتها
٤ ـ العذاب الجسديّ لأصحاب النّار
٥ ـ العذاب الروحي
٦ ـ خلود العقاب






١ ـ من هم أصحاب النّار؟

تمهيد:

رغم أنّ القاعدة تستوجب التحدّث أولاً عن ماهية النّار وأوصافها ومن ثم الانتقال إلى الحديث عن أصحاب النّار، ولكن بما أنّ أسلوب القرآن وسنّته قد دأبا على التركيز أكثر مايمكن على الأبعاد التربوية والنتائج الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية في مثل هذه البحوث، فإننا ـ واتباعاً لهذا النمط الإيجابي ـ سنبدأ أوّلاً بمن يستحق هذه العقوبة العظمى حتّى نقف على منطق الإسلام في هذا الصدد من خلال استقراء الآيات التي تتحدث عن أصحاب النّار.

كثيرة هي الآيات الواردة بشأن أهل النّار وسوف نأتي بمثال عن كل قسم ونأتي بشاهد ومصداق عن كل موضوع.

و يتّضح بجلاء من خلال مضامين هذه الآيات أيضاً تفاوت الذنوب ودرجات قبح المعاصي.

بعد هذه المقدمة الوجيزة نعود إلى القرآن كي نلاحظ الأقسام المختلفة لأصحاب النّار في ضوء ما ورد في الآيات القرآنية.

ﮋﮊ

١ ـ الكفّار والمنافقون

إنّ أول فئة تأخذ طريقها إلى النّار هم الكفار والمنافقون، يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ (النساء / ١٤٠)

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ﴾. (التوبة / ٤٩)

وجاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾. (النساء / ١٤٥)

وفي الحقيقة أنّ أهم وأوسع مصدر للمعاصي والذنوب هو الكفر والنفاق وعدم الإيمان، لأنّ الإنسان إذا لم تشرق أعماق نفسه بنبراس الإيمان ولم يتطهر من الشرك والكفر والنفاق فلن تكون لديه أيّة دوافع نحو عمل الخير وستتغلب عليه النزعات المادية والشهوانية فقط، ولا يخفى على أحد طبيعة الظواهر الناتجة عن سيطرة مثل هذه الدوافع، فنحن نرى أمثلة منها في الجرائم التي يرتكبها المجرمون في عالم اليوم.

«الكفر»: يعني تغطية الحق، و«النفاق» يعني التظاهر بعكس ما يبطن (التظاهر بالإيمان واستبطان الكفر)، وهما أهم الموانع في طريق الإصلاح في المجتمعات الإنسانية، لذلك ركّزت الآيات المتعلّقة بالجنّة والنّار على هاتين الفئتين.

٢ـ الصد عن سبيل الله

يُقسّم القرآن الكريم الناس من زاوية موقفهم من الرسول ﷺ والآيات القرآنية إلى فريقين، فيقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾. (النساء / ٥٥)

وقد أكثرت الآيات الشريفة من التهديد والوعيد لهذا الفريق ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾، وهو الفريق الذي لا يضل نفسه فقط بل ويعمد إلى إضلال جميع الناس، وكأنّه يجد لذّته في هذا العمل، بل ويرى مصالحه اللامشروعة في كفر الناس وعدم إيمانهم، وذلك لأنّ المجتمع المؤمن المعتقد بالقيم الإلهيّة السامية لا يخضع أبداً للفراعنة وشياطينهم وأحزابهم، فالطريقة الوحيدة إذن للتسلّط على أيّ مجتمع تكمن في سلب جوهر الإيمان من قلوب أبنائه، وتاريخ الشعوب حافل بأمثال هذه المساعي المحمومة لهذا الفريق من أجل إضلال الناس، واليوم أيضاً تنصبُّ جهود جميع الدول والمؤسسات الاستكبارية في

العالم على سلب الشعوب إيمانها بالله وبالقيم الربانية حتّىٰ لايكون ذلك عائقاً أمام تحقيق أهدافهم وخدمة مصالحهم.

ﮢﮣ

٣ـ ترك طاعة الله وشق عصا المسلمين

جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾. (الجن / ٢٣)

وينص القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾.

(النساء/ ١١٥)

كلمة «يشاقق» مأخوذة من *(الشقاق)* وتعني المخالفة العمدية المصحوبة بالعداوة، وتدل جملة ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ أنّ مخالفته نابعة من العناد وتهدف إلى إيجاد الفرقة بين صفوف المسلمين.

ﮢﮣ

٤ ـ الاستهزاء بآيات الله

بالنظر لأنّ الاستهزاء بآيات الله يحمل دلالة على الكفر وعدم الإيمان والكفر من موجبات دخول النّار، لذلك فإنّ الآيات القرآنية أكدّت عليه كثيراً واعتبرته أحد الأسباب الأساسية التي تنتهي بالانسان إلى النّار، وهذا ما عبّرت عنه الآية الشريفة: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾[١]. (الكهف / ١٠٦)

إنّ الاستهزاء بالحق نابع ـ كما هو متعارف ـ من الجهل والعناد والتعصّب والكفر المقرون بالبغض والعداوة، وكل واحد من هذه المفاهيم باب من أبواب جهنّم، لهذا فلا عجب أن

١ـ ورد ما يشابه هذا المعنى في الآيتين ٩، ٣٥ من سورة الجاثية.

ينتهي مصير المستهزئين ـ الذين كان الأنبياء وأولياء الله في صراع معهم ـ إلى جهنّم أو أدنى دركات الجحيم

ﻫﻫ

٥ ـ عدم الاستفادة من العقل والعين والأذن

والفريق الآخر الذي يستحق دخول جهنّم هم الذين اغلقوا على أنفسهم أبواب المعرفة، فعطلوا العقل الذي منحه الله لهم، وأغمضوا أعينهم، وسدوا آذانهم حتّىٰ لا يسمعوا صوت الحق ولا يروا وجه الحقيقة الناصع، ولكي لا يفكّروا بما يوجب الوعي واليقظة، تقول الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾. (الأعراف / ١٧٩)

ومن الواضح أنّ هذا الخلق ليس جبرياً، وما يقوله بعض انصار مذهب الجبرية مثل «الفخر الرازي» ومايستدلّون به لإثبات مذهبهم، عارٍ عن الصحّة تماماً، وذلك لأنّ جوابه قد ورد ضمن الآية التي يقول تعالىٰ فيها إنّنا وفّرنا لهم جميع مستلزمات المعرفة (كالعقول لإدراك المعقولات، والعيون لمشاهدة القضايا المحسوسة، والآذان لنيل العلوم النقلية) إلّا أنّهم لم يستعملوا تلك المستلزمات ولم يستفيدوا منها (تأمل)؟! ولهذا يقول في وصفهم أنّهم كالحيوانات بل أدنى منها درجة، وذلك لأنّ الحيوان إنْ قصّر عن فهم شيء فذلك ليس تقصيراً منه، بل لعدم امتلاكه لمستلزمات ذلك، والأضل من الحيوانات هو من يمتلك كل هذه الأسباب والعوامل مع توفّر الظروف اللازمة ولكنه لا يستفيد منها، والعامل الأساس لكل هذه الأمور هو الغفلة التي أُشير إليها في ذيل الآية ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾، وجاء نظير هذا المعنىٰ في سورة الملك، خلال إجابة أهل النّار عن تساؤلات خزنة النّار وملائكة العذاب: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾. (الملك / ١٠)

إنّ علل كل هذا الشقاء الذي يرزح فيه الإنسان وسبب كل هذه المفاسد يكمن في عدم

استخدام ابن آدم لعقله وأُذنيه وعينيه ولا يستعمل هذه النعم الإلهيّة الكبرىٰ في سبيل المعرفة. فالله تبارك وتعالىٰ قد حباه تلك النعم ومستلزمات المعرفة وأسبابها فهو ـ أي الإنسان ـ يمتلكها ولكنه لا يستفيد منها.

٦ـ اتباع الشيطان

ومن العوامل المهمّة في دخول النّار (مركز الغضب الإلهي) هو الاستسلام للشياطين والانقياد لإرادتهم وتسليم زمام الأُمور لهم، كما تصف ذلك الآية الكريمة: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾. (الأعراف/ ١٨)

ومع أنّ الآية تتحدث عن رأس الشياطين إبليس، إلّا أننا نعلم أنّ خط الشياطين كلهم واحد، فهم في كل مكان يسيرون علىٰ خُطىٰ ابليس، واتّباع خُطىٰ شياطين الجن والانس يُعد اتباعاً لإبليس، ومصير كل هؤلاء الأتباع دخول النّار.

فهم يخدعون من يتبعهم بالآمال الكاذبة وتزيين الشهوات والدعوة إلى المعاصي، والصد عن الخير والتشجيع علىٰ الانحراف، ويصدونهم عن سبيل الله، فيوقعونهم في نار قهره وغضبه [1].

٧ـ الطغيان والتكبر

إنّ «التكبّر» من أسباب دخول النّار، سواء كان التكبر على الله سبحانه وتعالى أم على الخلق، أم عدم الاذعان والتسليم للحق، والطغيان أيضاً مصدر رئيس للكثير من الجرائم والمظالم وسلب الحقوق، لذلك فهو يؤدّي بالإنسان ـ كما هو الحال في التكبر ـ إلىٰ دخول النّار.

١ـ ورد مضمون هذا المعنىٰ في الآية ٢١ من سورة لقمان، وأيضاً الآية ٢٢ من سورة ابراهيم.

يقول القرآن الكريم: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾. (الزمر / ٦٠)

ويقول كذلك: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1]. (الأعراف / ٣٦)

وكذلك جاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن الكريم في وصف الجبّار العنيد: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾

(إبراهيم / ١٥ ـ ١٦)

لكلمة «الجبار» معانٍ متعدّدة منها: القهر والتسلط والعلة والعلو، إلّا أنّ لهذا الأمر جانباً رحمانياً أحياناً، مثل سلطة الله على عالم الوجود وعلى كل شيء فيه، وله أحياناً جانب شيطاني، كسلطة وعلة الطغاة والمتجبّرين.

و«العنيد»: على حد قول صاحب كتاب لسان العرب: «الجائر عن القصد الباغي الذي يردّ الحق مع العلم به». وكل هذا من نتائج الكبر والغرور والتعالي، ولو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أنّ هذه الرذيلة الأخلاقية هي واحدة من أهم الحُجب المانعة للمعرفة ومن عوامل إضلال الإنسان، وسلب حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، وأنواع الذنوب الأخرى[2].

❀❀❀

٨ ـ الظلم والجور

ورد في الكثير من آيات كتاب الله تهديد الظلمة بنار جهنّم، والتعابير التي وردت بشأنهم قلّما وردت بشأن فئة أخرى، وهذا يعكس مدى الأهميّة التي أولاها الإسلام لمواجهة الظلم والحث على التخلي عنه. وقد وردت أشدّ التهديدات في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ

---

١. ورد شبيه هذا المعنى في الآيات ٦٠، ٧٢، ٧٦ من سورة غافر؛ والآيتين ٤٠، ٤١ من سورة الأعراف؛ والآيتين ٢١، ٢٢ من سورة النازعات؛ والآيتين ٥٥، ٥٦ من سورة ص.

٢. ورد مايشابه هذا التعبير في الآية ٢٤ من سورة ق؛ والآية ١٦ من سورة المدّثر.

بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾. (الكهف / ٢٩)

وهناك تعبير آخر شديد اللهجة أيضاً ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾. (الجن / ١٥)

ويبيّن هذا التعبير أنّ نار جهنّم تستعر في داخل نفوسهم، وكما كانوا في هذه الدنيا ناراً محرقة للمظلومين، يتحول كيانهم هناك في عالم تجسد الأعمال إلى قطعة من نار، ولا تعبير أبلغ وأفصح من هذا التعبير بشأن القوم الظالمين[١].

٨٠٣

٩ـ الركون إلى الظالمين

ليس الظلم وحده يؤدّي إلى ورود جهنّم المتوقدة بنار الغضب الإلهي، بل الركون إلى الظالمين وإعانتهم يؤدّي إلى ذلك أيضاً ـ كما صرح بذلك القرآن الكريم ـ وقد جاء في الآية الشريفة ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (هود / ١١٣)

كلمة «تركنوا» مشتقة من مصدر (الركون) والذي يعني في رأي أصحاب اللغة الاتكال على الشيء والميل إليه، وهو مايستلزم اتصافه بالقوة والمقدرة، لأنّ الإنسان يتوكّل ويعتمد على ما فيه القدرة، ولذلك تطلق كلمة «الركن» على العمود أو الجدار الذي يُقام عليه البناء أو الأشياء الأخرى[٢].

وتحمل الآية أعلاه عنواناً عاماً يطلق على كل الظلمة، وتشتمل أيضاً من خلال تعبير «الركون» على أيّ نوع من أنواع الارتباط والاعتماد على الظالمين، وتقول إنّ الجميع سيقعون في نهاية المطاف في قبضة العذاب الإلهي، بل وإنّهم حتّى في هذه الحياة الدنيا لا

---

١ ورد نفس هذا المعنى في سورة سبأ، ٤٢؛ الزخرف، ٦٥؛ آل عمران، ١٥١؛ المائدة، ١٢٩؛ إبراهيم، ٢٢؛ مريم، ٧٢؛ الأعراف، ٤١؛ الأنبياء، ٢٩؛ والشورى، ٤٥.

٢ مصباح اللغة؛ صحاح اللغة؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

يجنون غالباً سوى الفشل والخسران والشقاء، لأنّ الظالم حين يقوى لا تـأخذه رأفـة ولا رحمة على غيره.

وعلى أيّة حال، فإذا كان الركون الذي يُعتمد عليه سبباً لمثل هذا الشقاء فمن البـديهي ـومن باب أولى ـ أن تكون تقوية الظلمة وإعانتهم سبباً لدخول الإنسان النّار، ولهذا السبب فقد شدّدَ القرآن في النهي، وبكل صراحة، عن أي تعاون ومسـاعدة عـلى الظـلم، وقـال: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾. (المائدة / ٢)

وقد أنذرت الروايات الإسلامية بأشد الغضب والجزاء لمن يكون سبباً في تقوية وتعزيز الظالم بأي شكل من الأشكال، حتى فيما لو وضع بين يديه القلم أو الدواة لكتابة حكم فيه أي ظلم، وسنأتي على تبيان ذلك بإذن الله في الموضع المناسب.

٭٭٭

١٠ ـ نسيان الآخرة

تتحدث سورة الجاثية عن هذا الجانب وتقول: ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (الجاثية / ٣٤)

لا شك في أنّ نسيان محكمة العدل الإلهي في يوم القيامة يعتبر مصدر أنواع الذنـوب والمعاصي، والانغماس في مستنقع الظلم والرذيلة والفساد، وهذه الأعمال تـؤدّي إلى أن يعاملهم الله معاملة الناسين، ولا شك أنّ احاطة الله بكل شيء وعلمه بكل شيء وفي كـل زمان تجعل من مفهوم نسيانه أمراً لا معنى له، لكنه يعامل الناسين معاملة النسيان، أي أنّه يقطع عنهم بالكامل لطفه ورحمته، فتغلق عليهم كل سبل النجاة، ولا يبقى أمامهم سـوى هاوية جهنّم [١].

٭٭٭

١. ورد نفس هذا المعنى في سورة طه، ١٢٦؛ السجدة، ١٤.

١١ ـ حبّ الدنيا

حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، ومن العوامل المهمّة في إلقاء الكثير من الناس في نار جهنّم، كما صرّح بذلك قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ (الاسراء / ١٨)

أي إنّ الأمر ليس بهذه الدرجة من البساطة بحيث ينال أهل الدنيا كل مقاصدهم منها، بل قد يلجأون إلى الآف الحيل والمساعي، بل ويضطرون إلى ارتكاب الجرائم والمعاصي من أجل بلوغ بعض من أغراضهم، لكن جهنّم لهم بالمرصاد، فتحرق أجسادهم وأرواحهم أيضاً بحكم كونهم «مذمومين» و «مدحورين» ومطرودين من رحمة الله [١].

***

١٢ ـ اكتناز الذهب

إنّ اكتناز الذهب وإن كان يُعَدُّ واحداً من مظاهر حب الدنيا، لكن القرآن الكريم قد أكّد عليه وخصّه بالذكر باعتباره واحداً من الأسباب التي تؤدّي ببني آدم إلى دخول نار جهنّم، حيث قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [٢] (التوبة / ٣٤ـ٣٥)

تحتوي هذه الآية على نقاط وبحوث متعددة سنشير إليها في موضعها المناسب، أمّا ما ينبغي الإشارة إليه هنا فيتلخّص في نقطتين:

الأولى: إلى أي حدّ يُعتبر جمع الثروة اكتنازاً؟ وهذا الموضوع مُختلف فيه كثيراً بين المفسّرين، وما ورد في الكثير من الروايات عن الشيعة وأهل السنّة، واتّفقت عليه آراء الكثير من المفسّرين هو، أنّ المال الذي تؤدّى زكاته لايعتبر كنزاً (أيّ مال أدّيت زكاته فليس بكنز) [٣].

---

١ ورد نظير هذا المعنى في سورة النازعات ٣٨.

٢ ورد نفس المعنى في سورة الهمزة، ٣ إلى ٦؛ وسورة مسد، ٢ ـ ٣؛ وسورة الحاقة، ٢٨ إلى ٣١.

٣ لمزيد من الايضاح راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٣٥ من سورة التوبة.

ولكن في الظروف الاستثنائية وحين توجب مصالح المجتمع الإسلامي على الحكومة الإسلامية تعيين حدود جمع الثروة ـ كما ورد في بعض الروايات عن علي عليه السلام ـ أو يكون الاجراء أبعد من ذلك فيعلن في ظرف خاص عن وجوب صرف جميع المدّخرات والذخائر حفاظاً على وجود المجتمع الإسلامي (كما ورد في بعض الروايات بشأن قيام الإمام المهدي«عج») لكن لا تُعتبر النقاط المذكورة قاعدة عامّة. والقاعدة العامة الأساسية هي ماذكرنا في بداية الموضوع.

الثانية- لماذا تقول الآية تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم؟ لعلّ ذلك يعود إلى ردود الفعل التي تصدر منهم تجاه المحرومين والفقراء فهم أولاً يعبّسون ويقطّبون الجبهة، ومن ثم يظهرون اللامبالاة فيصدّون عنهم ومن بعد ذلك يديرون لهم الظهور. ولذلك تكوى بالترتيب جباههم ثم جنوبهم ثم ظهورهم بنفس تلك المسكوكات كما كانوا يكوون قلوب المساكين والفقراء.

١٣ ـ الفرار من الزحف

نحن نعلم أنّ الإسلام يعتبر هذا الذنب من أكبر الذنوب فهو يؤدّي إلى انحدار وذلّة وشقاء المسلمين ويستوجب أشد العقوبات وهنا يصرح القرآن ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الانفال / ١٥ـ١٦)

«الزحف»: وفقاً لرأي أصحاب اللغة [١] يعني في الأساس الحركة المصحوبة بجر الأرجل على الأرض كحركة الطفل في بداية تعلمه للمشي، أو كسير الجمل عند شدّة التعب ثم استعملت هذه الكلمة لتعني حركة المجاميع الكبيرة من الناس لأنّهم يبدون لكثرتهم وكأنّهم ينزلقون على الأرض في مشيهم ويتقدمون نحو الإمام.

١. مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

وعلى أية حال، تحمل هذه الجملة إشارة إلى أنّ قوّة العدو مهما كانت كبيرة فلا ينبغي التراجع أمامها أو الفرار من ساحة المعركة عند المواجهة، إلّا بأمر القائد.

ومن الواضح أنّ حرمة الفرار من الزحف يعتبر قانوناً إسلامياً عاماً، وأمّا قول بعض المفسرين الذين اعتبروه خاصاً بمعركة بدر دون سواها فهو قول لا دليل على صوابه كما أُشير إليه في تفسير الميزان [1]، ولا سيما أنّ هذه الآية قد نزلت بعد معركة بدر [2]. إذن فالفرار من الجهاد من موجبات دخول النّار.

٭٭٭

١٤ـ قتل الأبرياء

إنّ الإسلام يكنّ احتراماً كبيراً لدماء الناس إلى درجة اعتبر معها قتل الواحد وكأنّه قتل لجميع الناس: ﴿مَن قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾. (المائدة / ٣٢)

واعتبر إراقة دم المؤمن تستحق الغضب الإلهي والعذاب العظيم: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾

(النساء / ٩٣)

وبهذا فقد أُنذر قاتل المؤمن بأربع عقوبات كبرى وهي: ١ـ الخلود في جهنّم، ٢ـغضب من الله، ٣ـلعنة من الله، ٤ـالعذاب العظيم، وهذا أقصى ما أظهره الإسلام إزاء احترام دم المؤمن، لأنّه لا يوجد في القرآن أي موضع يشتمل على مثل هذه العقوبة [3].

٭٭٭

---

١. تفسير الميزان، ج ٩، ص ٣٧

٢. ورد ما يشابه هذا المعنى في بعض جوانبه في الآية ٨١ من سورة التوبة

٣. ورد نفس المعنى بصيغة أُخرى في الآية ٢١ من سورة آل عمران

١٥ ـ ترك الصلاة

تحظى الصلاة بقدر عظيم من الأهمية، وقد وردت بشأنها الكثير من الآيات والروايات التي تشيد بمكانتها وخاصة في الكتب الإسلامية الشهيرة، وعدّ القرآن الكريم ترك هذه الفريضة من موجبات الهلاك ودخول النّار، حيث يقول في وصف جماعة من أصحاب الجنّة يحادثون جماعة من أصحاب النّار فيقولون لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ فيأتيهم الجواب ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المدثر / ٤٢ ـ ٤٦)

ورغم وجود ثلاثة ذنوب أُخرى في الآية أعلاه إضافة إلى ذنب ترك الصلاة، لكن التركيز عليها وجعلها في البداية يعكس مدى خطورة ترك هذه الفريضة الإلهيّة، إضافة إلى أنّ أيّاً من هذه الأمور الأربعة كاف لوحده لإلقاء الإنسان في النّار (ويبدو أنّ المقصود من عدم إطعام المسكين هو منع الحقوق الواجبة).

وللصلاة من وجهة نظر الإسلام مكانة رفيعة، ونقلت بعض الروايات المعروفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله منها *«إذا كان يوم القيامة يدعى بالعبد فأول شيء يسأل عنه الصلاة فاذا جاء بها تامة وإلّا زخّ في النّار»*[١].

ولعل السبب الكامن وراء ذلك هو أنّ الصلاة هي الشريان النابض بالإيمان، منها ينبع الإيمان وبها يتواصل ويستمر، وبتركها تتزعزع أركان الدين والإيمان، ولا يخفى أنّ أحد شروط قبول الأعمال، وجود الإيمان، فلا يقبل عمل إلّا بوجوده.

٭٭٭

١٦ ـ عدم إيتاء الزكاة

الزكاة من أركان الإسلام الأساسية وتركها من أكبر الذنوب وتلاحظ أنّ القرآن قد جعل منعها في مصاف الشرك وتكذيب المعاد، وهذا يعني أنّها من دواعي دخول النّار، حيث

---

١. وسائل الشيعة، ج ٣، كتاب الصلاة، الأبواب ٦ و ٧ و ٨ ومقدمة ص ٢٢، ح ١٠، ص ١٩، ح ٦.

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾. (فصلت / ٦ ـ ٧)

اثارت هذه الآية جدلاً واسعاً بين المفسرين، وطرحوا احتمالات متعددة في تفسيرها وكان الدافع لذلك كونها من فروع الدين فكيف يصبح تركها دلالة على الكفر والشرك؟

يبدو أنّ البعض قد جعل منها معياراً، فقال: إنّ عدم ايتاء الزكاة حتّى وإن لم يقترن بإنكار حكمها يعتبر مؤشراً ذاتياً على الكفر، وقال البعض الآخر: إنَّ عدم ايتائها لايُعتبر كفراً لوحده، وإنّما يكون كذلك إذا اقترن بانكارها لأنّ وجوب الزكاة من ضروريات الإسلام ومنكرها كافر.

والنقطة التي تُهمنا على توضيح تفسير الآية هي المكانة الخاصة التي تميّز الزكاة من بين التعاليم الإسلامية، فأداؤها يعني الاعتراف بالحكومة الإسلامية ومنعها يدل على التمرد ومناهضة الحكومة، وكما نعلم فإنّ القيام ضد الحكومة الإسلامية موجب للكفر.[1]

وقد سبقت الإشارة إلى الآية ٣٥ من سورة التوبة والتي تتحدث عن اكتناز الذهب والفضة وهي من الآيات الدالّة على أنّ ترك دفع الزكاة من أسباب دخول النّار

***

١٧ ـ أكل مال اليتيم

أكل مال أيّ شخص كان، وبلا مجوز شرعي، حرام، لكن هذا الحكم يتأكد أكثر بالنسبة لليتامى، وذلك لحاجتهم الشديدة من جهة، وفقدانهم الولي من جهة ثانية، وعدم إمكانية الدفاع عن أنفسهم من جهة ثالثة، وهذا مايخرج القضيّة عن وضعها الطبيعي ويعطيها بُعداً استثنائياً.

و لهذا السبب هناك آيات قرآنية كثيرة مليئة بالوعيد والعذاب الشديد لمن يأكل أموال اليتامى ظلماً، فها هي الآية الشريفة تصرّح: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا

---

١. ورد شرح هذه القضية بالتفصيل في التفسير الأمثل ذيل الآيات ٦ ـ ٨ من سورة فصلت.

يأكُلُونَ في بُطُونِهِم ناراً وَسَيَصْلَونَ سَعِيراً ﴾ (النساء / ١٠)

وورد في الروايات عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «*شرّ المآكل أكل مال اليتيم ظلماً*»[١]

ولكن هل أنّ التعبير القرآني في عقوبة آكل مال اليتيم جوراً بأنّه يأكل ناراً، هو تعبير مجازي؟ قال جماعة من المفسّرين بإمكانية حمله على المعنى الحقيقي لأنّ هذا التعبير يظهر أنّ لأعمالنا صورة باطنية إضافة إلى الصورة الظاهرية، وأنّ تلك الصورة خافية عنّا في هذا العالم وتظهر في يوم القيامة، ومسألة تجسد الأعمال نابعة من هذا الموضوع، وعلى هذا فلا يُستبعد حمل الآية على معناها الحقيقي (فتأمل).

٨٠٠٣

١٨ ـ أكل الربا

وهذا العمل أيضاً من الأعمال التي وعد القرآن مرتكبيها بعذاب جهنّم حيث يقول: ﴿ فَمَنْ جاءَهُ مَوعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وأَمْرُهُ إلى اللهِ وَمَنْ عادَ فأُولَئِكَ أَصحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴾ (البقرة / ٢٧٥)

وجاء ما يُشبه هذا المعنى في الآيتين اللتين تهددان كذلك آكلي الربا بعذاب النّار وتصفانه بأنّ له نفس العذاب الذي ينتظر الكافرين: ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضعافاً مُّضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ * وَاتَّقُوا النّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلكافِرِينَ ﴾.

(آل عمران / ١٣٠ ـ ١٣١)

فعندما يعلن المرابون العصيان على الله، و يعلن هو جلّ شأنه الحرب عليهم فمعنى هذا أنّهم قد تنزّلوا إلى مستوى الكافرين، وهذا تعبير رهيب في وصف هذه المعصية الكبيرة.

نستشف من بعض الروايات أنّ الربا محرّم في جميع الكتب السماوية وفي جميع شرائع الأنبياء، كما تنص هذه الرواية التي وردت في فقه الرضا ﷺ: «*وهو محرم على لسان كلّ نبيّ وفي كلّ كتاب*»[٢].

١. بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٢٦٧، ح ١

٢. فقه الرضا ﷺ، طبقاً لنقل مستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٣٣١، ح ٧

١٩ ــ كفران النعم الإلهيّة

وهذا أيضاً من الذنوب الكبيرة التي يُجازى عليها بعذاب النّار حيث قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ (إبراهيم / ٢٨ ــ ٢٩)

أمّا ماهو المقصود هنا بالنعم الإلهيّة؟ قال جماعة من المفسرين ــ وانطلاقاً من بعض الروايات الواردة في المصادر الإسلامية ــ إنّ النعمة هي وجود النبي الكريم ﷺ ، ونقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: *«نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده وبنا يفوز من فاز»*[١].

كلمة «نحن» تشير إلى كل بيت النبي ﷺ ، وإن كانت إشارة إلى المعصومين عليهم السلام فهي تشمل النبي من طريق أولى، وتتضح مدى أهميّة هذه النعمة فيما لو التفتنا إلى حديث الثقلين وماله من مكانة، وعلى أيّة حال فإنّ وجود النبي ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام وإن كان يُعدّ من أكبر النعم الإلهيّة، فلا يمكن حصر مفهوم هذه الآية في هذا النطاق، والظاهر أنّها تضم جميع النعم الإلهيّة الكُبرى.

وقد أشار بعض المفسّرين إلى الكافرين بالنعمة الإلهيّة الكُبرى وقالوا: إنّهم بنو أميّة، أو بنو أميّة وبنو المغيرة، أو عموم الكفّار في عصر النبي ﷺ ولكن هذا من قبيل ذكر المصداق أيضاً لا من باب الحصر.

وفي جميع الأحوال ينبغي شكر النعم الإلهيّة الكبرى والاستفادة منها ما أمكن وعلى أفضل وجه، وإذا استبدل الشكر بالكفران ستوجب عذاب جهنّم[٢].

٢٠ ــ المطففين

وقد أكّد القرآن على عذاب هؤلاء تأكيداً خاصاً، وأولى هذه القضيّة أهميّة استثنائية،

---

١ تفسير علي بن إبراهيم، ج ١، ص ٣٧١

٢ جاء في تفسير الميزان، هذه الآية فيها تقدير وهو كما يلي: بدّلوا شكر نعمة الله كفراً.

حتى أنّ اسم احدى السور هو «المطففين» وقد جاء في مستهلّها ﴿وَيلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ * لِيَومٍ عَظِيمٍ..كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾

(المطففين / ١ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٧)

قال بعض المفسّرين: إنّ «الويل» يعني شدّة عذاب القيامة، وقال آخرون: إنّها اسم وادٍ خاص في جهنّم [1].

وجاء أيضاً في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «*لم يجعل الله الويل لأحد حتّى يسمّيه كافراً، قال عزّ وجلّ: فويل للذين كفروا...*» [2]

وورد أيضاً في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «*ويل وادٍ في جهنّم يهوي فيه الكافر*» [3]

ويفهم من هذه التعابير أنّ التطفيف ـ أي عدم ايفاء الميزان في البيع ـ يصل حدّ الكفر أو هو نوع من الكفر.

وكلمة «*ويل*» لها معنىً لغوي واسع، يرادف الشر والغم، والهلاك أو العذاب الأليم، وما ذكر آنفاً يمكن أن يكون مصداقاً لذلك.

وممّا يسترعي الانتباه أنّ ألفاظ الآية وإن كانت تخصّ المطففين للمواد القابلة للوزن والكيل لغرض البيع والشراء، إلّا أنّه لا يُستبعد أن تتسع الآية لما هو أبعد من ذلك لتشمل كل من يقصّر في تأدية واجباته الدينية والأخلاقية والاجتماعية وذلك لأنّ كل من يقصر في أداء واجبه وينتقص من عمله يُعتبر في الحقيقة مُطفّفاً.

ولهذا نُقل عن الصحابي المعروف «عبدالله بن مسعود» أنّه قال: «كل من طفف في صلاته يتطبق علية ماقاله الله تعالى بشأن المطففين» [4]

٭٭٭

١. تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٠٤١.
٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٢، ح ١.
٣. تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٦٨.
٤. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٢.

٢١ ـ الهمز واللمز والغيبة

وهذه أيضاً من الذنوب الكبيرة لأنّ فيها استهانة بكرامة وشخصية الناس المؤمنين، والكرامة والشخصية من الاعتبارات التي توازي في الأهميّة دم الإنسان بل وتفوقه أحياناً، ولذلك توعد القرآن الكريم بالويل والعذاب لكل من يجترىء على هذا العمل، فقال: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾. (سورة الهمزة / ١ ـ ٤)

هنالك اختلاف في آراء المفسّرين بشأن معاني الهمزة واللمزة. فهاتان الكلمتان وردتا على صيغة المبالغة من المصدرين «الهمز» و«اللمز» قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وهو البحث عن عيوب الآخرين واغتيابهم، بينما قال آخرون: إنّ الأولى تعني اقتفاء معايب الآخرين والتشهير بهم علناً والثانية بمعنى اقتفائها والتشهير بها خفية وعن طريق الإشارة بالعين والحاجب وأمثال ذلك. وقال آخرون: إنّ الأولى تعني الغيبة، والثانية تعني اظهار العيوب وجهاً لوجه.

ويبدو في جميع الأحوال أنّ كلّ من يحاول الاستهزاء بالآخرين أو يتعمّد الاساءة إليهم باللسان وحركات العين والحاجب في حال غيابه أو وجهاً لوجه، ويحاول تقصّي عيوبهم أو يكشف العيوب المستورة وافشائها بغرض الاساءة إلى كرامتهم فهو مشمول بالآية المذكورة، فكما أنّه يحطم شخصية وكرامة الآخرين فسيكون كذلك عرضة ـ في يوم القيامة ـ لنار جهنّم «الحطمة» لكي تحطّم كل وجوده.

إنّ الأشخاص من أمثال هؤلاء هم أكثر خلق الله شرّ كما جاء ذلك في حديث منقول عن سيد الرسل ﷺ أنّه قال: «ألا أخبركم بشر الناس؟» قالوا بلى يارسول الله، قال: «*المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبراء المعايب*»[١].

---

١ اصول الكافي ج ٢، باب النميمة، ح ١ تفسير القرطبي ج ٢، ص ٧١ ـ ٧٢

٢٢ ـ الاسراف والتبذير

الاسراف والتبذير بالمعنى الواسع للكلمة يعتبران من الكبائر أيضاً، وقد ذكرهما وأكّد عليهما القرآن الكريم بشدّة، فقال عن الاسراف ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾. (المؤمن / ٤٣)

ورغم أنّ هذا الكلام قد ورد في سورة المؤمن على لسان مؤمن آل فرعون، لكن القرآن أطلقه على هذا المجال.

وقال أيضاً عن التبذير ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾. (الاسراء / ٢٧)

ومن الواضح أنّ مصير الشياطين واخوتهم ليس سوى الوقوع في بؤرة الغضب الإلهي ـ أي جهنّم ـ.

و«الاسراف»: و(السَّرَف) وهي على وزن «هدف» تعني كما تقول أهل اللغة تجاوز الحد في أي عمل، وإن كانت تُطلق على الأغلب على تجاوز الحد في صرف الأموال[1]

ولهذا يُطلق القرآن الكريم كلمة المسرفين على المشركين والمجرمين الذين يتجاوزون الحدود الإلهيّة، وحتّى قتل الناس الأبرياء يُعَدُّ نوعاً من الاسراف.

وكلمة «التبذير» مشتقة من مصدر «البذر» وتعني في الأصل النثر، وتُطلق عادة على الحالات التي تُنثر فيها الأموال بلا هدف، أو حين تُصرف هنا وهناك وتكون نتيجتها الاتلاف والتضييع[2].

ولو فكّرنا في وضع العالم الحالي والتبذير والاسراف السائد فيه والذي لا يقتصر على المواد الغذائية والإمكانات الماديّة فحسب، بل ويتعداه إلى تجاوز الحدود في كل شيء، لوجدنا أنّه وقبل أن يستحق الآخرة، جعل من هذه الدنيا جهنّم لاهبة يحترق في نارها الصغير والكبير ولا مغيث لنداءاتهم، حينذاك سوف أنّ عقوبة الاسراف والتبذير يجب أن تكون نار جهنّم.

٥٠٥

---

١. المفردات للراغب، مادة (سرف).

٢. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (بذر).

٢٣ ـ الجرائم والذنوب

توجد في القرآن الكريم أوصاف عامّة وشاملة لأصحاب النّار ومن جملة ذلك الجريمة والذنب، إذ قال تعالى بشأنهم: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾. (مريم / ٨٦)

كلمة «مجرم» مأخوذة من المصدر (جُرم) على وزن (ظُلم) والذي يعني أساساً القطع، لذلك تُطلق الكلمة على عملية قطع الثمار من الأشجار أو قطع الأشجار ذاتها. ولمّا كان المجرمون يحرمون أنفسهم من السعادة والنجاة بسبب سوء عملهم، لهذا صدقت عليهم هذه الكلمة.

هل يفهم من هذه الآية أنّ كل ذنب يستلزم دخول النّار، أم أنّها تخص مجرمين معيّنين؟

إنّ ظاهر الآية يدلّ على الاطلاق، إلّا أنّه يمكن أن نستشف من خلال الآيات الأخرى أنّها تخص الجريمة التي يخالطها الكفر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (الزخرف / ٧٤)

ومن البديهي أنّ الخلود في النّار مقصور على الكفّار لا كل المجرمين ودلّت على هذا قوله تعالى: ﴿ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾. (المدثر / ٤٠ ـ ٤٢)

فيعدّون لهم في الجواب مجموعة من الذنوب منها التكذيب بيوم الدين وهو ما يساوي الكفر، وقد ورد نظير هذا المعنى ـ وهو أنّ المقصود منه الجرم المقرون بالكفر ـ في آيات عديدة أخرى[١]، ويحتمل أيضاً أنّ المراد من المجرمين الوارد في الآية موضع البحث هم المجرمون الذين انغمسوا تماماً في الذنوب وبالشكل الذي يجعلهم لا يستحقّون الشفاعة ولا عفو الله، فهؤلاء عامّة يدخلون النّار.

ஐ ஐ

---

١. وردت في الآيات والسور التالية: الأعراف، ٨٤، ١٣٣؛ سورة الحجر، ١٢، ٥٨؛ سورة الفرقان، ٣١؛ النمل، ٦٩، وغيرها، وتتحدث جميعها عن أقوام من أمثال قوم لوط وقوم فرعون وأعداء الأنبياء، واستخدمت بشأنهم كلمة «المجرم».

٢٤ ـ تعدّي حدود الله

وهذا أيضاً واحد من العناوين العامّة التي وعد القرآن بأنّ جزاءها النّار: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. (النساء / ١٤)

إنّ المقصود من الحدود الإلهيّة قوانينه وأحكامه وتعاليمه. وإن كان أهل اللغة قد نقلوا ثلاثة معانٍ مختلفة لكلمة «الحد» وهي: المنع، ونهاية كل شيء، والشدّة[١]. ولكن يبدو أنّها تعود بأجمعها إلى معنى «المنع» لأنّ انتهاء الشيء يمنع اختلاطه بغيره كما أنّ حدود البيت والحقل والبلد تمنع اختلاطها مع غيرها من البيوت والحقول والبلدان. وبما أنّ مفهوم المنع يخفي بين طيّاته نوعاً من الشدّة، فقد استخدم أحياناً بمعناها أيضاً.

ولهذا اطلق على الأحكام الإلهيّة اسم «الحدود» التي تعيّن للإنسان «المناطق الممنوعة» التي لا يجوز له دخولها، وهذا هو السبب في تسمية العقوبات الشرعية بالحد لأنّها تحول دون تكرارها.

وعلى أيّة حال فقد وردت عبارة «تلك حدود الله» في عدّة مواضع من القرآن الكريم وكلها جاءت بعد تبيان سلسلة من الأحكام الإلهيّة.

وقد جاءت في الآية التي نحن بصدد بحثها بعد بيانها لأحكام الإرث، وفي الآيتين (٢٢٩، ٢٣٠) من سورة البقرة والآية الأولى من سورة الطلاق بعد تبيان قسم من أحكام الطلاق، وجاءت في الآية ١٨٧ من سورة البقرة بعد تحريم الجماع خلال الاعتكاف وبعض أحكام الصوم، ووردت في الآية ٤ من سورة المجادلة بعد بيان كفّارة الظهار، ويفهم من مجموعها أنّ (حدود الله) كلمة ذات مدلول واسع يشمل كل حكم من هذا القبيل.

فنحن نعلم من جهة أنّ ارتكاب أيّ جرم كان لا يستدعي الخلود في النّار وعلى هذا قد يكون القصد من الآية أعلاه، الأشخاص الذين يتعدّون حدود الله بالطغيان والعناد والتمرد وانكار آيات الله، أو كل من يتجاهل هذه الحدود وينغمس في المعاصي حتّى يذهب من هذه الدنيا من غير أن يدخل الإيمان قلبه، ولا نحن نعلم أنّ فريقاً من العاصين يشملهم

---

١. مقاييس اللغة ومفردات الراغب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم مادة (حد).

العفو الإلهي، وفريقاً آخر تشملهم الشفاعة، وفريقاً آخر تغفر لهم صغائر الذنوب، وكذلك يغفر للتوابين [1].

وقد استدلت فئة من (الوعيدية) الذين يعتقدون بخلود مرتكب الكبيرة في النّار بهذه الآية وأمثالها، إلّا أنّ جواب ذلك واضح من خلال ماذكرناه. وسنتطرق إلى مزيد من التوضيح في المكان المناسب بإذن الله.

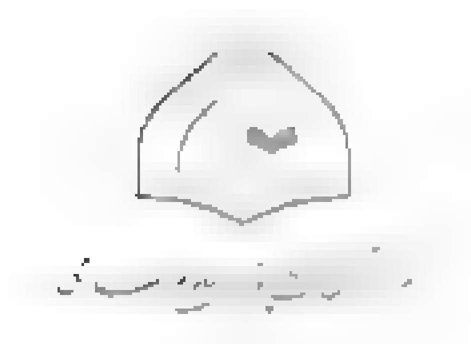
الخلاصة:

المجاميع الأربع والعشرين التي أُشير إليها تعتبر أهم الفئات التي ترد النّار وفقاً لما صرّح به القرآن الكريم. فبعضهم يخلد فيها والبعض الآخر يبقى إلى أمد معيّن، ويُستخلص من مجموع هذه الآيات رؤية الإسلام للمسائل الاجتماعية والحقوقية وأنواع الانحرافات الأخلاقية. والجوانب التي أعارها اهتماماً أكبر.

وتستبطن نظائر هذه الآيات بدلالات تربوية فاعلة وتنبّه الناس وتحذّرهم من عواقب ومخاطر هذه الكبائر وهذا هو الغرض النهائي منها.

---

١. أورد العلّامة المجلسي في بحار الأنوار بحثاً مفصلاً في هذا الصدد وهو أنّ أهل الإيمان لا يخلدون في النّار، فمن أراد الاطلاع عليه فسيجده بحار الأنوار ج ٨ ص ٣٥١ ومابعدها (باب ٢٧ وهو باب من يخلد في النّار ومن يخرج منها)



٢ ـ ماهية جهنم

تمهيد:

من البديهي أنّ «جهنّم» هي بؤرة الغضب الإلهي وتشتمل على العذاب الجسدي والروحي لمن يردها، كما ورد في ظاهر أو صريح الآيات القرآنية، أمّا الذين ذهبوا إلى أنّها تشتمل فقط على العذاب الروحي والمعنوي فقد تجاهلوا وأنكروا قسم كبير من الآيات القرآنية أو حملوها على معانٍ مجازية بلا دليل معقول.

ولكن ما هي جهنّم؟ وما هي كيفية عذابها؟

إنّ أفضل الطرق لمعرفة ماهيتها هي الاستعانة بالأسماء والأوصاف الواردة بشأنها من الآيات القرآنية المختلفة من أجل إزاحة الستار عن خفايا بؤرة الغضب الإلهي هذه، وكما قلنا مراراً مهما كانت معرفتنا بالقضايا المتعلقة بالعالم الآخر واسعة فهي تبقى محدودة وكأنّها شبح يتراءى لنا عن بعد، أمّا التفاصيل والخصوصيات فهي مبهمة لأنّ عالم الآخرة بشكل عام أرقى من هذا العالم وهو تماماً كعالم الجنين بالنسبة إلى العالم خارج بطن أمّه.

وعلى هذا فمن غير المتيسّر للبشر في هذا العالم الاحاطة الكاملة بأسرار ذلك العالم، لكن هذا لا يحول بتاتاً دون الحصول على المعرفة الإجمالية بشأنه أبداً.

وعلى أيّة حال ينبغي متابعة الأسماء والصفات والإشارات الواردة في القرآن الكريم في هذا المجال لغرض التعرّف على ماهية جهنّم، لنقرأ معاً الآيات التالية وهي تعكس بعضاً من أسماء وأوصاف جهنّم:

١ ـ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾. (الحجر / ٤٣ ـ ٤٤)

٢ ـ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾.
(المدثر / ٢٦ ـ ٢٩)

٣ـ ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾. (البقرة / ٢٤)

٤ـ ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشورى / ٧)

٥ـ ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ● وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ● فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾.

(النازعات / ٣٧ـ٣٩)

٦ـ ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ● وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ● نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ● الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ (الهمزة / ٤ـ٧)

٧ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ● فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ● وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ● نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾

(القارعة / ٨ـ١١)

٨ـ ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ● نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ ● تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾. (المعارج / ١٥ـ١٧)

جمع الآيات وتفسيرها

تعابير القرآن بشأن جهنّم:

في الآية الأولى نلاحظ أشهر أسماء النّار الذي تكرر ذكرها في القرآن الكريم سبعاً وسبعين مرّة ألا وهو (جهنّم)، وتشير هذه الآية إلى أتباع إبليس وتقول: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ● لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾

اختلف اللغويون والمفسرون في معنى كلمة «جهنّم»، فقال البعض منهم أنّها تعني «النّار»، وقال آخرون أنّها تعني «العميق والبعيد القعر».

جاء في «لسان العرب» أنّ «جهنّم» بمعنى العمق الشديد ولهذا يقال «بئر جهنّم وجهنّام» ويراد به البئر العميقة القعر.

ونقل عن بعضهم في نفس الكتاب أنّ أصل هذه الكلمة عبراني وهو «گهنّام» وورد اسمها في العربية «جهنّم» (ولهذا فهي تعتبر اسماً ممنوعاً من الصرف لأنّها اسم علم أولاً، وأعجمي ثانياً).

واعتبرها بعض اللغويين مشتقّة من الكلمة العبرية «جهنّيوم» [١]. بينما أكّد آخرون أنّها عربية (وسبب عدم صرفها هو العَلَمية والتأنيث). واعتبرها جماعة آخرون مشتقة من أصل فارسي.

ويقال للحفرة تحت الأرض التي تنفخ فيه الحرارة لتدفئة أرضية الحمّام «جهنّم» أيضاً [٢].

وعلى أيّة حال فمهما كان أصلها، سواء كان عربياً أو فارسياً أو عبرانياً فهي في القرآن الكريم اسم لمكان مليء بالعذاب وهو بؤرة غضب الله وله دركات ومراتب متفاوتة.

وقد ورد أيضاً في الآية أنّ لجهنّم سبعة أبواب وهذا ما سنتحدث عنه ـ إن شاء الله ـ لاحقاً.

ونواجه في الآية الثانية اسماً آخر من أسماء جهنّم وهو «سقر»، فبعد الإشارة إلى أحد المشركين المعاندين (وهو الوليد بن المغيرة) ـ تقول: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾.

ومهما يكن من أمر فكلمة «سقر» هي من أسماء جهنّم ومأخوذة في الأصل من كلمة «سقْر» على وزن (فَقْر) وتعني التغيير والذوبان والانصهار أثر حرارة الشمس [٣].

واعتبرها البعض اسماً لأحد طبقات جهنّم المفزعة كما وردت في حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام: *«إنّ في جهنّم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى الله شدّة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فأحرق جهنّم»* [٤].

ونقرأ في كتاب صحاح اللغة أنّ «سقرات الشمس» تعني شدة حرارتها، و«يوم مسقر» بمعنى شديد الحرارة ولاهب.

وجاء في كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) أنّ هذه الكلمة تعني في الأساس

---

١ قاموس دهخدا، مادّة (جهنّم).

٢ قاموس دهخدا، مادة (جهنّم)؛ التحقيق؛ لسان العرب؛ المنجد؛ واقرب الموارد.

٣ مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب.

٤ تفسير الصافي، في ذيل الآية ٤٨ من سورة القمر.

الحرارة الشديدة التي تغير لون الأشياء وصفاتها، لكنّها تحوّلت بالتدريج إلى اسم من أسماء النّار وتعني النّار الشديدة المحرقة التي تغيّر كل شيء.

ويدعم هذا الادّعاء الصفات الواردة في هذه الآيات، لأنّها تؤكد أنّها تغير الجلود تماماً من جهة، ومن جهة أخرى، أنّها لا تبقي شيئاً على حاله ولا تذر

ﷺ

ومن الأسماء الأُخرى التي استخدمها القرآن لجهنّم بشكل واسع هي كلمة «النّار»، فقد تكرر ذكرها ١٤٥ مرّة والتي تعني في أغلب الموارد نار جهنّم، وإن جاءت أيضاً في بعض المواضع بمعنى نار الدنيا، ومن جملة ذلك، الخطاب الموجّه إلى المشككين بالقرآن إذ جاء فيه: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ (أي لم تأتوا بسورة من مثله) ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾. (البقرة / ٢٤)

يقول الراغب: إنّ كلمة «النّار» تعني الشعلة التي تظهر أمام حس الإنسان، ويقال للحرارة وحدها نار أيضاً، ورأى البعض أنّ كلمتي «النّار» و«النور» مشتقّان من مصدر واحد ومتقاربتان في الوجود

وعلى أيّة حال فقد كثر استخدام هذه الكلمة في القرآن الكريم بشأن جهنّم إلى حد جعلها تصبح واحدة من أسمائها.

أشار القرآن الكريم إلى فئة من المجرمين قائلاً: ﴿ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ (آل عمران / ١٠)

وجاءت كلمة «أصحاب النّار» في العديد من الآيات لتدل على الأشخاص الذين يردون جهنّم ولهذا أصبح هذا التعبير مقابلاً لتعبير أصحاب الجنّة [١].

ومن نافلة القول: إنّ من ضمن المواصفات التي ذكرت للنار هي أنّ وقودها من الناس والحجارة (أي الأصنام) وعلى هذا فهي لا تشبه نار الدنيا في هذا الجانب.

ﷺ

١. الأعراف، ٤٤؛ الحشر، ٢٠.

ونرى في الآية الرابعة اسماً وصفة أُخرى لهذا المكان الذي يتجسد فيه الغضب الربّاني، وهذا الاسم هو «*السعير*».

فبعد أن يشير القرآن إلى الغاية من نزوله وينذر الناس من يوم القيامة، يقسم الناس يومذاك إلى فريقين ويقول: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

وقد وردت كلمة «*سعير*» في القرآن ١٦ مرّة وورد جمعها أي كلمة «*سُعُر*» مرّتين. وهذه الكلمة مشتقة من المصدر «*سَعْر*» وهو على وزن (*فَعْل*) ويعني اذكاء النّار وتأجيجها. وجاء أيضاً بمعنى شدّة الاضطرام، ولهذا «فالسعير» يعني النّار الشديدة الاشتعال واللهيب والاحراق، وجاءت أحياناً بمعنى «الجنون» أيضاً لأنّ الشخص في هذه الحالة يلتهب ويغلب عليه الهيجان، ويقال كذلك للناقة المجنونة: ناقة مسعورة [1].

ونظراً لاستخدام كلمة «السعير» في الآية المذكورة في قبالة كلمة «الجنّة» يفهم بأنّها أيضاً أحد أسماء النّار، واستخدام تعبير «أصحاب السعير» في عدد من الآيات يعتبر أيضاً قرينة أُخرى على هذه التسمية [2].

إلّا أنّه لايمكن انكار مجيئها في بعض الآيات القرآنية بنفس ذلك المعنى الوصفي لتشير إلى اضطرام نار جهنّم.

***

التعبير الخامس الذي تكرر في القرآن في ٢٥ موضعاً، هو الجحيم، فتقول الآية المطروحة لبحثنا: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾.

وكلمة «*الجحيم*» على وزن (*لَحيم*) كما يفهم من عبارات القرآن هي واحدة من أسماء جهنّم، ومشتقة من مادة «*جَحْم*» على وزن (لَحْم) التي تعني «شدّة تورية النّار» كما يقول الراغب في مفرداته.

وتأكّد نفس هذا المعنى في «مقاييس اللغة» أيضاً، لكن صاحب صحاح اللغة فسّره

---

١. مقاييس اللغة؛ وصحاح اللغة؛ والتحقيق؛ ومفردات الراغب.

٢. الملك، ١٠ـ ١١؛ فاطر، ٦.

بالنار العظيمة المصحوبة بالحرارة واللهب.

إلّا أنّ كلمة *(الجحيم)* استخدمت في موضع واحد في القرآن الكريم بمعنى النيران المحرقة في الدنيا عندما قال المشركون في زمن النبي إبراهيم ﷺ: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾. (الصافات / ٩٧)

إلّا أنّ هذا الاستعمال لا يمنع من كون الكلمة المذكورة من أسماء جهنّم.

وفي الآية السادسة نلاحظ كلمة *«الحطمة»* التي تكررت في موضعين في سورة «الهمزة» فالآية قد تحدثت عن الذين يبحثون عن عيوب الآخرين ويغتابونهم ويحرصون على جمع المال فقد هددهم الله بقوله ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾.

وكلمة *«الحطمة»* على حد قول صاحب «صحاح اللغة» وصاحب «مجمع اللغة»: اسم من أسماء جهنّم، وهي صيغة مبالغة من كلمة «حطم» بمعنى الكسر والتهشيم، واعتبرها البعض بمعنى تكسير الأشياء اليابسة. ولهذا يطلق على سنوات القحط اسم «الحُطمة» لأنّها تحطّم كل شيء وتكسّره وتقضي على الناس. ويُطلق اسم *«الحطيم»* على موضع في الكعبة يقع بين بابها والحجر الأسود لأنّ الناس يزدحمون هناك حتى أنّ عظامهم على وشك أن تتكسر من شدّة الضغط.

وعلى هذا الأساس تعود تسمية جهنّم بالحطمة لأنّ نارها المحرقة تدمّر كل شيء وتقضي عليه. وقد أوضح القرآن نفسه معناها من خلال الآيات الواردة في هذا الباب فقال إنّها: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾، وهذه الآية بذاتها دليل على المعنى الذي ذكرناه.

ولكن يستفاد من بعض الروايات أنّ كل اسم من أسماء جهنّم ومن ضمنها الحطمة يشير إلى قسم معين من أقسام النّار[١].

١. تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٧ ـ ١٩، ح ٦٠ ـ ٦٤.

ذكرت الآية السابعة كلمة «*الهاوية*» التي وردت في القرآن الكريم مرّة واحدة حيث تقول الآية: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾. (القارعة / ٨ـ١١)

قال ابن منظور في «لسان العرب»: «إنّ «*الهاوية*» أحد أسماء جهنّم، وعلى هذا يكون معنى «*أمه هاوية*» أي إنّ مقرّه ومسكنه جهنّم»[١].

وأشار صاحب «مقاييس اللغة» والراغب في «المفردات» إلى هذه التسمية وأنّ الكلمة مأخوذة في الأصل من مادة «هَوِي» بمعنى سقوط لأنّ الكفار والمجرمين يسقطون فيها، ويتضمن أيضاً إشارة إلى عمق جهنّم.

وفسّرت كلمة «*أم*» هنا بمعنى المستقر و المكان، وأحياناً بمعنى الأم أي كما تحتضن الأم ابنها تحتضن جهنّم من يرد فيها.

وفسرها بعضهم بمعنى الدماغ، قال: إنّ الهاوية وصف لأصحاب النّار لأنّهم يسقطون فيها على أم رؤوسهم إلّا أنّ التفسير الأول أصحّ على مايبدو.

* * *

ونرى في الآية الثامنة والأخيرة كلمة «*لظى*» وهي الأخرى قد ذكرت في القرآن مرّة واحدة، فقد جاء في سورة المعارج بعد الإشارة إلى وضع المجرمين الذين يرغبون في يوم القيامة التضحية بأزواجهم وأخويهم وأبنائهم لإنقاذ أنفسهم: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ۞ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۞ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾. (المعارج / ١٥ـ١٧)

وكلمة «*لظى*» تعني في الأصل النّار أو شعلة النّار الخالصة، ولكن هذه الكلمة اسم من أسماء جهنّم حسب ماجاء في «لسان العرب» و«مفردات الراغب» (ولهذا فهو ممنوع من الصرف بسبب عَلَميته وتأنيثه).

وتعني كلمة «*النزاعة*» الشيء الذي ينزع وينفصل بشكل متواصل، وتعني كلمة «*الشوى*»

---

١. لسان العرب، مادة (هوى).

اليد والرجل والأطراف، (وإن كانت تأتي بمعنى الاحراق في النّار لكن الأنسب هنا هو المعنى الأول، لأنّ الشيء عندما يسقط في النّار، أول ما يحترق منه أطرافه وأغصانه).

وقال آخرون إنّ «الشوى» هو جلد البدن أو فروة الرأس، ومن عجائب هذه النّار المحرقة أنّها تدعو أصحاب جهنّم إليها، فهل أنّها حقاً ذات شعور وإدراك فتفعل هكذا؟ أم أنّ في جهنّم جاذبية خفية تستقطب نحوها كل من حق عليه العذاب؟

كلا الاحتمالين ممكن، ولكن الظاهر هو المعنى الأول.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الروايات لم تذكر النّار كاسم من أسماء جهنّم، بل ذكرت سبعة أسماء أخرى واعتبرت كل واحد منها طبقة من طبقاتها، وليس كل واحد من هذه الأسماء السبعة يشمل جهنّم بأكملها.

ومن جملة ذلك حديث منقول عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال فيه: *«إنّ جهنّم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال: هكذا، وإنّ الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنّم، وفوقها لظى، وفوقها الحطمة وفوقها سقر، وفوقها الجحيم وفوقها السعير، وفوقها الهاوية»*[1].

ولا مانع من اطلاق الأسماء السبعة المذكورة على كل جهنّم أحياناً أو على قسم منها أحياناً أخرى، كما يلاحظ ذلك في أسماء المدن حيث يطلق أحياناً اسم معين على محافظة من المحافظات بأكملها، ويطلق أحياناً على مدينة معيّنة من مدن تلك المحافظة.

❀❀❀

أوصاف جهنّم:

يفهم من مجموع الآيات المتعلقة بجهنّم وأوصافها أنّها مركز جزائي رهيب مليء

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥-٦، ص٣٣٨؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص١٩، ح ٦٤، وجاء أيضاً في هذا الموضوع حديث مطوّل منقول عن الإمام الباقر عليه السلام.

بالنيران اللاهبة وله أبواب ودرجات مختلفة، ولكن نارها ليست كنيران الدنيا بل تتميز بالخصائص الآتية:

١ـ وقودها الناس والحجارة.

٢ـ تطّلع على الأفئدة، وتتقد أولى شراراتها إلى القلوب.

٣ـ حطمة تسحق كل شيء وتقضي عليه

٤ـ فيها درك يدعو المجرمين إليه!

٥ـ توصف بأنّها إذا رأت من يُحشرون فيها ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ (الفرقان / ١٢)

٦ـ متحرّكة كما يقول تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾. (الفجر / ٢٣)

٧ـ محيطة الآن بالكافرين رغم أنّها محجوبة عن الأبصار: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة / ٤٩)

قد تكون هذه الأبعاد جميعها سبباً دفع بالكثيرين إلى تفسير جهنّم تفسيراً روحياً فاعتبروا نارها ناراً معنوية، لكن هذا التفسير ـ بلا شك ـ يتعارض مع ظاهر آيات القرآن الكريم، ولا ينسجم مع الروايات التي وردت في تفسيرها

وعلى هذا ينبغي القول: إنّ جهنّم بؤرة نار مستعرة وتختلف اختلافاً جذرياً عن نيران عالمنا هذا كما تختلف نعم الجنّة مع نعم هذه الدنيا

توضيح

فلسفة وجود النار:

يسأل الكثير عن مدى ضرورة وجود النار، فالله تعالى لا يحب الانتقام وأنّ العقوبات توضع لكي لا يرتكب الناس الأخطاء ثانية أو حتى تكون عبرة للآخرين، بينما نعلم أن لا

عودة لهذا العالم بعد هذه الحياة، ولا وجود هناك للتكليف والطاعة والذنب، وعلى هذا، ما المفهوم الذي سنحمله عقوبة باهضة كدخول النار؟ هذا من جانب

ومن جانب آخر فإنّ الهدف من جميع تعاليم الدينية هو تربية وتهذيب وتكامل الإنسان، وإن لم يقبل بذلك بعض الناس فستكون عقوبتهم الحرمان من بلوغ الدرجات الرفيعة.

فما هي الضرورة لوجود جهنّم، ومركز الغضب والعقاب الصارم؟

وللاجابة عن هذه التساؤلات ينبغي الالتفات إلى نقطتين.

١ ـ قلنا مراراً إنّ العقوبات الإلهيّة سواء في هذا العالم أوفي عالم الآخرة هي نتيجة لأعمال الناس أنفسهم، وإنّما تنسب إلى الله جلّ شأنه باعتباره مسبب الأسباب. فالكثير من نعم الجنّة هي تجسيد لأعمال الإنسان الصالحة، والكثير من عذاب جهنّم تجسد لأعماله السيّئة، ونحن نعلم أنّ نتائج العمل وآثاره ليست بالأمر الهيّن الذي يمكن التساهل فيه

فمثلاً، الشخص الذي يتناول المشروبات الروحية والمخدّرات، ليقضي فترات من الراحة وهدوء البال ـ حسب تصوره ـ في ظل هاتين المادّتين المخدّرتين، وليُنشي باللذة المتأتّية من نسيان الدنيا، يُحذّر بأنّ هاتين المادتين المخدّرتين هما من عوامل الافساد والتحلل وسيؤدّيان في النهاية إلى القضاء عليه، فالمشروبات الكحوليه تسبب له أمراض القلب والشرايين والاعصاب والكبد، والمخدّرات تدمر أعصابه بل وتُنهي كل كيانه.

فإذا لم يُصغ إلى هذا الانذار وتمادى في ممارسته الخاطئة فانّه سيواجه عقوبته وجزاءه وهذا لا يحتاج إلى فلسفة ودليل سوى قانون العلّية، وهي النتيجة الطبيعية لعمل كل إنسان وغالباً ماتكون الذنوب على هذه الشاكلة، وتعقبها نتائج في هذه الدنيا، وفي الآخرة فهي تتجسد على صورة العذاب في جهنّم

ولهذا يُلحظ هذا التعبير الذي يتكرر كثيراً في الآيات الشريفة والذي يقول: إنّكم تجزون ماكنتم تعملون فقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. (النمل / ٩٠)

ونقرأ أيضاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (التحريم / ٧)

فالمعذرة نافعة حين لا تكون القضية متعلّقة بالعمل ولمعلول والنتيجة للأعمال

والآيات التي تتحدث مثلاً عن تجسيد الأعمال وتشبيه أكل مال اليتيم بأكل النّار تدل بأجمعها على هذا المعنى. وكذلك الروايات التي تقول إنّ الطباع الحيوانية في الإنسان، تظهر من داخله يوم القيامة وترتسم على خارجه، فتغدو صور الأشخاص شبيهة بالحيوانات المتميّزة بتلك الطباع

وخلاصة القول: إنّ هذه الدنيا مزرعة، والآخرة أوان وزمان الحصاد. فإن كان الإنسان قد زرع بذور الورد، فمحصوله أغصان طيبة وطرية ومعطّرة من الورد، وإن كان قد بذر الشوك فلا يجني سواه.

جاء في حديث عن النبي ﷺ: *«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني فقال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله أوصني، قال: احفظ لسانك ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النّار إلّا حصائد ألسنتهم»*[١].

٢ ـ لا شك في أنّ التبشير والتحذير يعتبران دعامتين أساسيتين في إجراء البرامج التربوية، فكما أنّ التبشير بالجزاء الأوفر الذي يحظى به الإنسان في الجنّة يُعَدُّ عاملاً فاعلاً في الدعوة إلى طاعة الله وترك معصيته، فكذلك التحذير والوعيد بالعذاب الصارم في جهنّم يُعتبر هو الآخر مؤثّراً قوياً في هذا الجانب، لا بل ثبت بالتجربة أنّ للعقوبات تأثيراً أقوى.

ولهذا فإنّ جميع القوانين التي تسنّها مراكز التشريع القانوني في العالم تضمن عقوبات للمخالفين وهو ما يصطلح عليه علماء الحقوق باسم الضمانة التنفيذية، وتحظى هذه الضمانة بقدر كبير من الأهميّة بحيث تُعتبر واحدة من العناصر الأساسية التي يبنى عليها القانون، ولو أنّ قانوناً أُسُنَّ ولم يتضمن أي عقاب للمخالفين (كالسجن والجلد والغرامة

---

١ اصول الكافي، ج ٢، ص ١١٥، ح ١٤.

المالية والحرمان من بعض الحقوق الاجتماعية) فلا يمكن أن يطلق عليه قانوناً.

فكيف تكون القوانين الإلهيّة ـ والحالة هذه ـ خالية من الضمانة التنفيذية؟! فهي عندئذٍ تفقد قيمتها القانونية، ولا يرى المخالفون لها والمتخلفون عنها أي دافع أو وازع لإطاعتها والالتزام بها، ويبقى هدف القانون عقيماً.

صحيح أنّ الآثار الوضعية والطبيعية لعدم الالتزام قد تكون رادعاً للذين يقومون بمخالفات شرعية، إلّا أنّها غير كافية لوحدها، ولهذا فقد أدرج سبحانه وتعالى سلسلة من العقوبات لمن يتخلف عن الالتزام بها، فكما يهدد أقواماً بالعقوبة الدنيوية (وأمثلة ذلك كثيرة وقد تحققت في الوجود الخارجي وأشار إليها القرآن في تبيانه لحياة الأقوام السالفة) فهو ـ جلّ شأنه ـ قد وضع أيضاً العقوبات في الآخرة لمن يتوانى عن التقيّد بها.

ومن الواضح كذلك أنّه كلما اشتدّت لهجة الترغيب والترهيب، كلّما كان التأثير أقوى وأكثر.

وهذا الأمر يوضّح أحد الأبعاد الأساسية لفلسفة وجود الجنّة والنّار.

وربّما يقال هنا إنّ جميع الآثار التي عرضت إنّما تترتب على الوعيد بالعقاب والجزاء، وعلى هذا، فما المانع من أن يكون سبحانه وتعالى قد عرض كل هذه التهديدات والتحذيرات، إلّا أنّها لا تتحقق في القيامة، لعدم وجود ضرورة لها، وذلك لخلو ذلك العالم من دروس العبرة للآخرين وانعدام تكرار الذنب من قبل المجرمين؟

إنّ هذا الكلام يستلزم أن يرتكب الله عزّ وجلّ القبيح وأنّه ـ والعياذ بالله ـ يكذب ويتخلف عن وعده فهو يوعد بالعقاب للمتخلّفين وحتّى أنّه يقسم بتنفيذ وعيده، وكيف لا يطبق ذلك فعلياً؟! من البديهي أنّ هذا العمل قبيح لا يليق بذاته المقدّسة بل ولا يفعله الإنسان المهذب الحكيم.

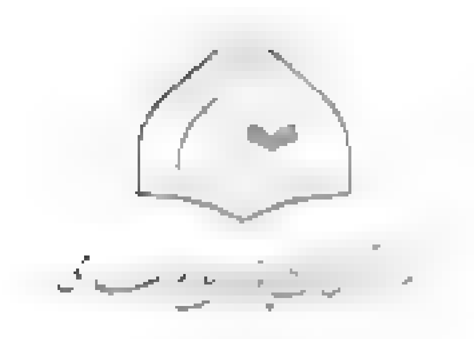
والنتيجة: أنّ وجوب التهديد والوعيد بالعقاب والجزاء ضمانة تنفيذية، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، لابدّ من تطبيق تلك الوعود والتهديدات لدفع القبح عن ذاته المقدّسة.

وهذه هي فلسفة وجود جهنّم وعقوباتها.

ومن أجل هذا نصّت الآية الكريمة بالقول ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾. (إبراهيم / ٤٧)

ثم يشرح في أعقاب هذه الآية بعضاً من عذاب يوم القيامة.

ജ˜ഇ



٣ـ أبواب جهنّم وطبقاتها

تمهيد:

من خلال ملاحظة عدد من آيات القرآن الكريم نستنتج أنّ لجهنّم أبواباً متعددة، وصرّحت إحدى هذه الآيات بأنّها سبعة، فهل تشير هذه الأبواب إلى الأعمال التي تُسقِط الإنسان في النار وهي في الحقيقة طرق دخول الناس إلى جهنّم؟ كما هو الحال لأبواب الجنّة التي سبق الحديث عنها؟ أم أنّها إشارة إلى طبقات جهنّم ودرجاتها التي ذكرتها الكثير من الروايات؟ أم أنّ كلا المعنيين قد اجتمع في مفهوم هذه الآيات؟

من الأفضل أن نبحث أولاً في مضمون الآيات المتعلقة بهذا الحقل، لكي نحصل على جواب السؤال المذكور أعلاه.

ومع هذا التمهيد الوجيز نعود إلى القرآن ونقرأ الآيات الآتية:

١ـ ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾.
(الحجر / ٤٣ـ٤٤)

٢ـ ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.[١] (النحل / ٢٩)

٣ـ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾. (الزمر / ٧١)

٤ـ ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (النساء / ١٤٥)

جمع الآيات وتفسيرها

ماهو المقصود من أبواب جهنّم؟

تتحدث الآية الأولى عن أتباع الشيطان الذين وصفتهم الآيات السابقة لها، فقالت:

---

١ ورد نظير هذا المعنى في الآية ٧٢ من سورة الزمر والآية ٧٦ من سورة غافر.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

ولكن ما المقصود من «أبواب جهنّم»؟ ذكر المفسرون احتمالات مختلفة لذلك:

الأول: إنّها إشارة إلى مداخل جهنّم التي تنتهي جميعها في مركز واحد، كالأبواب المتعددة لبناية واحدة في دنيانا هذه، وهي في الحقيقة تعبير عن كثرة الداخلين إلى هذا المكان الذي يتجسد فيه الغضب الإلهي، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً في ظلّ الروايات المتعددة التي تفسر هذه الآية.

الثاني: المقصود هو الطبقات المختلفة في جهنّم والتي تتفاوت في شدّة العذاب، وعلى هذا فكل واحد من هذه الأبواب السبعة يفتح على واحدة من تلك الطبقات.

وهناك روايات عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وعن طريق أهل السنّة تشهد على هذا التفسير.

فقد ورد في الدرّ المنثور حديث منقول عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: *«أتدرون كيف أبواب جهنّم؟ قلنا كنحو هذه الأبواب، قال: لا ولكنّها هكذا ووضع يده فوق يده وبسط يده على يده»* [1].

وجاء عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: *«سبعة أبواب النار متطابقات»* [2]

ونقل عنه عليه السلام أيضاً حديث آخر فسّر فيه الأبواب السبعة لجهنم بالطبقات التي تقع فوق بعضها وسماها بأسمائها وهي:

«فأسفلها جهنّم، وفوقها لظى، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية» [3].

الثالث: إنّ تعدد تلك الأبواب يرجع إلى تعدد الأقوام الذين يردون منها.

جاء في تفسير روح المعاني نقلاً عن بعض المصادر الخبرية إنّ: *«في الدرك الأول*

---

١. تفسير درّ المنثور، ج ٤، ص ٩٩

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨، ح ٦٢

٣. المصدر السابق، ص ١٩، ح ٦٤

الملحدون، وفي الثاني النصارى وفي الثالث اليهود، وفي الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة» [1].

الرابع: أنّ المقصود من تلك الأبواب هي الأعمال والذنوب التي تسبب دخول جهنّم. والدليل على هذا الكلام ما يأتي:

أولاً: المقابلة الموجودة مع أبواب الجنّة، فتنص بعض الروايات صراحةً أنّ أحد أبواب الجنّة هو باب *«الجهاد»* أو أنّ أحد أبواب الجنّة يسمى *«باب المجاهدين»* [2]. وأشارت روايات أُخرىٰ إلىٰ الأبواب الأخرى وقالت بوجود صلة بينها وبين أعمال الإنسان كـ*«الصبر»* و*«الشكر»* وماشابه ذلك.

ثانياً: الروايات التي تنص على أنّ بعض أبواب جهنّم يدخل منها فرعون وهامان وقارون، ويرد من بعضها المشركون، وبعضها الآخر يرد منها أعداء آل بيت الرسول ﷺ [3]. وهذا دليل أيضاً على الصلة بين أبواب جهنّم والذنوب المختلفة

إلّا أنّ التفاسير الثلاثة الأخيرة يمكن جمعها مع بعضها لأنّ كل واحدة من طبقات النّار أكثر إيلاماً من الأُخرىٰ وكل واحدة من الفئات التي تردها أكثر ذنباً وإجراماً من الأُخرىٰ، وكل عمل ارتكبته أسوأ من الآخر، وعلىٰ هذا الأساس يمكن جمع التفاسير الثلاثة في مفهوم واحد. وبالنتيجة تطالعنا أبواب جهنّم بحقيقة وهي كما أنّ أعمال الإنسان مختلفة مع بعضها وأصناف المجرمين والكفّار متباينة فيما بينها، فعقوباتهم في العالم الآخر غير متساوية وتختلف فيما بينها اختلافاً شاسعاً

---

١. تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ٤٨؛ تفسير القرطبي ج ٥، ص ٣٦٤٦

٢. اصول الكافي، ج ٥، ص ٢، ح ٢

٣. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨٥، ح ١١.

تخاطب الآية الثانية الكفّار الذين ظلموا أنفسهم بسلوكهم هذا السبيل الخاطئ، وتقول لهم: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

وما يلفت النظر هنا أنّ «أبواب جهنّم» جاءت هنا بصيغة الجمع في حين يدخل كل فريق من باب واحدة لا من أبواب متعددة، (فتأمل)

ولعل مرد هذا التعبير هو كون المخاطبين جمعاً، ومن الطبيعي عندما تريد جماعة الدخول إلى مكان ما له أبواب عديدة، فكل فريق يدخل من باب، إذن فهم جميعاً يدخلون من أبواب متعددة، أو أنّ كل فريق منهم يدخل تحت عنوان خاص من الباب المخصصة له، كما ويحتمل أيضاً أن يكون مخاطبو هذه الآية في الطبقات الدنيا من جهنّم وهذا ما يحتّم عليهم اجتياز أبواب وطبقات متعددة للوصول إلى هناك.

وعلى أيّة حال فالآية أشارت فقط إلى أبواب الجنّة من غير أن توضّح عددها، وبتعبير آخر يبدو أنّ جهنّم شبيهة بالسجون الرهيبة المتداخلة في بعضها والمكوّنة من طبقات متعددة، وهنالك فريق من الضالين والمعاندين يجب أن يمرّوا من خلال كل هذه الطبقات لكي يستقروا في «قعر جهنّم» أو «الدرك الأسفل» أو في الطبقات القريبة منه.

＊＊＊

وورد نفس هذا الموضوع في الآية الثالثة وبتعبيرات أخرى حيث قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

وكأنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ جهنّم تدرك وصولهم حينما يقتربون، فتفتح لهم الأبواب فجأة وهذه الرؤية المفاجئة تزيد من روعهم، في حين جاء نفس هذا المعنى بشأن أصحاب الجنّة فكان مدعاة لمزيد من الفرح والسرور لهم، ونواجه هنا ثانية ذكر تعدد أبواب جهنّم من غير ذكر لعددها، ومن ثم يتكرر الحديث هنا أيضاً عن انفتاح جميع الأبواب، في حين يدخل كل فريق من باب، وقد يكون اختيار هذا التعبير لأسباب ذكرت في الآية السابقة.

＊＊＊

وفي الآية الرابعة ليس هناك ذكر للأبواب، بل تركّز الحديث عن الطبقة السفلى من جهنّم، وهو ما يظهر تعدد طبقات جهنّم، إذ تقول الآية: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾.

يطلق في اللغة العربية على الخطوات الصاعدة نحو الأعلى اسم *«الدرجة»* وعلى النازلة إلى الأسفل اسم *«الدركة»*.

وهذه الكلمة مأخوذة من المصدر *«الدرك»* وهو بمعنى بلوغ الشيء ونيله، ولهذا يطلق على الحبال التي توصل مع بعضها لتصل إلى قعر البئر اسم «الدَرك» وتسمّى أعمق نقاط البحر أو الاماكن الأخرى باسم *«الدَرك»* على وزن *(فلك)*. وعلى هذا الأساس وصف *«الدرك»* في الآية الشريفة بـ*«الأسفل»* من باب التأكيد والقيد التوضيحي.

وعلى أيّة حال فهذه هي الآية الوحيدة الحاوية على إشارة *لطبقات جهنّم*، ويمكن أن تطابق معها الآيات السابقة التي تحدثت عن أبواب جهنّم، والنتيجة هي نفس ما أفادت به الآيات السابقة وهي أنّ أبواب جهنّم ليست في عرض بعضها الآخر بل هي فوق بعضها طولياً، إحداها فوق الأخرى.

يقول الفخر الرازي في تفسيره بعد أن يُعطي معنى «الدرك» بأنّه أعمق نقطة في قعر الشيء: «فالدرك مايلحق به من الطبقة، وظاهره أنّ جهنّم طبقات، والظاهر أنّ أشدّها أسفلها»[١]

وممّا يسترعي الانتباه في هذه الآية أنّها حددت أسفل قعر جهنّم كمكان أسوأ *للمنافقين* ما يدل على أنّ «النفاق» هو أسوأ الذنوب ويستوجب الدرك الأسفل من جهنّم، وسبب ذلك جلي فالخطر الذي يهدد المجتمع الإسلامي من جرّاء وجود النفاق يفوق بمرّات عديدة الخطر القادم من الأعداء والكفّار الذين يبدون كفرهم وعداءهم علناً.

وجاء في حديث شريف حول العلماء الفاسدين: *«إنّ من العلماء من يحبّ أن يخزن*

---

١. تفسير الكبير، ج ١١، ص ٨٧

علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأسفل من النار» [١].

وكما ذكرنا فإنّ بعض الروايات تفيد أنّ كل واحدة من أبواب جهنّم السبع أصحاباً خاصّين، ففرعون وهامان وقارون مثلاً يدخلون من باب واحد ومن باب أُخرى يدخل بنو أُميّة، ويدخل المشركون من باب أُخرى وهكذا [٢].

ومن البديهي أنّ دخول فرعون وهامان وقارون أو بني أُميّة من هذه الأبواب إنّما يعود لطبيعة أعمالهم ومعتقداتهم، ولهذا فكلّ من يشايعهم ويسير على خطهم الفكري والعقائدي يدخل تلقائياً من نفس تلك الباب، ومن هذا المنطلق تتضح طبيعة العلاقة بين الإنسان «وأعماله ومعتقداته».

***

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣١، ح ٧٦

٢. المصدر السابق، ص ٢٨٥، ح ١١

٤ ـ العذاب الجسدي لأصحاب النار

تمهيد:

كما أنّ الثواب الإلهي والنعم الموجودة في جنّة تقسم يوم القيامة إلى قسمين «روحية» و«مادية» كما سبق شرحه بالتفصيل فكذلك عذاب جهنّم أيضاً، إذ يقسم هو الآخر إلى نوعين: روحي، ومادي، لأنّنا نعلم أنّ للمعاد بُعدين يستدعي كل منهما مايستحقه من الثواب والعقاب.

إضافة إلى أنّ أعمال الإنسان في هذه الدنيا على شكلين أيضاً أولهما «الأعمال القلبية والروحية»، وثانيهما «الأعمال الجسمية والماديّة»، وعلى هذا من غير الممكن أن يقتصر الثواب والعقاب هناك على نوع واحد.

وتمثل آيات القرآن والروايات الواردة في هذا الصدد شاهداً على هذا القول.

بعد الانتهاء من هذا التمهيد الوجيز نحاول التعرف على العقوبات الجسدية لأصحاب النّار، ونتمعّن في الآيات القرآنية الواردة في هذا الحقل، ونبحثها تحت العناوين التالية

١ ـ شدّة عذاب أصحاب النّار

٢ ـ طعامهم.

٣ ـ شرابهم.

٤ ـ ثيابهم.

٥ ـ سائر عذابهم الجسدي.

١ ـ شدّة عذاب أصحاب النّار

١ ـ ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِن عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ

الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (المعارج / ١١-١٤)

٢- ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ (الفجر / ٢٥-٢٦)

٣- ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ (الغاشية / ٢٤)

٤- ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (المرسلات / ٣٠-٣٣)

٥- ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾.
(الاعلى / ١١-١٣)

جمع الآيات وتفسيرها

تبلغ شدّة العذاب في يوم القيامة إلى الحد الذي يتمنّى فيه المجرم كما وصفه القرآن في الآيات من بحثنا قائلاً: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[1]

فيتبيّن من هذا التعبير وبكل وضوح أنّ العذاب الإلهي في ذلك اليوم شديد جداً ورهيب حتّى أنّ المجرم يغدو مستعداً للتضحية بجميع ثروته وكلّ أعزّائه بل وبجميع سكان الأرض ليخلّص نفسه (ولا تعبير أفصح ولا أبلغ من هذا)، ولكن ما الفائدة لأنّ أيّاً من هذه التضحيات لا تُقبل منه، فيقع ضحيّة أعماله وعواقبها المؤلمة.

ﷻ

وبعد أن تشير الآية الثانية إلى صحوة المجرمين يوم القيامة وندمهم وشدّة أسفهم على تفريطهم في أداء الفرائض الربانية، تقول: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾[2].

---

١. كلمة «الفصيلة» مأخوذة من المصدر «الفصل» ويعني الافتراق والانقسام وتعني هنا العشيرة والقبيلة التي جاء منها الإنسان.

٢. يعود الضمير في «عذابه» و«وثاقه» إلى الله تعالى، واحتمل بعض المفسّرين كالآلوسي في روح المعاني والبرسوي في روح البيان رجوع الضمير على الإنسان لكن هذا الاحتمال يبدو بعيداً جداً.

وعلى هذا المنوال فعذابه لا نظير له، ووثيقه في الحبال لم يجر على أحدٍ من قبله ولا من بعده على ضوء الآية.

وهذه التعابير بشكل عام تحمل أبعاداً تربوية تحثّ الناس على خشية الله وتجنّب أليم عقابه، لأنّ أذهان الناس قد اعتادت على أنّ «الله أرحم الراحمين» فهو لا يعذّب عباده وإذا عاقبهم فعقوبته خفيفة جداً، وهذا الوهم يدفع إلى الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب، ولذلك يفصح القرآن وبشكل صريح عن وجود ذلك العذاب ليخرج الناس هذه التخيّلات الباطلة من أذهانهم ويراقبوا أعمالهم

ﮂﮃ

وانعكس نفس المعنى في الآية الثالثة إلّا أنّه ورد بتعبير آخر فهي تتحدث عن الكفّار الذين يديرون ظهورهم للحق فتقول: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾.

«والعذاب الأكبر» يشار به إلى عذاب يوم القيامة في مقابلة العقوبات الدنيوية التي وُصفت *«بالعذاب الأدنى»* كما نصت من سورة السجدة ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ (سجدة / ٢١)

وتجدر الإشارة إلى أنّ العذاب الإلهي في الدنيا قد يكون أحياناً شديداً جداً بحق القوم المجرمين كما حصل لقوم لوط إذ دُكَّ مدنهم وقُراهم دكّاً وجعلهم هم وإيّاها قاعاً صفصفاً، ومع ذلك فهذا العذاب يبقى عذاباً أدنى في مقابل عذاب القيامة وهذا ما يُنْبِىء عن شدّة العقوبة يوم القيامة.

ﮂﮃ

وفي الآية الرابعة ورد تبيان لقسم من العذاب الصارم الذي يلقاه أصحاب النّار، فيقال يومذاك لمنكري القيامة ومحكمة العدل الإلهي، اذهبوا إلى ما كنتم به تكذّبون: ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾.

تستعرض هذه الآيات أوصافاً مثيرة حول شدّة عذاب جهنّم إذ يُقال لمنكري هذه المحكمة الإلهيّة الكبرى والمحملين بشتّى المعاصي والذنوب

أولاً : انطلقوا إلى ظل، ولكن أي ظل؟ الظل الناتج عن الدخان الخانق المنقسم إلى ثلاث شعب، شعبة منها فوق الرأس والأخرى عن اليمين والثالثة عن الشمال، وهو باختصار ظل قاتل يحيط بهم من كل صوب، ظل لا كظلال الأشجار الهادئة في الجنّة، أو ظلال السقوف والقصور، بل إنّه ظل حارق لشدّة حرارته.

ثانياً : إنّ لهذا الظل ثلاث شُعَب مليئة بالشرر المتطاير وكل شرارة فيه عظيمة بحجم القصر، أو كالجمال الصفراء المسرعة نحو كل صوب، يا له من مكان، إن كان ظلّه هكذا فكيف بناره؟!

ويالها من عبارات مرعبة ودقيقة، فالناس يهربون عادة من الحرارة إلى الظل، بينما لا ظل هناك سوى ظل الدخان الذي تنبعث منه النيران، وقد كان تصوّر مثل هذا الدخان صعباً في أيّام نزول هذه الآيات، فساحات الحروب الإجرامية اليوم وما تلقى فيها من قنابل تُغطّي كل شيء بالدخان والنار فيها قد تكون صورة مصغّرة لذلك العذاب الأكبر، إضافة إلى وجود شرر كبير الحجم وشواظ من نار تتطاير في مساحات واسعة، وهذا كله في ظلال تلك النّار[1].

وقد تكون كلمة «القصر» إشارة إلى قصور الظالمين، ولعل تشبيه شرر جهنّم بها، أي بتلك القصور التي تؤجج النيران دوماً في قلوب المحرومين، يعكس معنىً عميقاً ودقيقاً، وكذلك التشبيه بالجمال الصفر ذات النمط ابو حد فهو رمز لثروة المستكبرين، وهو أيضاً تعبير آخر ذو مغزىً عميق في هذا السياق

وقد يتوهّم البعض أن تشبيه الشرر بالقصر حيناً وبالجمال الصفر حيناً آخر يبدو غير

---

١. يعتقد البعض أنّ الضمير في «إنّها» يعود إلى «النّار» وهو مؤنث مجازي، ورغم عدم ذكر النّار في الآية إلّا أنّه يمكن الاستدلال عليها بقرينة ظل الدخان، ولكن الأنسب هو ارجاع الضمير إلى الظل ذي الثلاث شعب وهو الظل الخانق لأنّ الهدف هو الاطلاع على الآثار القاتلة لهذا الظل حتّى يتّضح موضوع النّار بطريق أولى

منسجم وذلك لأنّ أحدهما كبير جداً والآخر صغير نسبياً.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ كل واحد من هذين التشبيهين يركز على جوانب خاصة، فالتشبيه الأول للدلالة على عظمة ذلك الشرر، والتشبيه الثاني يرمز إلى الكثرة والسرعة والتطاير في كل صوب كافتراق الجمال المسرعة في الصحراء أو هو إشارة إلى اختلاف ذلك الشرر، فشررها الكبير بحجم قصور الظالمين، وشررها الصغير بحجم جمالهم الصفر.

«الجمالة»: جمع *«جَمَل»* أي البعير مثل حَجَر وحِجارة، و*«صُفْر»* جمع أصفر وهو اللون المعروف، وتُطلق أحياناً على الألوان الغامقة المائلة إلى السواد أيضاً، لكن الأنسب هنا هو المعنى الأول.

ﮋﮊ

وتلحظ في الآية الخامسة والأخيرة عبارة أخرى تصف شدّة عذاب النّار حيث تقول ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

فهذه صورة تعكس العذاب الأليم في جهنّم حيث يعيش المعذّبون فيها حالة بين الموت والحياة فلا هم يموتون وفي ذلك راحة لهم، ولا الحال التي يحيونها يمكن أن يُطلق عليها اسم الحياة، كما هو حال من يعيش في عذاب شديد في الدنيا فيجعله يتخبّط بين الموت والحياة.

وكلمة *«النّار الكبرى»* في مقابل النّار الصغرى والتي هي عذاب هذه الدنيا.

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: *«إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم، وقد اطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت، ولولا ذلك ما استطاع آدمي يُطيقها»*[1].

ونُقل نفس هذا المعنى عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله.

واحتمل بعض المفسرين أن تكون *«النّار الكبرى»* هنا إشارة إلى قسم من جهنّم عذابه

١. تفسير الإمام العسكري عليه السلام وفقاً لما جاء في بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨٨، ح ٢٠.

أشد (أي أدنى الطبقات فيها)[١]. ولكن يبدو أنّ التفسير الأول يناسب الحال أكثر من التفسير الثاني.

كان هذا جانباً من الأبعاد الواسعة لنار جهنّم وشدّة عذابها الأليم.

٢ و ٣ ـ الطعام والشراب القاتل لأصحاب النار

تمهيد:

ذكرنا مراراً بأنّ المعاد يتحقق ببعديه الجسمي والروحي، وعلى هذا الأساس فالجزاء له بُعدان أيضاً، ومن جملة القضايا التي تكون مدعاة للذة الجسم أو سبباً لعذابه هي الأطعمة والأشربة، فالطعام الكريه والفاسد النتن والمحرق يعتبر عذاباً أليماً بينما الطعام أو الشراب اللذيذ والطيّب تكون سبباً لارتياح الجسم ولذّته حتّى أنّه يؤثر على روحية الإنسان أيضاً وتبعث فيها البهجة والانشراح على العكس من الأشربة الفاسدة التي تسبب الألم للجسد وللنفس.

ومن أجل التركيز على الجوانب التربوية لوجود جهنّم، حذّر القرآن المجرمين والمسيئين بشدّة من نتائج أعمالهم القبيحة وأماط اللثام عن النوعية الرديئة للأطعمة والأشربة في جهنّم وعرض لهم جانباً منها، والتعابير المستخدمة في هذا الصدد تثير الفزع والرهبة لدى كل إنسان، وبعد هذا التمهيد المختصر نعود إلى القرآن الكريم لنمعن في آياته الآتية:

١ ـ ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ (الدخان / ٤٣ ـ ٤٦)

٢ ـ ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ (الصافات / ٦٢ ـ ٦٤ ـ ٦٦)

٣ ـ ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾. (الحاقّة / ٣٥ ـ ٣٧)

---

١. تفسير الميزان، ج ٢٠، ذيل الآية مورد البحث.

٤ـ ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۞ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۞ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾. (الغاشية / ٤ـ٧)

٥ـ ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف / ٢٩)

٦ـ ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ۞ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۞ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ (النبأ / ٢١ـ٢٥)

٧ـ ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۞ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[1]

(إبراهيم / ١٥ـ١٧)

جمع الآيات وتفسيرها

الزقوم ـ الحميم ـ غسلين ـ الضريع ـ الغساق ـ الصديد

نلاحظ في الآية الأولى أول تعبير عن طعام أصحاب جهنّم، وهو شجرة الزقوم حيث يقول تعالى في قرآنه الكريم. ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾.

للمفسرين وأصحاب اللغة آراء كثيرة في معنى كلمة «الزقوم» التي تكررت ثلاث مرّات في القرآن الكريم[2] فقال البعض إنّها كلمة عربية ومشتقة من المصدر «زَقْم» على وزن (زَقْم) وتعني البلع وقال آخرون إنّ هذه الكلمة لم يكن لها وجود في اللغة العربية ودخلت الأوساط العربية من أفريقيا (الحبشة).

---

١. ورد في آيات عديدة أُخرى تعابير شبيهة بالآيات المذكورة، من جملة ذلك الآية ١٣ من سورة المزمّل؛ والآية ٧٠ من سورة الأنعام، والآية ٤ من سورة يونس، والآية ٥٧ من سورة ص، والآية ٤٦ من سورة محمد (ص)؛ والآيات ٥٢ـ٥٧ من سورة الواقعة.

٢. الآيات: ٦٢ من سورة الصافات، و ٤٣ من سورة الدخان، و ٥٢ من سورة الواقعة.

واعتبرها بعض المفسرين وأصحاب اللغة إسماً لعشب شديد المرارة كريه الرائحة له أوراق صغيرة وينمو في أقليم تهامة من شبه جزيرة العرب وكان المشركون يعرفونه جيداً، وهو عشب عصارته شديدة المرارة وحادّة الطعم إذا لامس الجسم تورّم [1].

و يعتقد الراغب في «مفرداته» أنّ «الزقوم» تعني كل طعام تشمئز منه النفس وهو طعام أصحاب النّار.

وقال بعض المفسرين: عندما نزلت هذه الكلمة في القرآن قال كفار قريش: «ما نعرف هذه الشجرة، فقدم عليهم رجل من أفريقيا فسألوه فقال: هو عندنا «الزُّبد والتمر»، فقال ابن الزِّبَعرى: أكثر الله في بيوتنا الزقوم فقال أبو جهل لجاريته: زقّمينا، فأتته بزبد وتمر، ثم قال لأصحابه: تزقّموا، هذا الذي يخوّفنا به محمد، يزعم أنّ النّار تنبت الشجر والنّار تحرق الشجر» [2].

وقد أدّى هذا التفسير ببعض أصحاب اللغة والمفسرين إلى اعتبار هذا المعنى هو أحد معاني الزقوم ظناً منهم بحديثه ووقعيته لتفسير المذكور، كما نقل عن الجوهري قول في لسان العرب: «الزقّوم اسم طعام لهم فيه تمر وزبد».

أمّا المجموعة الثانية من الآيات فانّها تعطي توضيحاً أكثر لأوصاف «الزقوم» هذا الطعام الكريه المعد لأصحاب النّار، فتقول: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾.

وأول ما نواجه هنا الاعتراض الذي طرحه أبو جهل وقال مستهزئاً وهل ينمو الشجر في النّار؟ فالنار عدو الشجر فهي تحرقه.

لكن هؤلاء المغرورين الظلمة فاتهم أنّ القوانين المهيمنة على الحياة الأُخرى مغايرة تماماً لما هو سائد في هذه الحياة، فقد ينمو في الجنّة عشب أو شجر ينبثق من قعرها وهو

---

1. تفسير مجمع البيان؛ وتفسير مروج البيان؛ وتفسير روح المعاني
2. تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٥٢٩، ذيل الآية ٦٢ من سورة الصافات

على لونها ويكبر في ظل ظروفها ولا يشبه الأعشاب التي تنمو في حدائقنا وحتّى في الحياة الدنيا توجد عجائب من هذا القبيل إذ تنمو مخلوقات حيّة بين طبقات الثلج وهذا دليل على أنّ الحياة للكائنات الحيّة هناك لا يشترط فيها أن تكون (كحياة الكائنات الحيّة المعروفة في بيئتنا العاديّة. أوَليس من العجيب بقاء الإنسان حيّاً في جهنّم؟! فما الفرق بين الإنسان والعشب؟).

أمّا تشبيه فروع هذه النبتة «برؤوس الشياطين» مع أنّ مخاطبي هذه الآيات لم يكن أحد منهم قد رأى الشيطان ولا رؤوس الشياطين. فقد يكون من باب تشبيه كلّ قبيح بالشيطان، كما يُشبّه كل كائن جميل بالملاك رغم أنّ أحداً لم ير الملاك. فنسوة مصر قُلن عن يوسف: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف / ٣١)

وفي محادثتنا اليومية نقول أحياناً أنّ شخص فلاني كـ «العفريت» مع أنّ أحداً لم يكن قد رأى «العفريت»، بل العفريت كائن وهمي لا وجود له

وكل هذه التشبيهات جاءت على أساس التصوّر الموجود لدينا عن كلمة «الملاك» و «الشيطان»، وهي على العموم تشبيهات بقبحه ومؤثّرة وجميلة

وعلى هذا فالزقوم ليس كريه الطعم والرائحة فقط بل وحتّى شكله الظاهري قبيح جداً، على العكس من الكثير من النباتات النامية في هذه الدنيا ذات المظهر الجميل

وقال جماعة من المفسرين أيضاً: إنّ أحد معاني الشيطان هو حيّة قبيحة المظهر شبّهت بها تفرّعات الزقوم. لكن هذا التفسير يبدو مستبعداً، لأنّ استعمال الشيطان في مثل هذا المفهوم نادر جداً.

٭٭٭

وفي المجموعة الثالثة من الآيات ورد اسم طعام آخر من أطعمة أصحاب النّار وهو «غسلين». فقالت الآية الشريفة: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾

تعني كلمة «الغسل» التي وردت مرّة واحدة في القرآن الكريم: التنظيف بالماء. وهي مأخوذة من المصدر «غسل». قال الراغب في «المفردات»: إنّ «الغسلين» هو غسالة أبدان الكفّار، لكن المعروف بين المفسرين وأصحاب اللغة أنّه دم يشبه الماء يخرج من أبدان أصحاب النّار، وبما أنّه يشبه الماء الذي يغسل فيه الإنسان لذلك سمّي بـ«الغسلين». ولعل الراغب قصد نفس هذا المعنى في مفرداته، لكن بعضهم اعتبر «الزقوم» و«الغسلين» بمعنى واحد، وهو -كما قلنا- نبات كريه الطعم والرائحة ومخصص لأهل جهنّم. لكن المشهور هو المعنى الأول.

ويواجهنا في الآية الرابعة تعبير آخر بشأن طعام أصحاب النّار وهو اسم «الضريع» وبه أشارت الآية إلى فئة من المجرمين قائلة: ﴿تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾

وقد ذكرت لكلمة «الضريع» معانٍ وتفاسير مختلفة لكنها متقاربة المعنى، فقال جماعة إنّه نبات أخضر كريه الرائحة يلفظه البحر[1]، وقال جماعة آخرون إنّه نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشِّبرق إذا كان رطباً، فاذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا ترعاه، وهو سمٌ قاتل[2].

وقال بعضهم أيضاً: إنّ الكلمة مأخوذة من المصدر «ضرع» بمعنى الضعف والذلّة وقالوا: «هو طعام يضرعون عنده ويذلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلباً للخلاص منه، فسُمي بذلك، لأنّ آكله يضرع في أن يُعفى منه، بكراهته وخشونته»[3].

ورد في حديث عن الرسول محمد ﷺ أنّه قال: «الضريع شيء يكون من النّار يشبه

---

١. العين للخليل بن أحمد.

٢. تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١١٩.

٣. المصدر السابق، ص ٧١٢.

الشوك، أشدّ مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحرّ من النّار، سمّاه الله ضريعاً» [١]

ويفهم من جملة ﴿ لاَ يُسْمِنُ وَ لاَيُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ أنّ مثل هذا الطعام لا يقوّي الجسم ولا يشبع من الجوع، بل هو طعام غصص وهو بذ ته نوع من العذاب. كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾. (المزمل / ١٣)

ولكن ينبغي عدم التعجب من مثل هذا العذاب الصارم الذي هو في انتظار المجرمين الذين كانوا يملأون بطونهم في هذه الدنيا بأنواع الأطعمة اللذيذة الدسمة والحلوة والتي يحصلون عليها بالتجاوز على حقوق الآخرين بأنواع المظالم والتعدّي، بينما توجد حولهم الكثير من البطون الجائعة التي لم تشبع طيلة عمرها ولا حتّى مرّة واحدة، ويموت سنوياً ملايين الأشخاص جوعاً في البلدان الأخرى وفي الوقت الذي يرمي المجرمون بالفاضل من طعامهم في المزابل، يجب أن يأكلوا مثل هذا الطعام في العالم الآخر.

ونرى هنا ضرورة إعادة الكلام الذي كررناه مرّات متعددة وهو أنّ هذه التعابير كلها إشارات إلى أليم العذاب في العالم الآخر، وإلّا فلا نعيم الجنّة ولا عذاب جهنّم يمكن إدراكها من قبلنا نحن المحبوسين في سجن الدنيا. وكل ما نشاهده هو شبح يتراءى لنا من بعيد.

وهنا يرد اعتراض بديهي وهو أنّ الآية (٦) من سورة الغاشية تفيد أنّ طعام أهل النّار هو من «الضريع» فقط: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ بينما تذكر الآيات الآنفة نوعين آخرين من طعام أهل النّار وهما *«الزقوم»* و*«غسلين»*. وكذلك الآية ٣٦ من سورة (الحاقّة) تحدّثت عن الغسلين وقالت إنّه الطعام الوحيد لأصحاب جهنّم.

وقد وردت أجوبة مختلفة عن هذا السؤال، وأهمها الثلاثة الآتية:

١ ـ إنّ كلمات *«الضريع»* و*«الزقوم»* و*«الغسلين»* تعطي جميعاً معنىً واحداً وهو النبات الخشن كريه الطعم والرائحة والذي ينمو في جهنّم (لكن هذا التفسير لا يتّسق مع ما جاء بشأن الغسلين في الكثير من كتب التفسير واللغة).

٢ ـ اعتبر البعض كلمتي *«الزقوم»* و*«الضريع»* بمعنى واحد وهو ما سبقت الإشارة إليه

---

١ تفسير مجمع البيان، ج ٩ ـ ١٠، ص ٤٧٩، ذيل الآية مورد البحث.

ويمثل طعام أصحاب النّار، أمّا «غسلين» فهو شرابهم، والتعبير عن الأشربة بالطعام ليس بالأمر الجديد.

٣ـ أنّ الأطعمة الثلاثة المذكورة أعلاه يختص كل لون منها بطائفة خاصة من أصحاب النّار مستقرة في طبقة واحدة منها، وهذا الجواب هو الأنسب من بينها.

ﱫﱪ

وفي الآية الخامسة يتكرر الحديث عن الشراب الرديء لأصحاب النّار، فقالت الآية الشريفة في وصف حالهم: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾

يُلاحظ أنّ هذه العقوبات القاسية قد أُعدّت للظالمين الذين كانوا يعيشون مُنعمين مُترفين في هذه الدنيا خلف ستائر رقيقة ملوّنة يحتسون أنواع وألوان الشراب السائغ اللذيذ وتزهو حفلات شرابهم بسُقاة صبوحي الوجوه، أمّا في جهنّم فهم يتعذبون خلف ستائر من نار وحينما يطلبون الماء يُسقون بماء كأنّه المعدن المذاب وحرارته دموع اليتامى وآهاتهم لأنّ ما يظهر هناك هو تجسيد لما كان هنا.

فهل يمكن شرب الماء الذي تشوي حرارته الوجوه؟ يدل هذا على أنّ بُنية الإنسان تختلف هناك كثيراً عمّا هي عليه هنا، وأنّ بدنها قد وضع بالشكل الذي يحتمل كل هذه الأمور، فهو يذوق الألم والعذاب من غير أن يموت، أو أنّ ذلك إشارة إلى أنّه حينما يرى مثل هذا الماء ينصرف عن تناوله ويبقى يتلوّى في نار العطش.

وكلمة «المُهل» على وزن *(قُفل)* تعني ـ كما قال جماعة من المفسّرين وأصحاب اللغة ـ ما يتبقى في أسفل آنية الزيت فيكون وسخاً كريه الرائحة عادة.

وقال المرحوم الطبرسي ﷺ في مجمع البيان: «إنّه المعدن المذاب في حين خصصه بعضهم بالنحاس المذاب» وقيل إنّه ماء أسود فجهنّم سوداء وماؤها أسود وشجرها أسود

وأهلها سود[1]. وقال آخرون: «إنّه ضرب من نُقطران، وقيل: هو السمّ»[2]

إنّ هذه المعاني وإن كانت متفاوته، إلّا أنّ نتيجتها واحدة وهي الألم والعذاب الأليم لأصحاب النّار.

8003

وفي القسم السادس من الآيات يلاحظ تعبيران آخران بخصوص أشربة أصحاب النّار، وهما «الحميم» و«الغساق» وقد جاء أحدهما إلى جانب الآخر، فتقول الآية: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾ (النّبأ / ٢٤ـ٢٥)

وقد فسّر أكثر المفسرين كلمة «الحميم» بمعنى الماء الحار الحارق، والكلمة مشتقّة من «حَمّ» وتعني الحرارة. و«الغساق» مأخوذ من المصدر «غَسَق» وتأتي هذه الكلمة أحياناً بمعنى الظلام وأحياناً بمعنى الجريان والانسياب، وهو هنا الصديد الذي تنصح به أجسام أصحاب جهنّم.

وممّا لا يخفى أنّ الشخص الذي يكون إلى جانب النّار أو في داخلها يصيبه العطش الشديد، وحتّى في أجواء الصيف الحارّة يغلب مثل هذا العطش ولا يروى إلّا بتناول مقدار من الشراب البارد، أمّا أصحاب النّار فلا شراب بارد لديهم، بل إنّ شرابهم حار كحرارة النّار فيزيد من عطشهم.

ولكن هل يعني هذا الكلام أنّهم عند مشاهدتهم لهذا الشراب ينصرفون عن تناوله ويبقون يتحرّقون في نار العطش؟ أم أنّهم يشربونه بالاجبار، فيتزايد عطشهم شيئاً فشيئاً؟ إنّ التعبير عن تلك الحالة بكلمة «الشرق» يجعل الموقف مناسب للتفسير الثاني

رغم أنّ البعض يميل إلى تفسير كل هذه العبارات والتهديدات بخصوص أصحاب النّار تفسيراً معنوياً وروحياً، كنتيجة للابتعاد عن الله والاقتراب من أُفق الشياطين، ولكن كما قُلنا مراراً لا يحق لنا حمل الألفاظ على خلاف ظاهرها بلا قرينة واضحة.

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٦٦؛ وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤٠١١.

٢. تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٤٠١١.

وفي المجموعة السابعة والأخيرة من هذه الآيات ورد ذكر شراب أصحاب النّار بتعابير أُخرى، كما في الآية الشريفة: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾

كلمة «*الصديد*» أصلها (*الصد*) وتعني الاعراض والعدول والانحراف عن الشيء، ثم أُطلقت على الجراح والصديد الذي يتجمع بين الجلد واللحم أثناء حصول أي جرح وربّما سبب ذلك هو انحراف المزاج وتغيّره من السلامة إلى المرض.

يقول الراغب في المفردات: وضرب مثلاً لطعام أهل النّار (بأنّه طعام رديء وكريه الرائحة والطعم).

والدليل على كونه فاسداً ورديئاً هو أنّهم لا يشربونه عن رغبة أبداً بل كرهاً واجباراً ويتحملونه جرعة فجرعة، وهم في موقف مرير ومؤلم وكأنّ الموت يتهددهم من كل صوب إلّا أنّهم خلقوا بالشكل الذي لا يموتون فيه حتى مع هول جرائمهم

وممّا يستدعي النظر هنا هو أنّ هذا العذاب الأليم المذكور في هذه الآية والآيات الأخرى يختص بالظالمين والجبابرة والطغاة (حيث وردت أحياناً كلمة «طاغين» وأحياناً كلمة «جبار» وكلمة «*الظالمين*» في أحيان أُخرى وهذه هي عاقبة الظلم والجور وما هي إلّا تجسيداً لما صدر عنهم من عذاب بحق الأبرياء الذين كانوا كثيراً ما يقضون السنوات الطويلة في سجونهم لا يذوقون إلّا أردأ أنواع الطعام والشراب، ويتعرّضون لأشدّ العذاب حتى أنّ مظاهرهم تتغيّر ولا يعود أحد يميزهم حتّى امّهاتهم (كما هو الحال في وقائع سجناء الحجّاج الرهيبة وفي عصرنا الحالي ربّما أو سمعنا بنماذج منها بحق المسجونين في سجون الطغاة).

فهل أنّ أمثال هؤلاء لا يستحقّون مثل ذلك العذاب؟

يتّضح من مجموع ما ورد في هذه الآيات أنّ إحدى أسوأ العقوبات التي يواجهها أهل النّار هي الطعام والشراب أي الأشياء التي ينبغي أن يلتذ بها الإنسان فتصبح وبالاً عليه

وسبباً للعذاب والألم. وقد وُصف طعامهم بـ«الزقوم» حيناً وبـ«الضريع» حيناً وبـ«الغسلين» حيناً آخر، ووصف شرابهم بكلمات من قبيل «المهل» و«الصديد» أحياناً أو«الغساق» أحياناً أُخرى، وهي عين العموم أوصاف للأطعمة والأشربة الحارّة المحرقة الكريهة الطعم والرائحة، وكلّما تمعنّا في أعمال هؤلاء المجرمين في الدنيا وما ارتكبوه بحق المظلومين، فلن نعجب من شدّة تلك العقوبات

ندعو الله تعالى أن يجنّبنا بلطفه وكرمه كل ذنب تتبعه مثل هذه العقوبات

ﮜﮝ

٤ـ ثياب أهل النّار

تمهيد

كل شيء في النّار عليه صبغة العذاب والعقاب، حتّى الثياب التي تلبس عادة للوقاية من الحر والبرد ووسيلة لمواجهة بعض الأضرار التي قد تصيب البدن. وتُتخذ كذلك كأداة للزينة والتجمّل، نعم، حتّى هذه الثياب تتحول هناك إلى واحدة من أسباب الألم والعذاب.

نعود إلى القرآن بعد هذا التمهيد السريع ونقرأ خاشعين الآيات الآتية:

١ـ ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾. (الحج / ١٩ـ٢٢)

٢ـ ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾. (إبراهيم / ٤٩ـ٥٠)

جمع الآيات وتفسيرها

أشارت الآية الأُولى إلى طائفة من الكفّار الذين يجادلون باستمرار حول الخالق جلّ شأنه، فتقول: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾.

فهل يُفهم من هذا الكلام أنّ النّار محيطة بهم من كل جانب وكأنّها عدت لباساً لهم؟ أوقطعاً حقيقية من النّار قد فُصّلت لهم وحيكت على هيئة الثياب؟ ظاهر الآية يشير إلى صحّة التفسير الثاني، والأكثر إيلاماً لهم من ذلك أنّهم، ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

ثم تصف الآية فعل هذا الماء الحميم على بطونهم وجلودهم قائلة: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾

كلمة «يصهر»: مأخوذة من المصدر «صَهر» على وزن (نَهر) ويعني إذابة الشحم أو ما أشبهه، وتُطلق أيضاً على كل ما يحمى ويتغير بفعل حرارة الشمس.

ثم تتحدث الآية عن العقوبات الأخرى قائلة: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

«المقامع»: جمع «مِقمع» على وزن «مِنبر» وفُسّرت أحياناً بمعنى السوط وأحياناً أخرى بالعمود الذي يُضرب به على رأس الشخص.

ثم أخيراً تصوّر الآية وضعهم الأليم بالهيئة الآتية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

لا شك أنّ هذه العقوبات المؤلمة حتى وإن حصل أقل منها في الدنيا تؤدّي إلى موت الإنسان، لكن البناء الجسدي للمجرمين هناك يكون بالشكل الذي لا يؤدّي إلى القضاء عليهم لتنفيذ هذه العقوبات، ليذوقوا جزاء أعمالهم، وهذا يدل على أنّ القوانين السائدة في ذلك العالم تختلف عمّا هو موجود في عالمنا هذا، (فتأمّل).

ﮨ ﮩ

تُشاهد في الآية الثانية تعبيراً جديداً عن ثياب أهل النّار، وورد فيها: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾

«سرابيل»: جمع (سربال)، قال الراغب في المفردات، هو القميص من أي مادة كان.

وورد نفس هذا المعنى أيضاً في «لسان العرب» و«صحاح اللغة»، وفسّرها البعض الآخر بأي نوع من الثياب.

وجاء في كتاب «التحقيق» أنّ السربال يعني الثوب الذي يغطّي القسم الأعلى من البدن، وكلمة «سروال» بمعنى الشيء الذي يغطّي الجزء الأسفل منه، وأُطلقت لفظة السربال أيضاً على القماش الذي لم يُخط ويُلقى على البدن وعلى الدرع التي تلبس في الحرب.

أمّا «*القطران*» (ويُلفظ أحياناً قَطْران وأحياناً قِطران) فيعني مادّة سوداء قابلة للاحتراق وتبعث عند احتراقها رائحة كريهة، وتستخرج هذه المادّة من شجرة تسمّى *(الأبهل)* وتُغلى حتّى تصبح صلبة القوام وتطلى بها أبدان الجمال لعلاجها من الجرب فكانوا يعتقدون أنّ هذه المادة تزيل الجرب [١].

وهناك نوع آخر من القطران أيضاً ويستخرج أثناء تقطير الفحم الحجري لإعداد الغاز منه.

ويُفهم من بعض الكتابات أنّ القطران سائل دهني لاصق يُستخرج من الأخشاب التي تفرز الصمغ ومن أشجار أُخرى، ويُستفاد منه في البيطرة لعلاج الالتهابات [٢].

وعلى أيّة حال يُستفاد من الآية المذكورة أنّ أبدان أهل النّار تُغطّى بمادة سوداء قابلة للاحتراق بدل الثياب، وكل شيء فيها على عكس ممّا يتوقعه الإنسان من الثياب، فهو يتوقع أنّ الثياب زينة، وتقي الإنسان من مخاطر الحر والبرد، إلّا أنّ هذه الثياب المخصصة لأهل النّار قبيحة وكريهة المنظر، وكريهة الرائحة أيضاً وتحترق في نار جهنّم.

هذا جزاء من كان يتبختر أمام اليتامى والمستضعفين الحُفاة بأفخر أنواع الثياب الموشّاة بالذهب يتفاخرون عليهم فيحرقون قلوبهم، فهذا نصيب الظلمة والمجرمين من الثياب في يوم القيامة.

ﮪﮫ

١ـ تفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٤٨.

٢ـ قاموس فرهنك معين، كلمة (قطران).

صائر العذاب الجسدي لأهل النّار:

تمهيد

تمثّل جهنّم مبدئياً مركز الغضب الإلهي وكل شيء فيها مطبوع بطابع العذاب والعقاب بألوانه وأشكاله المختلفة التي يتصورها الذهن أو لا يتصورها ومُعَدٌّ للظالمين والمجرمين.

وقد أشار القرآن الكريم في مواضع متفرقة إلىٰ جوانب من ذلك العذاب (سوىٰ ما تمّ ذكره)، نقرأ نماذج منها في الآيات الآتية:

١ـ ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾. (الواقعة / ٤١ـ٤٤)

٢ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾. (النساء / ٥٦)

٣ـ ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾. (التوبة / ٣٤ـ٣٥)

٤ـ ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً * لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾. (الفرقان / ١٣ـ١٤)

٥ـ ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾. (المؤمنون / ١٠٤)

٦ـ ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾. (غافر / ٧١ـ٧٢)

٧ـ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾. (غافر / ٤٩ـ٥٠)

❧

جمع الآيات وتفسيرها

٥ ـ سائر عذابهم الجسدي

رياح مهلكة، وظلال محرقة:

قسّمت الآية الأولى الناس إلى ثلاث فئات وهي: فئة «المقربين» و«أصحاب اليمين» و«أصحاب الشمال». ثم قالت عن أصحاب الشمال (وهم الذين يتسلمون كتبهم بيد بشمائلهم دلالة على سوء عملهم) إنهم: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

وفي الحقيقة أنّ النّار كالجنّة فيها ماء وهواء ونسيم وظل، ولكن ياله من نسيم، فقد سمّاه القرآن بـ«السموم».

«السموم»: مأخوذة عن كلمة (السم) وتعني الهواء اللاذع من شدّة حرارته الّذي يدخل المسام (الفتحات الدقيقة على جلد الإنسان) ويسبب هلاكه.

(وقد سمّيت كلمة «السّم» بهذا الاسم لأنّها تنفذ إلى جميع دقائق وثغرات الجسم، لأنّ السّمّ على قول الراغب يعني أي فتحة دقيقة كفتحة الأبرة وفتحة الأنف والأذن) [1]

ويوجد لديهم ماء أيضاً إلّا أنّه حار وقاتل، ولديهم ظل إلّا أنّه من دخان أسود كثيف وحار!

حين يتعرض الإنسان للحرارة الشديدة في هذه الدنيا، فإمّا أن يجعل نفسه عرضة لمهب النسيم أو يدخل في الماء أو يلتجيء إلى الظل، وهذه الثلاثة كلها حارة وقاتلة هناك على العكس من الجنّة التي تكون أماكنها الواحدة أبرد من الأخرى وأكثر إثارة للبهجة والارتياح.

✽✽✽

---

١. جاء «قاموس اللغة» إنّ كلمة «السموم» تطلق على الرياح الحارة التي تهب في النهار وهي في مقابل «الحرور» وهي الرياح الليلية الحارّة.

جاء الفخر الرازي في تفسيره: إنّ السموم هي الرياح المتعفّنة التي عندما يستنشقها الإنسان يتعفن قلبه فيهلك. (التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ١٦٨)

وأشارت الآية الثانية إلى واحدة أخرى من العقوبات الصارمة للكفرة، فقالت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً﴾[1]

ثم تضيف: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

والجملة الأخيرة هي في الحقيقة إجابة عن هذا السؤال: هل أنّ عذاباً كهذا ممكن؟ وإن كان ممكناً فهل هو عادل؟! القرآن يقول: إنّ هذا على الله يسير ولا يتعارض مع حكمته أيضاً.

وعُرِض بين المفسرين سؤال معروف وهو: إذا تبدّلت هذه الجلود بجلود أُخرى، فما ذنب هذه الجلود الجديدة حتّى تتعذب؟

طرح المفسرون الكبار اجابات متعددة عن هذا السؤال وأفضلها هو جواب الإمام الصادق عليه السلام حين أجاب عن السؤال الذي طرحه «ابن أبي العوجاء» بعد قراءة هذه الآية: «*ما ذنب الغير*»؟

فأجاب الإمام عليه السلام جواباً غنياً ومقتضباً: «*هي هي وهي غيرها*».

قال: فمثل لي في ذلك شيئاً من أمر الدنيا قال: «*نعم أرأيت لو أنّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثم ردّها في ملبنها فهي هي وهي غيرها*»[2]

ووفقاً لهذه الرواية، فإنّ جلوداً جديدة ستنشأ من الجلود الأولى فتتغيّر الصورة مع الحفاظ على وحدة المادّة.

وقال جماعة أيضاً: إن كانت الصورة والمادة غير الصورة والمادّة للجلود السابقة عندئذٍ لا تحصل أيّة مشكلة لأنّ عذاب القيامة تذوقه الروح لا الجلد، ورأوا أنّ التعبير بـ«*ليذوقوا العذاب*» دليل على صحة هذا القول. ولهذا السبب كثيراً ما يحصل ويرتكب الإنسان ذنباً بعضو فيرسل العقاب على عضو آخر، كأن يشرب الخمر مثلاً فيضرب ثمانين سوطاً على ظهره، فيكون هذا في مقابل ذلك وايذاء الجسم وسيلة لايذاء الروح

---

١. يبدو أنّ تنكير النّار هنا لتبيان عظمتها

٢. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٤، ح ٣١٤

وفي الآية الثالثة إشارة إلى جزاء طائفة أخرى من المسيئين من الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة والدراهم والدنانير ولا يؤدّون ما عليها من حقوق شرعية فتقول الآية الشريفة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم تشير الآية إلى جانب من هذا «*العذاب الأليم*» وتصف: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، ويقال لهم حينها: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

يُعطي هذا التعبير إجابة عن سؤال مهم بخصوص الآيات المتعلّقة بالعذاب الإلهي الشديد يوم القيامة، وهو أنّ هذا الجزاء يُعتبر ثمرة لأعمال العباد ونتيجة فعلهم تتجسد لهم يوم القيامة على هذه الشاكلة، فهم في الحقيقة يذوقون أفعالهم تماماً كالشخص الذي يسرف عدّة أيّام في تناول الخمر فيقع فريسة لأمراض مؤلمة وشديدة ويبقى يعاني منها طوال حياته.

زنزانات جهنّم الانفرادية:

يواجهنا في الآية الرابعة نموذج آخر من العقاب المتنوع الذي يلقاه أهل النّار إذ تقول: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

فيقال لهم لا فائدة من صياحكم وصراخكم هذا فهو لا ينفع شيئاً، فمصائبكم جمّة تستحق الثبور والويل: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

ويتضح جيداً من هذا التعبير أنّهم ليسوا أحراراً حتّى في جهنّم فهم في ما يشبه الزنزانات مقيّدون بالأغلال والسلاسل حتّى تتعالى أصواتهم ولكنّها لا تحلّ لهم أيّة مشكلة.

كلمة «*مقرّنين*» مأخوذة من المصدر «*قرن*»، وتعني في الأصل ـ كما قال الراغب في المفردات: اجتماع شيئين أو أكثر لسبب من الأسباب، وبهذا يطلق على الحبل الذي تُربط به الأشياء «*قَرَن*» على وزن كلمة (*وَطَن*) ويقال «*قَرْن*» للقوم والجماعة الذين يعيشون في

زمان واحد، ويُطلق أحياناً على الزمن لوحده، وحينما تدخل هذه الكلمة في باب التفعيل فذلك دلالة على الكثرة والشدّة.

ولهذا فقد جاء أحياناً تفسير كلمة «مقرّنين» في هذه الآية بمعنى شد وتوثيق أيدي وأرجل أهل النّار، وقال آخرون أيضاً: يربط أهل النّار في ذلك اليوم جماعات جماعات بسلسلة طويلة وهذا تجسيد للارتباط الفكري والعملي للمجرمين الذين كانوا يتعاونون في هذه الدنيا على الفساد والظلم والعدوان على حقوق المظلومين ويتآمرون عليهم.

ولكن لو التفتنا إلى عبارة «مكاناً ضيقاً» لوجدنا التفسير الأول هو الأنسب، وهذا أيضاً تجسيد لأعمالهم في هذه الدنيا حين كانوا يزجّون بالأبرياء في الزنزانات ويقيّدونهم بالسلاسل، أو يفرضون عليهم مثل هذه القيود في الحياة الاجتماعية فيصبحون كالسجناء مسلوبي القدرة على أيّة حركة.

«الثبور»: في الأصل بمعنى الهلاك رغم أنّ صاحب «مقاييس اللغة» قد ذكر له ثلاثة معانٍ وهي: الهلاك، والمراقبة، واللين، ولذا يقال للأرض المتراكم ترابها فوق بعضه كالنورة «ثبرة».

ولكن قد تكون كل تلك المعاني راجعة في الأصل إلى معنى الهلاك، لأنّ اجتياز مثل هذه الأراضي لايخلو من الخطورة، ولما كان الإنسان يشدد في حماية نفسه وممتلكاته في المواقف الحرجة لذا فقد استخدمت هذه الكلمة بمعنى المراقبة أيضاً، وعلى أيّة حال فانّ العربي عندما كان يواجه أمراً خطيراً كان ينادي «واثبوراه» ومعناه: واويلتاه لقد هلكت وهذا ما يعكس شدّة الأذى والشعور بالألم.

ولعل التعبير ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾، فيه إشارة إلى العوامل المتعددة للهلاك أو شدّة أو طول مدّة هذه العوامل في جهنّم، وعلى أيّة حال فهذا أيضاً تجسيد لأعمالهم التي كانوا يمارسونها في هذا العالم وما كانوا يرتكبونه من ذنوب وما يسبّبونه لعباد الله من المصائب والمآسي وما يفتحونه عليهم من أبواب الهلاك من كل صوب.

ﮧ ﮨ

ونلاحظ في الآية الخامسة وجه آخر من وجوه هذا العذاب الأليم، فتقول: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ولهذا ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾

كلمة «تلفح»: مأخوذة من المصدر «لفح» على وزن (فتح) وتعني على قول معظم أصحاب اللغة تأثير حرارة الشمس والنار ورياح السموم على الوجه وتغييره. وتُطلق هذه الكلمة أيضاً على ضربة السيف لشباهتها بضربة حرارة الشمس ولهيب النار ورياح السموم.

وتُستخدم أحياناً كلمة «نفح» بدلاً من كلمة «لفح» على المراحل الأخف.

و«كالحون». مشتقة من «الكلوح» ومعناه حسب ما يراه الكثير من أهل اللغة والمفسّرين هو التعبيس والتقطيب، بينما تبقى الشفاه مفتوحة وهذه الحالة تحصل على وجوه أصحاب جهنّم بسبب شدّة لهيب النار وهي تمثّل في مجموعها وصفاً لتأثير ضربات لهيب النار على وجوههم وهو أمر مؤلم جداً على تلك الوجوه التي كانت كثيراً ما تقطب بوجوه المستضعفين، والشفاه التي تبقى منفصلة عن بعضها للاستهزاء بهم والانتقاص منهم بمضحكات السخرية.

إنّ هذه الأعمال القبيحة المؤلمة تتحول في نهاية المطاف إلى عذاب أليم لهم.

✽✽✽

وفي القسم السادس من هذه الآيات يصف لنا نمط جديد من الجزاء الذي يتعرض له هؤلاء، إذ تقول الآية إنّهم يطلعون سريعاً على نتائج أعمالهم وجزائها: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴾، ثم تضيف الآية: ﴿ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾.

«الأغلال»: جمع «غل»، و«السلاسل» جمع «سلسلة» واختلافهما هو أنّ الغل حلقة توضع في رقبة أو أيدي وأرجل السجناء، والسلسلة هي ما يوثق أو يشد به السجناء أو توضع مباشرة على اليد والرجل والرقبة.

وكلمة «يسحبون» مأخوذة من المصدر «سحب» على وزن (سهل) ولهذا السبب يُقال

للغيوم «سحاب» لأنّها تنسحب على صفحة السماء على نطاق واسع [١].

ويرى بعضهم أنّ هذه الكلمة تعني السحب على الأرض [٢] وهذا مالا يتّسق والآية موضع بحثنا، ولا مع بعض مشتقاتها ككلمة السحاب.

وأشتقت كلمة «يُسجرون» من المصدر «سَجْر» وهو على وزن (زَجْر) وجاء لها ثلاثة معان في كتاب مقاييس اللغة وهي: الملء، والمزاح، والاذكاء، لكن بعضهم يُرجع هذه الفروع الثلاثة إلى أصل واحد ويقول: المعنى الأصل لها هو الهيجان والتساقط من شدّة الامتلاء، ولهذا أُطلقت كلمة «مسجور» و«سجير» على تنّار المذكاة أو المتقدة وعلى البحر الطافح الموّاج، وعلى الصديق الحميم الذي يفيض بالمحبة والاثارة.

واستناداً إلى ما سبق ذكره، فهم يُغلّون ويُشدّون بالسلاسل أولاً ومن ثم يدخلون في الماء الحار المحرق ثم في النّار، ومن الواضح أنّ ادخالهم في النّار بعد الماء الحار سيكون أشدّ ألماً.

وهذا تجسيد لأعمالهم التي كانوا يمارسونها بحق الأبرياء في الدنيا إذ كانوا يذيقونهم أبشع صنوف العذاب، حيث يصادرون حرّياتهم ويسحبونهم بالسلاسل والأغلال.

نستخلص من مجموع هذه الآيات أنّ عقوبات أهل النّار هي ممّا لا يسع لها الوصف، ولا يتحملها أشدّ الناس قوّة وجلداً، إنّها عقوبات أشد ما يكون من القسوة والإيلام.

٭٭٭

توضيح

لماذا يكون العذاب الإلهي شديداً إلى هذا الحد؟

إنّ شدّة وتنوّع وطول مدّة هذه العقوبات تثير هذا التساؤل لدى الكثير من الناس، وهو كيف ينسجم هذا العذاب الأليم مع اللطف الربّاني، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، كيف

---

١. مقاييس اللغة؛ ومصباح اللغة؛ ومفردات الراغب.

٢. التحقيق في كلمات القرآن الكريم؛ وتفسير الميزان في ختام الآية موضع البحث.

تتناسب العقوبات المذكورة مع أعمال أصحاب الجحيم؟ ولعل عدم القدرة على تقديم إجابة شافية على هذا الاعتراض دفع جماعة إلى حملها على معانٍ مجازية أو القول إنّها عقوبات روحية.

لكن الالتفات إلى النقطة التي تُعتبر المفتاح لحلّ مثل هذه المشاكل، والتي لفتنا إليها الانظار مرّات متعددة سيُساعد على فكّ هذا اللغز، وهي أنّ هذه العقوبات تمثل على الأغلب تجسيداً لأعمال الإنسان وهي حصيلة لها

وهو مانشاهد نماذج مختلفة منه في عالمنا هذا!

فهناك مثلاً أشخاص يقعون ضحية لبعض أنواع الإدمان الخطيرة لمجرّد تحقيق لذّة وهمية عابرة، وهذا الإدمان يؤدّي عادة إلى استهلاك كل طاقاتهم وسريعاً ما يتحوّلون إلى كائنات منهكة مُصابة بأنواع الأمراض القاتلة التي يظلّون يعانون منها ومن آلامها بقيّة أعمارهم أو أنّهم يتعرضون للاصابة ببعض الأمراض المستعصية على العلاج نتيجة للانحرافات الجنسية ـ أمثال مرض الإيدز.

إنّ الإنسان عندما يرى الأشخاص المصابين بهذا المرض يتأسّى ويحزن على حالهم ويتأسف على ماهم فيه من الشقاء.

فهل يمكن القول لماذا تصبح حصيلة هذا الادمان أو هذا الانحراف على هذه الدرجة من الشدّة وطول المدّة؟ إذ لايوجد بينهما أي تناسب منطقي

ولو تفوّه أحد بمثل هذا الكلام، لقيل له على الفور: هذه هي نتيجة عملهم وقدا حذّروا وانذروا بها من قبل، ويصدق نفس هذا المعنى على العذاب الذي يلقاه أصحاب جهنّم أيضاً فقد حذّرهم تعالى وأنذرهم مراراً في القرآن الكريم ولكنّهم كانوا معاندين.

وقد لوحظ في كثير من الأحيان أنّ بعض الأشخاص قد تعرّضوا إلى حوادث السيارات ـ لعدم اهتمامهم بمراعاة أصول السوق ـ فأُصيبت منهم الأيدي والأرجل أو العمود الفقري وظلّوا يعانون الألم طوال حياتهم، في حين كان باستطاعتهم تجنّب كل ذلك من خلال الالتزام الصحيح بتعليمات المهنة، فحينما يدور الحديث عن نتائج العمل وآثاره الطبيعية،

لا يبقى هناك أي مجال لطرح التساؤلات المذكورة آنفاً. إضافة إلى ذلك يوجد بين أصحاب النّار أشخاصٌ جلبوا للآخرين مثل هذا العناء وهذا العذاب، ولو تمعّن الإنسان في أنواع التعذيب التي تُمارس في عالم اليوم ـ ناهيك عمّا جرى منه في العصور الغابرة ـ لأيقن أنّ مرتكبيها يستحقون بالتأكيد هذه العقوبات الشديدة، بل إنّ ظلم الظالمين يصل أحياناً إلى حد يبلغ مرحلة من التفنن والتمادي بحيث يحسب الإنسان عدم وجود أية عقوبة تناسب ما اقترفه من جرائم.

ﮋﮊ

٥ ـ العذاب الروحي

تمهيد:

كما توجد في الجنّة نعم وخيرة ولذيذة للجسم والروح، إذ يكمل أحدهما الآخر ولا يمكنهما الانفصال عن بعضهما بسبب اقتران المعاد الجسمي بالمعاد الروحي، فكذلك توجد في جهنّم عقوبات لكلا النوعين، والآيات الشريفة الواردة في هذا الحقل تثبت صحّة هذا القول: فلنقرأ خاشعين هذه الآيات:

١ ـ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. (الحج / ٥٧)

٢ ـ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (آل عمران/١٩٢)

٣ ـ ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

(الحج / ٢٢)

٤ ـ ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۞ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

(المؤمنون / ١٠٧ـ١٠٨)

٥ ـ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ ۞ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾. (المؤمن / ٤٩ـ٥٠)

٦ ـ ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ (الفرقان / ١٢)

٧ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1]. (التحريم / ٦)

---

١ هناك أيضاً آيات أخرى تحتوي على نفس هذه المضامين وردت في سور المجادلة، ٥؛ السجدة، ٢٠؛ الأعراف، ٥٠؛ الحاقة، ٣٥

٨ـ ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾. (الأعراف / ٤٤)

جمع الآيات وتفسيرها

الحزن والهم القاتل والحسرة اللامتناهية:

المقصود من العقوبات والآلام الروحية مجموعة من الممارسات التي تضغط على روح الإنسان ونفسه وإن كانت لا تؤثر على جسمه في الظاهر أو أن لها تأثيراً ثانياً إذ تؤدي الجسم مباشرة وتؤلم الروح أيضاً.

فنرى في الآية الأولى نموذجاً لهذا القسم الثاني إذ تقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

لم يتسع حديث القرآن هنا لاعطاء مزيد من الايضاحات حول كيفية هذا العذاب، والاسلوب الذي يؤدّي لإهانة وإذلال أصحاب النار بل أشار إلى الموضوع إشارة عامّة تشمل ـ بلا شك ـ جميع الجوانب المهينة في عذاب جهنّم التي تؤدّي إلى إذلال المستكبرين الطغاة ودفعهم إلى أدنى درجات الذلّة.

وقد احتمل بعض المفسّرين «كالقرطبي» أنّ العذاب المهين إشارة إلى المصير الذي آل إليه المشركون في معركة بدر، ولكن لو التفتنا إلى الآية السابقة التي تحدثت عن «جنات النعيم» للمؤمنين لرأينا أنّ الآية دالّة على العذاب المهين الموجود في النّار.

وعلى كل حال يدل هذا التعبير الذي ورد عدّة مرّات في القرآن الكريم على أنّ عذاب الجحيم مقرون بأنواع الاهانات التي تؤلم كلاً من الروح والجسد، وهذا تجسيد للتحقير والاستهانة التي كانوا يبدونها للأنبياء والمؤمنين والمستضعفين من أهل الإيمان، وهذا مايستلزم أن يتلقّوا في ذلك اليوم نتيجة عملهم بهذه الصورة.

وفي الآية الثانية كان الحديث عن فضيحة أهل النّار وهذا هو عذاب معنوي مؤلم، فقد نقلت لنا الآية ذلك على ألسنة العلماء من أهل الإيمان الذين اطلقت عليهم «أولو الألباب»

فقالت: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾.

«أخزيته» مأخوذة من (الخزي) ولها معانٍ عديدة في كتب اللغة مثل، سوء الحال، والابتعاد، والذلّة، والافتضاح، والاستهانة، ونفس هذه المعاني وردت في كلام المفسّرين أيضاً[1].

ويتضح من سياق الآية أنّ العقوبات المعنوية يوم القيامة أكثر إيلاماً، لأنّ أولي الألباب يطلبون من الله عزّ وجلّ أن لا يدخلهم النّار ويقولون إنّك من أدخلته النّار فقد أخزيته إشارة إلى أنّ الشيء الأسوء من النّار هو ذلك الخزي، تماماً مثل بعض الأشخاص الذين لا يأبهون كثيراً بدخولهم السجن ولكنهم يحرصون كثيراً على عدم انتشار هذا الخبر، لأنّ انتشاره يؤدّي إلى فضيحتهم في المجتمع وهو ما يعتبرونه أشدّ إيذاءً وإيلاماً من السجن ذاته.

أمّا جملة ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾، فهي إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ كل ما يجري عليهم اليوم إنّما جاء نتيجة لظلمهم (ظلم النفس) أي يفتضحوا هناك ويُذلّوا ولا يجدون ناصراً ولا معيناً، (هذا التعبير لا يتنافى طبعاً مع قضية الشفاعة لمن يستحقّها، لأنّ المقصود هنا نفي الناصر الذي يعين الظالمين بقدرته وسطوته، لا عن طريق الاستعانة بالقدرة الربّانية).

ﷻ

وتطرّقت الآية الثالثة إلى موضوع الغم والحزن الذي يعاني منه أصحاب جهنّم وهو ما يعكس آلامهم النفسية، وقالت: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾.

قال الكثير من المفسّرين إنّهم كلما أرادوا الخروج من هذا الغم والتحرر منه واللجوء إلى أطراف جهنّم، يقوم خزنتها بإرجاعهم بالهراوات أو المقامع النّارية، لأنّ الآية السابقة قد

---

[1] مقاييس اللغة، مصباح اللغة، صحاح اللغة، لسان العرب، والتحقيق في كلمات القرآن الحكيم، وجاء في تفسير مجمع البيان معنيان اثنان لكلمة الخزي وهما، الهلاك، والوقوف في موقف الفضيحة والذل.

أشارت إلى هذا المعنى وخاصّة الجملة التي تنص على: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

(الحج/٢١)

وجملة: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ التي تدل لهم من باب التعريع والاستهانة تُعتبر هي الأخرى نموذجاً لهذا العذاب النفسي[١].

كثرة اللوم والتقريع:

نواجه في الآية الرابعة صورة جديدة للإهانة والاحتقار التي يلقاها أصحاب النّار وهذا -كما قلنا- نوع من العذاب النفسي الأليم، وتقول الآية المباركة: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فيقال لهم من قبل الله تعالى ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾

وقد صرّح جميع أصحاب اللغة والمفسرون بأنّ كلمة «اخسأ» تعبير يُستخدم لطرد الكلب وإن استخدامه هنا فيه دلالة على احتقار هؤلاء الظلمة والمستكبرين.

ولعل كلمة «لا تكلمون» أكثر منها مرارة واستهانة، فالمولى الكريم الرحيم يطرد عبده ويقول له لا تكلّمني أبداً، وهذا هو نفس المعنى الذي أشارت إليه العبارة الواردة في دعاء كميل «فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

ولكن لماذا يواجه هؤلاء مثل هذا العذاب النفسي القاتل؟ تزيح الآيات التالية الستار عن هذه القصّة فتقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾

(المؤمنون/١٠٩-١١٠)

فكانت نتيجة ذلك الاستهزاء والضحك على المؤمنين أن أصبحتم اليوم عرضة للاستهزاء والاحتقار، وهذا في الحقيقة تجسيد لأعمالكم.

---

١. كلمة «الحريق» وإن كانت هنا اسم مصدر إلّا أنّ لها معنى الفاعل، أو على قول البعض الآخر فهي صيغة مبالغة (أو صفة مشبّهة)، وعلى قول الراغب فـ«الحريق» هنا بمعنى النار وهذا التفسير يبدو أكثر ملائمة لأنّه أضاف العذاب إلى الحريق.

ونرى في الآية الخامسة مشهداً آخر يصور اللوم والتعنيف والاحتقار لأصحاب النّار من قبل خزنتها وملائكة العذاب، فتقول ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

فهذه التعابير تبدو وكأنّها سياط تلهب أرواحهم وتعذّبهم، فطلبوا يوماً واحداً للراحة من ذلك العذاب إلّا أنّ طلبهم رُفض، فطلبوا من خزنة النّار أن يدعوا لهم، لكن هؤلاء قالوا لهم: أنتم ادعوا بأنفسكم، إلّا أنّ هذا الكلامَ يعتبر إهانة لهم بسبب عدم أهليتهم للدعاء أو أنّ دعاءهم يجب أن يكون مسبوقاً بإذن من الله ـ وهو جلّت قدرته ـ لا يسمح لهم ولا يأذن بمثل هذا الدعاء، أو أنّه دعاء غيرُ مستجاب فهو إذن عبث لا أكثر، ولذا فهم يرجعون حتّى من الدعاء لهم ويقولون أنتم ادعوا ربّكم (واعلموا أنّه غير مستجاب لكم) وهذا أيضاً تعبير مؤلم آخر.

ومن

وتعكس الآية السادسة جانباً آخر من العذاب الروحي لأصحاب النّار فتقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾

تُصور هذه الآية هنا جهنّم وكأنّها تمتلك جميع صفات الحيوان المفترس فحين رؤيته لفريسته تنطلق منه أصوات مرعبة تنمُّ عن غضب مصحوبة بالتنفّس الشديد، وهذا العمل كفيل بإدخال الرعب في قلبه ومن ثم القضاء عليه.

و«التغيّظ»: مأخوذ من المصدر (غيظ)، وهو كما قال الراغب: يعني شدّة الغضب، والتغيّظ بمعنى اظهاره، ومع أنّ حالة الغضب لا تسمع ولكن ترافقها أصوات دالة عليها قابلة للاستماع كالأصوات المرعبة.

وتعني كلمة «الزفير» صعود ونزول النفس في الرئة بحيث يرتفع الصدر إلى الأعلى وغالباً ما يصحبه صوت رهيب يمكن سماعه

أمّا المفسرون الذين لا يمكنهم التصديق بأنّ جهنّم موجود حي يرى ويدرك ويعرف المجرمين، فقد اضطروا إلى القول بأنّ هناك شيئاً مقدراً، فقالوا: المقصود هو رؤية خزنة النّار بينما نعلم أنّ التقدير خلاف القاعدة ولا حاجة له هنا، فما المانع أن يكون لجهنّم والجنّة روح وأنّهما تدركان الحوادث التي تقع فيهما؟ حتّى أنّ بعض الروايات ذكرت «يخرج عنق من النّار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وكّلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه»[١]

ونحن نرى أمثلة مصغرة لهذه المسألة في دنيانا منها مايتمثّل في وضع العيون والآذان الالكترونية المرتبطة بأجهزة (الكامبيوتر) في البنايات المختلفة، فتقوم تلك الأجهزة بمشاهدة وسماع الكثير من الأشياء والحوادث وتبدي إزاءها رد الفعل المناسب رغم أنّ البناية لا تدرك شيئاً، ولعل رد فعل جهنّم إزاء المجرمين هو من هذا الطراز أو من طراز أرفع، أي يكون مصحوباً بالإدراك.

೫೫

ونرى في الآية السابعة صورة أخرى من الآلام النفسية لأصحاب جهنّم فهي تخاطب المؤمنين بقولها ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

يتبيّن من هذا التعبير أنّ نار الآخرة تختلف كثيراً عن نار الدنيا، سواء كان المقصود من «الحجارة» الأصنام الحجرية أو ماهو أشمل من ذلك، وسواء كان المقصود هو النّار التي تخرج من داخل ذرّات تلك الأحجار أم كان المقصود شيئاً آخر، فكل ماهو موجود نار ينبثق بعضها من داخل ذات الإنسان، من معتقداته ونواياه الباطنية القبيحة وجوارحه الملوّثة بالذنوب، أو الأحجار التي كانت آلهة له أو من وسائل المفاخرة والتباهي كالقصور وما شابه ذلك.

---

١. تفسير القرطبي؛ وتفسير روح المعاني، في ذيل الآية مورد البحث.

ثم تضيف الآية الشريفة ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

فوجود مثل هؤلاء الملائكة القساة الأشداء يضاعف الآلام النفسية لأصحاب جهنّم، ويسدّ عليهم كل منافذ الحياة.

فقد كان هؤلاء في حياتهم الدنيا يعاملون من هم تحت سلطانهم بكل قسوة، وكان عمّالهم الجناة يعاملون الناس بغلظة وشدّة وبلا أيّة رحمة أو شفقة، فوقعوا اليوم ضحية لمثل ذلك السلوك

وممّا يلفت الانتباه هو أنّ الآية التالية لها تخاطب الكفّار قائلة ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التحريم / ٧)

قال بعض المفسرين الذين لا يسعهم تصوّر اندلاع النّار من داخل الأحجار إنّ المقصود من الأحجار تلك الأحجار الكبريتية التي ينبعث منها الشرر أثناء ارتطامها بالحديد، بينما نعلم اليوم بأنّ الطاقة الذريّة الكامنة في كل كائن ماديّ بإمكانها بعث مقادير عظيمة من النّار.

«الغلاظ»: جمع (غليظ)، و«الشداد» جمع (شديد) وكلاهما لمعنى واحد، وقد يكون ذكرهما سوية من باب التأكيد، لكن البعض يقول إنّ «الغلاظ» تعني الخشونة في القول و«الشداد» تعني الخشونة في العمل، أو تعني الأولى الخشونة الخُلُقية والثانية الخشونة الخلقية، وعلى كل حال فهؤلاء الملائكة ملزمون بحكم الله لا يعصون له أمراً.

وقالوا أحياناً إن وضع الإنسان بمنزلة الحطب إلى جانب الأحجار يُعتبر بحد ذاته استهانة بهم وعقوبة روحية ومعنوية [1].

٭٭٭

وتمر علينا في الآية الثامنة والأخيرة محاورة مدهشة بين أصحاب الجنّة وأصحاب النّار

---

١. تفسير في ظلال القرآن، ج ٨، ص ١٦٨

تكون سبباً لإيذاء أصحاب النّار: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾

فأجابوا وقد استحوذ عليهم الحياء والانكسار: ﴿ قَالُوا نَعَمْ ﴾ وفي هذه الأثناء: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.

فيغدو هذا الحديث كالملح على جراحات أصحاب النّار فيلهب نفوسهم بمشاعل من النّار.

نعم إنّهم كانوا قوماً يصدّون النّاس عن سبيل الله (كما تصرح بذلك الآية اللاحقة) ولهذا فهم اليوم يُبعدون عن رحمة الله (لأنّ اللعنة تعني الطرد من الرحمة الإلهيّة).

ولكن من هو هذا المؤذّن الذي يمتلك هذه السيطرة على الجنّة والنّار فيسمع الكل نداءه ويتحدث عن الله؟ ورد في الكثير من الروايات المنقولة عن الشيعة والسنّة أنّه أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يجاهد الظلمة طول حياته.

والعجب أنّ بعض المفسّرين حاول التقليل من أهمّية هذه الفضيلة، فقال: «ولا يفهم من هذا العمل أنّه فضيلة لعلي عليه السلام».

بينما تمضي البداهة بأنّ هذا المؤذّن المهيمن على الجنّة والنّار المبلغ نداء الله في ذلك اليوم، ينبغي أن يكون له مقام سامٍ ورفيع.

والخلاصة هي أنّ الإنسان يتكون من جسم وروح، والمعاد أيضاً يتحقق بهذين البُعدين وهذا مايستلزم الثنائية أيضاً في العقاب والثواب، وبناءً على ماذكرنا فأهل النّار لا يتألّمون من العذاب الجسماني فقط، بل يعانون كذلك من العذاب النفسي والروحي وهو أشد وطأة عليهم، فهم يعيشون في ألم وهمّ وحزن غير متناهٍ، وتلازمهم الفضيحة والندامة على ما مضى، ولو قارنوا أنفسهم بأهل الجنّة لكانت المعاناة أشدّ، لاسيّما بوجود الملائكة الغلاظ وما يواجهونه من أنواع الاستهانة والتوبيخ والاحتقار، وهذه كلها من العوامل التي تؤذيهم نفسياً وتجعلهم يعيشون في عذاب مرير.

ومن المؤكد أنّ هذه العقوبات تنسجم مع عملهم في هذه الدنيا حين كانوا يعاملون

المظلومين بأنواع العذاب والعقاب وكانوا كثيراً ما يستهزئون بآيات الله ويسخرون من عباده ويستخفّون بالمؤمنين ويتفاخرون على الآخرين

فهل هنالك عجب لو تمثلت لهم أعمالهم أمام أعينهم ووقعوا في محنة نتائجها، ليحصدوا في الآخرة كل ما زرعوه في مزرعة الدنيا؟

ﮋﮌ



٦ ـ خلود العقاب

تمهيد:

هنالك تناسب بين «الجريمة» و«العقاب» دائماً فكلما كانت الجريمة أعظم كانت العقوبة أشدّ. هذا في مجال العقوبات الجزائية.

أمّا بالنسبة للآثار الوضعية والطبيعية لأعمال الإنسان فالقضية تأخذ منحىً آخر فقد يتعرض الإنسان ـ نتيجة لتساهله وتجاهله ولو لحظة واحدة ـ لحادثة لا يتيسّر له جبرانها أو علاجها. وربّما تكون حصيلة الجهل والتساهل فادحة جداً كأن تؤدّي مثلاً إلى اصابة عضو من أعضاء الجسم بالنقص أو الشلل إلى الأبد وهذا ما يحتم دفع كفّارة ذلك وتحمل تبعاته إلى نهاية العمر. مع أنّ الخطأ أُرتكب لحظة واحدة.

يُفهم من آيات القرآن الكريم وبكل وضوح أنّ فريقاً من الناس يبقى في العذاب الأبدي أو بتعبير آخر يخلد في جهنّم. وقد اثارت مسألة «الخلود» هذه تساؤلات شتّى. وطرحت في تفسيرها آراء مختلفة. سنأتي عليها لاحقاً بإذن الله.

نقرأ أولاً الآيات الشريفة التالية التي تتضمن كل واحدة منها تعبيراً جديداً عن خلود العذاب:

١ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(البقرة / ٣٩)

٢ ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

(المائدة / ٣٧)

٣ ـ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (هود / ١٠٦ـ١٠٧)

٤ـ ﴿ وَنَادَوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾. (الزخرف / ٧٧)

٥ـ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾. (البقرة / ١٦٧)

جمع الآيات وتفسيرها

عذاب الخلد:

تطالعنا الآية الأولى بكلمة «الخلود» المعروفة، فتقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

هذا في وقت صرّحت فيه بعض الآيات القرآنية الأخرى بكلمة «الأبدية» بعد كلمة الخلود وهو مايُعدُّ تأكيداً لها، ومن جملة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ (الجن / ٢٣)

وجاء نفس هذا المعنى أيضاً في الآية (٦٥) من سورة الأحزاب، حيث اقترنت كلمة الأبدية بكلمة الخلود.

وقد وردت كلمة الخلود في نار جهنّم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، فمنها ماورد وصفاً مثل «خالدون» و«خالدين»، ومنها ماورد على صيغة الفعل كما في سورة الفرقان التي أشارت إلى مضاعفة العذاب على المشركين و قتلة والزناة وقالت: ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ (الفرقان / ٦٩)

وورد هذا العنوان أحياناً كقيد للعذاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾. (يونس / ٥٢)

وجاءت كلمة «الخلود» بصيغها المختلفة (فعلاً، ووصفاً، ومصدراً) بخصوص عذاب النّار أكثر من ثلاثين مرّة في القرآن الكريم، وتأكيده على هذه الكلمة له مفهوم خاص سيتّضح سببه في البحوث القادمة بمشيئة الباري عزّ وجلّ.

وقد وردت هذه الكلمة أيضاً بخصوص نعم الجنّة في آيات كثيرة من القرآن الكريم والتي سبقت الإشارة إليها في بحث نِعَم الجنّة.

لنرى الآن ما معنى «الخلود» في اللغة، وما معناه عند المفسّرين.

فسّر لسان العرب كلمة الخلود بمعنى دوام البقاء في دار لا يخرج منها واطلق للآخرة (دار الخلد) لبقاء أهلها فيها.

وفي مقاييس اللغة ذكر معنىً واحداً لأصل الكلمة وهو الثبات والبقاء والتلازم.

وورد نفس هذا المعنى أيضاً في «صحاح اللغة» وكتب أُخرى.

لكن الراغب قال في «المفردات»: إنّ معناها الأصلي هو تبرّي الشيء من عروض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، ويقال للذي يبقى مدة طويلة، ومنه قيل: رجل مخلّد لمن أبطأ عنه الشيب.

وعلى كل الأحوال نستخلص من مجموع كلمات أصحاب اللغة رأيين مختلفين

الأول: هو المعنى الدال على الدوام والبقاء والابدية، وإن اطلق على طول العمر فهو من باب التشبيه ليس إلّا.

والثاني: طول العمر، وإذا أُطلق على الدوام والأبديّة فهو من باب البيان المطلق.

وللمفسرين أيضاً آراء مختلفة في هذا الصدد.

فقد صرّح بعضهم: إنّ «الخلود» هنا يعني الاستمرار والدوام الذي لا انتهاء له مطلقاً[١].

وقال آخرون: إنّ معناه الحقيقي هو الاستمرار والتواصل والدوام ومعناه المجازي المدّة الطويلة، أمّا الاستخدام القرآني للكلمة فهو بالمعنى الأول[٢].

وذكر بعضهم نفس هذا المعنى بتعبير آخر وهو أنّ الخلود في اللغة يعني المكث الطويل كما هو الحال في قولنا للسجن المؤبد والفترات الطويلة الأمد، فنقول مثلاً خُلِّد فلان في السجن، أمّا في لسان الشرع فيعني الأبدية[٣].

---

١. الطبرسي في مجمع البيان.
٢. تفسير القرطبي، ج ١، ص ٢٠٧.
٣. تفسير المراغي، ج ١، ص ٦٩.

وجاء في تفسير المنار أنّ فتح باب تأويل الخلود أدى إلى جرئة أصحاب استقلال الفكر في هذا الزمان على الدخول فيه والقول إنّ معنى خلود الكافرين في العذاب طول مكثهم فيه، لأنّ الله الرحمن الرحيم، الذي سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض خلقه عذاباً باق لا نهاية له[1].

ويقول البعض أيضاً رغم أنّ الكفرة والمعاندين الطغاة المتمردين الذين استقرت الذنوب في صميم كيانهم يبقون في النّار، إلّا أنّ جهنّم لا تبقى دوماً على حال واحدة فلابدّ أن تبلغ اليوم الذي تخمد نارها ويرتاح أهلها.

وقد احتمل أيضاً أنّ أهل النّار سيعتادون بمرور الزمن على شدّة حرارة النّار وكثرة العذاب ويتلاءمون بالتدريج مع وضع جهنّم فلا يبقىٰ لديهم أي شعور بالألم!

إلّا أنّ أمثال هذه الاحتمالات مرفوضة من قبل علماء الإسلام ومفسري القرآن لأنّها تعارض وصريح الآيات القرآنية. إضافة إلى أنّ الآيات التي قرأناها لم تقتصر عباراتها على ذكر كلمة الخلود فحسب حتّى تحتمل مثل هذه التأويلات بل توجد إضافة إليها تعابير أُخرىٰ وردت وهي لا تحتمل مثل هذه التأويلات. (فتأمل).

وخلاصة القول هي أنّ العجز عن حل مشكلة الخلود في العذاب، قد دفع البعض فيما يبدو إلى الميل لمثل هذه التأويلات غير الصائبة. وإلّا فدلالة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بالنسبة لخلود العذاب لمجموعة من المجرمين مسألة لا تقبل النقاش.

وفي العبارة الثانية نلاحظ وجود كلمة «الإقامة» حيث تقول الآية الشريفة: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

إنّ وصف كلمة العذاب بـ«المقيم» يدل بوضوح على أنّ هذه العقوبة بالنسبة لهم ثابتة ومستمرة.

---

١. تفسير المنار، ج ١، ص ٣٦٤.

أبدية العذاب:

طرحت الآية الثالثة مسألة أبدية العذاب في جهنّم لفئة من أصحاب الجحيم، ولكن بتعبير آخر يمتاز بصراحة أكثر، فتقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾، وفي اختتام تستثني فتقول: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

(من البديهي أنّ السماء والأرض لن يكون لهما وجود آنذاك، وأنّ السموات والأرض اللتين تتحدث عنهما الآيات القرآنية، تقومان بعد زوال الأرض والسماء الحاليتين، وهما خالدتان إلى الأبد).

قال البعض: إنّ هذا التعبير في اللغة العربية كناية عن الأبدية، إذ يوجد في اللغة العربية الكثير من التعابير المستخدمة بمعنى الأبدية، مثل «مالاح كوكب» أو مثل ماورد في كلامه عليه السلام حين اعترض عليه الجهلة بسبب تقسيمه بيت المال بالتساوي وكانوا يطمعون في أن يميز بين الناس في العطاء كما كان يفعل الخليفة الثالث ظناً منهم أنّ هذا الاسلوب سيُسهم في تثبيت ركائز حكمه، فقال لهم الإمام عليه السلام: *«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء»*[1].

ويلاحظ في شتّى اللغات تعابير من أمثال هذه فيها دلالة على الاستمرارية والدوام والأبدية.

ويبقى هنا سؤال واحد وهو: إن كانت الآية أعلاه تعني أبدية العقوبة فما مفهوم الاستثناء الوارد في نهايتها وهو *«إلّا ماشاء ربّك»*؟ فالذي يبدو من ظاهر هذا الاستثناء على أقل تقدير هو عدم أبدية العذاب لفئة معينة منهم، بل ويحتمل أيضاً شموله لهم جميعاً، وستكون النتيجة معكوسة في مثل هذه الحالة.

وقد نقل بعض المفسّرين من أمثال المفسّر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عشرة أوجه لهذا الاستثناء عن علماء التفسير، إلّا أننا تجنّبنا نقلها هنا لضعفها وعدم أهمّيتها

---

١ نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

(والظاهر أنّ المرحوم الطبرسي لم ينقلها لاقتناعه بها، ولكن من باب ذكر جميع الآراء) ونكتفي بذكر مايستحق الاهتمام منها فقط وهو:

أولاً: إنّ الهدف من ذكر هذا الاستثناء هو تبيان حاكمية الله وقدرته المطلقة ومشيئته الكاملة، فلا تظنوا أنّ هذا الخلود يتحقق بدون إرادته، وإن شاء فهو على كل شيء قدير ولكن إرادته قضت بتخليد هذه الطائفة من أهل جهنّم فيها.

ولهذا ورد نفس هذا التعبير بشأن أهل الجنّة في الآيات السابقة لها، فتقول الآية في نفس الوقت: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود / ١٠٨)

وتُظهر هذه الجملة بوضوح أنّ المقصود من الاستثناء من الأشياء ليس هو قطع العذاب أو النعمة بل لمجرّد تبيان قدرة الله.

وثانياً: إنّ المقصودين بالاستثناء هم الذين لا يستحقّون الخلود في العذاب كالمؤمنين المذنبين الذين يبقون في النّار لمدّة من الزمن، فيتطهرون من ذنوبهم، ومن ثم يذهبون إلى الجنّة، وجملة *﴿إلّا ماشاء الله﴾* هنا تختص بهذه الطائفة، أمّا الكفرة فسيبقون في العذاب (وهم كما يُقال جزء من المستثنى منه لا المستثنى).

ونفس هذا الاعتبار يُطرح أيضاً بشأن أصحاب الجنّة، فهم أيضاً خالدون فيها إلّا المؤمنين المذنبين منهم والذين كانوا سابقاً في جهنّم ثم جاؤا إلى الجنّة.

وعلى كل حال فهذا الاستثناء لا يخلق أيّة مشكلة في دلالة الآية على أبدية العذاب.

80 CB

تصرّح الآية الرابعة بمسألة الخلود وعدم تخفيف العذاب للمجرمين وتؤكد أيضاً أنّ الله سبحانه وتعالى لم يظلمهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾.

كلمة المكث جاءت هنا بشكل مطلق وغير محدود وهذه دلالة أُخرى على خلود عذابهم [١].

---

١. «المكث» يعني البقاء المصحوب بالانتظار «كما قال الراغب في مفرداته»، وكلمة المكث تطلق أيضاً على التوقف المؤقت، إلّا أنّها عندما تذكر مطلقة وبلا قيد أو شرط فهي تعني التوقف الدائمي.

لذلك يصرّح المرحوم الطبرسي في مجمع البيان بأنّ كلمة «ماكثون» هنا تعني «دائمون»، وزعم أنّ الآية المذكورة لم تبيّن هل أنّ مالك أجابهم مباشرة أم بعد مدّة من الزمن، إلّا أنّ جماعة من المفسّرين قالوا: أنّ هذا الجواب يأتيهم بعد مدّة للامعان في تحقيرهم والاستخفاف بهم. فقال بعضهم: إنّ الجواب يرد بعد أربعين عاماً، وقال آخرون بعد مائة عام، ونُقل عن ابن عباس أنّه قال: إنّ هذا الرد السلبي يأتيهم بعد ألف عام[١]، من أجل أن يظلّوا في الانتظار لمدّة أطول ويتحمّلوا العناء وذل الاستهانة!

وتظهر الآية بوضوح عدم وجود الموت في ذلك العالم، بل هم دوماً أحياء يعيشون في الألم والعذاب.

ويطالعنا في الآية الخامسة تعبير يتحدث عن «عدم الخروج من النّار» بشكل مطلق، وهو تعبير آخر يحكي حقيقة خلود العذاب، وتصف الآية تفوّر المتّبعين من المتّبَعين في قولها: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

نعم هؤلاء لا يجنون سوى الندم على ما مضى، والحسرة على ما كانوا يقومون به من تقليد أعمى وطاعة مطلقة لقادة الضلال، والتأسف على العمر الذي مرّ هدراً، وعلى الأموال التي جُمعت من الحرام وتُركت يتنعم بها الآخرون، وعدم استغلال فرص التوبة التي أُتيحت لهم، ولكنها حسرة وندم لا طائل من ورائهما لأنّ فرص العودة قد مضت وإمكانية التعويض لن تأتي ثانية.

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان، عند تفسيره لهذه الآية: وهذا دليل ضد من يعتقد بنهاية عذاب جهنّم.

١. تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٢٧؛ وتفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٢٧، نقل أيضاً في تفسير مجمع البيان مسألة الأربعين عاماً والألف عام.

النتيجة:

نستخلص من مجموع التعابير الخمسة التي مرّت أنّ عذاب جهنّم أبدي كما أنّ نعم الجنّة أبديّة، أمّا الذين يعتقدون بانقطاع العذاب فهم يذهبون خلافاً لما تنص هذه الآيات (وأمثالها)، ويفسّرون القرآن على طريقة (التفسير بالرأي).

صحيح أنّ الاعتقاد بخلود العذاب ـ وإن كان لفئة خاصة من أهل النّار ـ له مشكلاته وتعقيداته، ولكن بالنظر لصراحة الآيات القرآنية في هذا الصدد، فينبغي حل تلك التعقيدات عن طريق المنطق والاستدلال، لا عن طريق تجاهل وانكار أصل الموضوع.

۞۞۞

توضيحات

من هم المخلّدون في النّار؟

ذكرت الآيات القرآنية أشخاصاً وأقواماً بالخصوص يخلّدون في النّار ومن جملتهم:

١ ـ الكفّار

بمن فيهم المنكرون للمبدأ والمعاد والمشركون والمكذّبون بآيات الله وأعداء الله ورسوله ﷺ والمرتدّون، وهم الذين ذكرتهم الآيات القرآنية وقالت: إنّهم سيخلّدون في النّار، من جملة ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] (آل عمران / ١١٦)

---

١. هنالك آيات كثيرة أخرى تتحدث عن هذا الموضوع أيضاً من أمثال: الأعراف، ٣٦ وهي بشأن المكذّبين بآيات الله؛ وسورة البيّنة، ٦ التي تخبر المشركين وأهل الكتاب مخلّدين في النّار، وسورة التوبة، ١٧ وفيها ذكر لخلود المشركين؛ والبقرة، ٢١٧؛ وآل عمران، ٨٨، التي تتحدث بخصوص المرتدّين؛ وسورة فصّلت، ٢٨ والتي تشير الى خلود أعداء الله في النّار.

٢ ـ المنافقون

رغم أنّهم ينخرطون في الظاهر في سلك أهل الإيمان ويُعدّون في زمرة المؤمنين، إلّا أنّهم من المخلدين في جهنّم، كما دلّت على ذلك قوله تعالى. فقد أشار أوّلاً إلى أعمالهم وسلوكهم ثم قالت: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (المجادلة / ١٧)

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾. (النساء / ١٤٠)

٣ ـ الغارقون في الذنوب

يلحظ في سورة البقرة عبارة في وصف المذنبين، وهي عميقة المعنى، تقول: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة / ٨١)

ويقارب هذا المعنى ما ورد في سورة يونس، وجاء فيها: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (يونس / ٢٧)

ولكن هل أنّ المؤمنين من مرتكبي الكبائر يخلدون في العذاب أم لا؟ هذا ما سنجيب عنه في بحث مفصل بعد تفسير هذه الآيات بإذن الله.

٤ ـ القتلة والجُناة

يُفهم من آيات القرآن أنّ مرتكبي قتل العمد يخلدون أيضاً في العذاب، كما ينص على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (النساء / ٩٣)

وقد عُرضت هنا أربع عقوبات لقاتل المؤمن عمداً وهي:

الخلود في النّار، والغضب الإلهي، والطرد من رحمة الله، والاستعداد للعذاب العظيم.

ولكن هل أنّ هذه العقوبات تطبق في حالة عدم التوبة وجبران ما فات؟ أم أنّها في رقابهم في جميع الأحوال؟

يبدو الاحتمال الثاني مستبعداً جداً، وذلك لأنّ أكبر الذنوب وهو الشرك يمحى بالتوبة، فالمشركون كذلك يعفى عنهم بدخولهم الإسلام، فكيف يمكن القبول بأنّ قتل النفس يفوق كل هذا، إضافة إلى ذلك ما ورد في تاريخ الإسلام أنّ النبي الأكرم ﷺ عفا عن وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب قبل توبته، وكذلك عفا عن كثير من المسلمين عن قتلة آبائهم وأبنائهم وإخوانهم، بعد دخولهم الإسلام. ومن ناحية نقول: إنّ التوبة عن مثل هذا الذنب ليست بالأمر الهيّن ولا تنتهي القضية بالاستغفار بالقول بل يعني الانقياد للقصاص أو إرضاء أولياء القتيل بالدّية أو غيرها وجبران ما مضى بعمل الخير في المستقبل.

جاء في حديث عن الرسول محمد ﷺ أنّه قال: *«لزوال الدنيا وما فيها أهون على الله من قتل مؤمن ولو أنّ أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النّار»*[1].

أمّا كيف يمكن خلود قاتل المؤمن عمداً في النّار مع ما يدلّ على أنّ الكفّار وحدهم مخلدون في النّار؟ فللمفسرين أجوبة مختلفة في ذلك.

فقيل: إنّ أشخاصاً كهؤلاء لا يكتب لهم نصيب من التوبة أو قليلاً ما يوفقون لبلوغها، فيغادرون الدنيا في نهاية المطاف بلا إيمان، وبهذا فهم يستحقون الخلود في النّار.

وقيل: إنّ هذا هو جزاء من يقوم بالقتل العمد وهو منكر لتحريمه، وهذا الأمر يستلزم الكفر بذاته.

وقيل: إنّ كلمة الخلود تعني هنا المدّة الطويلة لا العذاب الأبدي. يبدو أنّ التفسيرين الأول والثاني أنسب إلى واقع الحال.

٥ ـ آكلو الربا

هددت الآيات القرآنية آكلي الربا أيضاً بالعذاب الأبدي، فقالت: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ

---

١ تفسير روح المعاني، ج ٥، ص ١٠٤

مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. (البقرة / ٢٧٥)

وهنا يعترضنا أيضاً سؤال وهو: كيف يخلد هذا الفريق في النّار بينما الذنب الكبير لا يستوجب لوحده الخلود في النّار؟

الإجابة عن هذا السؤال هنا أبسط، وذلك لأنّ نص الآية (في الجمل السابقة) يشير إلى منكري تحريم الربا، الذين كانوا يقولون: ما الفرق بين البيع والربا ولماذا أحلّ الله أحدهما وحرّم الآخر، في حين أنّ الفارق بينهما واضح، فالبيع والشراء والتجارة والأعمال المشابهة كلها تصب في مصلحة المجتمع، وهي من النشاطات الاقتصادية السليمة، أمّا الربا فهو ضار بالمجتمع، ولهذا الموضوع شرح واسع تطرقنا إليه في مكانه المناسب.

٦ـ الظالمون والجبابرة

الفريق الآخر الذي اعتبره القرآن الكريم مستحقاً للخلود في العذاب هو فريق الظالمين، وهذا ما ورد في الآية حيث جاء فيها: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾. (الشورى / ٤٥)

ويتبيّن من هذا التعبير أنّ عاقبة الظلم، الخلود في النّار.

وقد أكّدت الآيات التي سبقت هذه الآية مراراً العذاب الأليم للظالمين (الشورى/٤٢)، ندمهم الشديد وهم يتعذّبون في نار جهنّم (الشورى / ٤٤)

هل المقصود من الظلم هنا هو ظلم عباد الله والمستضعفين أم هو ظلم النفس من خلال الشرك، لأنّ الشرك كما صرّح به قوله تعالى: ﴿ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾. (لقمان / ١٣)

وجاء أيضاً في قوله تعالى ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. (البقرة / ٢٥٤)

رجّح بعض المفسّرين المعنى الثاني، ولعل جملة: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ دليل على هذا المعنى أيضاً وأنّ المؤمنين المظلومين قد واجهوا ظلماً كبيراً على يد الكفّار الظالمين وهم ـ أي المؤمنون ـ الذين يتحدّثون بهذا الكلام في يوم القيامة.

وتنص سورة الحشر، بعد الإشارة إلى خلود الشيطان وأتباعه في النّار: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾. (الحشر / ١٧)

ولكن لو علمنا أنّ هذا الحديث يدور حول الشيطان وأتباعه الكافرين وما ورد في الآية السابقة وهو: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾. (الحشر / ١٦)

لأدركنا أنّ المقصود من الظلم في هذه الآية مصداقه الأتم، يعني: الكفر.

٧ـ الذين خفّت موازينهم

يُستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ ثقل ميزان العمل في يوم القيامة يدل على الفوز والنجاة، أمّا خفّة ميزان العمل فهي دالة على عدم قيمته، وهذا ما يؤدّي إلى الخلود في النّار، جاء في الآيتين من قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (المؤمنون / ١٠٢ـ١٠٣)

وعبارة «*خسروا أنفسهم*» إشارة لطيفة إلى أنّ أكبر رأس مال يمتلكه الإنسان هو وجوده وعمره وحياته، وأنّ هؤلاء قد خسروا رأس مالهم في سوق تجارة الدنيا من غير أن يحصلوا مقابله على شيء ذي أهميّة.

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى الكفرة، لأنّ المؤمن مهما ارتكب من ذنوب فلابدّ أن يحتوي ميزان عمله على شيء ما ولا يبقى خفيفاً تماماً وذلك لأنّ الإيمان والمعتقد الحق له بذاته وزن لا يُستهان به، وعلى هذا فإنّ خفّة ميزان أعمال هذه الفئة وخلوّه من أيّة حسنة دليل على كفرها، كما يتّضح هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾ (الكهف / ١٠٥)

٨ـ المجرمون بشكل عام

يُفهم من بعض الآيات أنّ المجرم بشكل مطلق مخلّد في جهنّم، تقول الآية: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ (الجن / ٢٣)

وجاء نفس هذا المعنى أيضاً مع إضافة أخرى في الآية: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. (النساء / ١٤)

وورد تعبير يشابه هذا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾. (الزخرف / ٧٤)

ولكن لو التفتنا إلى الآيات السابقة كالآية (٢٠) من سورة الجن والتي يدور فيها الكلام عن دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد وتقويض الشرك، وما جاء في الآية (٢٤ من نفس السورة) التي نقلت كلام مشركي قريش الذين كانوا يعنّفون النبي ﷺ لعدم وجود الأنصار والأعوان المتنفذين، لتبيّن لنا أنّ المقصود من «العصيان» هنا هو الكف عن الدعوة إلى التوحيد والميل إلى الشرك والكفر، وعلى هذا فهي لا تتضمن أيّة دلالة على خلود جميع المجرمين في النّار.

ويُلاحظ وجود قرينة في ذيل الآية ٧٤ من سورة الزخرف دالة على هذا المعنى لأنّها تتحدث عمّن كانوا يضمرون العداء الشديد للدعوة، وكانوا يظنّون أنّ الله غير مطلع على سرّهم ونجواهم، ويُعتبر هذا بذاته من معالم الكفر. (فتأمل).

وقد صرح الكثير من المفسّرين عند تعرّضهم للآية المذكورة بأنّ المقصود من العصيان فيها هو العصيان في التوحيد[1].

إلّا أنّ هذا الاحتمال ـ وهو أنّ المقصود من الخلود هنا هو العذاب الطويل ـ يبدو مُستبعداً جداً، وذلك لأنّ تأكيد كلمة «الخلود» بكلمة «أبداً» دالٌ على أنّ المقصود هو خلود العذاب الإلهي.

❊❊❊

النتيجة:

لقد أدركنا من خلال النقاط الثمان الآنفة الذكر وجهة نظر القرآن في موضوع المخلّدين

---

[1] راجع تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٣٧٣؛ تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٥٢؛ وتفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٢٠٠؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٩٤

في النّار، ولكن يتّضح من خلال النظرة الاجمالية للآيات المذكورة أنّ خلود الكفّار في النّار أمرٌ بديهي لا مفر منه، إلّا أنّه غير مُسَلَّمٍ به لجميع العاصين، ويستثنى من ذلك كون المعصية أو الذنب على درجة كبيرة بحيث تدفع الإنسان نحو الكفر والخروج عن خط الإيمان، أو أن يغادر هذه الدنيا وهو غير مؤمن. وسنصل إلى شرح مفصل عن هذا الموضوع قريباً.

❊❊❊

سؤال: هل أنّ مرتكبي الكبائر مخلدون في النار؟

هناك فرقة إسلامية تُعرف بـ«الوعيدية» (وهي من فرق الخوارج) تعتبر أي ذنب من الكبائر موجباً للكفر وتعتقد أنّ مرتكبه يخلد في النّار، ويقف في مقابل هذه الفرقة «المرجئة» الذين يقولون: إنّ الإيمان لا تضر معه المعصية (إحداهما تتصف بالافراط والأخرى بالتفريط!).

قال العلّامة الحلي ﷺ في (شرح التجريد) بعد أن نقل إجماع واتّفاق المسلمين على العذاب الأبدي للكفّار: «يختلف المسلمون في مرتكبي الكبيرة، فالوعيدية يعتبرونهم كالكفّار، لكن الشيعة وكثير من المعتزلة يعتقدون بأنّ عذابهم له نهاية، ثم أقام الأدلة التي تثبت هذا المعنى».

يقول الشيخ المفيد ﷺ في «أوائل المقالات»:

«اتفقت الإمامية على أنّ الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفّار خاصة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والاقرار بفرائضه من أهل الصلاة، ووافقهم على هذا القول كافة المرجئة وأصحاب الحديث قاطبة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعموا أنّ الوعيد بالخلود في النّار عامّ في الكفّار وجميع الفساق»[1].

ويستدل هذا الفريق ببعض الآيات القرآنية لإثبات رأيه، وبالخصوص تلك الآيات القائلة بخلود مرتكبي القتل العمد وآكلي الربا في نار جهنّم وأمثالها من الآيات، ومن أوسع

---

١. أوائل المقالات، ص ٥٣.

تلك الأدلّة شيوعاً هي ما ورد في من سورة الجن والتي مرّ علينا تفسيرها مسبقاً وهي:
﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾. (الجن / ٢٣)

ولكن هناك قرائن كثيرة في هذه الآيات وفي غيرها تدل على أنّها (هذه الآيات) تختص بأولئك الذين تنتهي بهم ذنوبهم إلى الكفر وإنكار المعاد أو النبوّة أو ضرورة من ضرورات الدين، ومن جملة تلك القرائن الآية ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ﴾. (يونس / ٢٧)

وبالنظر إلى أنّ هذا الوصف قد ورد في القرآن هنا بحق الكفّار، حيث يقول تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (عبس / ٤٠ـ٤٢)

فهذا دليل على أنّ المقصود في الآية موضع بحثنا هم الكفّار أيضاً

ولهذا جاء في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: *«هؤلاء أهل البدع والشبهات والشهوات يسوّد الله وجوههم ثم يلقونه يقول الله:* ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ﴾*، يسود الله وجوههم يوم القيامة ويلبسهم الذل والصغار، يقول الله سبحانه وتعالى:* ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1]

والقرينة الأخرى هي عبارة ﴿ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ الواردة في الآية ٨١ من سورة البقرة والتي تشير إلى أنّ ارتكاب الذنب الكبير وحده لايؤدّي إلى الخلود في النّار، بل إنّ إحاطة الذنب بكل وجود الإنسان هي السبب في طرح مثل هذا الموضوع لأنّها تسوقه نحو الكفر، والسبب في ذلك ـ كما تفيد الروايات ـ أنّ الإيمان يظهر في القلب على هيئة نقطة مضيئة، وكلما ازدادت أعمال الخير التي يؤدّيها كلما اتسعت تلك النقطة حتّى تحيط بقلبه كله، وكلما ارتكب ذنوباً ومعاصيَ كلّما خيم الظلام على قلبه حتى يحيط بقلبه كله ويجعله قلباً أسوداً (ينطفيء فيه نور الإيمان) لاسيما وأنّ بعض الروايات تستدل بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] (المطففين / ١٤)

١ـ تفسير علي بن إبراهيم، ج ١، ص ٣١١
٢ـ اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٣، باب الذنوب، ح ٢٠

وبعض تلك الآيات تؤكّد تعمّد منسب (كآية القتل)، ولعل المراد منها هو مخالفة امر الله ومخالفة الحق، وهذا من أوضح مصاديق الكفر.

والاستشهاد الآخر هو الوارد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾. (الروم / ١٠)

يُظهر هذا التعبير أنّ الاصرار على الذنب والاستمرار عليه يؤدّي بالنتيجة إلى الكفر وتكذيب آيات الله وهو مايؤدّي إلى الخلود في النّار.

إضافة إلى كل هذا، فإنّ الآية ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ والتي تكررت مرّتين في سورة النساء ٤٨ و ١١٦، هي دليل آخر واضح على هذه الحقيقة وهي أنّ المشركين (الكفر بأنواعه أيضاً ملحق بالشرك) لايغفر لهم ويخلدون في جهنّم، وأنّ المجرمين الآخرين يمكن أن يُغفر لهم، وهذا مايدل على أنّ حسابهم يختلف عن حساب الكفّار ولا يمكن أن يُعدّوا ضمن صنف واحد.

لا يتوهم أحد أنّ هذه الآية تعطي الضوء الأخضر للمجرمين، لأنّه لم يصدر وعد قطعي بالعفو عنهم بل هو وعد احتمالي مرتبط بمشيئة الله، ولما كانت مشيئة الله وإرادته مرتهنة بحكمته، وحكمته تقتضي أن تكون هذه المقوّمات كلها معايير للعفو، اذن، فالحال يوجب على المجرمين عدم قطع علاقاتهم بالله وبأوليائه والإبقاء على جسور العودة قائمة.

ورد في الروايات أنّ هذه الآية هي أكثر الآيات التي تبعث الأمل والرجاء في النفوس، كما جاء عن أميرالمؤمنين علي ﷺ أنّه قال: *«ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية»*[1].

ولطرح مزيد من التوضيح، ينبغي الالتفات إلى أنّ الآية المذكورة لا تشمل مرتكب الصغائر طبعاً لأنّ القرآن قد وعد بغفران الذنوب الصغيرة لمن يتورّع عن اجتناب الكبائر منها، وهي أيضاً لا تشمل الذنوب الكبيرة بعد التوبة لأنّ التوبة سببٌ لغفران جميع الذنوب حتىّ الشرك، وعلى هذا فالمفهوم الوحيد المتبقي لهذه الآية هو أنّها ميّزت بين الشرك

---

١ لمزيد من الايضاح راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٨ من سورة النساء.

وارتكاب الذنوب الكبيرة، فالأول لا يغفر لأنّ وجود الشرك يقضي على جميع مقوّمات العفو، أمّا الثاني فالعفو فيه محتمل ولكن بشروط اشير إليها هي جملة «لمن يشاء».

والشاهد الآخر على هذا الادّعاء هو الآيات القرآنية العديدة، ومنها هذه الآية: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (المؤمن / ٤٤)

وهذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ (الزلزال / ٧)

كذلك آيات الشفاعة، لأنّ الصغائر تُمحى في ظل اجتناب الكبائر، والكبائر أيضاً يُعفى عنها بالتوبة، واستناداً إلى ماذكر، فالشفاعة تختص فقط بمرتكبي الكبائر الذين لم يتوبوا فإن كانوا يستحقّون الشفاعة يُعفى عنهم.

فإن كان الحال كذلك، فكيف نعتبر مرتكبي الكبائر كالكفّار والمشركين ونقول بخلودهم في النّار؟

كيف يمكن أن تقضي الحكمة الإلهيّة بتخليد إنسان في النّار قضى عمراً في الإيمان والعمل الصالح لارتكابه ذنباً كبيراً كأن يكون كذب لمرّة واحدة في حياته؟

نحن لا نقول هنا بعدم عقابه بل نرى أنّ عذاب الخلد لا ينطبق على مثل هذا الشخص هناك روايات كثيرة وردت عن المعصومين عليهم السلام تنفي قول «الوعيدية» بتخليد مرتكبي الكبيرة في النّار[1]

والحقيقة أنّ هذه الفرقة المتطرفة من الخوارج قد انحدرت في هذا الوادي السحيق بسبب التعصب والعناد وعدم الإلمام بآيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام، وعدم الأخذ بالأدلّة العقلية البيّنة. والخوارج بشكل عام قد ابتلوا بعواقب جهلهم وتعصبهم، وماضيهم في التاريخ الإسلامي أفضل دليل على ذلك[2].

---

١. للاطلاع على ايضاحات أكثر يمكن مراجعة كتاب بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٥١ ـ ٣٧٦، الباب ٢٧؛ وتفسير الكبير، ج ٣، ص ١٤٤ وما بعدها.

٢. المصدر السابق.

توضيحات

اعتراضات على خلود العذاب:

طرحت أسئلة مختلفة بشأن العقاب الأبدي لفئة خاصة من المجرمين يبدو أنّ البحث فيها ضروري هنا.

١ ـ فناء المادة

هناك من يقول: إنّ المادة ليست خالدة حتّى تتعرض للثواب الأبدي أو العقاب الأبدي وبعبارة أخرى إنّ فناء المادة لا يتناسب وخلود الثواب والعقاب.

وليس هناك صعوبة كبيرة للرد على هذا الاعتراض، فلا يوجد شيء في العالم ـ سوى ذاته المقدّسة ـ أبدي بالذات، بل إنّ كل ذرّات العالم (سوى ذاته) فانية والبقاء لا يصحّ إلّا لها، لكن ذلك لا يمنع أن تكون الموجودات الإمكانية أبدية بالغير أي إنّ الله تعالى يمدّها دوماً بأسباب البقاء وكلما استهلكت تجددت، وكما يصطلح عليه في الفلسفة أنّ «الإمكان بالذات» لا يتنافى مع «الوجوب بالغير» (تأمل جيداً).

أي كما أنّ الله سبحانه وتعالى يمدّ الجنّة والنار دوماً بأسباب الوجود ويجعلهما باقيتان قائمتان دائماً، فكذلك تكون أجسام أهل الجنّة وأهل النار مشمولة بهذا القانون إذ ستبقى قائمة دوماً بالامداد الإلهي حتّى تلقى جزاءها الأبدي من عقاب أو ثواب، وخلاصة القول: إنّ الفناء يحصل في حالة عدم وجود امداد خارجي وانعدام التجدد.

∞

٢ ـ هل يمكن للعرضي أن يصير دائماً؟

يلاحظ في بعض كلمات الفلاسفة أنّ: «الاصول الحكمية دالة على أنّ القسر لا يدوم على الطبيعة، وأنّ لكل موجود من الموجودات الطبيعية غاية ينتهي إليها وقتاً وهي خيره

وكماله. وأنّ الواجب جلّ ذكره أوجد الأشياء على وجه تكون مجبولة على قوة يتحفظ بها خيرها الموجود وتطلب بها كمالها المفقود. إلّا أن يُعيقه له عن ذلك عائق ويقسره قاسر. لكنّ العوائق ليست أكثرية ولا دائمة وإلّا لبطل النظام وتعطلت الأشياء وبطلت الخيرات. فعلم أنّ الأشياء كلها طالبة لذاتها للحق مشتاقة إلى لقائه بالذات. وأنّ العداوة والكراهة طارئة بالعرض. فمن أحبّ لقاء الله بالذات أحبّ الله لقاءه بالذات ومن كره لقاء الله بالعرض لأجل مرض طرأ على نفسه كره الله لقاءه بالعرض. فيعذبه مدّة حتى يبرء من مرضه ويعود إلى فطرته الأولى»[١].

والإجابة عن هذه المقولة ليست صعبة لأنّ الأخطاء والانحرافات قد تتجذر أحياناً في وجود الإنسان إلى درجة تغدو معها ذات طبيعة ثانوية مثلما يحصل في هذا العالم حين يبلغ المجرم مرحلة من الانحراف حتى يصبح مُلتذاً بجرائمه. وتستهويه الأُمور التي ينفر منها الإنسان السوي طبيعياً وفطرياً. كما يلاحظ عند الأشخاص الذين اعتادوا ارتكاب الأعمال القبيحة التي تشمئز منها النفوس.

وحينما يبلغ الإنسان مثل هذه المرحلة من الطبيعة الثانوية لا يبقى له أي طريق للعودة وهذا هو نفس الشيء الذي عبّرت عنه الآية السابقة بتعبير ﴿أحاطت به خطيئته﴾ الذي يسبب انقلاب الطبيعة الإنسانية.

٣ـ ألا يعتاد أهل النّار على العذاب

قيل أحياناً: إنّ أصحاب الجحيم يُعذّبون بعد دخولهم في نار جهنّم بمقدار المدّة التي قضوها وهم مشركون في هذه الدنيا. ولكن بعد انتهاء هذه المدّة يتحول عذاب جهنّم إلى نعيم بالنسبة لهم لأنّه يصبح أمراً متناسباً مع طبيعتهم حتى أنّهم لو دخلوا الجنّة شعروا بعدم الارتياح. والسبب في ذلك هو عدم تناسبها مع طبيعتهم. إنّهم يتلذذون بما هم فيه من نار وزمهرير وما فيها من لدغ الحيات والعقارب كما يلتذ أهل الجنّة بظلال أشجار الجنّة والحور والقصور وطوبى والكوثر. وفي هذا العالم نرى البلبل يطربه أريج الزهور في حين

---

١. الأسفار، ج ٩، ص ٣٤٦ (مع التلخيص). لقد نقل صدر المتألهين هذا الموضوع باعتباره وجهة نظر

أنّ بعض الحشرات القذرة تلتذ وتنتشي بروائح القمامة الكريهة[١].

هذا الوهم يشكل نقطة مقابلة للوهم السابق أيضاً ويتناقض معه، وهو في نفس الوقت لا يتّسق مع أيٍّ من الآيات التي تؤكّد خلود العذاب، لاسيّما وأنّ بعضها قد صرّحت بأنّه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. (النّساء / ٥٦)

والتهديد بالخلود في النّار هو تهديد بالعذاب الدائم، ولو أنّه تحوّل إلى نعمة خالدة لما كان يتصف بالتهديد.

إنّ مثل هذه التفسيرات بشأن الخلود تدل على أنّ أصحابها لم يجهدوا أنفسهم بالقيام بدراسة دقيقة أو حتّى دراسة إجمالية لتلك الآيات القرآنية، ولو أنّنا أعدنا قراءة تلك الآيات لتبيّن مقدار التناقض بينها وبين هذا الكلام بوضوح تام.

إضافة إلى ذلك، يجب الالتفات إلى أنّ اعتياد الإنسان على الآلام له حدود، فبعض الآلام طفيفة يعتاد عليها الإنسان بمرور الزمن، لكن لو نقص الماء في جسم الإنسان مثلاً فإنّه يعاني العطش، ويتعذر عليه عندئذٍ الاعتياد على ذلك، كأن يكون بدنه يحتاج إلى الماء وهو لا يشعر بالعطش!

٤ ـ هل أنّ الخلود نوعي أم شخصي؟

يلاحظ أنّ البعض اعتبر الخلود «خلوداً نوعياً» لا «شخصياً»، ومعنى ذلك أنّ نوع «الإنسان الكافر» يبقى في النّار إلى الأبد، لكن الأشخاص يتبدلون، أي أنّ كل واحد منهم يقضي مدّة معيّنة في عذاب جهنّم، وبما أنّه يعطي مكانه إلى آخر، فإنّ بقاء الإنسان في جهنّم سيبقى أبدياً.

ومفهوم هذا الكلام أنّ خلقاً آخر يأتي إلى الدنيا في المستقبل، وينحرف منهم جماعة أيضاً، فيكونون وقوداً لنار جهنّم، ويتصادف دخولهم فيها مع نجاة وخروج الخلق السابق منها[٢].

---

١. هذا الكلام نقلناه بشيء من التلخيص عن كتاب الأسفار نقلاً عن محيي الدين بن العربي في الفتوحات المكية (الأسفار، ج ٩، ص ٣٤٩).

٢. هذا التفسير موجود في حاشية ج ٩، من الأسفار، ص ٣٤٨.

وهذا التفسير لاينسجم مع آيات خلود العذاب المتعلقة بالكفّار، ويكفي قليل من التدقيق في الآيات السابقة لفهم ذلك التناقض وعدم الانسجام، لأنّ تلك الآيات تصرح بالخلود الشخصي، وهذه التأويلات لا تتعدى السبب الذي ذكرناه سابقاً وهو أنّ العجز عن حل المشاكل في بحث الخلود قد دفعهم إلى التشبث بمثل هذه التأويلات غير الواقعية.

٥ ـ هل ينسجم الخلود مع العدل الإلهي؟

إنّ أهم اعتراض يُطرح في مسألة الخلود ـ وهو في الحقيقة الاعتراض الأساس فيها ـ هو عدم التناسب بين الذنب وبين العقوبة، فيقال: كيف نرضى بأنّ يتعذب الإنسان الذي أساء في كل حياته وهي مائة عام على أكثر تقدير وكان خلالها يتخبط في الكفر والمعاصي ويعاقب مدّة ألف مليون عام؟

هذه القضية لا تثير أي اعتراض قطعاً في ما يخص النعم الإلهية الخالدة في الجنّة إذ لا عجب من فضل الله ورحمته وجزائه الأوفى، فرحمته قد وسعت كل عالم الوجود، أمّا في مجال العقاب فينبغي أن يكون هناك تناسباً بين الجريمة والعقاب، وإن اختل ذلك التناسب والتوازن فذلك ما لا يتسق والعدل الإلهي، والخلاصة أنّ مائة سنة من الكفر والذنوب تستوجب مائة عام من العقوبة لا أكثر.

إنّ استعصاء هذا الاعتراض على الحل قد دفع ببعض الجماعات إلى تأويل آيات الخلود واعتبارها تعني طول المدّة أو أنّه الخلود النوعي لا الشخصي أو أنّه الاعتياد على تلك الأوضاع وأمثال ذلك ممّا سبق القول فيه، لكن وكما قلنا سابقاً فإنّ هذه التأويلات واهية جدّاً ولايمكن التعويل عليها ولاتنسجم قطعاً مع آيات الخلود.

الجواب:

إنّ الذين يطرحون هذا الاعتراض يغفلون عن نقطة أساسية وهي الفارق الموجود بين العقوبة الوضعية والعقوبة التكوينية التي هي نتيجة طبيعية للأعمال أو الحياة في محيط تلك الأعمال.

وتوضيح ذلك: إنّ المقنن قد يسُن أحياناً قانوناً يقول فيه إنّ من يرتكب المخالفة الفلانية فعليه أن يدفع مقداراً من المال كغرامة مالية أو يُسجن مدّة من الزمن، فمن البديهي في مثل هذا الموقف أن يكون هناك تناسب بين «الجريمة» و«العقاب»، فلا يمكن أن تُقرّر مثلاً عقوبة الاعدام أو السجن المؤبد للمخالفة البسيطة، وبعكس ذلك فمن غير المعقول تحديد عقوبة القتل بسجن يوم واحد، فالحكمة والعدالة تستوجب التناسب الكامل بين تلك الحالات.

لكن العقوبات التي هي في الحقيقة الآثار الطبيعية للعمل وتعتبر من خاصّيته التكوينية أو نتيجة حضور ذات العمل أمام الإنسان، لا تقر مثل هذه الأقوال سواءً بشأن آثار العمل في هذا العالم أم في العالم الآخر.

فلو قيل مثلاً: إنّ من يخالف تعليمات المرور ويقود سيارته بسرعة عالية ويتسابق بلا مبرر ويجتاز المناطق الممنوعة قد يتعرض -وبسبب عدّة لحظات من المخالفة- إلى اصطدام عنيف يؤدّي إلى كسر يديه ورجليه ويبقى مقعداً طوال عمره، فهنا لا يستطيع أحد أن يقول إنّ هذه النتيجة المريرة غير عادلة إزاء هذه المخالفة البسيطة لأنّ من المسلّم به أنّ أمثال هذه العقوبات ليست من وضع إدارة المرور حتّى يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين المخالفة والعقوبة، بل هو الأثر الطبيعي للعمل الذي فعله الإنسان بإرادته وأوقع نفسه فيه.

وكذلك الحال، إذا قيل بضرورة اجتناب المشروبات الكحولية أو المخدرات لأنّها تتلف القلب والمعدة والمخ والأعصاب خلال فترة وجيزة، ولكن لو تعمد أحد تناولها وأُصيب بضعف الأعصاب الشديد وبأمراض القلب والشرايين والقرحة كل ذلك في مقابل الفسق والمجون لأيّام معدودة، أو يبقى إلى آخر عمره يعاني من شدّة الألم والعجز والضعف، ففي مثل هذا الحال لا يمكن لأحد أن يتحدث عن عدم التناسب بين الذنب وآثاره وجزائه.

ولو افترضنا أنّ هذا الشخص قد عمّر في هذه الدنيا بدل المائة عام ألف عام أو مليون عام، فينبغي عليه تحمل العذاب والألم طوال هذه المدّة المديدة إزاء عدّة أيّام قضاها في اللهو والمجون.

أمّا في ما يخص العقوبات الأخروية فالمسألة أعمق من هذا بكثير، فالآثار التكوينية للأعمال ونتائجها بالغة الأهمية و قد تبقى ملازمة للإنسان إلى الأبد. بل إنّ ذات العمل (كما ذكر في موضوع تجسّد الأعمال) يتجسد أمام الإنسان وبما أنّ ذلك العالم خالد، فإنّ الأعمال الصالح منها والطالح تبقى خالدة مع الإنسان وتكون وسيلة إمّا لشقائه أو لسعادته.

وقد ذكرنا سابقاً أنّ ثواب وعقاب يوم القيامة يتصف بالآثار التكوينية وخواص العمل الذي أتى به الإنسان في الدنيا، كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الجاثية / ٣٣)

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (يس / ٥٤)

وورد نفس هذا المضمون مع قليل من الاختلاف في آيات أخرى عديدة.

وبناءً على هذا لا يبقى هناك أي مجال لطرح هذا التساؤل وهو لماذا لم يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين الذنب والعقوبة؟

ينبغي أن يحلّق الإنسان في سماء السعادة بجناحي «الإيمان» و«العمل الصالح» لينال نعيم الجنّة الأبدي ولذّة القرب الإلهي، فإن كان قد كسر جناحيه في لحظة من لحظات الجنون أو خلال المائة سنة التي قضاها في هذه الدنيا، فعليه أن يعيش إلى الأبد في الذلة والشقاء، فالقضية هنا ليست قضية الزمان والمكان وحجم الجريمة، بل هي قضية العلة والمعلول، آثاره قصيرة المدى وبعيدة المدى، فقد يكفي عود واحد من الثقاب لاحراق مدينة بأكملها، وقد يؤدّي غرام واحد من بذور الشوك إلى تغطية صحراء واسعة بالاشواك بعد مدّة وجيزة ويكون سبباً دائمياً في أذى الإنسان، كما قد تكفي عدّة غرامات من بذور الورد إلى تغطية صحراء شاسعة بأجمل الورود وأشذاها رائحة تفوح منها العطور فتملأ النفوس والقلوب بهجة وارتياحاً.

فإن قال قائل ما التناسب بين عود الثقاب وإحراق مدينة بأكملها؟ وما العلاقة التناسبية بين عدّة بذور من الشوك أو من الورد وبين الصحراء الفسيحة؟

فهل هذا السؤال منطقي؟ من المؤكد، كلّا

فأعمالنا الصالحة والطالحة على هذا النمط أيضاً، فقد تخلّف وراءها آثاراً خالدة واسعة وكبيرة. (فتأمل)

والمسألة المهمّة هنا هي أنّ الله تعالى القادة الربانيين والأنبياء العظام وأوصياءهم كانوا يحذروننا باستمرار من أنّ نتيجة أمثال هذه الذنوب هي العذاب الأبدي، ونتيجة الأعمال الصالحة هي النعمة الأبدية الخالدة تماماً كالبستاني الماهر الذي يبيّن لنا مسبقاً الآثار الواسعة التي تنتج عن بذور الورد أو الشوك. ونحن الذين نختار مسارنا بوعي خلال هذا الطريق.

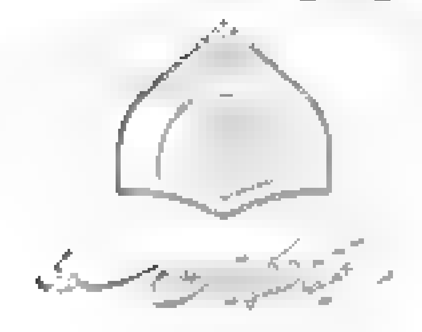
فهل نلوم أحداً في هذه الحال؟ ولمن نؤاخذ؟ وعلى من نعترض سوى على أنفسنا؟

إلى هنا ينتهي موضوع الثواب والعقاب وجوانبه المختلفة.

ﮋﮊ




القرآن والشفاعة








القرآن والشفاعة

تمهيد:

إنّ العقوبات الإلهيّة يوم القيامة ليست ذات طابع انتقامي سواءً كانت قصيرة أم طويلة الأمد أم أبدية، وسواءً كانت جسمية أم روحية وسواءً اعتبرناها كآثار طبيعية للعمل أو وضعية، وقد وضعت بهدف تربية الإنسان وكضمانة لتنفيذ القوانين الإلهيّة الرامية إلى تنمية الكمال الإنساني.

ولهذا السبب، نرى سبل النجاة مشرعة أمام الإنسان ـ في نفس الوقت الذي نرى فيه القرآن الكريم يصف العقوبات الإلهيّة بالشدّة ـ وتمنح الفرصة للمذنبين للرجوع عن الخطأ وإصلاح أنفسهم وسلوك الطريق المؤدي إلى الله تعالى.

وتعتبر الشفاعة واحدةً من هذه الوسائل لأنّها تعني في المفهوم الصحيح للكلمة انذاراً للمذنبين بعدم هدم جسور العودة بأجمعها، والحفاظ على خطوط الاتصال مع أولياء الله، وإن وقعوا في بعض الذنوب فلا ييأسوا، وعليهم الشروع بالعودة حيثما كانوا والمسارعة نحو رحمة الله الواسعة.

إنّ بحث الشفاعة بجميع تفاصيله ونقاطه التربوية المثيرة التي وردت في آيات كثيرة من القرآن الكريم، يصب في هذا السياق.

ومن الأفضل الاكتفاء بهذا التمهيد الموجز، ومن ثم نعود إلى القرآن الكريم لنتعرف من خلاله على حقيقة ومفهوم الشفاعة وعلى جميع الأُمور المتعلقة بها.

نمعن فيما يلي خاشعين في الآيات التالية التي قُسمت إلى عدّة مجاميع وبالشكل الآتي:

١ ـ ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾. (المدثر / ٤٨)

٢ـ ﴿ وَاتَّقُوا يَوماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤخَذُ مِنهَا عَدلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1] (البقرة / ٤٨)

٣ـ ﴿ مَالَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾[2] (السجدة / ٤)

٤ـ ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضِ ثُمَّ إِلَيهِ تُرجَعُونَ ﴾. (الزمر / ٤٤)

٥ـ ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذنِهِ ﴾ (البقرة / ٢٥٥)

٦ـ ﴿ يَومَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحمٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَولاً ﴾[3]. (طه / ١٠٩)

٧ـ ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعدِ إِذنِهِ ﴾. (يونس / ٣)

٨ـ ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لَا تُغنِى شَفَاعَتُهُم شَيئاً إِلَّا مِن بَعدِ أَن يَأذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرضَىٰ ﴾ (النجم / ٢٦)

٩ـ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُم يَعلَمُونَ ﴾ (الزخرف / ٨٦)

١٠ـ ﴿ وَلَا يَشفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتَضَىٰ ﴾. (الأنبياء / ٢٨)

١١ـ ﴿ لَّا يَملِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمٰنِ عَهداً ﴾. (مريم / ٨٧)

١٢ـ ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾. (المؤمن / ١٨)

جمع الآيات وتفسيرها

المجاميع الخمسة لآيات الشفاعة:

عندما نضع الآيات الإثنتي عشرة المذكورة أعلاه إلى جنب الآيات الأربع المذكورة في الهامش إلى بعضها، تُحل بكل سهولة جميع المشاكل الموجودة في موضوع الشفاعة.

---

١. جاء نفس هذا المضمون مع اختلاف ضئيل في الآية ٢٥٤ من سورة البقرة

٢. جاء نفس هذا المعنى أيضاً في الآيتين ٥١ و ٧٠ من سورة الأنعام

٣. ورد نفس هذا المعنى مع وجود بعض الاختلاف في الآية ٢٣ من سورة سبأ

ويقدّم الجواب المناسب لكل سؤال يُطرح في هذا الصدد.

لكن عدم الاهتمام بالتفسير الموضوعي لهذه الآيات، والنظر إلى بعضها وإهمال البعض الآخر في الدراسات العامّة لموضوع الشفاعة قد آثار مشاكل عديدة وانتهى أحياناً إلى الضلال وإلى إضلال الآخرين أيضاً، ويُعد هذا تقصير من قبل أولئك الذين أداروا ظهورهم للتفسير الموضوعي وحاولوا حل مثل هذه بحوث ـ التي لا تحل إلّا به ـ من خلال الاستناد إلى آية واحدة أو عدّة آيات، أو حتّى يحتمل فيهم سوء النيّة في اختيار الآيات التي تتحقّق بها مقاصدهم.

فالآيات المذكورة تُقسم في الحقيقة إلى خمسة أقسام محددة يهدف كل واحد منها إلى غرض معيّن.

القسم الأول: الآيات التي تنفي الشفاعة بشكل قاطع

ومنها كالآية الأولى والثانية.

وصفت الآية الأولى بعض أحوال المجرمين الذين لم يكونوا مؤمنين، وأوضاعهم في جهنّم وحديثهم مع أهل الجنّة ثم قالت: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾

إنّ هذه الآية وإن كانت تنفي أي نوع من أنواع الشفاعة بحق هذا الفريق (بما في ذلك شفاعة الأنبياء والأوصياء والملائكة والصديقين والشهداء والصالحين)، إلّا أنّ وجود كلمة «الشافعين» وهي ظهور الفعلية، تثبت وجود شافعين ومشفّعين في ذلك اليوم وأنّ شفاعتهم لا تنفع هؤلاء الذين كانوا يكذّبون بيوم الدّين ولم يكونوا يصلّون ولا يطعمون المسكين.

وكذلك تعبير ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾ يدل أيضاً على أنّ أحوالهم وأعمالهم ومعتقداتهم هي التي جلبت إليهم هذا الحرمان.

وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية وإن كانت من الآيات النافية للشفاعة، إلّا أنّ نصّها يثبت ضمنياً وجود الشفاعة.

ونفت الآية الثانية الشفاعة أيضاً وقالت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

رغم أنّ المخاطبين في هذه الآية هم اليهود ـ بقرينة الآية السابقة لها ـ إلّا أنّ حكمها يتّسم بالعمومية ويَسُدّ جميع المنافذ أمام المخالفين، وأشارت أثناء ذلك إلى أربعة طرق مهمّة تُعتبر وسيلة للنجاة في هذه الدنيا لكثير من المجرمين.

الأول: أن تجزي نفس عن نفس، *والثاني*: أن يشفع لها محترم، *والثالث*: لو دفعت غرامة لجزت عن العقوبة، *والرابع*: أن يهب قوم لنصرتها وانقاذها من مخالب العذاب. لكن أيّاً من هذه الطرق ليس لها وجود يوم القيامة، والحديث هنا يدور حول نفي الشفاعة هناك نفياً قاطعاً، ولكن هل يختص ذلك باليهود الذين سلكوا طريق الكفر والعناد ومحاربة الحق، وقتل الأنبياء، وبهذا فهي لا تتنافى مع آيات الشفاعة والروايات المتواترة الدالة على أنّ النبي الأكرم ﷺ وسائر المعصومين عليهم السلام يشفعون لمذنبي هذه الأُمّة؟

أم أنّ هذه الآية تشير إلى ظن اليهود الذين كانوا يتوهّمون بأنّ آباءهم يشفعون لهم يوم القيامة، فالآية تبطل هذا الوهم وتجعلهم في يأس منه؟ أم أنّ ظاهر الآية مطلق وينفي أي نوع من الشفاعة لأي أحد؟

وتشير الآيات الأُخرى التي ستأتي لاحقاً وكذلك الروايات المتواترة وإجماع الأُمّة بأنّ هذه الآية تخص الكفّار والأشخاص الذين لا تشملهم الشفاعة بسبب عِظَمِ ذنوبهم، وعلى هذا فالآية المذكورة ذات طابع عمومي، والآيات الأُخرى ذات صيغة مختصة، وترفع أي غموض في هذا المجال.

وسيأتي شرح هذا الكلام عن قريب إن شاء الله.

القسم الثاني: الآيات التي تعتبر الشفاعة خاصّة بالله

ومنها الآية الثالثة التي ورد فيها بعد الإشارة إلى خلق السموات والأرض وحاكمية الله على كل شيء قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾.

وبناءً على هذا فإنّ الشفيع هو الخالق المدبّر لعالم الوجود لأنّ الشفاعة هي أيضاً نوع من

التدبير والربوبية والتربية، ومعنى هذا وجوب عدم التعلّق بالأوثان والالتجاء إلى سوى ذاته المقدّسة، وأن وضع أحد من الأنبياء والأولياء على مقام الشفاعة فهو مستمد منه بالتأكيد: كما أنّ مقام الحاكمية وهداية وتربية الناس ممنوحٌ لهم من قبل الله تعالى.

وورد نفس هذا المعنى في الآية الرابعة من آيات البحث، ولكن بصورة أخرى، إذ تقول لعبدة الأوثان الذين اتخذوها شفعاء لهم ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾

ثم تؤكّد أنّ سبب ذلك هو أنّ: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

فمن البديهي أنّ من يمتلك حق العفو عن المذنبين وحق الشفاعة أو قبول شفاعة الشافعين هو الخالق والمالك لكل الموجودات التي بدأ وجودها منه ثم تعود إليه في نهاية المطاف.

وعلى هذا فإنّ الشفيع في الأساس هو الله تعالى، لا منافس له في ذلك بل يستمد الآخرون منه مشروعية شفاعتهم، ومن الواضح أنّ انحصار حق الشفاعة به تعالى دون سواه لا يتنافى أبداً مع مشروعيته للآخرين، كما أنّ المالكية والحاكمية له دون سواه، ويمكن للآخرين الملك والحكم بإذنه وبأمره وفي حدود خاصّة

وما يسترعي الاهتمام هنا هو أنّ الآية السابقة لها قالت حين نفت شفاعة الأوثان: ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾. (الزمر / ٤٣)

وهذا التعبير دليل واضح على أنّ الشفاعة من مختصات المالكية والحاكمية، وإنّما اختص بها الله تعالى لأنّه هو المالك والحاكم الأصل في عالم الوجود والآخرون يقتاتون على فُتات مائدة نعمته

القسم الثالث: الآيات التي تؤكّد على أنّ الشفاعة منوطة بإذن الله

وهي في الحقيقة مكملة لآيات القسم الثاني، ولذا ورد في الآية الخامسة استفهام انكاري ينص على:

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (البقرة / ٢٥٥)

وبناءً على ماذكر فإنّ الأنبياء وأولياء الله و شفعاء يستمدون مشروعية شفاعتهم يوم الجزاء من الله تعالى، ويشفعون بإذنه، ومن البديهي أنّ إذنه مبتنٍ من حكمته أي وفق أسس محسوبة، فإن كان هناك شخص لا يستحق الشفاعة فلا يؤذن بالشفاعة له (إحفظوا هذا الكلام جيداً فسيأتي شرحه في الظرف المناسب).

ومن الجدير بالملاحظة أنّ الآية المذكورة (وهي آية الكرسي) قد أكّدت هذه الجملة بعد أن أقرّت مقام القيمومة والمالكية لله تعالى على كل ما في السموات والأرض، وعلى هذا فانّ هذه الشفاعة منبثقة من مالكيته وحاكميته وقيمومته.

وبهذا فهي تبطل معتقدات عبدة الأوثان الذين يتذرّعون بعبادتها بدعوى أنّها تشفع لهم عند الله.

وورد نفس هذا المعنى بصورة أخرى في الآية السادسة، إذ قالت: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.

ولكن مَن المقصود من ﴿مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾؟ هنالك احتمالان:

الأول: هم الشفعاء بإذن الله، *والثاني*: هم الذين تشملهم الشفاعة بإذن الله.

إلّا أنّ الاحتمال الأول يبدو هو الأصح لأنّه يتسق ومضمون الآية السابقة (آية الكرسي) فهناك كان الحديث يدور حول الإذن للشفعاء، وتمثل الآية اللاحقة شاهداً آخر على صحّة هذا القول، ولهذا السبب اختار الكثير من المفسّرين هذا المعنى.

وينعكس كلا المعنيين في جملة ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾، *الأول*: إنّها تعود على الشفعاء أي تُقبل شفاعة من رضي الله قوله وشفاعته، وعلى هذا فإنّ الجملتين تؤكّد إحداهما الأخرى.

والثاني: إنّ المقصود هو المشفوع له من الذين رضي الله قولهم، وبعبارة أُخرى هو الذي كان عمله وكلامه ومعتقده صالحاً وصار موضعاً لرضى الله لكي يُشفع له، ولكن بما الجملة الأولى تقصد الشفعاء، فمن الأنسب أن تكون الجملة الثانية إشارة إلى ذلك أيضاً، لتكون عودة الضمائر على وتيرة واحدة.

وعلى جميع الأحوال تشكّل الآية دليلاً واضحاً على وجود الشفاعة بإذن الله لفريق من المؤمنين.

وقد بيّنت الآية السابقة نفس ذلك المعنى بصورة أخرى إذ قالت ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ فلماذا تعبدون الأصنام؟ ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وجاء نفس هذا المعنى في الآية الثامنة بشأن شفاعة الملائكة، إذ تؤكّد أنّ شفاعتهم تقبل بإذن الله أيضاً، إذ ورد فيها: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾

فالمكان الذي لا يستطيع فيه ملائكة السماء وبكل مالديهم من عظمة من الشفاعة إلّا بإذنه، فماذا تتوقع من الأوثان التي لا حس لها ولا تمتاز بأيّة قيمة معنوية؟ أليس من المخجل أن يقولوا نعبدها لتكون شفيعة لنا عند الله؟!

والملفت هنا هو استخدام كلمة «كم» للتعبير عن أهميّة الموضوع، وهو ما يُستخدم عادة للكثرة وهو موسوم هنا بطابع العموم، وجاء في الآية كذلك تعبير «في السموات» وهو دلالة على علو مقامهم، ووردت كذلك كلمة «شفاعتهم» بصيغة الجمع لكي يفهم شفاعتهم جميعاً لا أثر لها إلّا بإذن الله ورضاه.

ولعل التأكيد على الملائكة دون بقية الشفعاء جاء هنا لأنّ فئة من العرب كانت تعبد الأوثان أو أنّ المقصود. فإن كانت شفاعة الملائكة لا تتحقق ولا تنفع إلّا بإذن الله، فماذا يُتوقع من الأصنام الجامدة؟

والفارق بين *«الإذن»* و*«الرضا»* هو أنّ الإذن يُطلق حين يُعلن المرء عن رضاه، لكن الرضا منوط بالباطن، وانطلاقاً من أنّ الرضا قد يكون معروضاً أحياناً وعارٍ عن الرضا الباطني، فقد ورد الاثنان معاً في هذا الموضع ليتم تأكيد الغرض رغم أنّ الفرض على الله لا يمكن تصوره (جل وعلا) وأنّ رضاه متوسق مع إذنه، (فتأمل).

هل أنّ هذا الإذن مرتبط بالشفعاء أم بالمشفع لهم؟ فالآية التي نحن بصددها تحتمل المعنيين، رغم أنّ معناها العام يبدو أكثر اختصاصاً بالشفعاء أي إنّ الله يأذن ويرضى لهم بالشفاعة.

القسم الرابع: الآيات التي حددت بعض الشروط للشفيع والمشفوع له

من جملة ذلك الآية التاسعة التي تنفي بقولها ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ ثم إنّها استثنت منهم فريقاً فقالت ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

يبدو أنّ الصفة الأولى للشفعاء هي الشهادة بالحق، فلابدّ أن يكون الشفيع موحّداً، أي لا تتحقق الشفاعة إلّا في ظل التوحيد ونبذ الأصنام والاستعانة بلطف الله.

قال بعض المفسّرين: إنّ هذا الوصف للمشفوع لهم، أي إنّ الشفاعة لا تشمل إلّا من يقر بحقّانية الله ووحدانيته، فهي لا تشمل المشركين مطلقاً.

لكن ظاهر الآية دالّ على التفسير الأول، لأنّ التفسير الثاني يحتاج إلى التقدير[١]، والتقدير خلاف للظاهر.

أمّا الوصف الثاني «وهم يعلمون» فقد ورد كلا التفسيرين بشأنه أيضاً، فإن كان الوصف للشفعاء فسيكون معنى الجملة: اولئك الذين يشهدون بالحق عن علمٍ ووعي، أو إن كان المقصود هم المشفوع لهم فيكون المعنى حينئذٍ أنّهم يعرفونهم ويعلمون لمن ينبغي أن تكون الشفاعة.

فإن كان الوصف للمشفوع لهم، يجب أن يكون مفهومها هو أنّ الشفاعة تشمل من ينطقون بحق كلمة التوحيد ويقولونها عن علم ووعي انطلاقاً من الدليل والبرهان وهي غير مقصورة على اللسان.

وجاء نفس هذا المعنى بصورة اُخرى في نفس هذه الآية التي نحن بصددها، فبعد استنكار الآية ورفضها لقول عبدة الأوثان الذين يظنون أنّ الملائكة أبناء الله تقول لهم بأنّهم عباد الله وأنّهم: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ وفي الحقيقة: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾.

وعلى هذا فعبادة الملائكة لأجل نيل شفاعتهم (وهي عقيدة المشركين) لا طائل من

---

١. ينبغي أن يكون تقدير الآية على هذه الشاكلة «إلّا من شهد بالحق»

وراته. فهم يأتمرون بأمره تعالىٰ ولا يشفعون إلّا لمن يرتضي، أي للموحّد فقط.

وعلىٰ هذا تكون جملة «لمن ارتضىٰ» إشارة إلىٰ رضاه عن دينهم وتوحيدهم وإيمانهم، وإنّما كونه راضياً عن الشفاعة لهم، وكلاهما يرجعان إلىٰ معنىً واحد.

وانطلاقاً ممّا ذكر فإنّ شفاعة غير الله لا تكون إلّا بإذنه، وإذنه يختص بالمؤمن والموحّد.

ويطالعنا في الآية التاسعة تعبير جديد يجري في نفس هذا المجرىٰ، فالآية تتحدث عن سوق المجرمين نحو جهنّم ثم تقول: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾

وهذا الوصف لمن يُشفع لهم (بقرينة الآية السابقة لها والتي تتحدث عن المجرمين)

ومن المؤكّد أنّ المقصود بالعهد هنا هو الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته وتصديق الأنبياء وقبول ولاية الأوصياء، وقد أضاف البعض إلىٰ كل ذلك العمل الصالح.

ورغم كثرة الاحتمالات التي طرحها المفسّرون في تفسيرهم لكلمة «العهد»، إلّا أنّه يتضح خلال التمعن فيها أنّها تعود إلىٰ المعنىٰ الذي أشرنا إليه آنفاً.

واحتمل بعض المفسرين الكبار أن يكون هذا الوصف للشفعاء وأنّ المقصود بـ«العهد» هنا هو نفس ما ورد في الآية ٨٦ من سورة الزخرف؛ أي «الشهادة بالحق»[1]

ولكن بما أنّ الضمير في «لا يملكون» ينبغي أن يعود علىٰ صريح مذكور في الآية السابقة وأنّ كلمة «المجرمين» هي المذكورة في الآية، يبدو هذا الاحتمال مستبعداً، والظاهر أنّ الوصف يخص المشفوع لهم.

وعلىٰ هذا الأساس يجب أن تكون هناك علاقة بين الشفيع والمشفوع له قائمة علىٰ الإيمان والعمل الصالح، لأنّ الشفاعة هناك محسوبة ولا تعني مطلقاً التوسط لمن لا يستحق.

جاء في حديث عن النبي ﷺ أنّه قال: *«من أدخل علىٰ مؤمن سروراً فقد سرّني ومن سرّني فقد اتّخذ عند الله عهداً»*[2].

---

١. تفسير الميزان، ج ١٤، ذيل الآية ٨٦ من سورة مريم.

٢. تفسير در المنثور، (وفقاً لنقل تفسير الميزان في الآية مورد البحث).

من المؤكّد أنّ عبداً لو أدخل السرور على المؤمن لأجل إيمانه، فهو من ذوي الإيمان والعمل الصالح وذلك ممّا يوثّق علاقته بالله من أجل قبول شفاعته.

القسم الخامس: الآيات التي تشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة

(وهو القسم الأخير من الآيات التي ندرسها) وتشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة بسبب ما ارتكبوه من أعمال، ومفهومها أنّ الشفاعة تشمل فئات أُخرى. تقول إحداها: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

إذن فغير الظالمين بشكل عام يستحقّون الشفاعة.

ولكن ما المقصود بالظالمين؟ قال البعض من أمثال المحقق الطبرسي في مجمع البيان أنّهم المشركون والمنافقون، لأنّ أسوأ الظلم هو الشرك والنفاق.[1]

وصرح الفخر الرازي بأنّ المقصود بـ«الظالمين» هم الكفّار[2]

والآيات السابقة لهذه الآية، ومطلع نفس هذه الآية الذي يحذّرهم من عذاب يوم القيامة وكذلك الآيات الواردة بعدها والتي تذكر مصير الكفّار السالفين الذين أصبحوا عبرة من خلال تعرضهم للعذاب الإلهي، هي أيضاً شاهد ودليل على هذا المعنى.

وقال بهذا الرأي كل من صاحب تفسير روح البيان، وصاحب روح المعاني والمراغي.

وعلى كل حال فإنّ نفي الشفاعة عن الظالمين بالخصوص (وبغض النظر عن المعنى الذي تُفسر فيه كلمة الظالمين) دليل على إثباتها لأقوام آخرين، وهذا ما أكدناه مرّات عديدة فالشفاعة لا تحصل اعتباطاً بل تحتاج إلى نوع من الاستحقاق والتأهيل، أي إنّ المذنبين على صنفين، صنف يستحق الشفاعة وصنف لا يستحقّها.

---

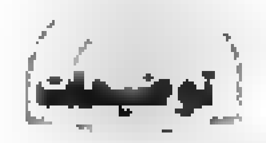
١. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ٨، ص ٥١٩.

٢. تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٥٠.

النتيجة:

نظراً لكثرة وتنوّع الآيات الآنفة الذكر، وانقسامها لخمسة المجموعات كل واحد منها لجانب من جوانب الشفاعة، وبالالتفات إلى الوجهة العامة لها وتفسيرها بالاستعانة ببعضها وهو ما أشرنا إليه سابقاً، يتّضح لدينا حقيقة ومفهوم الشفاعة وكذلك شروطها وفلسفتها وأهميّتها ودورها البنّاء، ونمثل أيضاً إجابات عن الاعتراضات المختلفة التي يطرحها عديمو الاطلاع بسبب عدم احاطتهم بمجموعة الآيات المتعلّقة بموضوع الشفاعة.

لكن أهميّة المسألة تقضي بفصل كل واحد من هذه المواضيع عن بعضها وتفسيره على حِدة من أجل أن تتمّ الاستعانة بالآيات القرآنية والتحليل المنطقي لازالة الصدأ عن هذه المرآة، وإليكم فيما يلي الايضاحات المهمّة في موضوع الشفاعة.



١ ـ مفهوم الشفاعة

لو تأملنا في المفهوم اللغوي الصحيح لكلمة الشفاعة لاستطعنا الحصول على مدلولها الإسلامي لأنّ كلمة الشفاعة مأخوذة من المصدر «شَفْع» على وزن (نَفع) ويعني «ضم الشيء إلى مثله» ومن هنا تتضح ضرورة وجود نوع من التشابه بين الاثنين رغم الفروقات الموجودة بينهما.

ولهذا السبب فالشفاعة بمفهومها القرآني تعني أنّ الشخص المذنب الذي يتصف ببعض الجوانب الإيجابية (كالإيمان أو العمل الصالح) يشبه أولياء الله، وهم بدورهم يبذلون له العون ويسوقونه نحو جادّة الكمال ويطلبون له المغفرة من الله تعالى.

ويمكن وصف حقيقة الشفاعة بصيغة أُخرى فهي عبارة عن وقوف كائن أقوى وأفضل إلى جانب آخر أضعف ليعينه على طي مراتب الكمال.

إنّ الشفاعة للأشخاص المخطئين موجودة في المجتمعات البشرية على مر العصور وقد

كان الأشخاص المتنفّذون يشفعون للمخطئين عند أصحاب السلطة قبل نزول القرآن بآلاف السنين . إلّا أنّ الشفاعة السائدة بين أوساط الناس تختلف عن الشفاعة في منطق القرآن والأديان السماوية بفارق واحد مهم وواضح وهو : أنّ الشفاعة في المجتمعات الإنسانية غالباً ما يُقصد بها قبول شخص متنفّذ للحاجة إليه في وجه من الوجوه ، ولذلك تقبل شفاعته في حق المخطيء ، لكي يستفيد من الشافع في ظرف مناسب لبلوغ بعض الغايات !

فالملوك مثلاً كانوا يقبلون شفاعة حواشيهم ورجال دولتهم في بعض المجالات لكي يعظّموهم ويمجّدوهم وليستفيدوا منهم في انجاز أعمالهم في الوقت المناسب .

وكذلك كان الشفعاء يأخذون بنظر الاعتبار علاقتهم الشخصية بالمشفوع له ، وليس أهليته ومدى استحقاقه لها .

ولكن لما كان الله غنياً بالذات وغير محتاج على الاطلاق ، فالشفاعة لديه تأخذ طابعاً آخر وهو أنّ الشفعاء لديه ينظرون إلى المخطئين ليروا مَن منهم نال رضا الله بسبب بعض النقاط الإيجابية لديه كالإيمان والعمل الصالح ، فيشفعون له عند الله لأجل هذه الجوانب الإيجابية . وهذا هو الفارق الشاسع بين الشفاعة المتداولة بين الناس وشفاعة أولياء الله لديه ، إذ أنّ الأولى قائمة على العلاقات في حين أنّ الثانية قائمة على الضوابط والاستحقاقات .

ومن هذا المنطلق يمكن الردّ على بعض المنتقدين الجهلة الذين يرون الشفاعة نوعاً من الوساطة أو أنّها بمثابة الضوء الأخضر للمذنبين ، وقارنوها بشفاعة حواشي الملوك المتجبّرين ، فالأسس التي تقوم عليها الشفاعة في مفهومها الشرعي تعتبر بنّاءة ومبنية على عوامل اللياقة والاستحقاق ، في حين تنبع الشفاعة المتعارفة بين الناس في أغلب أشكالها من الحاجة المتبادلة بين الطرفين وترتكز على العلاقات الخاصة والشخصية غير المنطقية .

فالشفاعة الإلهيّة مربّية ، والشفاعة المتعارفة تكون سبباً للاجتراء على ارتكاب الذنب أحياناً .

وتمثّل الآيات التي ذُكرت سابقاً شاهداً حيّاً على هذا المعنى ، لأنّها تحدد خصائص لمن

تنالهم الشفاعة تقوم على المواهب الإيجابية والتأهيل والاستحقاق، وكثيراً ما تكون الأسس المقبولة للاستحقاق هي العمل الصالح

ﷺ

٢ ـ أنواع الشفاعة (الشفاعة التكوينية والشفاعة التشريعية)

لو ألقينا نظرة امعان على مفهوم الشفاعة لوجدناها من زاوية المصداق الخارجي واسعة إلى حد أنّها تشمل كل عالم الوجود، لأنّ مساعدة الكائنات الأقوى للكائنات الأضعف على العيش والنجاة والحياة مشهودة في جميع مجالات الحياة.

فحين تفلق البذرة وتخرج منها نبتة ضعيفة تهيّء لها الأرض المواد الغذائية اللازمة، وترسل عليها الشمس أشعتها وحرارتها وطاقتها الحمية. وتُسقط عليها الغيوم قطرات متواصلة من المطر، لكي يشتد هذا الكائن الضعيف ويجتاز العقبات ليغدو في نهاية المطاف شجرة ضخمة محمّلة أغصانها بالثمار. هذا مشهد واضح للشفاعة التكوينية

وهنالك مشاهد أخرى للشفاعة التكوينية تتمثل في وقوف الوالدين إلى جانب المولود الضعيف، والمزارع إلى جانب غرسه، والمعلم إلى جانب الطفل الذي يتعلم حروف الهجاء، وعلى هذا يمكن اعتبار كل عالم الأسباب والعلة والمعلول مشاهد متنوعة لهذه الشفاعة

إنّ الشمس والريح والمطر والأرض لا تهرع بالتأكيد لإعانة خشبة يابسة، فهي حطب ولا مصير لها سوى الاحتراق، بل تهب لمساعدة النبتة المتفتحة تواً والبراعم الضعيفة، وباختصار فإنّ كل كائن يمتلك مقوّمات الكمال والنمو.

ولو نقلنا هذا المثال الواضح من عالم التكوين إلى عالم التشريع أي إلى شفاعة الأنبياء والأولياء للمذنبين، سيتضح لنا المفهوم الحقيقي للشفاعة القرآنية، ويكون ذلك رداً على انتقادات الجهلة، وهنا تبرز لنا الشفاعة بمفهومها التربوي على أكمل وجه

وردت في نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي ؑ ضمن كلماته القصار، جملة

تعكس هذا المعنى بأسلوب جذّاب جدّاً يقول فيها *«الشفيع جناح الطالب»*[١]

فكما أنّ الطيور صغيرة السن لا يمكنها الطيران إلّا بمساعدة الأب والأم وكأنّهما يمثلان أجنحتها التي بها تطير إلى أن تكبر، فكذلك الشفعاء يساعدون المشفوع لهم ليحلّقوا في سماء السعادة والكمال. (فتأمل).

ﮃﮂ

٣ ـ فلسفة الشفاعة

لقد اتّضحت لدينا فلسفة الشفاعة من خلال ما قيل في تفسيرها وكذلك من خلال الإشارات العديدة التي أوردناها في تفسير الآيات.

فالشفاعة لا تشجّع على الذنب، ولا تمثل الضوء الأخضر لارتكاب المعاصي، ولا هي من أسباب التخلف ولا هي شيء يشبه الواسطة في مجتمعات عالم اليوم، بل هي مسألة تربوية تحضى بأهمية بالغة، ولها آثار إيجابية في الجوانب المختلفة، ومن جملة ذلك:

أ) بعث الأمل ومواجهة روح اليأس

كثيراً ما يتغلب هوى النفس على الإنسان ويدفعه لارتكاب الذنوب الكبيرة، فتتغلب من بعد ذلك روح اليأس عليه، ممّا يدفعه لارتكاب المزيد منها حتّى يغدو غارقاً في الذنوب لأنّه يتصور أنّه قد تجاوز الحد وغرق في بحر الآثام فما هو الفرق إن انغمس في الماء لقامة واحدة أو لمائة قامة!

لكن الاعتقاد بشفاعة أولياء الله يزرع في نفسه الأمل، فلو وقف عند هذا الحد وأصلح نفسه، فقد يُعفى عمّا سلف منه وذلك عن طريق شفاعة الأبرار والصالحين، وعلى هذا فإنّ الأمل بالشفاعة يساعد على الكفّ عن ارتكاب المزيد من الذنوب والعودة إلى الصلاح والتقوى.

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٦٣.

ب) إيجاد العلاقة المعنوية مع أولياء الله

لو أمعنا النظر في ما قيل سابقاً في تفسير مفهوم الشفاعة لتوصّلنا وبكل سهولة إلى نتيجة مفادها أنّ الشفاعة مرهونة بوجود نوع من العلاقة بين الشفيع والمشفوع له، وهي رابطة معنوية متبثقة من الإيمان وبعض الخصال الفاضلة وفعل الحسنات.

ومن المؤكد أنّ الذي يرجو الشفاعة يسعى دوماً لإقامة نوع من العلاقة مع الشفعاء وفعل ما يرضيهم ولا ينسف جسور المودة من خلفه، ولا يفسخ عرى الصداقة والمحبّة عن آخرها، وسيكون مجموع هذه الإجراءات عوامل مؤثرة في تربيته، وسبباً لابتعاده عن صف المجرمين بالتدريج، أو أن يقوم على الأقل بتقدير بعض الأعمال الصالحة إلى جانب المعاصي والذنوب، لانقاذ نفسه بالتدريج من الوقوع في حبائل الشيطان.

ج) نيل شروط الشفاعة

وردت في الآيات التي قمنا بتفسيرها سابقاً شروط مختلفة للشفاعة وأهمها استحصال الإذن من الله بذلك، ومن البديهي أنّ من يرجو الشفاعة لابدّ وأن يحاول التمهيد للحصول على الإذن، أي يفعل ما يرضي الله.

فقد ورد في بعض الآيات السابقة أنّ الشفاعة يوم القيامة لا تنفع إلّا من رضي الرحمن قوله وأذِن له بالشفاعة (طه / ١٠٩).

وجاء في في قوله تعالى أنّهم: ﴿لاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾. (الأنبياء / ٢٨)

وقوله تعالى: إنّ الشفاعة لا تكون إلّا لمن ﴿اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهداً﴾. (مريم / ٨٧)

وكما قلنا سابقاً فإنّ هذه المقوّمات لا تتحقق إلّا في ظل الإيمان بالله وبمحكمته العادلة والاعتراف بحُسن العمل الصالح وقبح السّيئات والإقرار بصحة جميع القوانين والتعليمات الإلهيّة.

بالإضافة إلى ذلك فقد ورد في بعض الآيات السابقة أنّ الشفاعة لاتشمل الظالمين، وبناءً على هذا يتوجّب على من يأمل في نيل الشفاعة الخروج من صف الظالمين (بغض النظر عن المعنى الذي تفسر به كلمة الظلم).

ومن مجموع هذه العوامل يتعيّن على كل من يأمل الفوز بالشفاعة إعادة النظر في أعماله السابقة واتخاذ القرارات الافضل بشأن سيرته المستقبلية، وهذه أيضاً تعتبر بذاتها نقطة إيجابية ومن العوامل التربوية الفاعلة.

د) الاهتمام بسلسلة الشفعاء

تُعتَبر الإشارات الواردة بخصوص الشفعاء في الآيات الشريفة، وكذلك التصريحات التي نقلتها لنا الروايات، دليلاً آخر على الأبعاد التربوية للشفاعة.

جاء في حديث عن النبي ﷺ أنّه قال: ***«الشفعاء خمسة: القرآن، والرّحم، والأمانة، ونبيّكم، وأهل بيت نبيّكم»***[1].

وجاء في مسند أحمد حديث آخر عن النبي الكريم ﷺ قال فيه: ***«تعلّموا القرآن فإنّه شافع يوم القيامة»***[2].

و ورد نفس هذا المعنى في نهج البلاغة في كلام مولى المتّقين أمير المؤمنين ﷺ قال فيه: ***«فإنّه شافع مشفّع»***[3].

ويُستفاد من روايات أُخرى أنّ أفضل الشفعاء التوبة، فعن علي ﷺ قال: ***«لا شفيع أنجح من التوبة»***[4].

وصرّحت بعض الأحاديث أيضاً بشفاعة الأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، كالحديث المنقول عن النبي ﷺ أنّه قال: ***«الشفاعة للأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، وفي المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقل المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً»***[5].

---

١. ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٢٢

٢. مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٥١

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

٤. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧١

٥. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٥٨، ح ٧٥.

وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: *«إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله عزّ وجلّ قيل للعابد: انطلق إلى الجنّة، وقيل للعالم: قِف تشفّع للناس بحسن تأديبك لهم»*[1].

يظهر من هذه التعابير وخاصة الأخير منها أنّ الشفاعة نتاج العلاقة المعنوية القائمة مع الصلحاء والأبرار والمؤمنين والعلماء.

أمّا عن الشهداء فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: *«ويشفع الرجل منهم في سبعين ألفاً من أهل بيته وجيرانه»*[2].

وحتى أنّ بعض الروايات أشارت إلى أنّ *«شافع الخلق: العمل بالحق ولزوم الصدق»*[3].

وخلاصة القول التي يمكن استنتاجها من مجموع هذه الروايات وغيرها الواردة في المصادر الإسلامية أنّ الشفاعة من المسائل التربوية المهمّة في الإسلام والتي تعكس القيم الإسلامية السامية من خلال الاهتمام بنوع الشفعاء، وتحث جميع المسلمين للالتزام بهذه القيم والصفات التي تتمتع بها الشفعاء، وتشجّع على تقوية وتوثيق العلاقات معهم، وتجلو عنها كل تفسير خاطيء وكل تحريف باطل[4].

٤ ـ متى تكون الشفاعة؟

لا شك أنّ أحد الأوقات التي تتحقق فيه الشفاعة هو يوم القيامة، وذلك لأنّ الكثير من

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٥٦، ح ٦٦

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٣٨، ذيل الآية ١٧١ من سورة آل عمران.

٣. غرر الحكم.

٤. ذكر في تفسير الميزان ـ وبعد أن وضّح الشفاعة أنّها تأثير الأسباب في المسبّبات ـ أنّ الشفعاء ينقسمون إلى فريقين في عالم التشريع وعالم التكوين، فمن جملة شفعاء التشريعيين: التوبة والعمل الصالح والإيمان والقرآن والأنبياء والملائكة والمؤمنون ويستدل في هذا الصدد بالآيات الدالة على تأثير هذه الأمور في هؤلاء الأشخاص في غفران الذنوب (رغم أنّ عنوان الشفاعة غير موجود فيها) كالآية ٥٤ من سورة الزمر، والآية ٢٨ من سورة الحديد، والآية ٩ ومن سورة المائدة، والآية ١٦ من سورة المائدة، والآية ٦٤ من سورة النساء، والآية ٧ من سورة المؤمن، والآية ٢٨٦ من سورة البقرة

آيات الشفاعة تختص بذلك اليوم، ولكن هل تحصل الشفاعة أيضاً في عالم البرزخ أو في عالم الدنيا؟ وهل هناك شفاعة في الآخرة وقبل انتهاء الحساب، أم لا؟ هناك آراء في ذلك، منها:

للعلّامة الطباطبائي بحث مفصل في هذا الصدد، وفي ختامه يستنتج ما يأتي:

«إنّ الشفاعة تكون في آخر موقف من مواقف يوم القيامة حيث يطلب فيها الشفيع المغفرة ـ فيحول دون دخول المشفوع له النّار، أو إخراج بعض من كان داخلاً فيها، باتساع الرحمة أو ظهور الكرامة.

ويشير في بعض كلماته إلى عالم البرزخ وما يدل على حضور النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام عند الموت وعند مسائلة القبر وإعانتهم إيّاه على الشدائد

ويضيف: فليس من الشفاعة عند الله في شيء وإنّما هو من سبيل التصرفات والحكومة الموهوبة لهم بإذن الله سبحانه»[1]

والغريب في الأمر أنّه عندما يتحدّث عن حقيقة الشفاعة يعطيها من الشمولية بحيث يعتبر أي نوع من تأثير الأسباب في عالم التكوين والتشريع مشمولاً بالشفاعة، ولكنه لا يعتبر هنا مساعدة أولياء الله لجماعة من المؤمنين لإبعادهم من مشكلات القبر والبرزخ، مصداقاً للشفاعة

وعلى أيّة حال يستشف من مجموع الآيات والروايات أنّ الشفاعة ـ بالمعنى الواسع للكلمة ـ تتحقق في العوالم الثلاثة (الدنيا والبرزخ والآخرة) رغم أنّ المكان الرئيسي لها والأثر المهم هو في يوم القيامة لغرض النجاة من عذاب النّار.

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ (النساء / ٦٤)

وهل أنّ استغفار الرسول ﷺ للمؤمنين المذنبين يعني شيئاً سوى الشفاعة؟!

وجاء نفس هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم في قصة يعقوب وابنائه إذ

---

١. تفسير الميزان، ج ١، ص ٧٤، ذيل الآية ٤٨ من سورة البقرة

طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ربّهم (يوسف / ٩٧).

وحصل في هذه الدنيا الكثير من ذلك حيث نجا أشخاص أو أقوام من عذاب الدنيا بسبب شفاعة الأنبياء وأولياء الله

ولدينا روايات كثيرة أيضاً تفيد أنّ أعمال الإنسان الصالحة كالصلاة والصوم والولاية وأمثالها أو حضور أولياء الله تكون سبباً في تخفيف عقوبات وآلام الشخص في عالم البرزخ كما يؤدّي دفن إنسان صالح لديه حسنات كثيرة في مقبرة ما إلى تخفيف ذنوب من دفن في تلك المقبرة.

وهذه كلها إشارات إلى وجود الشفاعة في عالم البرزخ.

وحتّى أنّ صلاة الميّت وما تتضمنه من الاستغفار له لا تخلو من التأثير، وهي نوعٌ من الشفاعة أيضاً

وعلى هذا فليست الشفاعة محدودة في عالم خاص، بل تعم العوالم الثلاثة إلاّ أنّ المكان المهم والأساسي لها هو القيامة لأنّها تمثل لحظات الوقوف على مشارف العذاب الإلهي

سؤال:

قد يُقال: هناك روايات عديدة وردت عن الأئمّة المعصومين ﷺ تؤكد خوفهم على شيعتهم من عذاب البرزخ كما نقل عن الإمام الصادق ﷺ قوله: *«والله ما أخاف عليكم إلّا البرزخ، فإذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم»* [1].

ونقرأ عنه ﷺ حديثاً آخر يتضمن وعداً منه بالشفاعة للمؤمنين المخطئين يقول فيه: *«ولكنّي والله أتخوّف عليكم من البرزخ، يقول الراوي- فقلت له: ما البرزخ؟ قال- القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة»* [2].

١. بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٤، ح ٢.

٢. المصدر السابق، ص ٢٦٧، ح ١١٦

ولكن يحتمل أن تخص هذه الروايات مرحلة معينة من البرزخ، أو أنّ لها بُعداً استثنائياً ومحدوداً قد يتحقق في ظل مجاورة أحد أولياء الله وهي غير شاملة لجميع من يستحقون الشفاعة.

ﮪﮫ

٥ ـ الإشكالات الأساسية المطروحة بشأن الشفاعة

كما أسلفنا في تفسيرنا لمعنى الشفاعة في القرآن الكريم والإسلام بأنّ لها مفهوماً يختلف كُلياً عمّا هو متعارف بين أوساط الناس، وأن تشابهها هو السبب في بروز الكثير من الإشكالات والأخطاء في هذا المجال والحقيقة أنّ الإجابة عن أغلب تلك الإشكالات يمكن في التفسير الصحيح لمفهوم الشفاعة في الإسلام.

نكتفي بهذا التمهيد الموجز ونعود لطرح تلك الاعتراضات ونجيب عنها:

أ) هل تُعتبر الشفاعة تشجيعاً على ارتكاب الذنوب؟

ألّا يكون الأمل بالشفاعة والاعتماد عليها سبباً لكي يعتبره البعض بمثابة الضوء الأخضر لارتكاب المعاصي، فيوغلون في ممارسة أنواع الذنوب والجرائم متأملين انقاذ الشفعاء لهم من العذاب الإلهي في يوم الجزاء وبهذا تكون نفوسهم في راحة تامة وقد أمنت من التهديد الرباني بالعذاب؟ أو بتعبير آخر ربّما تكون عقوبات القيامة ضماناً إجرائياً لتنفيذ القوانين الإلهيّة واجتناب معصيتها، أفلا تُعتبر الشفاعة خرقاً لهذه الضمانات؟

الجواب:

كما قيل سابقاً فإنّ الشفاعة بمفهومها القرآني لا تحث ولا تشجع على ارتكاب الذنب، وليس هذا فقط بل إنّها عامل ردع قوي أيضاً يحول دون ذلك، لأنّها تجعل الأشخاص يتوقفون في أي مرحلة كانوا ولا يوغلون في طريق المعصية أكثر من ذلك، بل تكون بمثابة خط للرجعة تدريجياً.

وبتعبير آخر، يمكن القول: إنّ الشفاعة بمفهومها الإسلامي تعتبر نتاجاً لنوع من العلاقة بين الشفيع (أولياء الله والقرآن و...) والمشفوع له، وهي رهينة بإذن الله وتستلزم أرضية إلهيّة، وبناءً على هذا فإنّ أمل الشفاعة يقول للإنسان: يجب عليك إقامة علاقة إيمان وعمل مع أولياء الله، وأن تعمل ما من شأنه جلب رضا الله، ليكون لك رصيداً في ذلك اليوم العصيب وسبباً للشفاعة عندهم.

ولهذا السبب يكون أصل الشفاعة رادعاً عن ارتكاب الذنب من جهة، وعاملاً لإعادة النظر في ما ارتكب من سيّئات في الماضي.

ولا يخفى أيضاً أنّ أحداً لم يتسلّم ضماناً بالشفاعة من أي ولي من أولياء الله، ولا يمكن لأي مذنب أن يطمئن إلى قبول الشفاعة فيه، بل إنّها مطروحة كاحتمال وأمل، وهذا أيضاً مشروط بالشروط المذكورة آنفاً، وعلى هذا فهي لا تدفع مطلقاً على التجرؤ على ارتكاب الذنب.

ب) لمن الشفاعة؟

هل هي للشخص النادم على الذنب؟ فهذا في غنىً عن الشفاعة لأنّ التوبة تعني الندم وهي سبب الخلاص، وإذا وجدت التوبة فما الحاجة للشفاعة؟ وإن كانت للعاصي غير النادم على الذنب، الذي يقف أمامه بكل صلافة وجسارة، فمثل هذا الشخص لا يستحق الشفاعة وهو ليس مصداقاً لقوله ﴿لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ في الآية ٢٨ من سورة الأنبياء؟!

الجواب:

أولاً: إنّ للتوبة شروطها، وكثيراً ما يخفق الإنسان في انجاز كل تلك الشروط، لأنّ عدداً من الآيات القرآنية نصّت على أنّ التوبة اصلاح الماضي، أي لو أنّ أحداً كان يرتكب الذنوب لسنوات متمادياً ويدخل باب التوبة نادماً، يجب عليه إصلاح ما مضى سواءً كان حق الله بعمل الخير، أو كان حق الناس فيجب عليه أداؤه من آخره، وعلى هذا فالتوبة

وخلافاً للتصور السائد لا تقتصر على الندم لوحده.

وما أكثر الناس الذين يفشلون في تحقيق هذا الإصلاح، بينما هو غارق في الندم فينقطع أمله في الشفاعة ويسقط في اليأس من الغفران، وإن هو يئس توغل أكثر في ارتكاب الذنب.

ثانياً: قد يكون الشخص قد ارتكب الكثير من الذنوب إلّا أنّ الحظ لم يحالفه في التوبة والندم، فإن شعر بإمكان الأخذ بيده يوم القيامة على يد الشفعاء شريطة هجر بقية الذنوب أو القيام بأعمال الخير، فهذا سيشجعه على أقل تقدير على ترك الذنوب الأخرى وفعل عمل الخير.

ج) هل تنسجم الشفاعة مع العدل الإلهي؟

كيف يمكن لعدد من المذنبين المتشابهين مع بعضهم في الذنوب، أن تنجو طائفة من العذاب الإلهي بالشفاعة، وتقع الأخرى في مخالب ذلك العذاب؟ ألا يُعتبر هذا التمييز منافياً لعدل الله؟

السؤال. وقد يطرح هذا السؤال أحياناً بصيغة أُخرى، فيقال: إن كان العقاب الرباني للمذنبين عدلاً: إذن فطلب أولياء الله الشفاعة هو خلاف للعدل، وإن لم يكن متسقاً مع مبدأ العدل، فينبغي أن لا تجرى تلك العقوبة من الأساس.

والجواب: عن هذا الاستفهام يمكن استخلاصه من بين طيات البحوث السابقة، وكما يلي:

أولاً: إنّ الشفاعة لا تتحقق بدون الأرضية المناسبة فكل من يستحقها ينالها وكل من لا يستحقها فهو مُستبعد عنها، وعلى هذا لا يوجد فيها أي تمييز.

ثانياً: إنّ مجازاة المذنب هي عين العدل، أمّا قبول الشفاعة فهو نوع من التفضل لأجل ما يمتاز به المشفوع له من أرضية صالحة من جهة، وتكريماً واحتراماً للشفيع وما قام به من عمل صالح من جهة أُخرى.

د) ألا تتعارض الشفاعة مع إرادة الله؟

قد يُتصور أحياناً أنّ الشفيع يحول دون تحقق إرادة الحاكم العادل، ويُنقذ من العقوبة الشخص الذي ينوي ذلك الحاكم معاقبته. إلّا أنّ هذا الكلام لا يصدق بحق الله جلّت عظمته.

فهذا التصوّر الخاطئ ناتج من اعتبار الشفاعة التي يصورها القرآن مماثلة للشفاعة المتعارفة بين يدي الجبّارين والحكام الظلمة، فالأشخاص المتنفّذين عند هؤلاء الحكام يحاولون استنقاذ المذنبين الذين يرتبطون معهم بصلةٍ ما، خلافاً للاصول المرعيّة، فيضطر الحاكم أو السلطان إلى النزول عند رغبة هؤلاء المتنفذين لحاجته إليهم، وقبول شفاعتهم والتغاضي عن معاقبة المذنب وقد تكون خلافاً لرغبته أحياناً.

إلّا أنّ هذه المسائل وكما قلنا سابقاً لا تصدق على الله تعالى ولا تنطبق على الشفاعة بين يديه. فالشفاعة هناك لها طابع آخر، فأولياء الله يطلبون الشفاعة بإذن الله لمن لديهم ذنوب لكنها ليست كبيرة، ولديهم في مقابل تلك الذنوب أعمال صالحة أيضاً، وطرح هذا الموضوع يُعتبر في الحقيقة تربية للنفوس وتطهيراً لها.

هـ) عقوبات القيامة هي الأثر التكويني للأعمال، فكيف يمكن إزالتها بالشفاعة؟

وهذا أيضاً واحد من الإشكالات التي طرحت على الشفاعة، فالذي يتبادر إلى الأذهان أنّ الشفاعة يمكن تطبيقها على العقوبات التشريعية والوضعية فقط، فيكون الشفيع سبباً لإيقاف تنفيذ الحكم على المشفوع له، ولكن عندما نعتقد بأنّ عقوبات القيامة هي في الغالب من الآثار الوضعية والطبيعية للأعمال وهي بذلك تشبه فعل السم في قتل الإنسان، فهذا الأثر ليس بالشيء الذي يمكن تغييره بالشفاعة.

الجواب: لو أننا لاحظنا ماذكرناه سابقاً في كون الشفاعة على نوعين تكوينية وتشريعية، لاتّضح لنا جواب هذا السؤال جيداً، لأنّ العقوبات إن كان لها بُعد تكويني، فإنّ وقوف أولياء الله باعتبارهم كيانات أقوى وأفضل إلى جانب المشفوع له وكمال استعداده

الناقص بواسطة إمدادهم المعنوي، فيتغلبون بالنتيجة على الآثار التكوينيّة للذنب، مثلما تُنمّي الشمس النباتات ذات الاستعداد للنمو وتنقذها من الآفات. أمّا إذا كانت تلك العقوبات وضعية، فتَتطلّبُ الشفاعة من الله تعالى ليغفر لمن يستحق غفران الذنب وفي جميع الأحوال فإنّ المقام المعنوي للشفيع يكون سبباً في تأثير تلك الشفاعة بإذن الله.

ويمكن تكرار نفس هذا الكلام بخصوص تجسّد الأعمال لأنّه شبيه أيضاً بالآثار الوضعية والتكوينيّة للعمل (فتأمل).

و) أليس الاعتقاد بالشفاعة من عوامل التخلف؟

ويبدو هذا الوهم لبعض الناس أيضاً وهو ألا يكون الاعتقاد بالشفاعة سبباً يحدو ببعض الناس إلى عدم الإتكال على عملهم، فلا يظهرون مالديهم من قابليات وكفاءات كامنة؟

الجواب؟

يبدو من هذا التعبير أنّ ذهنية أصحاب الإشكالات لا تختلف عن ذهنية الناس العاديين وتصورهم عن الشفاعة ومفهومها الدنيوي، في حين طرح هذا الموضوع بالأدلة في بداية هذا البحث، من أنّ الشفاعة في مفهومها القرآني الإسلامي لا تُعتبر عامل تخلف، بل وحتّى أنّها تعتبر دعوة فاعلة لاصلاح الذات وترك الذنب والتعويض عمّا مضى والاستبشار بالمستقبل والتّحرك نحو الخير والصلاح، وبما أنّ هذا الموضوع قد تمّ تبيانه بالتفصيل، فلا نرىٰ ضرورة لتكراره هنا.

ز) ألا تتعارض الشفاعة مع التوحيد؟

إنّ التصور بوجود تعارض بين الشفاعة والتوحيد هو واحد من الإشكالات المعروفة بشأن موضوع الشفاعة، ومَردُّ ذلك هو الإعلام المكثف الذي وظّفهُ الوهابيون ضد هذه المسألة، ولهذا ينبغي الالتفات إليها جيّداً.

تدور عقائد الوهابيين بشكل أساسي حول عددٍ من المحاور، وأكثرها وضوحاً هي مسألة التوحيد في الأفعال والتوحيد في العبادة. فهم يفسّرون فرعي التوحيد هذين وكأنّهما يتعارضان مع موضوع الشفاعة و التوسل بأرواح الأنبياء والأولياء وشفاعتهم بين يدي الله، ولهذا السبب فقد اعتبروا جميع فرق المسلمين التي تعتقد بهذه الأمور (باستثناء الوهابيين) مشركة. ولا تعجبوا لو قلنا إنّهم يعتبرون أرواح غيرهم وأموالهم وأعراضهم مباحة مثلما كان يفعل عرب الجاهلية المشركون.

وانطلاقاً من هذا المعتقد فقد أراقوا دماء الكثير من المسلمين في الحجاز والعراق، ونهبوا أموالهم، وارتكبوا جرائم كثيرة لم يسبقهم إليها أحدٌ في الإسلام.

ولمؤسّس هذه الفرقة وهو محمد بن عبدالوهاب (المتوفى عام ١٢٠٦) كتابٌ يعرف باسم «رسالة القواعد الأربع» يقول فيه حول هذا الموضوع:

إنّ الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد:

الأولى: أنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يقرون بأنّ الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾. (يونس / ٣١)

الثانية: أنّهم يقولون ما دعوناً الأصنام وتوجهنا إليهم إلا لطلب القرب والشفاعة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾. (يونس / ١٨)

الثالثة: أنّه ﷺ ظهر على قوم متفرقين في عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: أنّ مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأنّ أولئك يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدّة وهؤلاء شركهم في الحالين لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا

الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[1]. (العنكبوت / ٦٥)

والغريب في الأمر هو تمسكهم بهذه الأقاويل التي لا تعدو أن تكون مجرّد سفسطة ومغالطة، فيبيحون وبهذه البساطة أرواح وأموال خصومهم، ويجيزون قتلهم، كما يقول الشيخ «سليمان» وهو من زعماء هذه الفرقة الضالة في كتابه «الهدية السنيّة» بأنّ الكتاب والسُّنّة يشهدان على أنّ كلّ من يجعل الملائكة والأنبياء أو بعض الأصحاب وأهل البيت كأبي طالب وابن عباس واسطة بينه وبين الله عزّ وجلّ ليشفعوا له عند الله تعالى لقربهم منه كما يشفع إلى السلاطين بواسطة المقربين منه فمثل هذا الشخص كافر ومشرك، ومباح دمه وماله حتى لو كان يشهد بالشهادتين ويصلي ويصوم[2].

لقد أثبتوا تمسكهم بهذا الحكم القبيح والمخزي أي اباحة دماء وأموال المسلمين من خلال الأحداث التاريخية المختلفة ومنها الحادثة المشهورة لقتل أهالي الطائف في الحجاز قتلاً جماعياً وذلك (في صفر عام ١٣٤٣)، والقتل الجماعي لأهالي كربلاء في العراق (في ١٨ ذي الحجّة عام ١٢١٦) وهذا ماورد في الكثير من كتب التاريخ.

النقاط الخاطئة في هذا الاستدلال:

١ ـ إنّ الآيات الاثنتي عشرة التي أوردناها في بداية البحث بشأن موضوع الشفاعة وفسّرنا مفهومها تثبت لنا هذه الحقيقة وهي أنّ الشفاعة مبدأ إسلامي وقرآني بديهي إلّا أنّها تضمّنت شروطاً للشفيع وللمشفوع له، وعلى هذا فلا يمكن لأحد أن يتحدث باسم الإسلام والقرآن وينكر هذا المبدأ بجميع دلائله البيّنة. وربّما العجب كيف أنّهم يعتبرون أنفسهم مسلمين وينكرون هذا المبدأ الذي يُعدُّ من ضرورات الإسلام والقرآن، فهل ينكر المسلم ضرورات الإسلام وأحكام القرآن؟

---

١ «رسالة القواعد الأربع» تأليف محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابيين من ص ٢٤ إلى ص ٢٧ وفقاً لما نقله كتاب كشف الارتياب، ص ١٦٣

٢ الهدية السنية، ص ٦٦

٢ ـ إنّ الشفاعة التي ذكرها القرآن ودبّ عنها، شفاعة يرتبط خطّها الأصيل بـ«إذن الله» وما لم يأذن بالشفاعة فلا يحق لشفيع أن يشفع، وبتعبير آخر فإنّ هذه الشفاعة صادرة من الأعلى ومشروطة بإذن الله، وهي ليست كشفاعة حاشية السلاطين الجائرين، فهي صادرة من الأسفل وقائمة على أساس العلاقات الشخصية.

إنّ شفاعةً كهذه تُعَدّ تأكيداً لمسألة التوحيد لأنّ خطّها الاصلي يصدر عن الله تعالى وهذا هو التوحيد البعيد عن أي لون من ألوان الشرك. لكن الوهابيين الذين تشابهت عليهم الشفاعة القرآنية مع الشفاعة الشيطانية لحواشي السلاطين انكروا هذا المبدأ واعتبروه مضاداً لأصل التوحيد، وفي الحقيقة أنّهم قد اعترضوا على أوهامهم في هذا الطرح، لا على مبدأ الشفاعة القرآنية.

٣ ـ الشفاعة في حقيقتها سبب للنجاة كما هو الاعتقاد بوجود الأسباب في عالم الخلقة والتكوين (كتأثير أشعة الشمس وتساقط المطر في نمو الأعشاب) لا يتنافى مطلقاً مع مبدأ التوحيد، لأنّ تأثير هذه الأسباب يتحقق بإذن الله وأمره، وفي الحقيقة أنّ عملها هو نوع من الشفاعة التكوينية، كما أنّ وجود مثل هذه الأسباب في عالم الشريعة للمغفرة والنجاة بأمر الله لا يتعارض مع التوحيد بل هو تأكيد له، وهذا هو ما نطلق عليه اسم الشفاعة التشريعية.

٤ ـ إنّ الشفاعة التي يرفضها القرآن في عبادة الأصنام هي أنّهم كانوا يجعلون كثيراً من الأشياء الخالية من أيّة ميزة أو خاصية شفيعة لهم إلى الله؟ ولذا صرّح الآية التي يستندون عليها بالخصوص: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾. (يونس / ١٨)

هذا من جهة؛ ومن المؤكد أنّ هذا لا علاقة له بشفاعة الأنبياء والأولياء، فهذا الكلام يخص الأصنام وهي الأحجار المجرّدة من أي عقل وأحاسيس.

ومن جهة أُخرى، فالقرآن يذم الشفاعة القائمة على أساس الاعتقاد باستقلال الشفيع، وتأثيره في مصير الناس بلا إذن من الله، وقد جاءت في سورة الزمر آية وهي من الآيات التي يستندون إليها: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ

إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾. (الزمر / ٣)

ووفقاً لهذه الآية فإنّهم كانوا يعتبرون من يعبدون من دون الله أولياء، وقيّمين وحماة وحافظين لهم، فكانوا يعبدونهم، وكلا هذين المعنيين (اعتبارهم أولياء وعبادتهم) شرك.

أمّا إذا لم يعبد أولياء الله وأنبياء وملائكته، بل يحترمهم ويكرّمهم ويرى فيهم أنّهم شفعاء له بين يدي الله وبإذنه، فهو غير مشمول بهذه الآية قطعاً.

وبسبب عدم احاطة الوهابيين بالآيات القرآنية الواردة بخصوص الشفاعة، ومسألة الكفر والإيمان والشروط التي حدّدها الله للشفيع والمشفوع له، فقد اشتبهت عليهم هذه المسألة مع ما كان يعتقد به عبدة الأوثان، وبهذا شاكله التبست عليهم الحقيقة.

٥ ـ أمّا قول الوهابيين إنّ عبدة الأوثان العرب كانوا يعتقدون بأنّ كلّ شيء بما فيه المالكية والرازقية لله تعالى، وكانت مشكلتهم تتمثل فقط في شفاعة ووساطة الأوثان، فهو خطأ آخر من أخطائهم الناتجة عن فقرهم العلمي والثقافي وعدم إلمامهم بالآيات القرآنية.

وذلك لأنّهم ـ أي عبدة الأصنام ـ كانوا ينسبون بعض هذه الصفات للأصنام كما نفهم هذا المعنى من الآيات الشريفة ومن جملتها: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾. (العنكبوت / ٦٥)

يتبيّن من هذا التعبير أنّهم كانوا في الأوضاع العادية يتوسلون بالأصنام لحل مشاكلهم، وفي الشدائد يتعلّقون بالله فقط.

وكذلك ما فيها أمر للنبي ﷺ: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ (فاطر / ٤٠)

لو كان المشركون يعتقدون بتفرد الله في الخالقية وينظرون إلى الأصنام نظرة الشفيع فلا معنى لهذا السؤال، لأنّهم سيقولون في الجواب: بأننا لا نعتبرهم خالقين، ونعدّهم واسطة فقط بين الخالق والمخلوق، وهل يجب في الواسطة أن يكون خالقاً أو شريكاً في الخلق؟

وهذا يكشف بوضوح أنّ عبدة الأصنام قد جعلوا من أصنامهم بشكل من الأشكال أنداداً وشركاء لله سبحانه وتعالى، وأنّ الرسول ﷺ مأمور بكشف وفضح أكاذيبهم بأنّ يسألهم ماذا خلقوا؟

وتبيّن الآية ١١١ من سورة الاسراء أنّهم كانوا يظنّون أنّ أصنامهم أنداداً لله في المالكية والحاكمية على العالم، وحتى أنّهم كانوا يعتقدون أنّ الأصنام تعين لله في بعض المشاكل ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾.

تمثل كل واحد من هذه الجمل الثلاث نفياً لمعتقدات عبدة الأوثان، الذين كانوا يظنون أنّ: (الملائكة بنات الله)، (يرجى الالتفات الى كلمة الولد تعني كلا المعنيين البنت والولد أي الذكر والانثى)[1] وأنّهم شركاء له في الخلق وأنّهم اعوانه وأولياؤه.

ومن الواضح أنّ هذه المعتقدات لو لم يكن لها وجود في تلك البيئة، لما كان لهذه التعابير القرآنية أيّ مفهوم.

وممّا يسترعي الانتباه أنّ القرآن الكريم وصف عبدة الأوثان بـ «المشركين» واعتبر عملهم «شركاً»، فلو لم يكونوا يعتقدون بنوع من الشركة بين الله والأصنام وكانوا يحسبونها شافعة فقط بين يدي الله، إذ لما كان هذا التعبير صحيحاً بشأنها، لأنّ كلمة «الشرك والمشرك» دالتان على أنّهم كانوا يعتبرون الأصنام شركاء لله في الربوبيّة، وحل المشاكل والخلقة وأمثال ذلك، «كانت الأصنام الحجرية والخشبية في عقيدتهم رمزاً ومظهراً للصالحين والملائكة».

وبعبارة أُخرى كانوا يقولون: إنّ للأصنام نوعاً من الاستقلال في تدبير شؤون العالم، وبتعبيرهم كانوا يعتبرونها أنداداً لله، لا مجرّد وسطاء بين يديه.

والتعابير الواردة في الآيات القرآنية المختلفة تكشف لنا عن هذا الموضوع بكل وضوح، جاء مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. (العنكبوت / ٢٢)

وهذه إشارة لاعتقاد المشركين بأنّ الأصنام أولياؤهم وأنصارهم (من دون الله)، كما تصرح بذلك هذه الآية: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ

---

١. «الولد» بمعنى المولود وتُطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى والمفرد والجمع (راجع مفردات الراغب).

أولياء﴾. (الجاثية / ١٠)

تكرر في القرآن الكريم تعبير «من دون الله» في وصف معتقدات المشركين وهذا دليل على أنّهم كانوا يتخذون موجودات من دون الله لتكون لهم انصار أو أولياء، وهذا شرك في الربوبية وليس بشفاعة.

وخلاصة القول أنّ القرآن الكريم قد أورد في آياته المختلفة اعتراضين رئيسيين على المشركين، وهما: أولاً: إنّهم اعتبروا هذه الكائنات الفاقدة للحس وللسمع والبصر مصدراً مؤثراً.

وثانياً: إنّهم يرون فيها أنداداً لله في التدبير والربوبية.

وقد كان لعبدة الأصنام في العصر الجاهلي أفكار وكلمات متناقضة طبعاً، فهم لا يطرحون أقوالهم بلا أي تناقض أو تهافت، شأن أي إنسان منطقي وواع، لذا فهم في نفس الوقت الذي يعتبرون الأصنام شركاء لله في حلّ المشاكل ويتصوّرونها وكأنّها أولياء وأنصار لهم من دون الله، فانّهم كانوا يطرحون أيضاً قضية الشفاعة بين يدي الله، وهذا لا يدل مطلقاً على عدم الاعتقاد بالشرك في الأفعال.

وهذا ما نلاحظه من دراسة مجموعة الآيات السالفة، واستقراء جميع أحوالهم من خلالها، ثم أنّهم لا يعتبرون الشفاعة مطلقاً منوطة ورهينة بإذن الله.

وبناءً على هذا فاننا نستنتج وبكل ثقة لو أنّ الإنسان تمسك بأولياء الله فقط (لا الأصنام الحجرية والخشبية) واعتبرهم ـ دون غيرهم ـ شفعاء له بين يدي الله (لا شركاء له في الولاية والنصرة والتدبير) وأنّ شفاعتهم لا تحصل إلّا بإذن الله (لا بصورة مستقلة عنه) فلا اعتراض عليه أبداً في مثل هذه الحالة، وإنّما يرد الاعتراض حينما يغفل المرء عن واحدٍ من هذه المبادىء الثلاثة أو بأجمعها، ويسلك الطريق الخاطىء.




الأعراف وأصحابها








الأعراف وأصحابها

تمهيد:

توجد في القرآن الكريم سورة باسم سورة «الأعراف» تختص أربع آيات منها بموضوع الأعراف، يستشف من هذه الآيات بشكل عام أنّ الأعراف مكان بين الجنّة والنّار وفيه بعض المؤمنين الذين يعرفون أهل الجنّة وأهل النّار.

ولكن ما هي مهمّة هؤلاء المؤمنين؟ وما هو الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه؟ وما هي مكانة الأعراف في القيامة؟ وهل يوجد سوى هؤلاء الرجال الإلهيين المكلّفين بمهمّة خاصة في الأعراف، بعض أشخاص آخرون من ضعفاء المؤمنين وأمثالهم، أم لا؟

هذه المسائل ينبغي إيضاحها في ظل تفسير الآيات الأربع في سورة الأعراف، وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها في المصادر الإسلامية المهمّة.

نعودُ بعد هذا التمهيد الموجز إلى القرآن الكريم لنمعن خاشعين في الآيات الكريمة التالية الواردة في هذا المجال:

١ ـ ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾. (الأعراف / ٤٦)

٢ ـ ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾. (الأعراف / ٤٧)

٣ ـ ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾. (الأعراف / ٤٨)

٤ ـ ﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾. (الأعراف / ٤٩)

جمع الآيات وتفسيرها

موضع بين الجنّة والنّار:

تتضمن الآيه الأولى إشارة إلى الآيـات التـي سـبقتها وتـتحدث عـن الجـنّة والنّـار، وأصحاب الجنّة وأصحاب النّار ثم تقول ﴿ وبينهما حجاب ﴾

وهذا الحجاب يمنع إلتقاء هذين الفريقين مع بعضهما، ولكن لا يمنع من سماع الطرفين لأصوات بعضهما، لأنّ الآيات السابقة تنقل لـ حديث أصحاب الجنّة وأصحاب النّار مع بعضهما إذ يُنادي أصحابُ الجنّة أصحاب النّار أن قد وجدنا ماوعدنا ربُّنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً، قالوا: نعم

ولا عجب في هذا فكثيراً ما يتحادث الجيران من وراء الجدار ويتساءلون عن أحـوال بعضهم بينما لا يرى بعضهم الاخر أو لايوجد بينهما طريق للالتقاء وورد شبه هذا المعنى في سورة الحديد حيث يقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، فيقولون لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وفي هذه الأثناء ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (الحديد / ١٣ ـ ١٤)

فهل أنّ هذا السور العالي هو الأعراف أم شيء آخر؟ سنجدُ جوابَ هذا السؤال لاحقاً ثم تضيف الآية ﴿ وَعَلَى الأَعرَافِ رِجَالٌ يَعرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ ﴾

ولما كانت كلمة «*الأعراف*» تعني في اللغة الموضع المرتفع، فيتبيّن أنّ هؤلاء الرجـال أصحاب منزلة وشخصية، إذ يشرفون من ذلك المقام المرتفع على كلا الفريقين ويرون كلا الفريقين ويعرفون كلاً بسيماهم.

لماذا هذه المعرفة؟

يُستفاد من مجموع القرائن الموجودة في الآيات موضوع البحث ـ والتي سيأتي شرحها مفصّلاً في البحوث القادمة ـ وكذلك من الروايات الكثيرة الواردة في المصادر الإسـلامية

بخصوص الأعراف، بأنّه يوجد فيها فريقان: فريق من رجال الله والشخصيات البارزة والمقرّبة إلى الله وفريق آخر من المستضعفين ومن الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ـ فبعضهم غلبت حَسناتُهم سيّئاتهم وبعضهم سيئاتهم فاقت حسناتهم، وفي الحقيقة هم حائرون لا إلى الجنّة ولا إلى النّار.

وهنا يعرف أولئك الرجال هذا الفريق من سيماهم، فيقولون لمن يستحق الشفاعة والمغفرة، ويستمد من معدن أولياء الله: إذهبوا إلى الجنّة، ثم يسوقون الباقين إلى جهنّم.

وهذا هو أفضل تأويل وتفسير يوضّح مجموع الآيات المتعلّقة بالأعراف، وكذلك الآيات السابقة واللاحقة لها ويحفظنا من أي نوع من الكلام الزائد، ويشكل قاسماً مشتركاً وحلقة اتصال بين الكثير من أقوال وتفاسير المفسّرين.

فقد نقل المرحوم العلامة الطباطبائي ـ على سبيل المثال ـ اثني عشر قولاً بخصوص من على الأعراف (نقل بعضهم فقط عشرة أقوال أو سبعة، مثل تفسير القرطبي والتفسير الاثنى عشري وبهذا الترتيب.

١ ـ إنّهم أشراف الخلق الممتازون بكرامة الله.

٢ ـ إنّهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم ترجح حسناتهم حتى يدخلوا الجنّة، ولا غلبت سيئاتهم حتى يؤمروا بدخول النّار، فأوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنّة والنّار.

٣ ـ إنّهم أهل الفترة.

٤ ـ إنّهم مؤمنو الجن.

٥ ـ إنّهم أولاد الكفّار الذين لم يبلغوا في الدنيا أوان البلوغ.

٦ ـ إنّهم أولاد الزنا.

٧ ـ إنّهم أهل العجب بأنفسهم.

٨ ـ إنّهم ملائكة والتعبير عنهم بالرجال لأنّهم يتشكلون بأشكال الرجال.

٩ ـ إنّهم الأنبياء عليهم السلام يقامون عليها تمييزاً لهم على سائر الناس ولأنّهم شهداء عليهم.

١٠ ـ إنّهم عدول الأمم الشهداء على الناس يقومون عليها للشهادة على أُممهم.

١١ ـ إنّهم قوم صالحون فقهاء علماء.

١٢ ـ إنّهم العباس والحمزة وعلي وجعفر يجلسون على موضع من الصراط، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسوادها...[1]

وورد في الكثير من الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام: عن هلقام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ مايعني بقوله ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾؟ قال: *«ألستم تعرفون عليكم عرفاء، وعلى قبائلكم ليعرف من فيها من صالح أو طالح؟ قلت: بلى، فقال: فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلاً بسيماهم»*[2].

ولكن كل تلك الأقوال الاثني عشر أو الثلاثة عشر مجموعة في الحقيقة في التفسير الذي ذكرناه سالفاً، ألا وهو وجود فريقين في الأعراف: فريق من الأبرار والصالحين وأولياء الله وفي طليعتهم «محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله» ومن ثم الأنبياء والملائكة، وجماعة من الصالحين والعلماء والفضلاء، وفريق من المستضعفين ومن أصحاب الأعمال الصالحة والأعمال السيئة، أو الذين ليست لديهم أعمال صالحة ولا سيئة (كالأبناء غير البالغين للكفّار والجهلة القاصرين وأهل الفترة)

إنّ الروايات التي ذكرناها آنفاً تؤيد بصراحة وجود هذين الفريقين في الأعراف.

ولهذا تواصل الآية الأولى الكلام عن الفريق الثاني فتقول: ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

وبهذا السياق يشير صدر الآية وذيلها إلى هذين الفريقين المختلفين المذكورين فيما سبق.

---

١ تفسير الميزان، ج ٨، ص ١٢٦ ذيل الآيات مورد البحث.

٢ أورد المرحوم العلّامة المجلسي هذه الرواية في بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٣٦، و٣٣٧، ونقلها أيضاً المرحوم الكليني في أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٠٨.

وتضيف الآية الثانية ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

تعود الضمائر في هذه الآية (الضميرين في كلمتي «أبصارهم» و«قالوا»)، كما هو الحال في ذيل الآية السابقة، إلى الفريق الثاني، بينما يدور الكلام في مطلع الآية الأولى عن الفريق الأول.

وهذا هو فقط الخلاف الظاهر الذي نراه نحن في تفسير هذه الآية، أي أن نفصل مَردّ هذه الضمائر، لكن القرائن المتعددة لهذا الخلاف الظاهري موجودة في الآية الأولى، وكذلك في الآيات اللاحقة، لأنّ الرجال الموجودين على الأعراف يعرفون الكل بسيماهم، ويأمرون هناك وينهون، ويلومون أهل النّار، ويرسلون إلى الجنّة من يستحقّها بفضل الله، هم ليسوا ممن تشملهم جملة ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾.

وخلاصة القول هي أنّ في هذه الآيات تعابير دالة على وجود رجال ذوي مقام رفيع على الأعراف، وبيدهم الأمر والنهي، وهم أصحاب المقام الرفيع في معرفة أصحاب الجنّة وأصحاب النّار (حتى قبل دخولهم فيهما)، وكذلك توجد تعابير في هذه الآيات تدل على وجود فريق حائر على الأعراف وعليهم آثار القلق البالغ خوفاً على مصيرهم.

فهم طامعون في الجنّة وخائفون من النّار، ويتبيّن مجموع هذه القرائن عن وجود هذين الفريقين على الأعراف، ويمكن في ظل هذا التفسير حل جميع المشاكل العالقة في تفسير هذه الآيات.

وتعود الآية الثالثة إلى الفريق الأول مرّة ثانية فتقول: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

ويعكس هذا اللّوم والتوبيخ الشديد الصادر من أصحاب الأعراف إلى أصحاب جهنّم أحد المؤشرات الجليّة على سموّ مقامهم، فهم يعاقبونهم بسياط الملامة والتعنيف مثلما يفعل الملائكة معهم.

وفي الآية الرابعة يتحدث نفس أصحاب المقامات السامية في الأعراف، وهم يشيرون

إلى جماعة من ضعفاء المؤمنين من جهة، وموجّهين الخطاب من جهة أخرى إلى المستكبرين من أصحاب النّار، وبأسلوب التوبيخ، قائلين لهم ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾.

ثم يلتفتون في نفس الوقت إلى ضعفاء المؤمنين فيقولون لهم ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

و يظهر من خلال هذا التعبير وبوضوح وجود فريقين هناك وهما فريق ذوي المقام الرفيع، وفريق الحيارى من ضعاف المؤمنين الذين تشملهم الرحمة الإلهيّة في ختام المطاف، ويُساقون بأمر ذوي المقام الرفيع الموجود في الأعراف، نحو الجنّة

ﷺ

توضيحات

١ ـ الأعراف في اللغة والتفسير

«الأعراف» جمع (عُرف) على وزن (قُفل) وهو بمعنى المكان المرتفع العالي ومأخوذه في الأصل من «عرف الفرس» و«عرف الديك» ويُقال أيضاً إنّها مشتقة من أصل المعرفة والعرفان الذي يعني المعرفة بالأشياء والاطلاع على خصائصها لأنّ الاراضي المرتفعة أكثر وضوحاً وأقرب إلى المعرفة من الأراضي المنخفضة. (ومن فوقها يمكن الاطّلاع على كل مكان والتعرّف عليه).

ويُقال أيضاً أنّ الأعراف هي مقامات الأشخاص ذوي المكانة الرفيعة والدرجة السامية [1].

أمّا بخصوص مكان الأعراف اين يقع ؟ وماهي كيفيته ؟ ففيه أقوال عديدة، أورد من بينها صاحب الميزان ستة أقوال:

١ ـ موضع يشرف على أهل الجنّة وأهل النّار.

---

١ التحقيق، و تفسير مجمع البيان، وغيرهما من القواميس والتفاسير

٢ـ سورٌ له تاج خاص كعرف الديك.

٣ـ تلٌّ بين الجنّة والنّار.

٤ ـ هو السور الذي يفصل بين المؤمنين والمنافقين، وقد أُشير إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾. (الحديد / ١٣)

٥ ـ الأعراف بمعنى الصراط و الجسر الممتد فوق جهنّم.

٦ـ الأعراف بمعنى المعرفة بأوضاع الناس.

ولكننا نعتقد لو أمعنّا النظر في الآيات الأربع المذكورة التي تتحدث عن الأعراف، لما بقي أي غموض في معنى «الأعراف»، حيث يفهم منها وبكل وضوح بأنّ الأعراف موقع يشرف على الجنّة والنّار، وفيه طائفة من أولياء الله ذوي المنزلة الرفيعة، وطائفة أخرى من ضعفي الإيمان هذا في الوقت الذي ذهب فيه المؤمنون المخلصون إلى الجنّة، والكفرة المذنبون إلى النّار، أمّا الفئة الأخرى من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، ولديهم نقاط إيجابية في جانب ونقاط سلبية في جانب آخر، فهم باقون على الأعراف ينتظرون الموقف الذي يتخذه بحقهم رجال الأعراف المؤمنون.

وأمّا بخصوص هذين الفريقين الموجودين على الأعراف ومن هُما؟ فقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل ضمن تفسير الآيات.

ومن هنا يتّضح أنّ مهمّة رجال الأعراف المؤمنين تمثل في الحقيقة نوعاً من الشفاعة، لمَن: ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ (التوبة / ١٠٢)

وهؤلاء في حالة اضطراب وقلق دائم، فحينما ينظرون من الأعراف إلى أصحاب الجنّة يتمنّون أنْ يكونوا معهم، وحين تقع أبصارهم على أصحاب النّار يضطربون ويرجون ألّا يُحشروا معهم.

ومن هنا تتوضح فلسفة وجود الأعراف ضمنياً وهي اظهار الدرجات الرفيعة لأولياء الله، وأخذهم بيد المغلوبين على أمرهم، وكذلك تبيان مصير فئة من المذنبين الذين تشملهم

في خاتمة المطاف شفاعة هؤلاء الرجال ذوي المكانة السامية.

٢ ـ الأعراف في العقل والمنطق

من الواضح أننا لانمتلك أيّ دليل عقلي يثبت وجود الأعراف، لأنّ العقل يثبت فقط العموميات المتعلّقة بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، وذلك لأنّ عدم وجودها لا يتّسق وحكمة الله وعدالته.

أمّا موقف القيامة، ومراحل الثواب والعقاب، وكيفية دخول أصحاب الجنّة فيها، وأصحاب النّار فيها والصراط والأعراف وماشابه ذلك من التفاصيل الجزئية للقيامة، فهي من المسائل التي لا تثبت إلّا بالدليل النقلي.

ولكن بما أنّ الشفاعة تنبثق أيضاً من حكمة الله تعالى (كما ورد في موضوع الشفاعة) وأنّ الشفعاء يجب أن يكونوا من ذوي الدرجات الرفيعة والمكانة العالية حتّى يأخذوا بأيدي الضعفاء، يمكن نتيجة لذلك الحصول على إشارة ضمنية في اعماق حكم العقل بخصوص مسألة الأعراف (فتأمل).

٣ ـ الأعراف في الروايات والأحاديث

تحوي المصادر الإسلامية الشيعية منها والسُنية على روايات كثيرة بخصوص الأعراف وأصحاب الأعراف، ومتىٰ ما وضعناها إلىٰ جانب بعضها بشكل صحيح لاستنتجنا منها ما استنتجناه من تفسير الآيات المذكورة

وهي في الحقيقة أخبار كثيرة حتّىٰ أنّ البعض قال إنّها تربو علىٰ ٢٨ حديثاً[١]

تختص بعض تلك الأحاديث بموضوع الأعراف، وبعضها بالرجال الذين علىٰ الأعراف ويتحدث بعضها عن طائفة الحيارى من ضعيفي الإيمان الموحودين هناك ونحن نكتفي هنا بالإشارة إلىٰ بعض الأمثلة المهمّة منها.

---

١. تفسير الاثني عشري، ج ٤، ص ٧٥.

١ ـ نقل عن الإمام الصادق ﷺ إنّه حين سُئل عن معنىٰ الآية الشريفة: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ قال: «سور بين الجنّة والنّار»[١]

وجاء في تفسير الطبري نفس هذا المعنى عن الإمام الباقر ﷺ [٢].

٢ ـ جاء في حديث للإمام الباقر ﷺ يفسر فيه قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ قال: «نزلت في هذه الأمة، والرجال هم الائمة من آل محمد ﷺ. قلت: فالأعراف قال: صراط بين الجنّة والنّار، فمن شفع له الإمام منّا من المؤمنين المذنبين نجا، ومن لم يشفع له هوى»[٣].

فهذا الحديث أوضح معنى الأعراف وكذلك الفريقين الموجودين عليه.

٣ ـ وجاء في حديث آخر نقله المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الصادق ﷺ قال فيه: «الأعراف كثبان بين الجنّة والنّار، فيقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي، مع المؤمنين من أهل الزمان كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده»[٤].

وجاء في آخر هذا الحديث شرح بيّن أنّ المحسنين يذهبون مُسبقاً إلى الجنّة، فيقول رجال الأعراف المؤمنون للمذنبين الذين بجانبهم: انظروا إلى اخوانكم المحسنين سبقوكم ودخلوا الجنّة. وهنا ينظر إليهم المذنبون ويسلّمون عليهم وهذا هو ماذكره القرآن في قوله: ﴿ وَنَادَوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

فهؤلاء المذنبون لم يدخلوا الجنّة ويأملون دخولها ببركة شفاعة النبي ﷺ والإمام ﷺ.

لم يفسر بقية الآيات على هذا المنوال وبالشكل الذي لايبقى معه شك في معنىٰ الأعراف والفريقين الموجودين عليها. ويعرض بدقة نفس التفسير الذي بيّناه سابقاً بشأن آيات

---

١ تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٨، ح ١٠
٢ تفسير جامع البيان، ج ٨، ص ١٣٧.
٣ تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٨، ح ٨
٤. تفسير مجمع البيان، ج ٣، ٤، ص ٤٢٣

الأعراف الأربع وعلاقتها مع بعضها [١]

٤ ـ جاء في الدرّ المنثور حديث آخر عن رسول ﷺ أنّه قال «يُجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنّة إلى الجنّة ويؤمر بأهل النّار إلى النّار، ثمّ يقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال لهم: إنّ حسناتكم تجاوزت بكم النّار أن تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنّة خطاياكم، فادخلوا الجنّة بمغفرتي ورحمتي» [٢].

طبعاً سبب دخول الجنّة هنا هي شفاعة الشفعاء والرجال المؤمنين في الأعراف وبإذن من الله.

٥ ـ جاء في حديث آخر في الدرّ المنثور منقول عن أبي سعيد الخدري بأنّ رسول الله ﷺ سُئل عن أصحاب الأعراف فقال «هُم رجالٌ قُتلوا في سبيل الله، وهم عُصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النّار، ومنعتهم المعصية أنْ يدخلوا الجنّة، وهم على سورٍ بين الجنّة والنّار فإذا فرغ الله من حساب خلقه فلم يبق غيرهم تغمّدهم منه برحمة فأدخلهم الجنّة برحمته» [٣]

وكما قلنا سابقاً لا يوجد أيُّ مانع من شمولهم برحمة الله في ظلّ شفاعة الأنبياء والأولياء.

خاتمة بحث المعاد:

وبانتهاء موضوعي الشفاعة والأعراف، نصل إلى ختام بحوث المعاد، وكما نوّهنا سابقاً، كان من المؤمّل أن نضع جميع بحوث المعاد في مجلّد واحد، إلّا أنّ سعة الأبحاث القرآنية في هذا الصدد دفعنا إلى تقسيمها إلى مجلّدين، ثمّ إنّ المواضيع التي عرضناها تمثّل أُمّهات مسائل المعاد وبحوثه الأساسية، وإلّا فإنّ هذه البحوث تضم بين طيّاتها مسائل أُخرى

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٣ و ٤، ص ٤٢٣.

٢. تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٨٧

٣ المصدر السابق، ص ٨٨

متنوعة صرفنا النظر عنها حالياً تجنباً للإطالة إلى أن تحين فرصة أُخرى.

اللّهمّ لا تَدَعْنا لوحدنا في هذا السفر المليء بالخوف والمخاطر، وفي نفس الوقت مليء بالرحمة والبركة، وخذ بأيدينا ونجّنا من مواقف الخطر ومواضع العذاب، وأوصلنا إلى جوار رحمتك.

إلهي إنَّ أيدينا خالية، وأعمالنا قليلة وذنوبنا كثيرة، وكتاب أعمالنا خفيف وكواهلنا مثقلة بأعباء المسؤوليات، وفي هذه الأحوال آمالنا معقودة عليك

ربّنا إنَّ رحمتك واسعة، وألطافك غير متناهية، وكرمك غير محدود، اللّهمّ نُقسمُ عليك بأوليائك الكرام أنْ تشملنا برعايتك في ذلك اليوم، وتجعلنا ممن يَسعد بلقاك ولا تحرمنا رؤيتك.

ختام بحث المعاد في القرآن

ونهاية المجلد السادس

آمين يارب العالمين

التاريخ ١٣٧٠/٣/٢١ هجري شمسي

الموافق ٢٧ ذي القعدة ١٤١١ هجري قمري



الفهرس

منازل الآخرة / ٥

الجنّة / ١٣٣

النار / ٢٦٧

الأعراف وأصحابها / ٤٠٣


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی